

ما يقوله القرآن
في سورة الحمد (الفاتحة)

ما يقوله القرآن في سورة
الحمد (الفاتحة)
من مفردات ولطائف وتعاليم
الجزء الاول

الشيخ فاضل الصفار



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾

الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ اهْدِنَا الصِّرَاطَ

الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ

عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ

وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنام وخاتم
الرسل نبينا محمد وآله الطيبين الطاهرين.

سبباً بقية الله وناشر رايته والمقيم لعدله الحجة بن الحسن المهدي عليه السلام.

واللعنة الدائمة على أعدائهم أجمعين إلى قيام يوم الدين.

وبعد: فبين دفتي هذا الكتاب بحث يتعلق بما يقوله القرآن في سورة
الحمد (الفاتحة) من مفردات ولطائف وتعاليم.

وقد ألقينا بعضه في سلسلة محاضرات في الفترة ما بين ٢٧ جمادى الأولى
من عام ١٤٤١ هجرية إلى ٩ جمادى الثانية من عام ١٤٤٣ هجرية.

فأشكر الله تعالى على ما منّ عليّ وتفضل، ووفقت لمعايشة آيات النور في
أعظم سور القرآن، واستلهم دلائله ومعانيه ومقاصده بقدر طاقتي ووسعي
لا بقدرها، وأسأله تعالى أن يتقبلها مني بقبول حسن، ويهدي ثواب هذا الجهد
المتواضع لساحة وليه الاعظم بطاقة محبة وولاء وشكر إنه سميع مجيب. ولا
يفوتني أن أشكر جميع الإخوة الذين ساهموا في انجاز هذا العمل وأخص
منهم الأستاذ ناظم شاكر دام عزه الذي بذل جهداً في مراجعة الكتاب.

فاضل

١ رجب الأصب عام ١٤٤٦ هجرية

كربلاء المقدسة

A decorative border with floral and geometric motifs surrounds the central text. The motifs are arranged in a circular pattern, with larger floral designs at the top and bottom, and smaller geometric patterns on the sides.

سورة الحمد وأسرارها المعنوية

البحث في سورة الحمد، وقبل الدخول فيه ينبغي استعراض المبادئ
والمقدمات في مباحث:

المبحث الأول: في فضل سورة الحمد وآثارها المعنوية



سورة الحمد فاتحة القرآن الذي هو أعظم كتاب سماوي أودع فيه الباري تعالىمه وقوانينه وحدوده لصناعة البشر وتصويره إنساناً يتمتع بكمال العقل وسمو الروح ومعالي الأخلاق، به تصوير الأرض جنة بالعلم والمعرفة والحياة الحرة الكريمة، وإعداد الإنسان للحياة الدائمة الأبدية الحافلة بالسعادة والكمال والجلال.

فغاية نزول القرآن للأرض تعليم البشر وتكميلهم في أبدانهم وأرواحهم ليكونوا مؤهلين للحياة الأبدية، ويصيروا كائنات إلهية معطاءة بالخيرات لا تعرف الأذى والشر، ولا تفعل القبائح، ولو أدرك الناس هذه الحقيقة وأخذوا بها وجعلوا القرآن رائدهم ومعلمهم لعرفوا قيمة الإنسان وما أودع الباري فيه من قوى وطاقات جبارة، ولأدركوا عظمة هذا المخلوق الذي بارك الله في صنعه، وجعله خليفته في أرضه، وسخر له كل شيء، وعاشوا بأعمار مديدة وأجسام سليمة وأرواح نقية سعيدة، وبنوا حضارة تجتمع فيها الفضائل، وتزدهر القيم، ويسمو فيها الإنسان، وصارت الدنيا نسخة ثانية لحياة الآخرة، لا وجود فيها للجهل والظلم والحرمان، فحينها يفتح الإنسان قلبه وعقله ولسانه على كتاب الله تعالى، وأول ما يستقبله سورة الفاتحة، وقد نبه الباري إلى عظمتها فجعلها في مفتاح كتابه يستهل بها كلامه، وقد ضمنها كل غايات الكتاب؛ لذا وضعها في الكفة الأخرى

المعادلة للقرآن؛ إذ قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾^(١) وقد اتفقت الكلمة على أنّ السبع المثاني هي سورة الفاتحة، وبه وردت الأخبار^(٢)، وأشار إلى عظمتها بجملتها من القرائن:

الأولى: أنّ الخطاب موجه لرسوله المصطفى ﷺ، وهو أعظم من خلق وأعلم، وعليه يدور عالم التكوين والتشريع.

الثانية: أنّ الخطاب في مقام الفضل والامتنان.

والثالثة: أنّ الإتيان لرسول الله ﷺ وليس لعموم الناس، فهي خطاب خاص من الخالق عزّ وجلّ لأعلم خلقه وأعظمهم.

والرابعة: أنّه جعلها في مقابل القرآن، وقد وصفه بالعظمة.

ومعنى ذلك أنّها عظيمة أو أعظم ما في القرآن، فهي الجزء الذي يعادل الكل وأكثر، وأمّا وصفها بالسبع المثاني فسيأتي بيانه.

قال بعض المفسرين: وفي الشواهد ما يدل على جامعيتها لخصائص التدوين والتكوين، فأياتها سبع بدخول البسملة في آياتها وهو الحق، وأسمائها الخاصة سبعة، والسموات سبع، والأرضون سبع، وأيام الأسبوع سبع، والطواف بالبيت سبع أشواط، ثم وتغلق بسببها أبواب الجحيم السبع، كما ترمى الشياطين بجمرات سبع^(٣).

(١) سورة الحجر: الآية ٨٧.

(٢) انظر البحار: ج ٨٩، ص ٢٣٥، ح ٢٣؛ مجمع البحرين: ج ١، ص ٧٤، (ثنا)؛ تفسير كنز الدقائق: ج ١، ص ٢٨.

(٣) تفسير الفرقان: ج ١، ص ٦٧.

فاتحة القرآن وجامعته

وبذلك يتضح أنّ كل ما في القرآن من آيات العظمة في المعارف والأخلاق والحدود والأحكام مجتمعة في فاتحته، وهذه ميزة انفرد بها القرآن، أي أن يتضمن مفتحه على بطونه وغاياته؛ ولهذا السورة خصائص عديدة في تسمياتها تشير إلى هذه الحقيقة، ومن هنا وصفت في بعض الأخبار بأنها (كنز من كنوز العرش) وفي بعضها وصفت بأنها (أشرف ما ادخر من كنوز العرش) وفي بعضها هي (أشرف ما في كنوز العرش)^(١) والكنز كل ما له قيمة عظيمة يدخر قد يكون مالاً أو علماً أو ذكراً من الأذكار^(٢) كما يستفاد من الأدلة، ووروده بصيغة الجمع للدلالة على وجود نفائس كثيرة لها قيمة في العرش أشرفها سورة الحمد، وإذا فسر العرش بالعلم كما في بعض الأخبار وحملته أمير المؤمنين عليه السلام وسيدة النساء والحسنان عليها السلام^(٣) دل على أنّ سورة الفاتحة أعظم علومهم عليهم السلام وأشرفها، وهي من العلوم المدخرة التي لا تظهر إلا في عصر الظهور المبارك والآخرة.

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج ٢، ص ٢٧٠، ح ٥٩؛ البحار: ج ٨٩، ص ٢٢٧، ح ٥؛ تفسير نور الثقلين: ج ١، ص ٦.

(٢) مجمع البحرين: ج ٤، ص ٣٢-٣٣، (كنز).

(٣) انظر مجمع البحرين: ج ٤، ص ١٤٢، (عرش).

معنى العرش الإلهي

وإذا فسر العرش بمعناه الظاهر وهو سرير الملك ^(١) - سَمِّي بذلك لأنه محل قدرته ومظهر علوه وسلطته وصدور أوامره وأحكامه - دل على أمرين: أحدهما: أنها متضمنة لأسرار التكوين وأنظمتها وقوانينه الخفية، فالاطلاع عليها يقود الإنسان إلى التصرف الكامل في شؤون الخلق، وهذا يظهر في زمان الظهور المبارك؛ لذا تظهر الأرض بركاتها، ويرتقي العلم درجات يفوق بها البشر كل ما توصل إليه في طول تاريخه.

ثانيهما: أن معرفة مضامينها والتمسك بها يقود صاحبها إلى العلو والتفوق في كل شيء، فبها تعالج الأمراض، وتقضى الحوائج، وتنظم السياسات، وحتى إحياء الموتى كما ورد، ولذا وصفتها الأخبار بأنها (سورة الشفاء) وأنها (شفاء من كل داء) ^(٢) وبأنها (أعظم جامعة للحكمة) ولعل مما يعزز ذلك ما ورد عن الإمام العسكري عليه السلام مسلسلاً عن آبائه عن النبي صلى الله عليه وآله: ﴿إن الله خصَّ محمداً وشرفه بها، ولم يشرك معه فيها أحداً من أنبيائه ما خلا سليمان عليه السلام، فإنه أعطاه منها ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ^(٣)﴾

(١) مجمع البحرين: ج ٤، ص ١٤٢، (عرش)؛ مفردات الراغب: ص ٥٥٨، (عرش)؛ المعجم الوسيط: ج ٢، ص ٥٣٩، (عرش).

(٢) مجمع البيان: ج ١، ص ٨٧.

(٣) تفسير الإمام العسكري عليه السلام: ص ٢٩، ح ١٠؛ الأملاني (للصدوق): ج ٢، ص ٤٢١، ح ٢٥٥؛ البحار: ج ٨٩، ص ٢٧٧، ح ٤.

وقد أعطاه ببركتها ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، وسخر له الرياح والجن والشياطين والطيور، وجعل بيده خزائنه ينفق منها حيث شاء ^(١)، وتسخير الشياطين إمّا بنحو تغليلهم لكيلا يؤذوا أهل مملكته، أو توظيفهم لخدمة مملكته كما يوحي به الظهور، أو المراد به المعنى اللغوي وهو جمع شيطان مأخوذ من شطن، وهو كل قوي متمرد.

شرف النبي ﷺ

ونلاحظ أن رسول الله ﷺ شرف بهذه السورة، وهو الذي فاق شرفه العالمين، فما مدى شرف هذه السورة وعظمتها؟ وأن سليمان عليه السلام أوتي آية منها فملك ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، فما بالك برسول الله ﷺ الذي أوتي السورة كلها؟

وورد في الأخبار أن النبي المصطفى ﷺ بادر جابر بنصيحة هي إرشاد لكل البشرية، وجابر ممن يشهد له الخاص والعام بانقطاعه إلى أهل البيت عليه السلام وحفظه للأحاديث والسنن، وتميّز بمزايا معرفية كثيرة، ومن خصائصه أنه المنتهي إليه سند خبر اللوح السماوي الذي فيه نصوص من الله رب العالمين على خلافة الأئمة الطاهرين. رجل بهذا المستوى من الجلالة ^(٢) قال له رسول الله ﷺ: ﴿ألا أعلمك أفضل سورة أنزلها الله في كتابه؟ قال جابر: بلى بأبي أنت وأمي يا رسول الله علّمنيها،

(١) مجمع البيان: ج ٨، ص ٣٦٢.

(٢) انظر سفينة البحار: ج ١، ص ٥٣٦.

فعلمه الحمد أم الكتاب^(١) وقال في حديث آخر: ﴿لو أن فاتحة الكتاب وضعت في كفة الميزان ووضع القرآن في كفة لرجحت فاتحة الكتاب سبع مرات﴾^(٢) ولعل هذا أحد أسرار اسمها بالسبع المثاني، أي هي الثانية في مقابل القرآن وكفتها أرجح سبع مرات. وقال: ﴿والذي نفسي بيده ما أنزل الله في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في القرآن مثلها. هي أم الكتاب﴾^(٣) ولام الكتاب إن كانت عهدية تحمل على القرآن لكنها مخالفة للسياق، ولازمه أن يكون مفادها من توضيح الواضح، فتكون جنسية تفيد أنها أم جميع الكتب السماوية.

أم الكتب السماوية

وفي ذلك حجة على جميع أهل الأديان والشرائع، ويكفيهم للوصول إلى حقانية القرآن والإسلام أن ينظروا في فاتحة الكتاب، ويتفقهوا في مضامينها، فإنها ترشددهم إلى الحق؛ لأنها تضمنت كل مضامين الكتب السماوية الصحيحة وغاياتها، ولخصتها بأسلوب راقٍ بعيد عن الشبهات التي تداخلت في معتقدات الشرائع والأديان وصرفتها عن الصراط المستقيم.

(١) البحار: ج ٨٩، ص ٢٣٧، ح ٣٣؛ الوسائل: ج ٢٧، الباب ٣٧ من أبواب استحباب تكرار الحمد، ص ٢٣٢، ح ٧٨١٣.

(٢) مستدرک الوسائل: ج ٤، ص ٣٣٠، ح ٤٨٠٤؛ جامع أحاديث الشيعة: ج ١٥، ص ٨٩، ح ٢٢٤.

(٣) البحار: ج ٨٩، ص ٢٥٩، ح ٥٢؛ تفسير الطبري: ج ١٧، ص ١٣٩.

المبحث الثاني: مزايا سورة الحمد



تميزت سورة الحمد بمزايا ثلاث فاقت سائر السور القرآنية:

أنها قرآن ودعاء

المزية الأولى: أنها من مبدئها إلى ختتمها عبارة عن دعاء يبدأ به العبد بالحمد والشكر، ويختتم السورة بدعاء في الهداية على طريق أولياء الله والبراءة من أعدائه، وهذا أسلوب عالٍ جداً يعلم الإنسان كيف يتحدث مع ربه، وماذا يطلب منه.

وقد ورد في الأخبار إذا أردت أن تسمع كلام الله معك فاقراً القرآن، وإذا أردت أن يسمع الله كلامك فاقراً الدعاء، فالقرآن في منطوقه ومضمونه غير الدعاء، كما أن الدعاء غير القرآن، والفرق ظاهر بينهما، إلا أن سورة الحمد جمعت الاثنين معاً، فهي قرآن ودعاء معاً؛ لذا تشتمل على الكلامين معاً.

فبها يخاطب العبد ربه، ويبدؤه بالحمد والشكر ثم الثناء عليه بأعظم صفاته التي بها قام الوجود حدوثاً ودواماً وبقاءً وهي الرحمة (الرحمن الرحيم)، فلولا الرحمة الإلهية ما خلق الله العالم، ولولا الرحمة لما أبقاها، فالعالم في نفسه مفتقر إلى ربه، فبالرحمة أوجده لأنه رحيم، وبالرحمة يعطيه الفرصة للبقاء مع أن قبائح البشر وذنوبه تقتضي حرمانه من الوجود.

فالعبد يحمد ويشكر نعم الله ثم يثني على ربه بأهم صفتين هما سر الوجود حدوثاً وبقاءً، ثم يقر على نفسه بأنه عبد لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرراً، وهذا الإقرار في نفسه من أسرار العبودية.

تعليم لأهل القلوب

وفي ذلك تعليم عظيم لأهل القلوب في أن العبد إذا أراد أن يصل إلى مطلوبه لدى محادثة ربه فعليه أن يقر على نفسه بالنقص والحاجة لتكون دعوته صادقة، فالمذنب إذا أراد أن يغفر الله ذنبه لا بد أن يعترف بذنبه، ويقر على نفسه بالضعف والتقصير، ثم يطلب من الله العفو، فإن من دون الإقرار بالذنب لا يشعر المذنب بالتقصير بل يكون متكبراً معانداً، فلا يكون استغفاره صادقاً ولا توبته نصوحة، وكذلك إذا أراد الحاجة لا بد أن يقر على نفسه بالعجز ويطلب من ربه العون وإلا كان جباراً متكبراً فلا يسمع الله نداءه، فهذا الإقرار والاعتراف من شروط إجابة الدعاء، وهذا أدب رفيع في الدعاء تعلمنا به السورة المباركة، ولذا نلاحظ أن الأدعية لا سيما المناجاة تتضمن هذا المعنى كثيراً، وهذه ميزة قد لا توجد في سائر السور لكنها في الحمد متجلية.

اشترك العباد بها

الميزة الثانية: أن السورة في منطوقها وردت بصيغة الجمع لا بصيغة المفرد ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لا (ربي)، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ لا (أعبد) و ﴿إِيَّاكَ فَسْتَعِينُ﴾ لا (استعين) و ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ لا (اهدني) وصيغة

الجمع تكشف عن حقيقتين هامتين:

الأولى: أن العبودية مشتركة بين جميع الخلق، لا يتميز فيها إنسان عن إنسان، ولا يتميز فيها إنسان عن حيوان. الكل عبد الله، ولا يمتاز فيها غني وفقير وجاهل وعالم ورئيس ومرؤوس كلهم عباد الله، ومهما أراد أن يكون الإنسان مرتقياً ومكتملاً بمزاياه.

فإن سورة الحمد تعلمه أدب العبودية، وأن ما يملكه الإنسان من مزايا فهي نعم إلهية وليس من نفسه، وهي ليست أوسمة له وخصائص، بل تعين عليه وظائف ومسؤوليات؛ لأنه عبد الله ويجب أن يوظف ما عنده من نعم في طاعة الله ومرضاته.

فالعالم يجب أن يعرف أن العلم ليس وساماً بل مسؤولية، وإذا يكون صاحب مال فيجب أن يعرف أن المال ليس مفتخراً يتباهى به بين الناس، بل تعين عليه وظيفة، وكذا صاحب المنصب والوجاهة. هذه ليست مزايا؛ لأن العبودية هي الأصل المشترك بين جميع الخلق، والعبد يجب أن يوظف نعم مولاه في مرضاته وطاعته.

وهذا المفهوم يتلوه الإنسان في كل يوم في سورة الحمد، فإن السورة المباركة تقرع القلوب والأسماع في كل يوم في صلواته في ثلاثة أوقات مهمة، فلا بد وأن يلتفت الإنسان إلى السر في ورودها بصيغة الجمع لا المفرد، فإنها تخاطب ضمائر البشر، وتخاطبهم أيها البشر أينما كنتم وإلى أي مكان وصلتم ولأي قدرة بلغتكم أنتم عباد الله، فلا داعي للتباهي والتفاخر والاعتزاز والتكبر وإظهار القوة على الضعفاء.

الثانية: أن الجمع يشير إلى أن الإنسانية جامع مشترك بين جميع الناس، فلا يفكر البعض بأنه من أهل الجنة وفلان من أهل النار بل يترك الحساب إلى ربه، أما هو فيحب الجميع ويحترمهم؛ لأنهم عباد لله، وهذا الشعور قد يصعب على البعض، ولكن في سورة الحمد نتعلم هذا الأسلوب، فليس كل من يقرأ سورة الحمد معصوماً من الذنوب، وليس كل من يقرأها يفعل القبائح، ولكن كل من يقرأها هو إنسان، فلا بد وأن يحب الإنسان ويثمن الإنسانية المودعة فيه، فيحبه ويحترمه لأن الإنسانية هي الأخرى من عطاء الله، والعبد يجب أن يحب عطاء الله ويثمنه ويحترمه، وهذا الشعور إذا التفت إليه ولامس قلوبهم ترتفع الكثير من العداوات والخصومات من المجتمع الإنساني.

فإذا قرأ الناس السورة بقراءة القلب والعقل لا لقلقة اللسان ارتفعت الكثير من دواعي المشاكل والأزمات والعداوات وأكل الحقوق، وهذه حقيقة في سورة الحمد نتعلمها.

أنها جمعت أصول الدين

الميزة الثالثة: أنها من مبدئها إلى مختمها لخصت أصول الدين وفروعه، وبيان هذا يتوقف على ذكر مقدمة خلاصتها: أن علماء الكلام في بحث أصول الدين قسموا الأصول إلى خمسة وأول ما يبحثونه هو إثبات الخالق تبارك وتعالى، وبعده يبحثون في توحيده، وأن الخالق واحد لا متعدد، وصنفوا توحيده على أقسام ومراتب، وله أكثر من تصنيف نذكر هنا تصنيفاً واحداً وهو توحيد الذات، ثم الصفات والأفعال والعبادة والأثر، ويجب على كل مكلف أن يعتقد بهذا بالوجوب العيني، أي أن يعتقد بوجود

الخالق، ويعتقد بوحدانيته في ذاته وصفاته وأفعاله، وفي عبادته وأثره، ولا يمكن للإنسان أن يكون مطيعاً لربه ولا يعتقد بذلك.

ثم يجب على المكلف بالوجوب العيني أن يعتقد بالمعاد، وأن الله معاداً يعود الناس إليه ويمجى كل بعمله، وبين المبدأ والمعاد فترة اختبار وارتقاء يوجد فيها أولياء الله يمثلون إرادة الله وعلمه وقدرته، هم الأنبياء والأئمة عليهم السلام، والواجب على المكلف أن يتبع أنبياء الله والأئمة الحجج على الخلق ليكون عبداً لله متحلياً بكمالات الإنسانية. هذه عصارة أصول الدين التي يجب على كل مكلف أن يعتقد ويعمل بها، وهذه الحقيقة لخصها الباري في سورة الحمد.

وهذا ما يشهد له منطوقها، فإنه تضمن:

أولاً: الابتداء باسم الباري الخاص الذي لا يشاركه فيه أحد (الله) فهو الواحد الأحد في هذا العالم، ولا يقع أمر ولا حدث إلا بإذنه، فلا تكون الاستعانة والابتداء إلا به، وهذا مفتاح الأسرار والقوة في الوجود حدوثاً وبقاءً.

ثانياً: ذكره بالصيغة التي بها أنشأ الوجود وأوجده، به يدبر أمر الخلق، وأوصل إليه احتياجاته، وأقام نظامه، ولولاه لم يكن ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

ثالثاً: تعظيمه وشكره بأعظم صفاته التي بها أدام فضله وخيره على الخلق، ولولاها لانقطع الفيض ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

ورابعاً: بيان أن فضله وعدله وخيره ليس في الدنيا فقط، بل حتى في الآخرة، وبه علم الإنسان أن وراء الدنيا عالماً آخر فيه الحساب والجزاء، لكيلا يتخذ الدنيا هدفاً، ولدى أي عمل أو فكرة أو قول عليه أن يفكر في

عواقبها وأنه صائر إلى عالم يؤاخذ على ما قدّم وآخر ﴿مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ﴾.
وخامساً: بيان أنّ الإنسان الذي يرفل بالنعمة الإلهية في أصل وجوده وفي
دوامه وبقائه وفي مصيره لا بدّ أن يعلم أمرين:
الأول: أنه لا يقدر على شيء إلا بالاستعانة برّبّه ومالكة، فإنّه لولا ربّه لا
يقدر على شيء.

الثاني: أن طريق الاستعانة برّبّه هو العبودية، والعبادة لربّه وحده، وهذا
نهج يلزم حياة الممكنات، ولا ينفكّ عنها مخلوق لا سيما الإنسان؛ لأنه
فاعل مختار ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.
وسادساً: أن العبودية والعبادة وحدها لا تكفي لإيصال الإنسان إلى
مقاصده إلا بأمرين:

أحدهما: معرفة الطريق الصحيح للعبادة، فلا يمكن للإنسان أن يعبد
ربّه بأيّ طريق يستحسنه أو يرغب فيه، بل لا بدّ وأن يعبد ربّه بالطريق
الذي يحبه ويرضيه.

ثانيهما: أن معرفة هذا الطريق في نفسه لا يهتدي إليه الإنسان وحده، بل
لا بد من استعانة وهداية من ربه؛ ولأن الطريق الذي يحبه الله هو المستقيم
الذي لا عوج فيه ولا تيه ولا ضلالة، وأن ضمان الوصول إليه يقصر عنه
الإنسان. قال: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

وسابعاً: لأن معرفة الطريق المستقيم والاهتداء اليه فيها بعدان نظري
وعملي، أي مفهومي ومصادقي. كان لا بد من وضع المصداق الكامل له،
وهو طريق الأنبياء والأولياء عليهم السلام الذين أنعم الله عليهم بالهداية، ونالوا

رضاه، عرّف الصراط بأنه ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ وبذلك يكون الباري قد أرشد الإنسان إلى أفضل مصالحه، وأوصله إلى أشرف المبادئ التي بها يصير إنساناً كاملاً متوازياً مع غاية وجوده في معارفه ومعتقداته، وفي أخلاقه وسلوكه، وفي نهجه وطريقه، فهو في العقيدة يؤمن بالله الواحد، وفي سلوكه يشكره ويعبده، وفي نهجه يقتدي بأحباء الله وأوليائه، وبهذا يكون الإنسان عبداً لله لا لشیطانه ولا لهواه، وبه يرتقي إلى الكمال والجلال في عقله وقلبه وروحه وبدنه وسلوكه.

ولما جعل الباري عزّ وجلّ الصلاة عمود الدين وأساس العبادات جعل سورة الحمد فيها أهم أركانها. واجبة كانت الصلاة أو مستحبة، ولا يقبل صلاة من دون فاتحة الكتاب، بل نفى عنها اسم الصلاة، فقد ورد: ﴿لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب﴾^(١) لكي يتواصل معها الإنسان ويتلوها في آناء الليل وأطراف النهار، ويعايش مضامينها العالية التي تبلغ به أعلى الدرجات.

أصول الدين في الفاتحة

ويمكن أن نقرر ذلك بتقريرين:

التقرير الأول: أنّ السورة أشارت إلى توحيد الذات والصفات بلفظ الجلالة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ فإنه الاسم الجامع لصفات الذات الجمالية والجلالية، وإلى توحيد فعله بـ ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وبـ ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ أشارت إلى أن أصل حدوث الخلق بالرحمة الإلهية، وديمومة الخلق بالرحمة الإلهية، وخلود

(١) عوالي اللآلئ: ج ١، ص ١٩٦، ح ٢.

البشر في الآخرة بالرحمة الإلهية، فإنَّ البشر ما خلق لأجل أن يفنى ﴿خلقتم للبقا﴾^(١) والبقاء يكون في النعيم ويكون بالرحمة؛ لذا لم يذكر غير الرحمن الرحيم من صفاته الكثيرة، وأشارت إلى توحيد العبادة بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وإلى المعاد الذي هو أهم المعارف الإلهية في ﴿مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ﴾ وبهذا يعلم البشر أنك في حياتك اليومية لا تغفل عن هذه الحقيقة فتفعل كما تشاء، اعرف أن وراءك يوماً له مالك سيؤاخذك ويحاسبك، وجعلك في الدنيا ليختبرك، ولكن في الآخرة سيحاسبك على أفعالك.

لو التفت الناس إلى هذه الحقيقة فإن الكثير من الذنوب والمعاصي ترك إذا قرؤوا السورة بقراءة القلب وأشارت إلى النبوة والإمامة بـ ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ وهذا دعاء في غاية الجلالة، وحتى لا يكون الإنسان غافلاً أو يدعي البعض أنهم لا يفهمون معناه يشرح المعنى، ولا يشرحه بالمفهوم النظري؛ لصعوبته على عموم الناس، وإنما يشرحه بالمصداق، فيعرف الصراط المستقيم بصراط الذين أنعمت عليهم.

ومن هم الذين أنعم عليهم؟ إنهم أنبيأؤه وأولياؤه، وفي ذات الوقت يبين الجهة المخالفة ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ ليفهم الناس أن البشر صنفان: صنف أنعم الله عليهم، وصنف غضب الله عليهم، الذين أنعم الله عليهم صراطهم مستقيم، والذين غضب الله عليهم ضالون، فعلى المؤمن أن

(١) الاعتقادات (للصدوق): ص ٤٧؛ البحار: ج ٦، ص ٢٤٩، ح ٨٧.

يعرف موقعه وطريقه وبأي اتجاه يسير. وهذه الحقيقة تبين عظمة سورة الحمد، وتكشف عن بعض السر الذي لأجله جعل الباري سورة الحمد واجبة في الصلاة، ويجب أن يكررها العباد في كل يوم لتكرر مفاهيمها العالية عليه، وتكون هادية لهم.

كما أشارت إلى أن العبد مكلف بالعبادة بمعناها الأعم الشامل للعبادات والمعاملات والأحكام، فإنَّ العبودية لله لا تكون إلاَّ باتباع نهجه وحدوده و ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أشارت إلى وجوب اتباع النهج القويم في الأفكار والأعمال والأخلاق الاجتماعية. فالسورة المباركة إجمال لكل تفاصيل الدين في أصوله وفروعه وآدابه، ويبيّن الباري فضلها أكثر حين قال: جعلتها نصفين نصف لي ونصف لعبدي، وفي كل آية من آياتها تضمنت دلالة على الربوبية والعبودية، ومجموعها يشمل سر الوجود وفلسفته، فقسم منها ناظر إلى جهة الغنى المطلق وهو الرب، وقسم منها ناظر إلى جهة الفقر المطلق وهو العبد.

الربوبية والعبودية في السورة

فقد روى الفريقان عن النبي الأعظم ﷺ قال: ﴿قال الله عز وجل قَسَمْتُ فاتحة الكتاب بيني وبين عبدي، فنصفها لي ونصفها لعبدي، ولعبدي ما سأل. إذا قال العبد ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ قال الله جل جلاله: بدأ عبدي باسمي، وحقَّ عليَّ أن أتمم له أموره، وأبارك له في أحواله، فإذا قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال الله جل جلاله: حمدني عبدي، وعلم أنَّ النعم التي له من عندي، وأنَّ البلايا التي دفعت عنه

بتطوّلي، أشهدكم أنّي أضيف له إلى نعم الدنيا نعم الآخرة، وأدفع عنه بلايا الآخرة كما دفعت عنه بلايا الدنيا. وإذا قال: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ قال الله جل جلاله: شهد لي عبدي أنّي الرحمن الرحيم. أشهدكم لأوفرّن من رحمتي حظّه، ولأجزلّن من عطائي نصيبه، فإذا قال: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ قال الله تعالى: أشهدكم كما اعترف بأنّي أنا المالك يوم الدين لأسهلّن يوم الحساب حسابه، ولأقبلّن حسناته، ولأتجاوزّن عن سيئاته. فإذا قال ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ قال الله عزّ وجلّ: صدق عبدي إيايّ يعبد. أشهدكم لأثبّن على عبادته ثواباً يغبطه كل من خالفه في عبادته لي. فإذا قال: ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قال الله تعالى: بي استعان عبدي، وإليّ التجأ. أشهدكم لأعينّه على أمره، ولأغيثّه في شدائده، ولأخذنّ بيده يوم نوائبه. فإذا قال: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ إلى آخر السورة قال الله عزّ وجلّ: هذا لعبدي، ولعبدي ما سأل، وقد استجبّت لعبدي وأعطيته ما أمّل، وآمنت مما منه وجل^(١).

وقريب منها ما ورد عن ابن عباس^(٢)، وقد تضمنت دلائل كثيرة:

الأولى: أنّ سورة الحمد مشتملة على محاورة روحية معنوية بين العبد وربّه، فما أن يقرأ العبد آية منها يجيبه الرب ويمنحه الأثر، وهذا وعد إلهي لا يختلف ولا يتخلّف، وإذا دخل العبد في الصلاة التي هي معراج المؤمن^(٣)

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج ١، ص ٢٣٨، ح ٥٩؛ البحار: ج ٨٩، ص ٢٢٦، ح ٣؛ الأملاني (للصديق): ص ٢٤٠، ص ٢٥٣.

(٢) تفسير ابن كثير: ج ١، ص ٣٨؛ صحيح مسلم: ج ١، ص ٢٩٦، ح ٣٨؛ سنن أبي داود: ج ١، ص ٢١٦، ح ٨٢١.

(٣) البحار: ج ٧٩، ص ٢٤٨.

وقربان كل تقي^(١) وقرأ الحمد ظهرت آثار الحوار أكثر؛ لذا ورد فيها: ﴿إذا قُبِلَتْ قُبِلَ ما سواها، وإذا رُدَّتْ رُدَّ ما سواها﴾^(٢) والصلاة لا تقبل بلا سورة الحمد، وإطلاقها الزماني يفيد أن هذا العطاء الإلهي والإجابة تتحقق في كل مرة يقرأ الحمد لاسيما في الصلاة، فإذا كانت في كل صلاة مرتين، فيكون الحوار وفي جميع أوقات الصلاة عشر مرات.

الثانية: أن لكل آية من آيات السورة أثراً وخصائص فلو قرأها العبد ملتفتاً منقطعاً متخلصاً من قراءة اللسان ولقلقه لظهرت عليه الآثار والخصائص.

الثالثة: أن جوهر المعتقد يتقوم بأمرين:

أحدهما: الإقرار القلبي بالربوبية والعبودية.

وثانيهما: الصدق في الإقرار، فلو أذعن العبد بقلبه لمضامين سورة الحمد بلغ المقاصد كلها في دنياه وأخراه، وظهرت عليه البركات الإلهية؛ لذا جعل قبول الأعمال رهيناً بالشهادة والإقرار لله بالربوبية.

الرابعة: أن الباري أشهد على نفسه بالعطايا التي قررها لقارئ الحمد، ولعل المراد إشهاد الملائكة على نفسه بذلك، وهو من الكناية عن حتمية الوقوع وعدم مخالفة هذا العهد الذي قطعه الباري على نفسه.

الخامسة: أن العبد في جميع جوانب حياته يكون رافلاً بالرحمة الإلهية، فأَيُّ قصد ومشوار وعمل ومطلب يريده يكون مرحوماً فيه، فإن كان أمره بيد

(١) كشف اللثام: ج ٢، ص ٨٩.

(٢) انظر فقه الرضاء عليه السلام: ص ١٠٠؛ البحار: ج ٨٠، ص ٢٠، ح ٣٦؛ مستدرک الوسائل: ج ٣، ص ٢٥، ح ٢٩٢٥.

٣٢..... مايقوله القرآن في سورة الحمد

البشر حنَّ عليه قلوبهم، وإن كان بالعلل والأسباب الطبيعية ذلَّ لها، وهو معنى لأوفرنَّ من رحمتي حظه، أي يكون التوفيق في كل مقاصده حليفه.

مزايا المصلين بقراءة السورة

السادسة: أنَّ المصلين يقرؤون سورة الحمد وبها يمتازون عن غيرهم بمزايا عديدة.

منها: أنَّ ثوابهم عظيم جداً يغبطهم عليه الذين كانوا يصلُّون على غير النهج الذي قرره الباري للصلاة، فأقحم في الصلاة ذوقه واستحساناته، واجتهد فيما لا مجال للاجتهاد فيه، أو ما كانوا يصلُّون، فإنَّ آثار الأعمال تظهر في عواقبها.

السابعة: أن دعاء أهل فاتحة الكتاب مستجاب، وإطلاق قوله: ﴿لعبي ما سأل﴾ يشمل كل ما سيسأله العبد من حوائج ومقاصد وقلوبهم آمنة مطمئنة، إلَّا ما كان ممنوعاً عقلاً أو شرعاً. هذا ما يقال في التقرير الأول.

الفاتحة وتوحيد الربوبية والعبودية

التقرير الثاني: أنَّ السورة المباركة حوت على ركيزة الوجود المعرفي والاعتقادي تكويناً وتشريعاً وهو التوحيد، بقولها: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ودلَّت على أنَّ كل ثناء وحمد على نعمة فهو له وحده، ولن يكون هذا إلَّا إذا كان سبحانه مصدر النعم التي تستوجب الحمد، وأهمها نعمة الإيجاد والتربية؛ لأنَّ النعم سواء كانت بالذات أو بالواسطة مرجعها إليه، وهو صريح قوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وبهذا اجتث جذور الشرك الاعتقادي.

وبقولها: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ اجتثت جذور الشرك العبادي الذي كان فاشياً في الأمم؛ إذ كانوا يتخذون أولياء من دون الله يستعينون بهم على حوائجهم، ويتقربون إليهم زلفى.

والوعد والوعيد أشار إليه قوله: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ والدين هو الجزاء، وهو إما ثواب للمؤمن المحسن وإما عقاب للمشرك والمسيء، والدين هو العبادة وتؤخذ منه لا من غيره، فالتشريع والابتداع والاستحسان في الدين محذور وليس عبادة لله سبحانه.

وبقولها: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ إشارة إلى أن طريق السعادة لا يحرزه الإنسان إلا بالسير على الصراط المستقيم، فمن خالفه وانحرف عنه وقع في شقاء دائم، وهو طريق علي وأولاده عليهم السلام؛ لذا عرفه بقوله ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ فهو يرشد إلى أن هناك أمماً مضت، وشرع الله لهدايا شرائع فاتبعتها وسارت على نهجها، فنالت السعادة الأبدية، وجماعة خالفت ونالت التعاسة الأبدية، فلا بد أن يتعظ الناس ويقتدوا بالأولى ويتجنبوا الثانية.

وقد وصفتهم بقوله: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ فإنها تدل على أن غير المنعم عليهم صنفان: صنف خرج عن الحق بعد علمه به وأعرض عنه بعد أن استبان له، ورضي بالعصية، ومشى على سيرة الآباء والأجداد، وهؤلاء هم ﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ وصنف لم يعرف الحق أبداً، أو عرفه على وجه مضطرب مشوش فهو في عمى وتيه وهم الغافلون،

٣٤..... مايقوله القرآن في سورة الحمد

وغيرهما هم المهتدون على الصراط المستقيم^(١).

والخلاصة: أنَّ الهدى والضلالة والرضا والغضب تدور على معرفة محمد وآل محمد ﷺ ومحبتهم وولايتهم والاقتداء بهم.
وهذا بعض البيان لمقاصد السورة.

(١) انظر تفسير المراغي: ج ١، ص ٢٣ - ٢٤، (بتصرف).

المبحث الثالث: في أسماء السورة وآثارها المعنوية



من مزايا سورة الحمد وفضلها على باقي سور القرآن كثرة أسمائها، بعضها منصوص وبعضها غير منصوص، وإنّما أطلقه أهل المعرفة بعلوم القرآن، وذكر بعضهم نيفاً وعشرين منها بين ألقاب وصفات^(١)، وهذا يدل على كثرة خصائصها وآثارها؛ لأنّ كل اسم من أسمائها يشير إلى خصوصية وأثر، ونقتصر هنا ببيان أهم الأسماء:

الحمد الربوبي

الاسم الأول: الحمد

منشأ الاسم ذات السورة؛ إذ ابتدأت بالحمد لله سبحانه من جهة ربوبيته للعالمين بعد البسملة، ولم تسم بسورة البسملة مع أنّها أسبق؛ لأنها آية مشتركة في أغلب السور، ولم تبدئ سورة من سور القرآن بالحمد المطلق إلا هي. والسورة تقال لكل مجموعة آيات أقلّها ثلاث بحسب الواقع؛ لأنّ أصغر سورة هي الكوثر وهي أربع آيات مع البسملة، فالسورة تميز كل مجموعة آيات عن غيرها كإحاطة سور المدينة بها، فيتميز ما هو داخل المدينة وما هو خارجها،

(١) الإتيان في علوم القرآن: ج ١، ص ١٨٧؛ روح المعاني: ج ١، ص ٣٤؛ التحرير والتنوير: ج ١، ص ١٣١.

كذلك سور القرآن ^(١). نعم ابتدأت بعض السور بالحمد مثل سورة الأنعام من جهة خلقه للسموات والأرض ^(٢)، وسورة الكهف من جهة إنزال الكتاب ^(٣)، وسورة فاطر من جهة خلق الملائكة ^(٤)، وهي خاصة للنعم، وتشتمل سورة الحمد على جميعها؛ لأنها حمد على الربوبية، وهي تتضمن ربوبية الخلق، وربوبية الهداية، وإنزال الكتاب، وجعل وسائط التكوين والتشريع من ربوبيته وتقديره وهم الملائكة، وقد تضافر تسميتها بالحمد في الروايات الشريفة عن أمير المؤمنين عليه السلام ^(٥) والباقر ^(٦) والصادق ^(٧) والرضا عليه السلام ^(٨)، وقيل: إن الحمد هو سرّ تسمية السورة بفاتحة الكتاب؛ لأن الحمد فاتحة كل كلام ^(٩).

بين الحمد والشكر

والحمد الثناء باللسان على الجميل ذاتاً أو فعلاً؛ لذا يتعلق بالفضائل كالعلم والفواضل كالبر، وهو أعم من الشكر؛ لأنه يشمل المدح على

(١) مفردات الراغب: ص ٤٣٣ - ٤٣٤، (سور).

(٢) انظر سورة الأنعام: الآية ١.

(٣) انظر سورة الكهف: الآية ١.

(٤) انظر سورة فاطر: الآية ١.

(٥) مجد البيان: ص ٣٤٧.

(٦) الكافي: ج ٢، ص ٦٢٦، ح ٢٢؛ تفسير العياشي: ج ١، ص ٢٠، ح ١٠.

(٧) الأمالي (للطوسي): ج ١، ص ٨١٦؛ الوسائل: ج ٤، الباب ٣٧ من أبواب قراءة القرآن، ص ٨٧٤، ح ٧٨١٥.

(٨) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج ٢، ص ١٠٧، ح ١.

(٩) مقتنيات الدرر: ج ١، ص ١١.

الصفات الذاتية وعلى صفاته الفعلية بخلاف الشكر، فإنه لا يكون إلا على صفات الفعل، وفي العرف إذا ذكر الشخص بفضائله كالعلم والعدل والوفاء يقال مدحه، أما إذا ذكره مقابل نعمة أسداها كالإنعام يقال شكره. هذا من جهة الذات، وأما من جهة الفعل فإن الشكر أعم؛ لأنه يكون باللسان والقلب والعلم والعمل بخلاف الحمد، فلا يكون إلا باللسان بمعناه العام الشامل للكتابة، وسيأتي له مزيد بيان ^(١).

ومنه يتضح وجه ابتداء السورة بالحمد، كما يتضح أن الحمد محبوب لله سبحانه، وواجب على العباد في جميع الأحوال؛ لأنّ جماله وجلاله في ذاته يستحق الحمد، كما يستحقه فعله وتدبيره أيضاً، ولذا تقصر الألسنة عن تمام الحمد؛ لأنّ كل حمد هو الآخر يفتقر إلى حمد، ولذا ورد عن الإمام زين العابدين عليه السلام: ﴿فكلما قلت لك الحمد وجب عليّ لذلك أن أقول لك الحمد﴾ ^(٢) وأول كلام يتدبّر به المؤمن في ذكره ودعائه في القرآن هو ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ليشير إلى عبوديته. هذا في الدنيا، وآخر دعواه في جنة الآخرة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ليشير إلى خاتمته، وفي ذلك دلالة على أمور:

تطابق التكوين والتشريع

الأول: تطابق كتاب الله التكويني والتدويني في المبدأ والغاية والختام، كما أنّ الدنيا والآخرة متطابقتان في المبادئ والغايات.

(١) انظر معجم الفروق اللغوية: ص ٢٠١، (٧٩٧).

(٢) الصحيفة السجادية: ص ٣٠٨؛ البحار: ج ٩١، ص ١٤٦.

الثاني: أن مبدأ الإنسان وختامه من الكمال إلى الكمال، ومن العبودية إلى العبودية، سوى أن العبودية الدنيوية أدنى رتبة؛ لعدم خلوها من النواقص، أما العبودية الأخروية فهي التامة الكاملة.

الثالث: أن العبد يتقلب بين نعم الله وجماله في نشأته إلى مختتمه، وهذه الحقائق المعنوية يشير إليها اسم الحمد.

معنى فاتحة الكتاب

الاسم الثاني: الفاتحة

أي (فاتحة الكتاب) وهو من أشهر أسمائها إجماعاً بين المسلمين وغيرهم، وقد نصّت عليه أخبار الفريقين، كقولهم: ﴿لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب﴾^(١) وقد مرت جملة من الروايات في ذلك.

والمراد بالكتاب القرآن إجماعاً، فاللام عهدية والإضافة تفيد الخصوصية فيها وليس للتأنيث، واسم الفاعل يفيد نسبة فتح الكتاب إليها، والتاء المربوطة للانتقال من الوصفية إلى الاسمية، كقولهم خاتمة المحدثين وخاتمة المطاف، وفاتحة الخير على ما تقتضيه القاعدة في الأدب، فإن الصفة إذا صارت علامة على ذات معينة صارت اسماً لها، وأصلها فاتح الكتاب^(٢).

ولما صار اسم علم للسورة المباركة صار فاتحة الكتاب للسبب المتقدم، وربما يقال إن الفاتحة مصدر بمعنى الفتح مثل الكاذب بمعنى الكذب، والخطأ

(١) عوالي اللآلي: ج ٢، ص ٢١٨، ح ١٣؛ الناصريات: ص ٢٢٠.

(٢) التحرير والتنوير: ج ١، ص ١٣١.

بمعنى الخطأ، والباقية بمعنى البقاء، والحاقة بمعنى الحق، ومنه قوله تعالى: ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾^(١) أي بقاء، و﴿الْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ﴾^(٢) أي الحق.

ومعناها فتح الكتاب باعتبار أنه باب الذي منه يدخل إليه^(٣)، وهو ضعيف وبعيد عن البلاغة وغايات القرآن، فالحق هو الأول؛ لأنه الأصل والأوفق بالمعاني والأغراض.

والفتح خلاف الإغلاق^(٤)، وإزالة الغلق فتح، والمفتاح أداة الفتح، ويطلق في الماديات، كقولهم فتح الباب، والمعنويات كقولهم فتح قلبه لفلان أي اطمأن إليه وباح له سره^(٥)، وبذلك يتضح أن الفتح يتميز عن الفك والفصل مع أنهما يفصلان بين شيئين أيضاً بأنه يفصل بين شيئين ليظهر ما وراءهما^(٦)، وبهذا الاعتبار يقال فتح الباب، ولا يقال فكها أو فصلها؛ لأن فتحها يكشف ما خفي وراءها.

فتح البصر والبصيرة

وبذلك يتضح أن الفتح بمعناه العام قسمان:

الأول: ما يدرك بالبصر كفتح القفل والباب، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا

(١) سورة الحاقة: الآية ٨.

(٢) سورة الحاقة: الآيتان ١ و ٢.

(٣) التحرير والتنوير: ج ١، ص ١٣١.

(٤) معجم مقاييس اللغة: ج ٤، ص ٤٦٩، (فتح).

(٥) المعجم الوسيط: ج ٢، ص ٦٧١، (فتح).

(٦) معجم الفروق اللغوية: ص ٣٩٦، (١٥٨٩).

مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتِهِمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ^(١) .

والثاني: ما يدرك بالبصيرة ويتعلق بالمعنويات، سواء كان في المدركات العقلية أو القلبية، كفتح مغالق الغيب، وفتح المستغلق من العلوم والهدايات، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾^(٢) وقوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾^(٣) وذلك بفتح مكة وبنصره على المشركين، وهو من أكبر الفتوح المعنوية في التأريخ البشري؛ لأنه أقام قوة الإسلام ونشره في الأرض، ولذا نسبه الباري لنفسه في قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾^(٤) لأنه لولاه لم يقع، والنصر الغلبة والفتح بإزالة مغالق العلوم والهدايات والخيرات والبركات على الخلق، والكتاب يطلق في القرآن على الأعم منه ومن الكتب السماوية وعموم عالم التكوين، كقوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ﴾^(٥) وقال سبحانه: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ﴾^(٦) وغير ذلك، وقد أنهاها بعضهم إلى اثني عشر معنى^(٧) ، وإذا

(١) سورة يوسف: الآية ٦٥.

(٢) سورة الأعراف: الآية ٩٦.

(٣) سورة الفتح: الآية ١.

(٤) سورة النصر: الآية ١.

(٥) سورة النمل: الآية ٤٠.

(٦) سورة البقرة: الآية ٥٣.

(٧) بصائر ذوي التمييز: ج ٤، ص ٣٣٠ - ٣٣٢.

أريد به القرآن يضاف إلى الباري عزَّ وجلَّ، أو يقترن بالقرائن الدالة^(١)
كقوله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ﴾^(٢) وقوله تعالى:
﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾^(٣) وسمي القرآن كتاباً لما جمع فيه
من القصص والأمر والنهي والأمثال والشرائع والمواعظ والعلوم النظرية
والعملية، ولأنه جمع مقاصد الكتب المنزلة على سائر الأنبياء عليهم السلام^(٤).

معنى فتح الكتاب

وفتح الكتاب العزيز إزالة مغالقه المادية والمعنوية من جهات عديدة:

الأولى: أن بها مفتاح الكتاب التدويني، فهي أول سورة منه.

الثانية: أنها تضمنت خلاصة مضامينه وغاياته.

الثالثة: أن الآثار المادية والمعنوية للكتاب العزيز تظهر بالابتداء بها؛ لأنها
مفتاح آثاره، والمواظبة عليها تظهر ما خفي من أسرار الكتاب. وبذلك
يتضح وجه تسميتها بأَم الكتاب، كما يتضح سرّ دخولها في الصلاة وجعلها
مفتاح كل صلاة واجبة ونافلة، ففاتحة الكتاب مفتحه ومفتاحه.

الرابعة: أنها مفتاح الكتاب التكويني، فإن كل شيء قدره وأوجده ودبره
سبحانه، فإن مفتاح ذلك كله حمده وشكره.

(١) انظر مفردات الراغب: ص ٧٠٠، (كتب).

(٢) سورة الأنعام: الآية ١٥٥.

(٣) سورة ص: الآية ٢٩.

(٤) بصائر ذوي التمييز: ج ٤، ص ٣٢٩.

تفاسير أخرى ضعيفة

وبذلك يتضح أنّ ما ذكره المفسرون من الخاصة والعامة في وجه تسميتها أخصّ منها: ما في تفسير مجمع البيان والقرطبي: سمّيت بذلك - أي فاتحة الكتاب - لأنّها تفتتح قراءة القرآن بها لفظاً، وتفتتح بها الكتابة في المصحف خطأً، وتفتتح بها الصلوات، وأضاف بعضهم بأنّها مبدوءة على الترتيب المعهود، وآخر بأنّها يفتتح بها في التعليم^(١)، وبعضهم ابتدأت بالحمد وهو مفتتح كل كلام^(٢)، فكل ذلك يشير إلى بعض الحقيقة لا تمامها، وأمّا قول بعضهم بأنّها سميت بذلك لأنّها أوّل سورة نزلت من السماء^(٣) فمحل نقاش، نقاش، إذ لم يثبت أنها أوّل سورة نزلت، فهناك من يرى غير ذلك، ففي مجمع البيان: أنّ أكثر المفسرين ذهبوا إلى أنّ أوّل سورة نزلت من القرآن هي العلق: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ وقيل أوّل ما نزل قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ وقيل أوّل سورة نزلت فاتحة الكتاب^(٤)، وفي الأخبار الشريفة عن الباقر^(٥) والصادق^(٦) والرضا^(٧) عليهم السلام أنّ أوّل سورة نزلت هي العلق، ويعارضه قول الزمخشري إنّ

(١) مجمع البيان: ج ١، ص ٤٧؛ تفسير القرطبي: ج ١، ص ١١١.

(٢) مقتنيات الدرر: ج ١، ص ١١.

(٣) مقتنيات الدرر: ج ١، ص ١١؛ تفسير الرازي: ج ١، ص ١٥٩؛ روح المعاني: ج ١، ص ٣٤.

(٤) مجمع البيان: ج ١٠، ص ٣٩٨ تفسير سورة العلق.

(٥) انظر تفسير القمي: ج ٢، ص ٤٢٨.

(٦) الكافي: ج ٢، ص ٦٢٨، ح ٥.

(٧) عيون أخبار الرضا^{عليه السلام}: ج ٢، ص ٦، ح ١٢، الباب ٣٠؛ انظر تفسير نور

الثقلين: ج ٥، ص ٦٩٠، الأحاديث (٧-٩).

أكثر المفسرين ذهبوا إلى أنّ سورة فاتحة الكتاب هي أول سورة نزلت^(١) ، وفي مجمع البيان روى عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّ أوّل ما نزل عليه بمكة فاتحة الكتاب، ثم اقرأ باسم ربك الذي خلق، ثم ن والقلم^(٢) ، وهذا يتصادم مع قولنا إنّ القرآن نزل بوجوده العيني دفعة واحدة، وإن تنظيمه وتسلسل سوره وآياته توقيفياً حصل بأمر الله كما هو التحقيق، وأمّا على القول بأنّه ليس توقيفياً وأنه من اجتهادات البشر فلا محذور في التصادم، لكن المحذور فيه يرد من جهة تصادم الروايات الواردة عن المعصومين عليهم السلام؛ لذا لا مناص من الجمع بينها، فإن أمكن الجمع كان هو الراجح، وإلّا وجب الترجيح.

الجمع بين الحمد والعلق في النزول

ويمكن الجمع بين القولين بأنحاء:

الأول: أن نحمل القول الأول على نزول العلق سرّاً والحمد جهرّاً بشهادة دخول الثانية في الصلاة، أما الأولى فللنبوة.

الثاني: أن نحمل الحمد على أنّها أول سورة نزلت كاملة غير منجمة^(٣).

الثالث: أن نقول بأن الحمد أول ما نزلت لتكون ركناً في الصلاة، وهذا لا يمنع أن تسبقها سورة أخرى نزلت كقرآن.

الرابع: أن نقول بأن الحمد نزلت أولاً، وأخفى نزولها رسول الله صلّى الله عليه وآله.

(١) انظر البحر المحيط: ج ٨، ص ٤٨٨؛ ج ١٠، ص ٥٠٦.

(٢) مجمع البيان: ج ١٠، ص ٢١٢؛ وانظر شرح إحقاق الحق: ج ١٧، ص ٥٢٣.

(٣) التحرير والتنوير: ج ١، ص ١٣٤.

رعاية لنزولها الثاني لأجل الصلاة، بينما أظهر اقرأ لأنها شاهدة على القرآن والنبوة، وفي بادئ الدعوة لم يُكَلَّف النبي ﷺ بيان الصلاة بل الإيمان بالقرآن، وعلى فرض تعذر الجمع فإن الرجحان للقول الأول؛ لقوة القائلين به، وكثرة رواته.

من جمع القرآن؟

ويظهر من الأخبار الشريفة كقوله ﷺ: ﴿لَا صَلَاةَ إِلَّا بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ﴾^(١)، و﴿لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ﴾^(٢) فضلاً عن الأخبار المتقدمة أنها كانت معروفة بهذا الاسم في زمان رسول الله ﷺ، وكان المسلمون يعبرون عنها بهذا الاسم؛ لذا لم يسأل أحد منهم عن المراد بفاتحة الكتاب، كما أن الإضافة إلى الكتاب تدل على أن القرآن كان مجموعاً في عهد رسول الله ﷺ وهو كتاب كامل بالترتيب الموجود في أيدينا، وأول سوره الفاتحة، وأن جمعه كان بأمر الله، وليس من نسب إليهم من الصحابة. وقد فصلنا البحث في ذلك في تفسير سورة القدر.

دلائل الجمع الإلهي للقرآن

وتعزز ذلك الشواهد:

الشاهد الأول: الروايات المتضاربة التي تنص على أنه جمع بأمر رسول الله ﷺ ففي رواية علي بن إبراهيم عن الإمام الصادق عليه السلام: ﴿أَنَّ رَسُولَ

(١) عوالي اللآلئ: ج ٢، ص ٢١٨، ح ١٣.

(٢) انظر جامع أحاديث الشيعة: ج ٥، ص ١٠٨، ح ٢٥١٤؛ تفسير الرازي: ج ١٥،

الله ﷺ قال لعلي عليه السلام: يا علي إن القرآن خلف فراشي في الصحف والحريز والقرايطيس فخذوه واجمعوه ولا تضيعوه كما ضيعت اليهود التوراة، وانطلق عليه السلام فجمعه في ثوب أصفر، ثم ختم عليه^(١).

وكان هذا جمع التأويل والتفسير لا جمع النزول؛ لأن القرآن نزل من السماء مجموعاً نزولاً علمياً وعينياً على ما حققناه في سورة القدر.

ولعله عليه السلام ختم عليه لكيلا يضاف عليه شيء مما هو ليس من القرآن، ولعل الثوب الأصفر الذي جمع القرآن فيه هو ذاته الذي كان يلبسه عند الحرب؛ للإشارة إلى أن جمع القرآن بمنزلة الجهاد، وأن جمعه بمنزلة القتال في سبيل الله، وعليهما يقوم أساس الإسلام ونصره.

وقد اتفق على هذا جمع من الصحابة والمؤرخين والعلماء، فقد روى الخوارزمي في المناقب عن علي بن رباح أن علي بن أبي طالب وأبي بن كعب جمعا القرآن في عصر رسول الله ﷺ، وعن زيد بن ثابت أنهم كانوا يؤلفون القرآن ويجمعونه في عهد رسول الله ﷺ^(٢)، وكذا روى الطبراني وابن عساكر^(٣)، وروى قتادة أنه سأل أنس عمن جمع القرآن في عصر النبي ﷺ فقال: أربعة من الأنصار هم أبي بن كعب ومعاذ وزيد بن ثابت وأبو زيد^(٤).

(١) تفسير القمي: ج ٢، ص ٤٥١؛ البحار: ج ٨٩، ص ٤٨، ح ٧.

(٢) انظر تفسير الأمل: ج ١، ص ٢٣.

(٣) مجمع البيان: ج ١، ص ١٥؛ تفسير الأمل: ج ١، ص ٢٣.

(٤) تاريخ الإسلام: ج ٣، ص ٤٢٣، الهامش ١؛ أسد الغابة: ج ٤، ص ٢١٦؛ تفسير الأمل: ج ١، ص ٢٣.

ويمكن الجمع بينها بأن الأربعة المذكورين وغيرهم جمعوه بأمر النبي ﷺ وإشراف أمير المؤمنين عليه السلام، أو كانوا يكتبون ما يمليه عليهم أمير المؤمنين عليه السلام، كما يرشد إليه قوله: ﴿اجمعوه ولا تضيعوه﴾ فإن صيغة الجمع تدل على توجه الأمر إلى جماعة، وتكليف علي عليه السلام أولاً يفيد أنه المعني به قبلهم، أو أن الأربعة الذين جمعوا القرآن جمعوها تأليفاً بعد تجريده من التفاصيل كما سترد الشواهد عليه.

الشاهد الثاني: الآيات والروايات التي نصت على أن القرآن كان مجموعاً. منها: قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾^(١) وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾^(٢) وهي صريحة في أن القرآن جمعه الله سبحانه بواسطة النبي ﷺ ويد أمير المؤمنين عليه السلام كما هو مقتضى الجمع الدلالي بين الآيات والروايات، كما أنها صريحة في أن الكتاب نزل واحداً مجموعاً متضمناً لصنفين من الآيات محكمات ومتشابهات كما تفيد (من) التبعية، ويعزز ذلك حديث الثقلين المتواتر بطرق الفريقين حيث أوصى به النبي ﷺ بالقرآن والعترة، واعتراض عمر عليه بقوله: ﴿حسبنا كتاب الله﴾^(٣) شاهدان على أن القرآن كان مجموعاً موجوداً بين المسلمين.

(١) سورة القيامة: الآية ١٧.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٧.

(٣) السنن الكبرى (للنسائي): ج ٤، ص ٣٦٠، ٧٥١٦؛ الطبقات الكبرى (لابن سعد): ج ٢، ص ٢٤٤.

الدليل العقلي على الجمع الدلالي

الشاهد الثالث: حكم العقل.

فإن القرآن أعظم كتاب سماوي أنزله الله إلى أهل الأرض، وبه ختم الأديان السماوية والنبوات، وهو أعظم معاجز النبي ﷺ الباقية إلى يوم القيامة، فلا يعقل أن يتركه النبي مفرقاً دون أن يجمعه، فإن جمعه واجب بمقتضى حكم العقل من وجوه ثلاثة:

الأول: حفظه من الضياع.

والثاني: صيانتة من التلاعب والتحريف واختلاطه بغيره.

الثالث: إتمام الحجة به، فلو لم يجمع لوصلت آياته إلى الأمة متفرقة وربما منقوصة، وكل ذلك نقض لغرضه، ومخالف للحكمة، بل موجب للأضرار العظيمة، فالعقل والنقل يتفقان على أن القرآن كان مجموعاً بأمر رسول الله ﷺ. وبذلك يتضح الفرق بين القرآن الذي جمعه أمير المؤمنين ﷺ وأمر به رسول الله ﷺ وبين القرآن الذي نزل على رسول الله ﷺ فإن قرآن علي جمع فيه التأويل والتفسير، وبيان أسباب النزول، وتفصيل الآيات.

ما فعله عمر وعثمان في القرآن

وأما ما فعله عمر - على فرض صحته - فهو تكثير نسخ القرآن، وأما ما فعله عثمان - على فرض صحته - فهو جمع خطّي وتوحيد نسخة ما ألفوه، ووضع عليه علامات القراءة، هذا على فرض تصديق الخبر بذلك، وكلاهما ليس بجمع حقيقي. هذا ما يقتضيه التحقيق.

قرآن علي ﷺ

وفي الكافي بإسناده عن سلمة عن أبي عبد الله ﷺ: ﴿أن أمير المؤمنين ﷺ أخرج للقوم بعد رسول الله ﷺ المصحف الذي كتبه، فقال لهم: هذا كتاب الله كما أنزله الله على محمد ﷺ وقد جمعته (من) اللوحين، فقالوا: هو ذا عندنا مصحف جامع فيه القرآن لا حاجة لنا فيه، فقال: أما والله ما ترونه بعد يومكم هذا أبداً. إنما كان عليّ أن أخبركم حين جمعته لتقرؤوه﴾^(١)، واللوحان مثني لوح، وهو الكتف وكل عظيم عريض^(٢)، ويراد بهما هنا غلاف القرآن الذي جمعه أمير المؤمنين ﷺ.

والقوم لما ردوه قالوا: (هو ذا عندنا مصحف جامع فيه القرآن لا حاجة لنا فيه) والمصحف بمعناه اللغوي مجموع من الصحف في مجلد^(٣)، وبمعناه الاصطلاحي اسم علم للقرآن الكريم، وقد أقرؤا بأنه مجموع كامل عندهم وليس متفرقاً في أوراق وعظام وأكتاف وجريد نخل، ونحوها ثم جمعوه، بل هو مجموع حاضر لديهم في حياة رسول الله ﷺ.

والسر في ردهم لكتاب أمير المؤمنين ﷺ هو تضمنه للأسرار والخفايا والوقائع التي كانت تفضح القوم، وتكشف خفاياهم، وتظهر مثالبهم بالأسماء والصفات. يشهد له قول أمير المؤمنين ﷺ لهم: ﴿هذا كتاب الله

(١) الكافي: ج ٢، ص ٦٣٣، ح ٢٣؛ بصائر الدرجات: ج ١، ص ١٩٣، ح ٣، وفيه ﴿بين اللوحين﴾.

(٢) مجمع البحرين: ج ٢، ص ٤١٠، (لوح).

(٣) المعجم الوسيط: ج ١، ص ٥٠٨، (أصحف).

كما أنزله الله على محمد ﷺ وقد جمعته من اللوحين».

ومعنى كما أنزله الله يشير إلى وجود مصحف آخر ليس كما أنزله الله على رسوله، وهو المصحف الذي كان لديهم.

وفي ذلك دلالة على وجود مصحفين منذ عهد رسول الله ﷺ مجموعين في مجلدين:

الأول: المصحف الذي نزل على رسول الله ﷺ وفيه المعارف والأسرار والمعاني.

الثاني: المصحف الذي جمعه بعض الصحابة، وكان مجرداً من ذلك كله وربما جردوا منه مناقب علي وأهل البيت عليه السلام، وهذا هو الذي أرادوه أن يكون موجوداً بين الأمة وبه يحكمون، ولو أخذوا بالأول لما استطاع أحد منهم أن يدعي ما ليس له، أو ينسب لنفسهم مناقب بالخداع والتزوير.

ويعزز ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾^(١) وهو القرآن الذي أنزله الله على رسوله هجره وتركوه وراء ظهورهم لكي يستتب لهم الأمر، ويفعلوا ما يشاؤون في الخلافة والسياسة، وقد وصفهم الباري في الآية التالية بأنهم أعداء، وسلّى قلب نبيه بقوله سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾^(٢).

وما رواه الكليني بإسناده عن البنزطي قال: دفع أبو الحسن عليه السلام مصحفاً

(١) سورة الفرقان: الآية ٣٠.

(٢) سورة الفرقان: الآية ٣١.

وقال: ﴿لا تنظر فيه﴾، ففتحته وقرأت فيه: (لم يكن الذين كفروا) فوجدت فيه اسم سبعين رجلاً من قريش بأسمائهم وأسماء آبائهم. قال: فبعث إلي: ﴿ابعث إلي بالمصحف﴾^(١).

وفي تفسير العياشي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ﴿لو قرئ القرآن كما أنزل لألفيتنا فيه مسمين﴾^(٢) وفي رواية أبي ذر الغفاري رضوان الله عليه أنه لما توفي رسول الله ﷺ جمع علي عليه السلام القرآن، وجاء به إلى المهاجرين والأنصار وعرضه عليهم؛ لما قد أوصاه بذلك رسول الله ﷺ، فلما فتحه أبو بكر خرج في أول صفحة فتحها فضائح القوم، فوثب عمر فقال: يا علي! اردده فلا حاجة لنا فيه، فأخذه علي عليه السلام وانصرف، ثم أحضر أزيد بن ثابت - وكان قارئاً للقرآن - فقال له عمر: إن علياً عليه السلام جاءنا بالقرآن وفيه فضائح المهاجرين والأنصار، وقد أردنا أن تؤلف لنا القرآن وتسقط منه ما كان فيه فضيحة وهتك للمهاجرين والأنصار، فأجابه زيد إلى ذلك... فلما استخلف عمر سأل علياً أن يدفع إليهم القرآن فيحرفوه فيما بينهم، فقال: يا أبا الحسن! إن كنت جئت به إلى أبي بكر فأت به إلينا حتى نجتمع عليه، فقال علي عليه السلام: ﴿هيهات ليس إلى ذلك سبيل، إنما جئت به إلى أبي بكر لتقوم الحجة عليكم، ولا تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين، أو تقولوا ما جئنا به. إن القرآن الذي عندي لا يمسه إلا المطهرون والأوصياء من ولدي﴾. فقال عمر: فهل وقت لإظهاره معلوم؟ قال علي عليه السلام: ﴿نعم

(١) الكافي: ج ٢، ص ٦٣١، ح ١٦؛ التفسير الصافي: ج ١، ص ٤١.

(٢) تفسير العياشي: ج ١، ص ١٣، ح ٤؛ البحار: ج ٨٩، ص ٥٥، ح ٢٤.

إذا قام القائم من ولدي يظهره ويحمل الناس عليه فتجري السنة به^(١) .
والروايات الواردة بهذا المعنى كثيرة، ودلالاتها صريحة على نوايا
القوم وسياستهم التي اتبعوها في منع وصية النبي ﷺ، وتحريف معاني
القرآن لأجل أن يحكموا ويدفعوا علياً ﷺ والعتره من مراتبهم التي
جعلها الله ورسوله لهم.

لماذا أخفى علي ﷺ القرآن؟

وهذه الحقيقة كانت عن علم وإرادة منهم، وليست عن جهل أو غفلة أو
شبهة، ولذا طلبوا من زيد أن يؤلف لهم القرآن لا يجمعه، والفرق بين
التأليف والجمع ظاهر، فإن التأليف يتضمن إقحام آراء المؤلف فيه بخلاف
الجمع، ولأنهم كانوا يعلمون بأن وجود قرآنهم وحده لا يكفي لإمرار ما
يريدون دون أن يفنوا قرآن علي ﷺ ويزيلوه من الوجود، فطلبه عمر منه
بدعوى الاجتماع عليه، ولذا غيبه أمير المؤمنين ﷺ وصار من موارث
الإمامة، ليكون الحجة البالغة للرسول والعتره على الأمة.

وهذه الحقيقة حجة على العامة اليوم ليعرفوا الحقائق التي جرت، ومن
الذين ضيع حقائق القرآن، وأوقعهم في الغفلة والبعد عن الواقع ورضا
الرحمن، فلا ينبغي أن يصروا على نهجهم فيشكوههم نبيهم يوم القيامة؛
لأنهم اتخذوا قرآنه مهجوراً.

(١) انظر الاحتجاج: ج ١، ص ٢٢٨؛ البحار: ج ٨٩، ص ٤٣، ح ٢.

الحمد والقرآن وعليّ ﷺ

الاسم الثالث: أم الكتاب

معنى أم الكتاب

وهو من الأسماء المنصوصة في الأخبار العديدة، والكتاب إما القرآن وهو الكتاب التدويني، أو الوجود الإمكانى بأكمله، والإطلاق يشمل الاثنين معاً على ما بيناه في الاسم السابق، والأم تطلق على معانٍ عديدة تعود إلى معنى واحد جامع وهو الأصل في كل شيء ^(١)، وبهذا الاعتبار يطلق الأم على مبدأ الشيء وعلى الراية في مقدمة الجيش؛ لأنها أصل الجيش، وإليها مرجعه، والجماعة لأنها أصل الأفراد ومرجعهم، ولذا تسمى الجماعة بالأمة ^(٢).

معنى النبي الأمي

ووصف النبي ﷺ بالأمي لأنه أصل الأشياء وجوداً وتربية وعلماً، وإليه تعود جميع الأشياء، وإلى شريعته تعود سائر الشرائع، وإلى كتابه تعود سائر الكتب، فهو أصل الوجود الإمكانى تكويناً وتشريعاً، وليس كما اشتهر بأنه لا يعرف القراءة والكتابة، فإن هذه صفة نقص لا تليق بمقامه ﷺ، بل لا تليق بما هو دونه بمراتب كثيرة، ولازمها نسبة النقص إليه، وتقدم غيره

(١) معجم مقاييس اللغة: ج ١، ص ٢١، (أم)؛ مفردات الراغب: ص ٨٥، (أم)؛

المعجم الوسيط: ج ١، ص ٢٧، (أم).

(٢) المصادر نفسها.

عليه ممن يعرفهما، ويقال أم الكتاب للوح المحفوظ باعتبار أنه أصل العلوم والأحكام والقضاء والقدر^(١).

وسميت الفاتحة أم الكتاب لأنها مبدؤه، ولأن معانيه وعلومه وأحكامه وغاياته ترجع إليها، فهي المعنى الإجمالي للكتاب، وهو تفصيلها وفروعها، وبذلك تتضح عدة حقائق:

الحمد مفتاح الاسم الأعظم

الحقيقة الأولى: أن الكثير من أسرار عالم التكوين مفتاحها ومرجعها إلى سورة الحمد، وبركاتها تظهر آثارها؛ لذا ورد أنها إذا قرئت على ميت - ضمن شروط خاصة - فربما أحيت، وكذلك في معالجة الأمراض، ولها تأثير عظيم في الأشياء، ومن هنا قال بعض المفسرين: إن نسبة الفاتحة إلى القرآن كنسبة الإنسان (العالم الأصغر) إلى العالم (الإنسان الأكبر) وإن فيها أسرار العلوم الإلهية والمعالم الربانية^(٢).

وعن أبي عبد الله عليه السلام: «إن اسم الله الأعظم مقطّع في أم الكتاب»^(٣) والاسم الأعظم هو واسطة التأثير في العالم كله، وكل حرف من حروفه له تأثير خاص، وقد توزعت حروفه في آياتها، وتخصيص الإمام عليه السلام اسمها بأم الكتاب دون غيره من أسمائها للإشارة إلى أنها مفتاح أسرار الكتابين

(١) مفردات الراغب: ص ٨٥، (أم).

(٢) تفسير القرآن الكريم: ج ١، ص ١٦٣، تفسير تسنيم: ج ١، ص ٣١١.

(٣) ثواب الأعمال: ص ١٠٤؛ تفسير العياشي: ج ١، ص ١٩، ح ١؛ البحار: ج ٩٠، ص ٢٢٣، ح ١.

الإلهيين التكويني والتدويني.

فإن قال قائل: ما هي هذه الشروط الخاصة؟

شروط تأثير السورة

فالجواب: هي عديدة وأهمها أربعة، اثنان يتعلقان بالعبادة، واثنان بالعمل، تستفاد من رواية وردت عن الإمام العسكري عليه السلام.

الأول: قراءة السورة مع الاعتقاد واليقين بأنها مؤثرة بإذن الله، لا قراءة التجربة والاختبار، أو قراءة اللسان مع غفلة القلب عن معانيها وآثارها.

الثاني: قراءتها مع الاعتقاد بموالاته محمد وآل محمد عليهم السلام، أي الاتباع لهم.

الثالث: قراءتها مع الانقياد لأوامر محمد وآل محمد عليهم السلام، وعدم مخالفتهم بتسليم القلب.

الرابع: الإيمان بظاهرهم عليهم السلام وبباطنهم، وهذا له شرح يطول تفسيره.

فإن من يقرأ الحمد بهذه الحالات الأربع ينال الأثر، ويبلغ المراد؛ لأنها محققان لشرائط العلة التامة في التأثير^(١).

الحمد والإمام عليه السلام

الحقيقة الثانية: في وجه الجمع بين كون الحمد أم الكتاب والإمام عليه السلام أم الكتاب.

(١) انظر تفسير الإمام العسكري عليه السلام: ج ١، ص ٢٩، ح ١٠؛ الأمالي (للصدوق): ص ٢٤١، ح ٣؛ البحار: ج ٨٩، ص ٢٤٥، ح ٤٨.

وبيان ذلك: أن وصف أم الكتاب أطلق على أشياء عديدة:
الأول: سورة الحمد.

والثاني: المحكمات في القرآن، لقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾^(١).

والثالث: اللوح المحفوظ بناء على أن الضمير في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِّي حَكِيمٌ﴾^(٢) يعود على القرآن الكريم كما هو القول المشهور بين المفسرين، وسمي اللوح أمًّا لأن سائر الكتب والمقدرات تنسخ منه^(٣).

والرابع: القضاء الإلهي في الأشياء تكويناً، لقوله تعالى: ﴿يَمْنَحُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُنْثِثُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾^(٤).

والخامس: العلم الإلهي الذي إليه تعود الحقائق كما ورد في الأخبار^(٥)، والمعنى الثالث والرابع والخامس متفقة في المآل؛ لأن القضاء الإلهي منشؤه العلم الإلهي، واللوح المحفوظ هو الجامع لقضاء الله وعلمه، والآيات المحكمات هي الواضحة في مفهومها ودلالاتها، وهي أصول الآيات التي ترجع إليها الآيات المتشابهات لتشابهها على قارئها، وعلى أهل العلم؛ لدقة

(١) سورة آل عمران: الآية ٧.

(٢) سورة الزخرف: الآية ٤.

(٣) مجمع البيان: ج ٩، ص ٦٧ تفسير الآية ٤ من سورة الزخرف، تفسير كنز الدقائق: ج ١٢، ص ١٢؛ نفحات الرحمن: ج ٥، ص ٤٩٧ - ٤٩٨.

(٤) سورة الرعد: الآية ٣٩.

(٥) انظر: مجمع البيان: ج ٦، ص ٤٨ - ٤٩ تفسير الآية ٣٩ من سورة الرعد.

٥٦ مايقوله القرآن في سورة الحمد

معانيها ولطفها، وسورة الحمد هي أصل المحكمات؛ لرجوع المحكمات والمتشابهات إليها من ثلاثة وجوه.

الأول: المبادئ.

والثاني: الغايات.

والثالث: التعاليم والأحكام.

أما المبادئ أي الخلق والربوبية والمالكية للحساب والجزاء، وأما الغايات لتربية البشر وتعليمهم وتهذيبهم وتصييرهم عباداً لله كاملين، وأما الأحكام فالولاية لأوليائه، والاقتداء بنهجهم والبراءة من أعدائه والتخلي عنهم.

وهذه هي الروح السارية في جميع آيات القرآن المحكمات والمتشابهات، وكلها تلخصت في سورة الحمد^(١).

أمير المؤمنين ﷺ قلب سورة الحمد

ويتلخص من ذلك: أن سورة الحمد هي أم القرآن، وهي أم لسائر الكتب السماوية، واللوح المحفوظ هو الجامع لقضاء الله وعلمه، وكلاهما اجتمعا في قلب إنسان كامل هو مجلى علم الله وقضائه، وهو - أمير المؤمنين ﷺ - قلب سورة الحمد وروحها.

وهذا المعنى دل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ﴾^(٢) بناء على أن اللام للتأكيد، وعلي حليم خبر إن والضمير اسمها

(١) انظر مواهب الرحمن: ج ٥، ص ٤١ - ٤٢.

(٢) سورة الزخرف: الآية ٤.

ويعود على القرآن، والمعنى يكون أن القرآن في كتاب الله عليّ عليه السلام، وهو مجلى علم الله وحكمته، وهو أصل الأشياء ومرجعها. تواتر هذا المضمون في الأخبار المعتبرة، ففي تفسير علي بن إبراهيم في قوله في تفسير: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِّي حَكِيمٌ﴾ قال: يعني أمير المؤمنين عليه السلام مكتوب في الفاتحة في قوله عز وجل: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(١).

وفي معاني الأخبار بسنده عن حماد بن عيسى عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ قال: ﴿هو أمير المؤمنين عليه السلام ومعرفته﴾، والدليل على أنه أمير المؤمنين عليه السلام قوله عز وجل: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِّي حَكِيمٌ﴾ وهو أمير المؤمنين عليه السلام في أم الكتاب في قوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(٢) وقريب منها وردت روايات عديدة^(٣).

ولعله قال: ﴿لَدَيْنَا﴾ للإشارة إلى وقوع الاختلاف فيه، وأن الناس لا يرتضون بهذا ويخالفون، فأشار إلى أن مخالفة الناس ورفضهم لا يضر بمقامه ومكانته، فإنه لدينا علي حكيم.

يعزز ذلك ما ورد في التهذيب في نص الدعاء بعد صلاة يوم الغدير عن الإمام الصادق عليه السلام: ﴿ربنا آمنا واتبعنا مولانا وولينا وداعينا وداعي الأنام وصراطك المستقيم السوي، وحجتك وسبيلك الداعي على بصيرة هو ومن اتبعه، سبحانه الله عما يشركون بولايته، وما يلحدون باتخاذ الولائج دونه،

(١) تفسير القمي: ج ٢، ص ٢٨٠؛ تفسير كنز الدقائق: ج ١، ص ٦٠.

(٢) معاني الأخبار: ص ٣٢، ح ٣؛ البحار: ج ٢٤، ص ١٢، ح ٤.

(٣) تأويل الآيات الظاهرة: ج ٢، ص ٥٥٢، ح ١؛ تفسير كنز الدقائق: ج ١، ص ٦٠.

نشهد يا إلهي أنه الإمام الهادي المرشد الرشيد علي أمير المؤمنين عليه السلام الذي ذكرته في كتابك فقلت: ﴿وَأَنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِّي حَكِيمٌ﴾ لا أشرك معه إماماً ولا أتخذ من دونه وليجة^(١).

وبعض فقراته تضمنت إشارات هامة:

الأولى: ﴿الداعي على بصيرة هو ومن اتبعه﴾ إشارة لكل من يتبع علياً عليه السلام بأمرين:

أحدهما: وجوب الإيمان بعضهم ببعض، وعدم التعادي والتخاصم، بناء على أن من اتبعه معطوف على ﴿ربنا آمنا واتبعنا مولانا وولينا﴾ لأن المؤمنين بعضهم أولياء بعض يأمرهم بالمعروف وينهون عن المنكر^(٢).

ثانيهما: أن من يتبع علياً عليه السلام يدعو على بصيرة إلى صراطه المستقيم، فلا يتهاون في هداية الخلق وإرشادهم إلى مصالحهم.

الثانية: قوله: ﴿سبحان الله عما يشركون بولايته﴾ وسبحان الله هنا أريد به تنزيه الباري عن قبول غير ولايته، وتنزيه نفس المؤمن عن مشاركة غير علي عليه السلام في الولاية باتباعه والافتداء به، والملفت أنه قال بولايته لا بإمامته؛ لأن الولاية أعم من الإمامة وتشمل الإمامة الفعلية والشأنية، فالمؤمن هو الذي يوالي علياً عليه السلام سواء كان خليفة أو لم يكن.

الثالثة: قوله: ﴿وما يلحدون باتخاذ الولائج دونه﴾ الولائج جمع وليجة، وهي

(١) التهذيب: ج ٣، ص ١٤٥، ح ٣١٧؛ البحار: ج ٩٥، ص ٣٠٤، ح ٢.

(٢) إشارة إلى سورة التوبة: الآية ٧١.

كل ما يتخذه الإنسان معتمداً ومنهجاً، وهو لا يليق بالاعتماد^(١)، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ﴾^(٢).

والإلحاد الميل عن الحق، والمعنى التبري من الذين يميلون عن الحق ويتبعون من ليس أهلاً بالاتباع؛ لذا عطف بعدها قوله: ﴿نشهد يا إلهي أنه الإمام الهادي...﴾ والتعبد بعدم الإشراف في إمامته، ولا الميل عنه باتباع غيره. والرابعة: الاستدلال بالآية ووصفه بأنه (أم الكتاب) وأنه عند الله (حكيم) بيان لعله ولايته، وهي دعوة لذوي العقول في وجوب اتباعه؛ لأنه أصل العلوم ويده الحكمة، والعقل يقضي باتباعه حتى وإن لم يكن المتبع من أهل الإيمان.

أمير المؤمنين أم سورة الحمد

الحقيقة الثالثة: أن سورة الحمد التي هي أم الكتاب لها أم أيضاً هو أمير المؤمنين عليه السلام.

وبيان ذلك: أن في سورة الحمد آية هي أمها وهي قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ فإن جميع آيات سورة الحمد تتلخص فيها؛ لأنها دعاء وهو يتضمن الإقرار بالمدعو، وقدرته على الإجابة ورحمته فيها، وربوبيته لعبده، وبذلك يستحق الحمد والشكر، وهي الآيات التي تتعلق بالرب تبارك وتعالى، كما أن طلب الهداية غايتها الاستقامة على العبودية، والطاعة

(١) انظر مفردات الراغب: ص ٨٨٣، (ولج).

(٢) سورة التوبة: الآية ١٦.

والنجاة من حساب يوم المعاد، والصراط المستقيم له معنيان، نظري هو الطريق السوي الموصل إلى الغاية المقصودة، وعملي مصداقي ينطبق عليه مفهوم الصراط بتمامه، ولا يتحقق إلا به، وهو أمير المؤمنين عليه السلام، فلا يوجد صراط مستقيم إلا صراط علي عليه السلام ونهجه في المعتقدات والأعمال والمعارف. وأما قوله: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ فهو تعريف توضيحي للصراط المستقيم، فسورة الحمد أم الكتاب، واهدنا الصراط المستقيم أم سورة الحمد، وهو صراط علي عليه السلام، وبذلك يكون أم الكتاب هو علي عليه السلام وباقي المعاني المذكورة مظاهر وتفرعات لهذا المعنى الجامع، كما أن سورة الحمد مجمع الاسم الأعظم، والإمام علي عليه السلام هو الاسم الأعظم، فاهدنا الصراط المستقيم أم سورة الحمد والإمام أم لاهدنا الصراط المستقيم، وهو مجمع الاسم الأعظم فيها.

أم الكتاب وفاطمة عليها السلام

الحقيقة الرابعة: تتضح من الحقائق المتقدمة معاني جملة من الأحاديث التي تتضمن لطائف دقيقة.

منها: معنى أن فاطمة عليها السلام أم أبيها، فإذا كان علي عليه السلام هو أم الكتاب فإن رسول الله صلى الله عليه وآله نفسه وجهه الآخر، وقد وصف صلى الله عليه وآله فاطمة بأنها أمه، فهي أم الأم أي مرجعه ومستنده، وهذا يتوافق مع منطوق الحديث القدسي: ﴿ولولا فاطمة لما خلقتكم﴾^(١).

(١) مجمع النورين: ص ١٤؛ مستدرک سفینه البحار: ج ٣، ص ١٦٩.

ومنها: معنى ما ورد في بعض الأحاديث نحن حجة الله تعالى على الخلق، وفاطمة عليها السلام حجة علينا^(١).

ومنها: أن على معرفتها دارت القرون الأولى^(٢)، فإن منشأ التكوين والتشريع يعود لأصل واحد هو رسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام كما تفيد أحاديث النورانية، وفاطمة عليها السلام الأم لها.

ومنها: أنه لولا علي عليه السلام لم يكن لفاطمة كفاء من آدم فما دونه^(٣)، وهنا أسرار وعجائب تبهر العقول والقلوب نحتاج إلى وقت آخر لبيانها.

لماذا سميت بأم القرآن؟

الاسم الرابع: أم القرآن

وهو أخص من الكتاب؛ لأنه عَلم لكتاب الله التدويني، وقد ذكره جمع من مفسري الخاصة والعامة، لورود بعض الروايات بطرقهم فيه^(٤).

وفي روايات بعض أصحابنا أن النبي صلى الله عليه وآله سماها بذلك^(٥)، وذكروا في سبب تسميتها بهذا الاسم وجوهاً عديدة:

منها: أن الأم هي الأصل، وإنما صارت أصل القرآن؛ لأن الله أودعها

(١) العوالم (السيدة الزهراء عليها السلام): ج ١، ص ٧.

(٢) العوالم (السيدة الزهراء عليها السلام): ج ١، ص ٩١ و ص ٤٥٨.

(٣) فضائل الإمام علي عليه السلام: ص ٤٧.

(٤) انظر البحار: ج ٨٩، ص ٢٦١، ح ٥٦؛ الأمالي (للصدوق): ص ٧٠٣، ح ٩٦٢.

(٥) التبيان: ج ١، ص ٢٢؛ الفرقان: ج ١، ص ٧١، الهامش.

مجموع ما في السور؛ لأنّ فيها إثبات الربوبية والعبودية، وهذا هو المقصود بالقرآن^(١).

والمقصود معرفة غنى الربوبية وعزتها في قبال معرفة فقر العبودية واحتياجها، فالنصف الأول من السورة يدل على أنّه سبحانه هو الإله المستولي على كل أحوال الدنيا والآخرة، والنصف الثاني في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يدل على أن الخلق عباد لله لا ينالون شيئاً ولا ينالهم شيء إلا بإعانة الله وهدايته^(٢).

وعن بعضهم أن الطريق إلى الله له ظاهر وهو عمل البدن، وباطن وهو عمل القلب، ويقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تكون العبادة بالشرعية، وبالإستعانة يصل العبد إلى المطلوب.

ومنها: أن الأم في كلام العرب الراية التي يجتمع حولها العسكر، وسميت الفاتحة بأم القرآن لأنها مفرع أهل الإيمان، كما أن الراية مفرع العسكر، ولذا دخلت في صلواتهم، وتقرأ في جميع أوقاتهم.

علوم القرآن ثلاثة

ومنها: أنّها مجمع علوم القرآن، وهي ثلاثة أنواع:

الأول: علم ذات الله وصفاته وأفعاله وهو علم الأصول.

والثاني: علم أحكام الله تعالى وتكاليفه وهو علم الفروع.

(١) مجمع البيان: ج ١، ص ٤٧؛ وانظر مقتنيات الدرر: ج ١، ص ١١.

(٢) انظر تفسير الرازي: ج ١، ص ١٦٠.

والثالث: علم الأخلاق وتصفية الباطن، وتعليم المخلوق طريق التشبه بصفاته وأفعاله عز وجل ليكون مجلى لجماله وجلاله^(١)، وقد قرر ذلك بعض المفسرين بقوله إن معاني القرآن إما علوم نظرية تقصد معرفتها، وإما أحكام عملية يقصد منها العمل بها، فالعلوم النظرية كالتوحيد والصفات والنبوءات والمواعظ والأمثال والحكم والقصص، والأحكام إما عمل الجوارح وهو العبادات والمعاملات، وإما عمل القلوب أي العقول وهو تهذيب الأخلاق وآداب الشريعة، وكلها تشتمل عليها الفاتحة بدلالة المطابقة أو التضمن أو التلازم^(٢).

والقرآن اسم علم لكتاب الله المنزل على رسول الله ﷺ قيل هو غير مشتق، كما أن التوراة اسم لما أنزل على موسى والإنجيل لما أنزل على عيسى عليه السلام. سماه بذلك الباري عز وجل، وذكره في ستة وستين موضعاً من الكتاب، وهو من قبيل الوضع التعييني أو التعييني، وفي كل مورد ذكره تضمن إشارة إلى خصوصية من خصائصه.

منها: قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾^(٣) وقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾^(٤) وقوله: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾^(٥) وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ

(١) انظر تفسير الرازي: ج ١، ص ١٦٠؛ تفسير تسنيم: ج ١، ص ٣١٠.

(٢) التحرير والتنوير: ج ١، ص ١٣٢، (بتصرف).

(٣) سورة الواقعة: الآية ٧٧.

(٤) سورة الزخرف: الآية ٣.

(٥) سورة الإسراء: الآية ٩.

قُرْآنًا سُرِّتَ بِهِ الْجِبَالُ ﴿١﴾ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ ^(٢) .

وقيل مشتق من القرن، يقال: قرنت الشيء بالشيء أي جمعته معه، سمي به لقران السور والآيات والحروف به ^(٣) ، وقيل من القرء وهو الجمع، والقراءة يقال لها ذلك؛ لأنها تضم الحروف والكلمات بعضها إلى بعض، والقرآن في الأصل مصدر مثل كفران ورجحان ^(٤) . يقال: قرأت الشيء قرآنًا قرآنًا أي جمعته وضممت بعضه إلى بعض.

لماذا سمي القرآن؟

سمي القرآن الكريم بذلك لوجوه:

الأول: لأنه يجمع السور والآيات فيضمها.

والثاني: لأنه اجتمع في صدر النبي ﷺ وفيه رواية عن ابن عباس ^(٥) .

والثالث: لأنه يجمع القصص والأمر والنهي الوعد والوعيد.

والرابع: لأنه جامع لثمرة كتب الله المنزلة؛ لذا انفرد بهذا الاسم دون غيره من الكتب السماوية.

والخامس: لأنه جامع لثمرة جميع العلوم؛ لأن غاية العلوم المادية

(١) سورة الرعد: الآية ٣١.

(٢) انظر بصائر ذوي التمييز: ج ٤، ص ٢٦٣.

(٣) كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: ج ١، ص ١٣٠٦.

(٤) مفردات الراغب: ص ٦٦٨، (قرأ).

(٥) المصدر نفسه.

والمعنوية كمال الإنسان وسعادته وكلاهما اجتماعاً في القرآن ^(١).

وفي رواية ابن سنان عن الإمام الصادق عليه السلام في بيان الفرق بين الفرقان والقرآن قال: ﴿القرآن جملة الكتاب، والفرقان المحكم الواجب العمل به﴾ ^(٢).

السادس: لأنّ الكتاب الوحيد الذي قرأه الباري عزّ وجلّ على البشر، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ ^(٣) لذا كان توقيفياً في خطه وقراءته وجمعه وبيانه، فلا تدنوه يد بشر ولا فكره، لا في ظاهره ولا في باطنه، فظاهره وباطنه من الله سبحانه، وكذا بيانه وشرحه؛ لذا لا يؤخذ القرآن إلّا من النبي والعترة عليهم السلام لأنهم المطهرون الذين قال تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ ^(٤) ولا تنافي بين المعاني المذكورة؛ فالقول بها جميعاً بلا مانع، فإنّ كمال القرآن وجلاله يشتمل على كل ذلك وأكثر.

والقرآن العظيم بكل ما له من مزايا وخصائص له أمّ وأمه سورة الحمد.

السبع المثاني تكويناً وتشريعاً

الاسم الخامس: السبع المثاني

وهو من أسمائها المنصوصة في القرآن والسنة. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ

(١) بصائر ذوي التمييز: ج ٤، ص ٢٦٣.

(٢) معاني الأخبار: ص ١٩٠، ح ١؛ البحار: ج ٨٩، ص ١٥، ح ١٠؛ مجمع البحرين: ج ١، ص ٣٣٧، (قرأ)؛ معجم الفروق اللغوية: ص ٤٢٤، (١٧٠٩).

(٣) سورة القيامة: الآيات ١٧ - ١٩.

(٤) سورة الواقعة: الآية ٧٩.

سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ^(١) وقد تضافر في الأخبار الشريفة عن النبي والأئمة عليهم السلام أن المراد بالسبع المثاني سورة الحمد، وعليه اتفاق المسلمين. ووصفت بالسبع لوجوه:

أحدها: أن آياتها سبع ومنها البسملة، وفيها دلالة على أن البسملة جزء السورة، وقد ورد ذلك عن أمير المؤمنين عليه السلام والإمام الصادق عليه السلام،^(٢) وخالف بعض العامة فذهب إلى أن آياتها ثمان، وبعضهم ست، وبعضهم تسع، وكل ذلك لا صحة له ولا دليل^(٣).

ولعل سرّ السبعة هو ما تقتضيه ضرورة تطابقها مع عالم التكوين والتشريع؛ لكونها مفتاحهما.

أثر السبعة في الخلق

ويستفاد من الأدلة أن للسبعة مكانة في الخلق والأحكام، فالسموات سبع، والأرضون سبع، ومراتب خلق الإنسان وتكوينه سبع، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾^(٤).

(١) سورة الحجر: الآية ٨٧.

(٢) تفسير الإمام العسكري عليه السلام: ص ٢٩، ح ١٠؛ تفسير العياشي: ج ١، ص ١٩، ح ٣.

(٣) انظر روح المعاني: ج ١، ص ٥٢؛ التحرير والتنوير: ج ١، ص ١٣٣.

(٤) سورة المؤمنون: الآيات ١٢ - ١٤.

فالكون الأكبر تكويناً يدور على السبع، والكون الأعظم تكويناً الذي اجتمعت فيه خصائص العالم الأكبر وظهرت عليه آيات الخالق وجماله وجلاله، خلق بسبع، وظاهره وباطنه مكوّن من سبع هي: الروح والفطرة والنفس والعقل والصدر والقلب والفؤاد.

ووجوده الظاهري والباطني يدور على محور واحد تشريعاً هو التوحيد الاعتقادي والعبادي، يظهر في طوافه بالبيت سبعة أشواط، وفي صلاته وهي تقوم على السبع الباطنة، وتجتمع في النية؛ لاشتغالها على جميع مكونات العبد الباطنة المتقدمة، وكذلك الأفعال والحركات البدنية الظاهرة وهي سبعة تبدأ بالتكبير، ثم القيام والركوع والانتصاب منه، ثم السجود والانتصاب منه مرتين، ثم القعود للتشهد والتسليم، فظاهر العالم الأكبر - وهو السموات والأرضون - يقوم على السبع، ومركزه وباطنه أي الإنسان في ظاهره وباطنه يقوم على السبع، ومدار معتقده وعبادته يقوم على السبع، وفتحة الكتاب التكويني والتدويني الحاوية لمفاتيحه ومفاتيحه سبع.

وبهذا يظهر شدة النظم والتطابق والإحكام في العالم تكويناً وتشريعاً، كما تظهر أهمية الفتحة وأثرها في الوجود العام والخاص، ويظهر أيضاً سر إيجابها في صلوات العباد، فإن فتحة الكتاب مفتاح الوجود التكويني كما مرّ، ومفتاح القرآن أي الوجود التدويني، كما أنها مفتاح العبادة أي الصلاة؛ إذ وصفها الباري عز وجل بالكتاب ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾^(١)،

وهذا معنى إضافي لما قدمناه من معاني أم الكتاب.

ثانيها: لأن كل آية منها تقوم مقام سُبْع القرآن، فمن قرأها أُعطي ثواب قراءة الكل^(١)؛ لذا جرت السيرة على قراءتها في المجالس التي تعقد لثواب الأموات، وسميت بالفواتح لهذه الجهة، فإن إحدى أهم غاياتها وهو قراءة القرآن تثويماً له، وبقراءة الفاتحة من قبل الحاضرين ينال ثواب ختمات عديدة من القرآن الكريم التي لها آثار عظيمة على الميت في البرزخ والآخرة. ثالثها: لأن من قرأ آياتها السبع غلقت عنه أبواب النيران السبعة^(٢).

رابعها: لأن فيها سبعة آداب، في كل آية أدب.

وخامسها: لأنها خلت عن سبعة أحرف، الشاء والجيم والحاء والزاي والشين والظاء والفاء، وغير ذلك من وجوه، وهذه الثلاثة الأخيرة مبنية على استحسانات لا تستند إلى دليل، والثاني يعود إلى الأول وهو مبين لأثر آيات السورة لا سبب تسميتها بالسبع، فالحق هو الأول وهو المروي عن أئمة الهدى عليهم السلام.

ما معنى المثاني؟

ووصفها بالمثاني مأخوذ من ثنى، ويطلق على ثلاثة معانٍ:

الأول: العدد، ويقال اثنان وثنان وثنيتته كنت له ثانياً، ومنه قولهم الإفراد مقابل التثنية.

(١) مجمع البيان: ج ١، ص ٤٧؛ مقتنيات الدرر: ج ١، ص ١١؛ تفسير تسنيم: ج ١، ص ٣١٢.

(٢) مقتنيات الدرر: ج ١، ص ١١ - ١٢.

الثاني: الثناء وهو مدح الشيء بفضائله وخصائصه الحسنة. يقال أثنى عليه إذا ذكر محاسنه.

الثالث: الثني، يقال ثنى الشيء ثنياً أي رد بعضه على بعض، وثنيت الرداء أي طويته^(١) وبهذا الاعتبار يطلق الثني على المنع. يقال ثنيته عن العمل أي منعه منه، أو رددته وعطفته. يقال: ثنيته عن مراده إذا صرفته عنه وعدلته^(٢)، وإليه يعود الاستثناء^(٣)؛ لأنه إخراج للشيء من الحكم العام، ومنعه من انطباقه عليه^(٤)، وإليه تعود تسمية الطريق العالي من الجبل ونحوه بالثنية، وفي الخبر كان ﷺ يدخل مكة من الثنية العليا ويخرج من الثنية السفلى^(٥).

وفي المفردات: الثنية من الجبل ما يحتاج في قطعه وسلوكه إلى صعود وحدور، فكأنه يثني السير^(٦)، ولا خصوصية للجبل، بل يشمل كل طريق بهذا الوصف.

ووصف السورة بالثاني قد يعود إلى كل واحد من هذه المعاني الثلاثة، ولكل واحد منها دلائل وآثار، وهذا بحث مهم وصعب في عين الحال، وتتعدد فيه الاحتمالات، وقد كثر الكلام فيه من المفسرين، وذكروا وجوهاً

(١) لسان العرب: ج ١٤، ص ١١٥، (ثني).

(٢) مجمع البحرين: ج ١، ص ٧٦، (ثنا).

(٣) معجم الفروق اللغوية: ج ١، ص ٥١٦، (٢٠٨٨).

(٤) مفردات الراغب: ص ١٧٩، (ثني).

(٥) مجمع البحرين: ج ١، ص ٧٧-٧٨، (ثنا).

(٦) مفردات الراغب: ص ١٧٨، (ثني).

عديدة، وبينوا بعض الأسرار نستعرضها على التوالي.

التثنية العددية

أولاً: المثاني بمعنى التثنية العددية، ووجه وصفها بذلك يعود إلى وجوه:
الوجه الأول: لأنها نزلت مرتين: مرة في مكة ومرة في المدينة. نزلت في مكة حين افترضت الصلاة، وفي المدينة حين حولت القبلة لمناسبة كما ذكروا خفي مقتضاها علينا، فإن أفعال الله كأقواله قد تصدر عن مصلحة مكنونة، كما تصدر عن مصلحة مكشوفة^(١)، ذلك دلالة على تعدد نزول السور والآيات كما حققناه في سورة القدر.

سر نزول الحمد مرتين

ولعل سر النزول في المدينة عند تحويل القبلة للإشارة إلى أمرين:
أحدهما: تأكيد وجوبها في الصلاة، فإن تحويل اتجاه القبلة قد يوحى بتبدل ما يجب في الصلاة، فيقتضي التنبيه إلى بقاء ما وجب فيها.

ثانيهما: للإيحاء إلى العباد بلزوم التسليم لأمر الله ورسوله في تحويل القبلة، وأنَّ العبد الكامل هو الذي يدعن لأمر الله ويسلّم لأحكامه، فلا يعترض ولا يتململ ولا يشك في حكمته، وقد ورد هذا المضمون في سورة الحمد، وحيث إنَّ التسليم من أهم صفات الإيمان وهو الذي يميز المؤمن من غيره لزم أن تكون سورة الحمد في جميع الصلوات، وفي الصلاة

(١) الجديد في تفسير القرآن المجيد: ج ١، ص ١١؛ تفسير الفرقان: ج ١، ص ٧٠.

الواحدة مرتين؛ لكي تمرّ على عقول الناس وقلوبهم في اليوم عشر مرات، ولا يغفل الإنسان مهما بلغ من العلم والقدرة والمال والسلطان عن أنّه عبد لا يملك لنفسه حولاً ولا طولاً، إلّا بالاستعانة بالله والعبودية له، فبها يصلح نفسه، ويبنى حياته ومجتمعه، فسورة الحمد نزلت في مكة ثم المدينة لاقتضاء الحكمة، فإنّ القرآن نزل أكثر من مرة.

منها: نزول تعليم وتدريب مفرّقاً في ثلاث وعشرين سنة بحسب الحوادث والمقتضيات، وغاية نزوله في مكة قبل الهجرة بيان أسس الدين، وما يقوم عقيدة المسلم من الإيمان بالله واليوم الآخر والأنبياء والكتب وفعل الخيرات واجتناب المنكرات مع الإيجاز في التعبير، والاقتصار في الأسلوب، كما يلحظ ذلك في السور المكية.

وغاية نزوله في المدينة تعزيز ما نزل في مكة، وبيان الوظائف الشخصية والاجتماعية تجاه الخالق والمجتمع والدولة، كأحكام العبادات والمعاملات الشخصية، ووظائف السلم والحرب، ومنهج بناء الدولة والتعامل مع الأقليات، ومحاور أهل العلم والأديان لتوسيع مساحة الإيمان والهداية، وترسيخ السلم الأهلي بحماية الحقوق وفرض الواجبات، وهذه الغايات بنوعها المكّي والمدني مجتمعة في سورة الحمد بأسلوب مختصر واضح.

أهميتها في الصلوات

الوجه الثاني: لأنّها تتنّى في الصلوات؛ لأن الصلاة الواجبة والمستحبة أقلّها ركعتان، وفي كل ركعة تقرأ الحمد إلّا ما ندر مثل الوتر فإنّها ركعة،

وبه وردت الرواية عن يونس عن الإمام الصادق عليه السلام^(١) ، كما وردت بطرق العامة عن ابن عباس^(٢) ، وتثبتها في عموم الصلوات دلالة على عظمة مقامها وأثرها في القرب، فإن الصلاة قربان كل تقي، وهي عمود دين العبد، وأهم ما فيها الحمد فلا صلاة إلا بها.

مشنى الكتاب وإعجازه

الوجه الثالث: أنها مشنى في الكتاب، لأنها جامعة لمضامين الكتاب، والقرآن مفصل لسورة الحمد، فهي مشنى الكتاب إجمالاً، والكتاب مشنى الحمد تفصيلاً، ويشهد له وصف الكتاب بأنها مثاني. قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِي﴾^(٣) وتشابه الكتاب لا يراد به هنا الالتباس، بل التشابه في الألفاظ والمعاني بقرينة وصفه بأحسن الحديث، أي جميل المنطوق في فصاحته وبلاغته وعلو ألفاظه وعظيم مضمونه، ومن محاسنه أن ألفاظه وآياته متماثلة في أسلوبه الإعجازي لفظاً ومضموناً، وربما تتكرر الآية الواحدة في منطوقها مثل قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبانِ﴾^(٤) ، لكنها في كل مرة تختلف في المعنى والغاية، واختلاف المعنى لا يراد به تباينه، بل تقاربه في الآيات حتى يشعر القارئ والسامع أن جميع السورة متلاحمة متواصلة المعاني

(١) تفسير العياشي: ج ١، ص ١٩، ح ٣.

(٢) الدر المنثور: ج ٤، ص ١٠٥.

(٣) سورة الزمر: الآية ٢٣.

(٤) سورة الرحمن: الآية ١٣.

والغايات لا يذهب رونقه، ولا تزول لذة قراءته واستماعه، ومن هنا فسّر البعض تشابهه بأنه يشبه بعضه بعضاً، ويصدق بعضه بعضاً، ليس فيه اختلاف ولا تناقض^(١)، وهذه ميزة خاصة بالقرآن؛ لأن كل كلام غيره يمل بال تكرار^(٢)، وبعضهم أرجعها إلى دوام القراءة وتجديدها، باعتبار أنّ سور القرآن تشنّى على مرور الأوقات وتكرر، فلا تدرس ولا تنقطع دروس سائر الأشياء التي تضمحل وتبطل على مرور الأيام^(٣)، وبعضهم أرجع التثنية إلى المعنى لتكرار مواعظه وعبره وقصصه وأمثاله ووعدته ووعيدته، ولازمه تكرار الألفاظ والمعاني، أو المعاني وحدها، وكلا القولين لا يتوافقان مع غاية القرآن وإعجازه، ومخالفان لظهوره.

والحق أن وصف المثاني يحتمل رجوعه إلى أحسن الحديث، ويحتمل إلى الكتاب، ويحتمل إلى التشابه، فإن كان الأول صح ما ذكرناه من تثنيته في الإجمال والتفصيل، وإن كان الثاني كذلك، وإن كان الثالث رجع إلى تماثل الأسلوب واختلاف المعنى والغاية.

أما القولان الآخران فلا يستفادان من المنطوق إلّا بدلالة الاقتضاء بتقدير مقدر محذوف هو التلاوة على القول الأول، والمواعظ والعبر على الثاني، وكلاهما على خلاف الظهور والأصل.

(١) مجمع البيان: ج ٨، ص ٣٩٤.

(٢) مفردات الراغب: ص ١٧٩، (ثنى).

(٣) مجمع البيان: ج ٨، ص ٣٩٤؛ نفحات الرحمن: ج ١، ص ٣٧٥ - ٣٧٦ تفسير الآية المزبورة.

قول المفسرين في المثاني

وبعض المفسرين وجه وصفه بالمثاني بأن قصصه وإخباراته وأحكامه تذكر مثني مثني في قوالب مختلفة؛ للتركيز في الأذهان، ويكون أبلغ في التحدي والإعجاز^(١)، وبعضهم قال لاقران آية الرحمة بآية العذاب^(٢) وهو لا يخلو من غموض، ويحتمل معان:

الأول: أن كل آية فيه تضمنت معنيين وقصتين وحكمين.

الثاني: أن كل قصة وحكم وإرشاد فيه ذكر مرتين في القرآن.

الثالث: أن كل معنى ذكر بأسلوبين رفيعين إعجازيين، وهو من دلائل إعجازه؛ لأن من الصعب التعبير عن المعنى الواحد بأسلوبين فريدين ومعجزين، ولعل هذا أقرب إلى مقصوده، والكل مخالف للوجدان، ومنقوض في موارد عديدة ذكر المعنى أكثر من مرتين، أو ذكرت القصة والمعنى مرة واحدة ولم تكرر، وبآيات عديدة لم تتضمن معنيين.

نعم لو أريد منه أن كل آية متضمنة لإعجازين أحدهما لفظي والآخر معنوي فيكون التماثل فيهما من حيث الجمال والإعجاز كان له وجه، وربما تؤيده رواية محمد بن مسلم عن أحدهما عليهما السلام لما سُئل عن معنى المثاني قال: ﴿فاتحة الكتاب يشي فيها القول﴾^(٣) بناءً على أن المراد من (يشي) التعدد

(١) تقريب القرآن إلى الأذهان: ج ١، ص ٥٥٨.

(٢) مجمع البحرين: ج ١، ص ٧٥، (ثنا).

(٣) تفسير العياشي: ج ١، ص ٢٢، ح ١٧؛ البحار: ج ٨٩، ص ٢٣٦، ح ٥٤.

والعطف وردّ الشيء على بعضه البعض، ويحتمل أن تكون من الثناء أي المدح؛ لأن آيات السورة كلها تضمنت مدح الرب ومدح العبد.

مثنائي الربوبية والعبودية

الوجه الرابع: لأنها تضمنت ركني عالم الوجود الربوبية والعبودية في سبع آيات، نصفها لله ونصفها للعبد كما مر، وبه وردت بعض الأخبار.

الوجه الخامس: أن آياتها السبع المباركة تضمنت أمرين اثنين هما أهم أسباب الوجود المادي والمعنوي، فالبسملة متضمنة صفتين للخالق من أعظم صفاته عليهما يدور الخلق والتكوين، هما الرحمن والرحيم، والآية الثانية فيها الحمد لله ووصفه برب العالمين، والثالثة الرحمن الرحيم، والرابعة وصفه بالمالك ليوم الدين، والخامسة خصصت العبودية لله والاستعانة به: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ والسادسة تضمنت طلب الهداية إلى أمرين هما صراط ومستقيم، وفي السابعة ميزته عن صراطين آخرين هما صراط المغضوب عليهم والضالين، والأول اليهود عند جميع المفسرين من الخاصة والعامة، والثاني النصارى. هكذا ورد في مجمع البيان، وبه وردت رواية محمد بن مسلم عن الإمام الصادق عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله ^(١)، ولنا فيه كلام سنأتي إليه.

وأما قوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ فهو وصف للصراط المستقيم، أو بدل كما في المجمع وغيره ^(٢).

(١) مجمع البيان: ج ١، ص ٧١ - ٧٢.

(٢) انظر مجمع البيان: ج ١، ص ٦٨.

تجدد فوائدها

الوجه السادس: لأنّ فوائدها تتجدد حالاً فحالاً، مأخوذ من الثني وهو التكرار^(١)، وقد وردت صفته في الخبر: ﴿لا يعوجُّ فيقوم، ولا يزيغ فيستعيب، ولا تنقضي عجائبه﴾^(٢)، وعدم انقضاء العجائب يفيد الدوام والاستمرار في جميع الأوقات ولجميع القراء. هذه صفة القرآن، فما بالك بصفة أمّه؟ فإنّ آثارها أبلغ.

المثاني والتوراة

الوجه السابع: أنّه مقابل النص التوراتي الذي يقرأ مثني، أي يقرأ وتعاد قراءته ليفهم أكثر، فقد وضع اليهود كتباً سموها المثناة (المثنا) شبّهوها بالتوراة بأنّها تستحق أن تقرأ مثني، فقال لهم الله تعالى في قوله: ﴿اللّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِي﴾^(٣) لبيان أن ما وصفوه ليس حديثاً حسناً ولا ينفع بتكرار قراءته، والقرآن هو الحديث الحسن، وينفع كلما تكررت القراءة، واسم التفضيل مجرد من التفاضل، فلا يراد أن حديثهم حسن والقرآن أحسن منه، بل ما وصفوه ليس بحسن، فليس تلمودكم وما كتبتموه مثاني، ولا حتى التوراة بعد اليوم، بل هذا القرآن وكله مثاني يستحق أن يقرأ مثني مثني، وفي كل قراءة يفهم

(١) انظر مفردات الراغب: ص ١٧٩، (ثني).

(٢) انظر تفسير الإمام العسكري عليه السلام: ص ١٤، ح ١٤؛ البحار: ج ٨٩، ص ١٨٢، ح ١٨.

(٣) سورة الزمر: الآية ٢٣.

القارئ منه أكثر، وتفتح له أبعاد ومعاني جديدة^(١)، وهذا ما يؤكد الوجدان، فإن لكل قراءة للقرآن إفاضات وفوائد لم تكن في القراءة السابقة لو أمعن القارئ والتفت وتدبر. وتظهر أكثر إذا قرأها العبد مرتين، مرة لفهم الظاهر وتحصيل الثواب عملاً بالأدلة الحاشية على قراءة القرآن، ومرة للتدبر في معانيه عملاً بالأدلة الحاشية على التدبر فيه، فإن من يتبع نهج التثنية في تلاوته تفتح له أبواب كثيرة للمعارف والآثار، وتتجلى على روحه وقلبه وعقله.

مثاني القرآن والعتره ﷺ

الوجه الثامن: أن التثنية العددية ناظرة إلى القرآن والعتره؛ لذا وصفتهم الروايات بأنهم المثاني، وقد ذكروا السر ذلك احتمالات.
منها: لتثنيهم مع القرآن.

ومنها: لتثنيهم مع النبي ﷺ.

ومنها: لأنهم ﷺ ذوو جهتين: جهة روحانية ملكوتية بها يرتبطون بجناحه تعالى ارتباط القرب والتوسط، وجهة بشرية ملكية بها يرتبطون بالخلق، فبالجهة الأولى يستفيضون، وبالجهة الثانية يفيضون؛ لذا يقوم الوجود عليهم ويدور مدارهم تكويناً وتشريعاً^(٢).

(١) انظر مفردات الراغب الأصفهاني مع ملاحظات العاملي: ص ١٨٩، (ثنى) رقم (٢).

(٢) انظر البحار: ج ٢٤، ص ١١٥، ح ١.

السبع المثاني وأقسام الثناء

ثانياً: المثاني بمعنى الثناء والمدح^(١)

يقال: أثنت عليه أي مدحته، وفي النصوص (أثني على الله أحسن الثناء، وأحمده في السراء والضراء)^(٢) ومثاني صيغة مفاعل وترد بمعنى اسم مكان، مثل معاهد ومقاصد، ويراد بها محل الثناء والمدح، ويوصف القرآن بهذا في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِي﴾^(٣) لسبيين:

الأول: لأنه محل المدح فهو ممدوح في نفسه ومثني عليه، وممدوح من يتلوه ويتعلمه ويعلمه ويعمل به ويحترمه، وعلى هذا الوجه وصفه الباري عزَّ وجلَّ بالكرم في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾^(٤) وبالمجد في قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ﴾^(٥) والمجيد صيغة مبالغة من المجد، أي ذو جلال وفضل رفيع الشأن، وعالي المقام، مشتمل على كل الفضائل^(٦)، وكريم لأنه يوصل الغير إلى علو الشأن والمنزلة بعطائه.

والثاني: لأن فيه الثناء على الأنبياء والرسل والملائكة والمؤمنين والأعمال الصالحة، وذم الشيطان وأتباعه والأعمال القبيحة، وقد خصصت سورة

(١) لسان العرب: ج ١٤، ص ١٢٤، (ثني).

(٢) الإرشاد (للمفيد): ج ٢، ص ٩١؛ البحار: ج ٤٤، ص ٣٩٢؛ الفتاوي الجديدة:

ج ٢، ص ٥.

(٣) سورة الزمر: الآية ٢٣.

(٤) سورة الواقعة: الآية ٧٧.

(٥) سورة البروج: الآية ٢١.

(٦) انظر معجم الفروق اللغوية: ص ٤٨٢، (١٩٤٣).

الحمد بهذا الوصف لوجوه:

الوجه الأول: لأنها تضمنت نصفين: نصف فيه ثناء العبد وحمده وشكره لربه، ونصف آخر عطاء الرب للعبد، والعطاء الإلهي مظهر لرحمته ورضاه عن عبده، وهو من الثناء بالعمل؛ لتنزهه سبحانه عن العوارض الحادثة حسب قاعدة خذ الغايات واترك المبادئ، وإليه يعود قول بعض المفسرين في وجه تسميتها بالمثاني بأنها أثنى على الله تعالى ومدائح له ^(١).

الوجه الثاني: لأنها كاملة في الثناء متفوقة على غيرها في الفضل، مأخوذ من الثنى، وهو الكامل في السؤدد، والمتفوق في الفضل على غيره كما في لسان العرب ^(٢)، ولعل الروايات التي فسرت السبع المثاني بمحمد وآل محمد ﷺ ناظرة إلى هذا المعنى.

ففي تفسير العياشي عن الإمام الباقر عليه السلام قال: ﴿نحن المثاني التي أُعطي نبينا﴾ ^(٣) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي﴾ ^(٤) ولعل وصفهم بالمثاني يعود إلى كونهم مجمع كل ثناء ومدح.

مراتب الثناء

وبيان ذلك: أن الثناء له خمس مراتب:

الأولى: ثناء الذات، والمراد به صفات الكمال المتجلية في الذات، فإنها

(١) تفسير الرازي: ج ١، ص ١٦١؛ روح المعاني: ج ١، ص ٥٢.

(٢) لسان العرب: ج ١٤، ص ١٢٢، (ثني).

(٣) تفسير العياشي: ج ٢، ص ٢٤٩ - ٢٥٠، ح ٣٦.

(٤) سورة الحجر: الآية ٨٧.

دالة على كمال الخالق وصفاته الكاملة.

الثانية: ثناء العلم والمعرفة، والمراد به العلم الصحيح الذي يظهر أثره على الإنسان فيهديه إلى رشده وصوابه، في مقابل العلم الذي يهوي بالإنسان ويقوده إلى القبائح.

الثالثة: ثناء الفعل، والمراد به الأفعال الطيبة التي توجب المدح والشكر، كالرحمة والمحبة والسماحة ونحوها في مقابل صفات الذم، وهذه الثلاثة مجتمعة فيهم عليه السلام وهم محل لها.

الرابعة: ثناء العبادة ويختص بهم، وكل ثناء آخر في العبادة يعود إليهم، فإنهم بوجودهم الروحي والبدني الكامل مجلى صفات الله وجماله وجلاله، فهم مجمع الفضائل وما يستحق الثناء فيهم، وهم أيضاً الذين يثنون عليه تعالى أفضل الثناء من جهة المعرفة به وبخصائصه، وما يليه بشأنه سبحانه.

أسماء الله توقيفية

فليس كل مدح يليق بالباري؛ لذا قالوا بأن أسماء الله توقيفية، وليس يصح نسبة بعض الأسماء إليه مع أن الفعل والتوصيف صادق مثل (الحارث) و(الزارع) قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ * أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾^(١)، ومع ذلك لم يرد في أسمائه الحسنى الحارث والزارع، فالفعل صادق وأنه منه تعالى ولكن توصيفه به لا يليق، ومن هنا يشكل على الحكماء وأمثالهم من إطلاق التسميات عليه سبحانه بما لا تليق بشأنه، مثل: (واجب

(١) سورة الواقعة: الآيتان ٦٣ و ٦٤.

الوجود) أو: (العلة) أو: (علة الأشياء) بينما يليق به توصيفه: (بالصانع) و: (الخالق) و: (الموجد) كما ليس كل ما يليق يحسن أن يفعله العبد دون رضاه سبحانه؛ لأنَّ أسماؤه كالعبادة بالصلاة والصيام والحج، لا يمكن للعبد أن يضيف شيئاً إلى الصلاة مثلاً ولو بقصد العبادة، أو يحذف شيئاً منها مع أن العبادة تليق بشأنه وهي من مراتب الثناء عليه، ولكن ليس كل عبادة يحسن أن يفعلها العبد إلا برضاه، وما يقال في الصلاة والصيام يقال في الدعاء وقراءة القرآن، فإنَّ الذي يلاحظ ما صدر منهم من أدعية ومناجاة وما ورد من غيرهم يعرف التفاوت الكبير في علو الكلام وتفوقه في المعنى والمضمون، وبعض الأدعية التي ينشئها بعض الناس يدرك من له معرفة بأساليب الكلام أنَّها لا تليق بشأنه سبحانه، ولذلك شواهد لا يسعها المجال. وكذا قراءة القرآن فإن لها طريقة خاصة هي قراءة أمير المؤمنين عليه السلام. هذه هي الطريقة اللائقة لقراءة القرآن، أمَّا الطرق الأخرى التي صدرت عن اجتهادات القراء فالخلل في بعضها ظاهر.

آل محمد عليهم السلام مجمع الثناء

الخامسة: ثناء الذكر، فإنَّه لا يوجد في التاريخ البشري رجال إلهيون خُلدوا بالمدح والثناء، ومدحهم يجري على جميع الألسنة حتى على ألسنة أعدائهم، والذين نصبوا لهم العداء تظاهروا بالعداء لهم ولكن في قلوبهم يعلمون بأنَّهم أرقى البشر علماً، وأفضلهم عملاً، وأكملهم أخلاقاً، وأقربهم إلى الله، فكان مدحهم يجري على ألسنتهم، حتى أن الدَّ أعدائهم وأكثرهم طغياناً تعذر عليهم أن ينالوا منهم بقدرح أو تجريح، فعادوا شيعتهم وأتباعهم حقداً منهم،

فهذا العداء الذي ينصب إلى الشيعة هو مظهر للعداء مع محمد وآل محمد ﷺ، ولكن لا يجرؤ أحد أن يتظاهر بالقدح والتجريح لهم مباشرة؛ لأنه في وجدانه يدرك خطأ قوله، وينفضح كذبه وجحوده، وهذا يتوافق مع حمل المثاني على المصدر الميمي بمعنى اسم المفعول أيضاً، فالثناء الكامل على الله سبحانه لا يظهر إلاً بحقائقهم النورية، وبعلمهم وبأفعالهم وعباداتهم، فهم محل اجتماع صفات المدح الإلهي، فوصفوا بالمثاني أي مجمع الثناء.

المثاني والأئمة السبعة ﷺ

الوجه الثالث: لأنها أشرف من خلق الله، ومحل المدح والثناء الذين هم مجمع الثناء في تدبير شؤون العالم، والقدرة الإلهية في الوجود مثاني فيها. نعم ورد في بعض الروايات ثلاث دلالات خاصة تشير إلى هذا المعنى:

الأولى: تفسير القرآن برسول الله ﷺ، والسبع المثاني بالسبعة الأئمة ﷺ الذين يدور عليهم الفلك، ففي رواية سماعة عن أبي الحسن ﷺ في معنى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ قال: ﴿لم يعط الأنبياء إلاً محمداً ﷺ وهم السبعة الأئمة الذين يدور عليهم الفلك، و ﴿الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ محمد ﷺ﴾^(١).

وفي رواية فرات الكوفي بسنده عن الإمام الباقر ﷺ: ﴿إن ﴿وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ هو علي بن أبي طالب ﷺ﴾^(٢).

(١) تفسير العياشي: ج ٢، ص ٢٥١، ح ٤١.

(٢) تفسير فرات: ص ٢١، ح ٣١٠؛ البحار: ج ٢٤، ص ١١٨، ح ١٠.

الثانية: تفسير ﴿وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ بالقائم المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف، ففي رواية القاسم بن عروة عن أبي جعفر عليه السلام في معنى الآية قال: ﴿سبعة أئمة والقائم عليه السلام﴾ ^(١) والعطف يقتضي المغايرة، فالمثاني هم الأئمة السبعة من الباقر إلى العسكري عليه السلام، والقرآن هو المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف بشهادة كونها واردة عن الإمام الباقر عليه السلام.

الثالثة: تفسير السابع من السبعة من الأئمة بالمهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف، ففي رواية يونس بن عبد الرحمن عن الإمام الصادق عليه السلام في معنى الآية قال: ﴿إن ظاهرها الحمد وباطنها ولد الولد، والسابع منها القائم عليه السلام﴾ ^(٢) ويحتمل أن يكون المراد به السابع من الإمام الصادق عليه السلام؛ لأن الرواية عنه عليه السلام ^(٣).

الرابعة: تفسير النبي والصديقة الطاهرة وسائر الأئمة عليه السلام بالمثاني ﴿وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ بولد الولد، ففي تفسير العياشي عن حسان العامري قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ قال: ﴿ليس هكذا تنزيلها إنما هي (ولقد آتيناك سبع مثنائي) نحن هم﴾ ﴿وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ بولد الولد ^(٤).

والسبع المثاني الأربعة عشر معصوماً عليه السلام كما تقتضيه القرينة الداخلية،

(١) تفسير العياشي: ج ٢، ص ٢٥٠، ح ٣٩.

(٢) تفسير العياشي: ج ٢، ص ٢٥٠، ح ٣٧.

(٣) انظر البحار: ج ٢٤، ص ١١٧، ذيل ح ٩.

(٤) تفسير العياشي: ج ٢، ص ٢٥٠، ح ٣٨؛ البحار: ج ٢٤، ص ١١٧، ح ٧.

وتأويل ﴿وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ بولد الولد يشير إلى أولادهم وذرياتهم من أولياء وعلماء ربانيين، فإنهم يحيون القرآن ومعارفه وأحكامه على طول الزمان.

مراتب نزول القرآن

وقوله ﷺ: ﴿ليس هكذا تنزيلها﴾ لا يحمل على نفي التنزيل الأول؛ لما قرنا غير مرة من أن القرآن الكريم لم ينزل مرة واحدة بل أكثر من مرة، والمرة الأولى نزل بالنزول العلمي على قلب رسول الله ﷺ: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ﴾^(١) ومرة نزل بالنزول العيني الكتابي ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ﴾^(٢) و ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾^(٣) ومرة نزل بنزول القراءة: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾^(٤) ونزل نزول المعنى والتفسير، وبيان الأسرار والغوامض أكثر من مرة بحسب الدواعي والمقتضيات. وبهذا يتضح وجه الجمع بين الروايات التي ظاهرها الزيادة والنقيصة، واختلاف المفردات والكلمات ونحوها كما في هذه الرواية، فإن ذلك كله محمول على تعدد النزول، وأما القرآن بوجوده اللفظي والكتبي نزل على رسول الله ﷺ بلا زيادة ولا نقيصة ولا تحريف، والبحث فصلناه في سورة القدر.

ونستتج من مجموع الروايات حقائق عديدة:

(١) سورة الشعراء: الآيتان ١٩٣ و ١٩٤.

(٢) سورة الدخان: الآية ٣.

(٣) سورة القدر: الآية ١.

(٤) سورة القيامة: الآية ١٨.

هم عليهم خلاصة الحمد

الحقيقة الأولى: أنّ المعصومين عليهم هم خلاصة سورة الحمد، وآياتها سبع، وكل آية منها مثناة كما بيناه سابقاً، فكذلك المعصومون، وقد مر في بحث اسمها (أم الكتاب) ما يزيد ذلك بياناً.

المعصومون والقرآن العظيم

الحقيقة الثانية: أنّ كل واحد منهم هو قرآن عظيم، واختلاف الروايات ناظر إلى بيان وجود الكمالات فيهم، فالرواية التي في مقام بيان عظمة النبي ﷺ وصفته بالقرآن العظيم مقابل السبع المثاني وهم الأئمة عليهم، وكذا الأخرى التي وصفت أمير المؤمنين عليه السلام بالقرآن العظيم، والثالثة التي وصفت المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف في هذا المقام، فإن تعدد المعنى يكشف عن أنّ الروايات في مقام بيان المصاديق أو أظهرها لا حصر الدلالة، وحيث إنّ الأصل الاشتراك في الفضل بين سائر المعصومين عليهم، فكان كل منهم قرآناً عظيماً من جهة، وهو من السبع المثاني الذين دار عليهم الفلك من جهة أخرى.

الأئمة عليهم الذين دار عليهم الفلك

الحقيقة الثالثة: أنّ معرفة الأئمة السبعة الذين يدور عليهم الفلك وأشارت إليهم رواية سماعه عن الإمام الكاظم عليه السلام تتوقف على معرفة الفلك. فإنّ الفلك قد تقرأ بضم الفاء وسكون اللام وهي السفينة، وإليه يشير قوله

تعالى: ﴿وَالْفُلْكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ﴾^(١) ويستفاد من الأخبار أن الفلك يطلق على المأمّن الذي فيه الهداية من الضلال، كحديث السفينة النبوي^(٢)، والنبوي الآخر في وصف الإمام الحسين عليه السلام، وأنه على ساق العرش مكتوب أنه مصباح هدى وسفينة نجاة^(٣)، وفي الاستعمالات العرفية إطلاق السفينة على كل ما فيه النجاة شائع، وقد تقرأ بالفتح واحد الأفلاك، وهي النجوم، أو مجرى النجوم والكواكب، كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾^(٤) وأصله من الاستدارة، فإنّ كل مستدير فلك، ومنه الدوران في الشارع يقال له فلكة، ويطلق على النجوم والسفينة فلك لاستدارته^(٥) فتكون النجوم والسفينة من التعريف بالمصداق لهذا المعنى، ودوران الفلك على الأئمة أي حركته وجوداً وبقاءً وأثراً، ويشتمل على معان:

الأول: دوران فلك التكوين في السموات، فإذا كان هذا مقامها في السماوات كان هذا مقامها في الأرضين؛ لأنّ عالم السماوات أوسع وأشمل من عالم الأرضين، وهذا يتوافق مع الفتح.

الثاني: دوران الفلك في الهداية والضلال والاستقامة والانحراف والعلم والجهل، وهذا يتوافق مع ضمها.

(١) سورة البقرة: الآية ١٦٤.

(٢) الوسائل: ج ٢٧، الباب ٥ من أبواب صفات القاضي، ص ٣٤، ح ٣٣١٤٥.

(٣) البحار: ج ٣٦، ص ٢٠٥، ح ٧.

(٤) سورة يس: الآية ٤٠.

(٥) مجمع البحرين: ج ٥، ص ٢٨٥، (فلك)؛ وانظر البحار: ج ٨٧، ص ١٠٧.

الثالث: دوران الأحداث والوقائع واستدارة الأيام على أهل الدنيا، فمن كان عزيزاً قد تدور أيامه فيدل، ومن كان حاكماً يصبح محكوماً، وهذا يتوافق مع معناها اللغوي الجامع أي السفينة.

الأئمة عليهم السلام مدار الفلك

وبهذا يتضح أنّ الأئمة المخصوصين بالذكر تحتل ثلاثة وجوه تعود إلى معاني الفلك.

الأول: الذين يدور عليهم فلك التكوين وهم أصحاب الأسماء الخاصة غير المتكررة؛ وهي علي والحسن والحسين ومحمد وجعفر وموسى والمهدي عليهم السلام باعتبار النهي عن ذكر اسمه الخاص صلوات الله عليه، ودوران الفلك على أسمائهم باعتبار تأثير أسمائهم عليهم السلام فيه، وإن كان نحو التأثير في ذلك مجهولاً لنا؛ إذ لا شك أنّ للأسماء المقدسة آثاراً تكوينية، كما أنّ لأسماء الله سبحانه تأثيراً تكوينياً، فكل اسم من أسمائه المباركة له أثره الخاص. ورد ذكر بعضها في الروايات بشأن الأدعية والأذكار، وقال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾^(١) والأمر بالدعاء بها معناه اتخذوها واسطة بينكم وبينه، فمن أراد الوصول إلى غاياته فليطرق باب الله عبر أسمائه، ولكل اسم نوع تأثير خاص، فمثلاً (يا شافي) ينفع في معالجة الأمراض، و(يا كافي) ينفع في المهمات، و(يا هادي) ينفع في الهداية من الضلال وهكذا.

(١) سورة الأعراف: الآية ١٨٠.

الآثار التكوينية لأسمائهم ﷺ

كذلك الأئمة عليهم السلام فإنهم أسماء الله الحسنى، وبهم تجلّت صفاته العليا، وقد اشتقّ الباري أسماءهم من أسمائه وصفاته، فلا بد وأن يكون لأسمائهم الآثار العظيمة، وقد نص القرآن على وجوب اتخاذهم الوسيلة إليه في الأعمال والأدعية، وورد في بعض الأخبار ما يستفاد أنّ لكل اسم من أسمائهم الشريفة عليهم السلام آثاره الخاصة.

فقد وردت في روايات عديدة صلاة الاستغاثة بفاطمة عليها السلام، وأنها من الصلوات التي لها آثار مهمة في قضاء الحوائج ذكرها جملة من الأعلام في كتبهم مثل المجلسي في البحار^(١)، والنوري في المستدرك^(٢)، والطبرسي في مكارم الأخلاق^(٣)، والكفعمي في البلد الأمين^(٤).

وفي رواية علي بن أبي حمزة عن أبي إبراهيم عليه السلام - في حديث - قلت: ﴿جعلت فداك! إن أذنت لي حدثك عن أبي بصير عن جدك: أنّه كان إذا وعك استعان بالماء البارد فيكون له ثوبان: ثوب في الماء البارد، وثوب على جسده يُرواح بينهما، ثم ينادي حتى يسمع صوته على باب الدار: يا فاطمة بنت محمد! فقال: صدقت﴾^(٥).

(١) البحار: ج ٨٨، ص ٣٥٦، ح ١٩.

(٢) مستدرك الوسائل: ج ٦، ص ٣١٣، ح ٦٨٩١.

(٣) مكارم الأخلاق: ص ٣٣٠.

(٤) البلد الأمين: ص ١٥٩.

(٥) الكافي: ج ٨، ص ١٠٩، ح ٨٧؛ الوسائل: ج ٢، الباب ٢١ من أبواب الاحتضار وما يناسبه، البحار: ج ٥٩، ص ١٠٢، ح ٣١.

وقد ذكر بعض الأفاضل أنّ صلاة الاستغاثة بفاطمة والمناداة باسمها في وقت الوعكات - لاسيما أمراض العفونة والحمى - من المجربات التي أثبتت التجارب الكثيرة أثره^(١)، ونلفت النظر إلى أمور:

أثر اسم فاطمة عليها

الأول: أنّ الإمام المعصوم عليه السلام إذا استشفى باسم فاطمة عليها دلّ على عظمة هذا الاسم وأثره، وهذا يتوافق مع معنى فاطمة، فإنّه مأخوذ من الفطم أي القطع، فكما تظلم شيعتها من النار تقطعهم من الأمراض والآفات.

الثاني: أنّ الحمى تخفف بواسطة الماء البارد والكمادات، وهذا ما لم يؤسسه الطب الحديث، بل أخذ منهم عليه السلام.

الثالث: أنّ لذكر اسم فاطمة وبصوت عالٍ إمّا تمام الأثر في رفع الحمى والوعكة، وأمّا الكمادات فوسيلة وأداة، نظير النجّار الذي يصنع السرير بقوته الفكرية وملكته، أمّا المسمار والمنشار فأدواته، وإمّا من باب اجتماع سببين مادي هو الكمادات، ومعنوي هو ذكر اسم فاطمة عليها، وكونه بصوت عالٍ؛ لأنّ الصوت العالي ربما يدفع السموم من داخل البدن إلى الخارج، أو يشعر الروح بالقوة والنشاط، فيكون المجموع من حيث المجموع سبب العلاج.

وتضافر في الأخبار أنّ الأنبياء كانوا يعرفون أسماء الخمسة الطيبة، ويدعون الله بهم في الشدائد، ويتوسلون إليه بأسمائهم حتى في إظهار معجزهم، وهناك

(١) أسرار فضائل فاطمة عليها السلام: ص ٣٦٠.

جملة من الوثائق المقررة في التراث العالمي تشهد لهذه الحقيقة.

وورد في استسقاء أبي طالب عليه السلام لما أصابهم الجذب أنه قال: ﴿اللهم بالمحمدية المحمودية والعلوية العالية والفاطمية البيضاء إلا أن تفضلت على تهامة بالرأفة﴾ وكان أهل مكة يتوسلون بهذه الكلمات في جميع الشدائد وينالون مرادهم ^(١).

التبرّك باسمها عليها السلام

ومن هنا سمّت بعض البيوتات أسماء بناتهم فاطمة قبل ولادة الصديقة الطاهرة تيمناً وتبركاً باسمها الشريف؛ لأنّ اسمها كان معروفاً بالبركة وعلو المقام، ويعززه قولهم عليها السلام: ﴿وعلى معرفتها دارت القرون الأولى﴾ ^(٢) وكذا سائر أسمائهم؛ لأنّها ذكرت في الكتب السماوية وبشّر بها الأنبياء، ويعززه ما ورد في القرآن من ذكر عيس عليه السلام للنبي صلّى الله عليه وآله وتبشير قومه به، ولأهل الأذكار والأوراد والرياضات الروحية كلام مفصل في بركات أسمائهم الشريفة وآثارها، وطريق لذكرها والتوسل بها ^(٣).

الأئمة عليهم السلام الذين هم مدار العلم

الثاني: الأئمة الذين دار عليهم فلك الهداية وانتشار العلوم والمعارف والمعجزات أكثر من غيرهم، وشواهد التاريخ والروايات الواصلة إليها تشهد

(١) الخصائص الفاطمية: ج ١، ص ٢٧٧.

(٢) البحار: ج ٤٣، ص ١٠٥، ح ١٩.

(٣) انظر الخصائص الفاطمية: ج ١، ص ١٢٢.

لهذه الحقيقة. ثلاثة منهم شهد القرآن والسنة أئمتهم حملة العرش الإلهي وهو العلم، وهم علي والحسن والحسين عليهم السلام^(١)، وأربعة شهدت الوقائع التاريخية والروايات الواصلة أن الفرصة سنحت لهم لترويج العلوم الإلهية، وهم الباقر والصادق والكاظم والرضا عليهم السلام، وفي بعض الأخبار فسر العرش بالقدرة أيضاً، ولعل السبعة الشريفة ظهرت عليهم آيات الله وقدرته أكبر^(٢).

الأئمة عليهم السلام وفلك الأحداث السياسية

والثالث: الأئمة الذين دار عليهم فلك المقادير والأحداث السياسية والاجتماعية، والمعنى أنّ السبعة الشريفة هم أكثر من دارت عليهم الأحداث وتبدلت الأوضاع الاجتماعية والسياسية، وهم أمير المؤمنين عليه السلام عاصر فترة البعثة وتأسيس الإسلام، ثم الانقلاب والانفلات الاعتقادي والأمني، والإمام الحسن عليه السلام عاصر تبدل الخلافة إلى ملوكية، والإمام الحسين عليه السلام ظهر في عصره الكفر والإلحاد والتجرؤ على الدين وأهله، وانتهاك حرمة الرسول وأهل بيته عليهم السلام، والباقر والصادق عليهما السلام فترة سقوط الأمويين وظهور دولة بني العباس، والكاظم عليه السلام عاصر فترة قوة دولة بني العباس وظهور فسادها، والرضا عليه السلام عاصر فترة المأمون التي ظهرت فيها سياسة تغيير المفاهيم الإسلامية وإدخال الثقافات الباطلة على المجتمع المسلم؛ لذا خاض الإمام الرضا عليه السلام جولات طويلة من المحاورات

(١) تفسير القمي: ج ٢، ص ٣٨٤؛ تأويل الآيات الباهرة: ج ١، ص ٦٩١.

(٢) انظر الكافي: ج ١، ص ١٣٠، ح ٢.

العلمية لإبطال الدعاوى الباطلة التي ظهرت في عصره بدعم من السلطة.

المأمون يعد لمناظرة الرضاء عليه السلام

فقد روي في الاحتجاج عن الحسن بن محمد النوفلي أنه قال: لما قدم علي بن موسى الرضا صلوات الله عليه على المأمون أمر الفضل بن سهل أن يجمع له أصحاب المقالات مثل: الجاثليق ورأس الجالوت ورؤساء الصابئين والهريذ الأكبر وأصحاب زردشت ونسطاس الرومي والمتكلمين ليسمع كلامه وكلامهم، فجمعهم الفضل بن سهل، ثم أعلم المأمون باجتماعهم، فقال: أدخلهم عليّ. ففعل، فرحب بهم المأمون ثم قال لهم: إنّما جمعتكم لخير، وأحببت أن تناظروا ابن عمي هذا المدني القادم عليّ، فإذا كان بكرة فاغدوا عليّ ولا يتخلف منكم أحد. فقالوا: السمع والطاعة... وأرسل المأمون إلى الرضاء عليه السلام ياسر الخادم الذي كان يتولى أمر أبي الحسن ليخبره بموعد المناظرة. قال الحسن بن محمد النوفلي: فلما مضى ياسر التفت إلينا ثم قال لي: يا نوفلي! أنت عراقي ورقة العراقي غير غليظة - أي رقيق وذكي -، فما عندك في جمع ابن عمي علينا أهل الشرك وأصحاب المقالات؟ فقلت: جعلت فداك! يريد الامتحان، ويجب أن يعرف ما عندك، ولقد بنى على أساس غير وثيق، وبئس والله ما بنى... قال: فتبسم عليه السلام ثم قال: ﴿يا نوفلي! أتحاف أن يقطعوا عليّ حجتي؟﴾ قلت: لا والله ما خفته عليك قط، وإني لأرجو أن يظفرك الله بهم إن شاء الله.

فقال لي: ﴿يا نوفلي! أتحب أن تعلم متى يندم المأمون؟﴾ قلت: نعم. قال: ﴿إذا سمع احتجاجي على أهل التوراة بتوراتهم، وعلى أهل الإنجيل

بإنجيلهم، وعلى أهل الزبور بزبورهم، وعلى الصابئين بعبيرانيته، وعلى الهرايدة بفارسيته، وعلى أهل الروم بروميتهم، وعلى أهل المقالات بلغاتهم، فإذا قطعت كل صنف ودحضت حجته وترك مقالته ورجع إلى قولي، علم المأمون أنّ الذي هو بسيله ليس بمستحق له، فعند ذلك تكون الندامة منه، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم...^(١).

المثاني والاصطفاء الإلهي لآل محمد ﷺ

ثالثاً: من الثنية أي الاستثناء، ومنه قولهم الشهداء ثنية الله في الأرض؛ لأنهم مستثنون من القواعد العامة في المقام وفي المزايا، فهم الممدوحون أصحاب المكانة والافتداء بين أهل الأرض، وبعد الموت يبقون أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله، ويستثنون من الصعقة الأولى التي أشار إليها قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾^(٢) ووصفت سورة الحمد بها باعتبار أنّ الله سبحانه استثنى وادخرها لهذه الأمة، ولم ينزلها على الأمم السابقة كما في الرواية^(٣)، وبهذا الاعتبار وصف محمد وآل محمد ﷺ بالثاني؛ لأنّ الله سبحانه اصطفاهم واستثناهم من دون سائر الخلائق بأصناف عديدة من الاصطفاء. منها: اصطفاء العنصر الطيني، فأجسادهم مخلوقة من تراب عليّين، وهو

(١) التوحيد: ص ٤١٧ - ٤١٩، ح ١؛ الاحتجاج: ج ٢، ص ١٩٩ - ٢٠١.

(٢) سورة الزمر: الآية ٦٨.

(٣) انظر تفسير الميزان: ج ١٤، ص ١٩٠؛ تفسير القرطبي: ج ١، ص ١١٧؛ تفسير الرازي: ج ١، ص ١٦١.

أشرف تراب في الجنة.

ومنها: اصطفاء الروح، فأرواحهم مخلوقة من نور الله سبحانه.

ومنها: اصطفاء الطهارة في أصلاب الآباء والأمهات، فلم يدخل في تسلسل وجودهم الدنيوي شرك أو كفر أو نفاق، فهم أصفياء وأبناء أصفياء، ذرية بعضها من بعض.

ومنها: اصطفاء العلم والقدرة والعصمة، إلى غير ذلك من مراتب الاصطفاء التي تميزهم بالمزايا الإلهية عن سائر الخلائق.

والبحث في مدلول قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ مفصل، وله فوائد جمة نوكله إلى محله.

السورة الشافية

الاسم السادس: الشافية، وهو من الأسماء المنصوصة، ففي الخبر الوارد بطرق الفريقين فاتحة الكتاب شفاء من كل داء^(١)، وقد ورد وصف الشافي لعموم آيات القرآن؛ إذ قال سبحانه: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ^(٢)﴾ وقال عز وجل: ﴿وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ^(٣)﴾ أي ينزل منه شفاء أمراض البدن والروح بإرادته، إلا أن سورة الحمد بالخصوص اختصت بالشفاء ومعالجة الأمراض البدنية والروحية، وقد ورد في الأخبار عن

(١) مجمع البيان: ج ١، ص ٨٧؛ سنن الدارمي: ج ٢، ص ٤٤٥.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٨٢.

(٣) سورة يونس: الآية ٥٧.

الإمام الصادق عليه السلام: «أن اسم الله الأعظم مقطع في أم الكتاب»^(١)، والاسم الأعظم مدار التأثير في الكتاب التكويني، وإذا قُطِع الاسم على آيات السورة دلّ على أن لكل آية من آياتها أثراً من آثار الاسم الأعظم، وقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام لما سئل عن فائدة حروف الهجاء. قال عليه السلام: «ما من حرف إلّا وهو اسم من أسماء الله عزّ وجلّ»^(٢).

وفي ذلك دلالة على أن اللغة التي يتكلم بها الناس من وضع الله سبحانه وليس من اختراعات البشر، وأنّ للحروف آثاراً نجهلها.

وفي رواية سلمة بن محرز قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: «من لم يبرئه الحمد لم يبرئه شيء»^(٣).

وفي رواية جابر عن النبي صلّى الله عليه وآله: «أنّما شفاء من كل داء إلّا السام والسام الموت»^(٤).

وفي رواية معاوية بن عمار عن الإمام الصادق عليه السلام: «لو قرئت الحمد على ميت سبعين مرة ثم ردت فيه الروح ما كان ذلك عجباً»^(٥).

وفي رواية أخرى ورد: «ما قرئت الحمد على وجع سبعين مرة إلّا سكن»^(٦).

(١) ثواب الأعمال: ج ١، ص ١٠٤.

(٢) التوحيد: ص ٢٣٥، ح ٢.

(٣) الكافي: ج ٢، ص ٦٢٣، ح ٢٢.

(٤) مجمع البيان: ج ١، ص ٤٨.

(٥) الكافي: ج ٢، ص ٦٢٣، ح ١٦.

(٦) الكافي: ج ٢، ص ٦٢٣، ح ١٥.

وفي أخرى عامية: ﴿إِنَّهَا شِفَاءٌ مِنْ كُلِّ سَمٍ﴾^(١).

شفاء الأمراض بالسورة

ومنطوق هذه الروايات دال على أمور:

الأول: أن الشفاء بالسورة حتمي؛ لأنّ الطبيب هو الذي خلق الإنسان وهندس وجوده ومحيط بأسراره وخفياه، وهو العارف بدوائه، ولكن يجب أن تتوفر شرائطه وترتفع موانعه حتى يظهر، ومن هذه الشروط الولاية لآل محمد ﷺ كما يستفاد من رواية يعقوب بن شعيب عن الإمام الصادق عليه السلام^(٢).

الثاني: أنّ الأمراض المستعصية بما فيها أمراض الموت يمكن أن تعالج بسورة الحمد، وفي ذلك دلالة على أنّ الموت مرض تخرج به الروح من الجسد، ويمكن إعادتها بسورة الحمد إذا توفرت الشروط وارتفعت الموانع.

الثالث: أنّ سورة الحمد لا تعالج الأمراض البدنية فقط، بل وأمراض الروح والأمراض النفسية والوساوس ونحوها من أمراض صارت في هذه الأيام من أمراض العصر، وقد ثبت بالتجارب الكثيرة معالجة الأمراض البدنية والروحية بآيات القرآن والأذكار والأدعية، وسورة الحمد جامعة لخصائص الآيات والأذكار والأدعية، وهي خلاصة القرآن الكريم.

(١) تفسير القرطبي: ج ١، ص ١١٧؛ تفسير الرازي: ج ١، ص ١٧٦.

(٢) انظر الكافي: ج ٢، ص ٦٢٠، ح ٢؛ مواهب الرحمن: ج ٤، ص ٢٦٨.

أنحاء الشفاء بسورة الحمد

والشفاء النازل بها يقع على أنحاء:

الأول: بنحو السببية الخفية التي لا ندرك كيفيتها بالحواس وإنما ندركها بالتجارب، بمعنى أنّ آيات السورة في نفسها لها تأثير في الأمراض، وتدفع عللها. مثلها مثل الدواء. وقد مرّ أنّ فيها الاسم الأعظم وهو مدار التأثير في الوجود.

الثاني: بنحو العناية الإلهية، فبركة السورة يُقدّر الله عزّ وجلّ الشفاء وينزله على البشر، ولو التفت المعنيّون إلى هذه الحقيقية وجعلوا معاهد ومدارس ومختبرات لدراسة أسرار سورة الحمد الطبية لربما توصلوا إلى حقائق تمكنهم من معالجة الأمراض بما فيها المستعصية على الطب كالسرطان والسكر وأمراض الموت والإقعاد والجنون والصرع ونحوها.

الثالث: كلاهما معاً، بمعنى أنّ لذات الآيات جزء التأثير وللعناية الإلهية الجزء الآخر المكمل، فإذا قرأها بعض من له الأهلية - بالشروط الخاصة - ظهر الأثر.

الرابع: بنحو التحصين والدفع، أي الوقاية من المرض، وليس فقط العلاج بعد وقوعه، وهذه قضية لو التفت إليها الناس وواظبوا في أذكارهم ومجالسهم ورواحهم ومحيئهم على قراءة القرآن عموماً وسورة الحمد خصوصاً، لنجو من الكثير من الأمراض والعلل الجسدية والروحية قبل وقوعها، فإنّ الباري عزّ وجلّ ينزل من القرآن ما هو شفاء، وخصص بركات الشفاء في سورة الحمد أكثر.

وهذه قضايا باتت معروفة حتى في الطب، فإنّ الدواء لا يكون سبباً تاماً

للتأثير في الغالب، وإنما للحالة النفسية للمريض أثر في العلاج، فيشارك الاثنان معاً في المعالجة، وقد يعطى بعض الأدوية التي تزيد من قوة الدفاع وترفع قوة المناعة في الجسم لكي يتغلب على المرض، وهكذا يمكن أن تكون سورة الحمد، بل تأثيرها أكبر؛ لأنها تعمل على الروح وقوة الروح وشدة ارتباطها بالله سبحانه حتى تفيض عليها الخيرات والبركات.

القدماء ماتوا بالآجال لا بالأمراض

وتثبت التحقيقات أن الأمراض اليوم في تزايد مستمر، وفي كل يوم تأتي أمراض لم تكن معروفة من قبل، وكلما تطور الطب استحدثت أمراض يعجز عنها، بينما نسمع ونقرأ في التاريخ أن الناس في الأزمنة السابقة كانوا أقل عرضة للأمراض، وكانت أمراضهم معروفة، وكانوا يموتون بالآجال أكثر مما يموتون بالأمراض. والسر في ذلك هو أن السابقين كانوا أكثر اهتماماً بالقرآن وقراءته والتعلم منه.

وهذا ما تؤكد الروايات، ففي رواية هشام بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ﴿أما إنه ليس من عرق يضرب، ولا نكبة ولا صداع ولا مرض إلا بذنب، وذلك قول الله عز وجل في كتابه: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾^(١) قال: ثم قال: وما يعفو الله أكثر مما يؤاخذ به^(٢). والعرق الأوردة والشرابين التي يجري فيها الدم^(٣)، والنكبة

(١) سورة الشورى: الآية ٣٠.

(٢) الكافي: ج ٢، ص ٢٦٩، ح ٣.

(٣) انظر مجمع البحرين: ج ٥، ص ١٤٨، (عرق).

مادية ومعنوية، والأولى وقوع الرجل على الحجارة عند المشي^(١)، والثانية المصيبة والطوارئ التي يبتلى بها الإنسان، والصداع وجع الرأس. أما المرض فهو كل سقم يخرج الإنسان عن الصحة البدنية كالحُمى، والروحية كالنفاق والشك^(٢).

والإمام صلوات الله عليه يجب عن سؤال قد يخطر على الأذهان، وهو أنّ الكثير من العصاة والمذنبين قد لا يصابون بالأمراض؟ فأجاب بأن الله سبحانه ما يعفو عنه أكثر مما يؤاخذ به؛ لذا ورد في الأدعية: ﴿يقبل اليسير ويعفو عن الكثير﴾^(٣).

سبب استحداث الأمراض

على أنّ الكثير من النوازل تنزل بالإنسان بسبب ذنوبه ومعاصيه لكنه غير ملتفت.

وفي رواية الإمام الرضا عليه السلام بيان للعلّة من انتشار الأمراض في هذه الأزمنة، وتعسر علاجها. قال عليه السلام: ﴿كلّما أحدث العباد من الذنوب ما لم يكونوا يعملون أحدث الله لهم من البلاء ما لم يكونوا يعرفون﴾^(٤) وهي دالة على ملازمة مطردة بين تمادي الناس في الذنوب واختراع الذنوب والمعاصي الجديدة والتي في هذه الأيام خرجت عن الحد، وباتت تهدد الحياة

(١) مرآة العقول: ج ٩، ص ٣٩٩.

(٢) انظر مجمع البحرين: ج ٤، ص ٥١٣، (مرض).

(٣) الفقيه: ج ١، ص ١٣٢، ح ٣٤٧؛ مصباح التهجد: ص ٥٩٨.

(٤) الكافي: ج ٢، ص ٢٧٥، ح ٢٩؛ البحار: ج ٧٠، ص ٣٤٣، ح ٢٦.

الإنسانية، وبين حدوث أمراض جديدة لم تكن معروفة لهم من قبل، وواقع الحال شاهد على هذه الحقيقة، ولا نحتاج إلى مزيد بيان أو استدلال، وسبب حدوث الأمراض ناشئ من صرف الباري عز وجل عنايته عن العباد بسبب الذنوب، فتتحول حياتهم إلى تعاسة، وسلامتهم إلى مرض، وأمنهم إلى خوف، كما تفيد الأخبار المتضافرة^(١).

وأصرح منه الآية المباركة التي نصت على أن المصائب تأتي من أيدي الناس، ولولا عفو الله عز وجل في الكثير منها لهلكت البشرية أجمع.

الذنوب التي لا تغفر

والتي لا يعفو عنها حالتان:

الأولى: إذا صدرت من الجاحدين والمعاندين.

والثانية: إذا تمادى الناس ولم يتوبوا منها.

ففي رواية أبي حمزة عن أبي جعفر عليه السلام قال: ﴿وجدنا في كتاب رسول الله صلّى الله عليه وآله إذا ظهر الزنا من بعدي كثر موت الفجأة، وإذا طفف المكيال والميزان أخذهم الله بالسنين والنقص، وإذا منعوا الزكاة منعت الأرض بركاتها من الزرع والثمار والمعادن كلها، وإذا جاروا في الأحكام تعاونوا على الظلم والعدوان، وإذا نقضوا العهد سلط الله عليهم عدوهم، وإذا قطعوا الأرحام جعلت الأموال في أيدي الأشرار، وإذا لم يأمرؤا بالمعروف ولم ينهوا عن المنكر ولم يتبعوا الأخيار من أهل بيتي سلط الله عليهم شرارهم،

(١) انظر: الكافي: ج ٢، ص ٢٧٤، ح ٢٥، ح ٢٧، ح ٢٨.

فيدعو خيارهم فلا يستجاب لهم^(١).

وفيها إشارة إلى وجود كتاب لرسول الله ﷺ مودع عند الأئمة عليهم السلام فيه تعاليم وإخبارات.

والتطفيف بالمكيال والميزان يشمل المادي وهو ظاهر، والمعنوي كانقلاب الموازين وسلب القوي حق الضعيف، والجور يوجب تعاون الناس على الظلم والعدوان؛ لأنه أثر طبيعي لسلب المحبة والرحمة بينهم؛ لأن الجور يورث القساوة وهي تطفئ المشاعر، فيتعاونون على ظلم بعضهم والعدوان، وأما دعاء الأخيار لا يستجاب؛ لأن المجتمع إذا تمادى في الظلم لا يستحق الإجابة، وهذا ما تعززه الروايات الأخرى.

وفي رواية سدير قال: سأل رجل أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾^(٢) فقال: ﴿هؤلاء قوم كانت لهم قرى متصلة ينظر بعضهم إلى بعض، وأنهار جارية، وأموال ظاهرة، فكفروا بأنعم الله، وغيروا ما بأنفسهم، فأرسل الله عليهم سيل العرم فغرق قراهم، وأخرب ديارهم، وذهب بأموالهم، وأبدلهم مكان جناتهم﴾ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ^(٣) ثم قال الله عز وجل: ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾^(٤) ^(٥).

(١) الكافي: ج ٢، ص ٣٧٤، ح ٢؛ البحار: ج ٧٠، ص ٣٧٢، ح ٥.

(٢) سورة سبأ: الآية ١٩.

(٣) سورة سبأ: الآية ١٦.

(٤) سورة سبأ: الآية ١٧.

(٥) الكافي: ج ٢، ص ٢٧٤، ح ٢٣؛ البحار: ج ١٤، ص ١٤٤، ح ٣.

وسيل العرم السيول المدمرة وكيفية البعث تمت بانقيار سد سبأ الذي كان سبب خيرهم ورزقهم، فأرسل إليهم الجرذان الصحراوية فنخرته، والخمط كل شجر كربه الطعم مرّ يأخذ بالخلق، وقيل هو شجر الأراك، والأثل نوع من الشجر العظيم الذي فيه قساوة لا طراوة^(١)، وربما لا ثمر له كالسرو^(٢)، وعلاج هذا المصائب وصفه أمير المؤمنين عليه السلام في حديث الأربعمئة قال: ﴿توقوا الذنوب، فما من بلية ولا نقص رزق إلا بذنب، حتى الخدش والكبوة والمصيبة... فما زالت نعمة ولا نضارة عيش إلا بذنوب اجترحوا، إنّ الله ليس بظلام للعبيد، ولو أنّهم استقبلوا ذلك بالدعاء والإنابة لم تنزل - أي المصائب - ولو أنّهم إذا نزلت بهم النقم وزالت عنهم النعم فزعوا إلى الله عزّ وجلّ بصدق من نياتهم، ولم يهنوا ولم يسرفوا لأصلح الله لهم كل فاسد، ولرد عليهم كل صالح^(٣) .

وفيه إشارات إلى حقائق هامة:

الأولى: أنّ الخيرات ونضارة العيش تدور مدار صلاح النفوس والقلوب والأعمال، وعكسها الفقر والبؤس والشقاء.

الثانية: أنّ ما يصيب بني البشر من مشاكل وآلام هي نتائج أفعالهم النوعية، فإذا كان في الناس أخيار أطياب وغالباً موجودون، إلا أنّ البلى

(١) مجمع البحرين: ج ٥، ص ٢٠٧، (أثل).

(٢) مفردات الراغب الأصفهاني مع ملاحظات العمالي: ج ١، ص ٤١، (أثل).

(٣) البحار: ج ٧٠، ص ٣٥٠، ح ٤٧.

تأتي على حسب أعمال الأكثرية.

كيف تتخلص من مشاكل الحياة؟

الثالثة: أن الخلاص من مشاكل الحياة وصعوباتها يتم بثلاثة عوامل:
الأول: أن يفزعوا إلى الله ويلجؤوا إليه بصفاء نية وصدق، والاستعانة به عليها؛ لأنّ البلايا عقوبات نازلة، وباللجوء إليه سبحانه ترتفع، فييده وضعها وييده رفعها، فمصائب أي مجتمع وبلد ترتفع باللجوء إلى الله لا باللجوء إلى الغرب والشرق وأمثالهم، لسبيين:

أولاً: لأنهم يعجزون عن معالجة مشاكل البشر، بل هم أساسها.
وثانياً: أنهم لا يقدمون شيئاً بلا مقابل، ولا يعطي البشر ويرحم به ويجود عليه بالخير بلا مقابل إلا الله سبحانه، فحتى أهل الدنيا والمخدوعون بها إذا لجؤوا إلى الله ضمنوا مصالحهم.

وثالثاً: لأنهم أنفسهم مبتلون بمشاكل عويصة عاجزون عن معالجتها، وفاقداً الشيء لا يعطيه.

الثاني: أن لا يهنوا في إيمانهم فيتندمروا ويخرجوا عن موازينهم، أو يلقوا سوء أعمالهم على غيرهم، أو يهملوا دينهم ومعتقدهم، فإنّ هذا الضعف يحجب عنهم الحل، ويحرمهم من النجاة.

الثالث: أن لا يسرفوا في شؤونهم؛ لأنّ الناس لدى الشدائد والفتن يزداد حرصهم وتكبر أنانيتهم، ويسعون إلى الاحتكار وجمع المال خوفاً من الأيام الشديدة، فلا يتراحمون ولا يتواصلون، وتقسو قلوبهم على بعضهم، وهذا

الآخر من أسباب الحرمان، فإذا لم يضعف إيمانهم وثقتهم برهم وأحبوا بعضهم وتعاطفوا ولجؤوا إلى ربهم فإنه ينجيهم من كل فتنة وكرب.

أساس القرآن

الاسم السابع: الأساس، ورد في رواية ابن عباس أن لكل شيء أساساً، وأساس القرآن الفاتحة، وأساس الفاتحة بسم الله الرحمن الرحيم^(١) بناء على أن ما رواه رواية لفظاً أو مضموناً؛ لكونه لا يروي عادة إلا ما أخذه عن النبي وأمير المؤمنين عليهما وآلهما السلام، والمضمون وارد في الروايات الكثيرة، والأساس القاعدة التي يقوم عليها الشيء، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿أَقْمِنُ أَسَسَ بُنْيَانِهِ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ﴾^(٢) أي جعل قاعدته التي يقوم عليها التقوى^(٣)، وكذلك الحمد بالنسبة للقرآن. ووجه كونها أساس القرآن هو أن القرآن متفرع عن ثبوت ثلاثة أمور:

الأول: الرب والربوبية.

والثاني: العبد والعبودية.

والثالث: النبي والنبوة، فإنها الواسطة بين العبد وربّه، والقرآن من أوله لآخره يتضمن هذه الحقائق، ويدعو إلى ترسيخها في النفوس ليقوم العباد لرب العالمين، وكل هذه المضامين اجتمعت في سورة الحمد، وهي الأخرى

(١) مجمع البيان: ج ١، ص ٤٧؛ روح المعاني: ج ١، ص ٥١؛ زبدة التفاسير: ح ١، ص ١٧.

(٢) سورة التوبة: الآية ١٠٩.

(٣) مجمع البحرين: ج ٤، ص ٤٥، (أسس).

اجتمعت في البسملة، فإنَّ الباء تفيد الابتداء والاستعانة من قبل العبد باسم ربه الرحمن الرحيم.

فاسمه تبارك وتعالى الواسطة بين العبد وربّه، والاسم هو للنبي والإمام عليهما السلام.

هي الكنز الإلهي

الاسم الثامن: الكنز، وقد تضافر في الأخبار الواردة بطرق الفريقين وصفها بذلك، والملفت أنَّ الروايات أشارت إلى أمرين:

الأول: أنَّها كنز من كنوز عرش الله، وأنَّ الباري عزَّ وجلَّ أنزلها تكريماً ولطفاً بأمة النبي صلى الله عليه وآله، ففي رواية جابر عن النبي حاكياً عن الله تعالى: ﴿وَأَعْطَيْتُ أُمَّتَكَ كَنْزاً مِنْ كُنُوزِ عَرْشِي فَاتِحَةُ الْكِتَابِ﴾^(١) و(من) جنسية، وتفيد أنَّها من ضمن كنوز كثيرة للعرش.

الثاني: أنَّها أشرف ما في كنوز العرش، فقد روى الصدوق قدس سره بسنده عن الإمام الحسن العسكري عن أبيه الهادي عن أبيه الجواد عن أبيه الرضا عن آبائه عن أمير المؤمنين عليه السلام أنَّه قال: ﴿سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وآله يَقُولُ: إِنَّ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ أَشْرَفُ مَا فِي كُنُوزِ الْعَرْشِ﴾^(٢) وشرف سلسلة السند وعظمته دال على عظمة المعنى وأهميته القصوى عند النبي والأئمة عليهم السلام حتى توارثوه إماماً عن إمام.

و(ما) قد تكون موصولة أو مصدرية، إلّا أنَّ الثانية أقوى وأظهر، والمعنى

(١) الخصال: ج ٢، ص ٤٢٥، ح ١؛ تفسير نور الثقلين: ج ١، ص ١٨، ص ٥.

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج ١، ص ٢٧٠، ح ٥٩.

أنّ فاتحة الكتاب أشرف شيء في كنوز العرش، والكنوز جمع كنز، وهو في الأصل الشيء الذي له قيمة فيجمع ويحفظ في وعاء ويدخر لأهله، وفي الغالب يطلق على المال المدفون تحت الأرض^(١)، ويشمل الأسرار المعنوية إذا أخفيت ولم يطلع عليها أحد، ولذا ورد في الكنز الذي كان للغلامين تحت الجدار الذي أقامه الخضر عليه السلام وأشار إليه قوله تعالى: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا﴾^(٢) أنّه كان صحيفة علم، وفي رواياتنا ورد ما يفسر ما في صحيفة العلم.

علامة الغافلين

منها: ما عن الإمام الرضا عليه السلام في تفسيره قال: ﴿لوح من ذهب فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، محمد رسول الله ﷺ، عجبت لمن أيقن بالموت كيف يفرح، وعجبت لمن أيقن بالقدر كيف يحزن، وعجبت لمن رأى الدنيا وتقبلها بأهلها كيف يركن إليها، وينبغي لمن عقل عن الله أن لا يتهم الله تبارك وتعالى في قضائه، ولا يستبطئه في رزقه﴾^(٣).

وفي رواية أخرى: ﴿عجباً لمن أيقن بالرزق كيف يتعب﴾^(٤) وهي تعاليم عظيمة، ولذا وصفها بالكنز، فإن حقيقة الإنسان وحاضره ومستقبله

(١) مفردات الراغب: ص ٧٢٧، (كنز)؛ لسان العرب: ج ٥، ص ٤٠١ - ٤٠٢،

(كنز)؛ مجمع البحرين: ج ٤، ص ٣٢، (كنز).

(٢) سورة الكهف: الآية ٨٢.

(٣) قرب الإسناد: ص ٣٧٥، ح ١٣٣٥؛ وانظر الخصال: ج ١، ص ٢٣٦، ح ٧٩؛

معاني الأخبار: ص ٢٠٠، ح ١.

(٤) تفسير جوامع الجامع: ج ٢، ص ٤٣١؛ البحار: ج ٦٧، ص ١٥٢، ح ١١.

ومواقفه وأفكاره تقوم على مدى يقينه، فإذا لاحظ نفسه أنه فرح بلهوه ولعبه فليعرف أن يقينه بالموت فيه خلل، ولو أمسك بسلطة قدرة أو سلطة مال أو فتوة وشباب وصار مغروراً ومنشغلاً بها عن الانشغال بحسن عاقبته فليعرف أنه في غفلة، ولو مرَّ الفقير والضعيف والمبتلى بظروف قاسية لا ينبغي أن يحزن؛ لأن الله سبحانه يقلب الأحوال ولا يبقها على حال أبداً، فلو حزن وتوجع فليعرف أن يقينه بقدر الله وقضائه فيه خلل.

وهذه الحقيقة هي كنز عظيم لو أدركه الإنسان وعمل به عاش سعيداً، ورحل حميداً، وكان خالداً في نعيم الله.

مراقبة الضمير

ومنها: ما عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسيره قال: ﴿لما أقام العالم الجدار أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام أي مجازي الأبناء بسعي الآباء، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. لا تنزوا فتزني نساؤكم، من وطئ فراش امرئ مسلم وطئ فراشه، كما تدين تدان^(١).

وهذا من أرقى التعاليم في مراقبة الضمير، يضع للإنسان حدوداً لأقواله وأفعاله، وفيه دلائل هامة:

الأولى: أنها فسرت الكنز بالوحي الذي أوحاه الله سبحانه لموسى عليه السلام، وهو من علم السر كشفه الباري في الأحداث والوقائع التي يتعرض لها الناس في حياتهم، فإنه دال على أن الكثير منها آثار وضعية لأفعالهم.

(١) الكافي: ج ٥، ص ٥٥٣، ح ١؛ عوالي اللآلئ: ج ٣، ص ٥٤٧، ح ١٠.

الآباء يورثون أبناءهم خيراً وشرّاً

الثانية: أنّ الأبناء قد يبتلون ببعض الوقائع ويواجهون مصائبهم ليس بفعلهم بل بفعل آبائهم، وهذا ليس من باب الانتقام، بل من باب ترتب النتائج على مقدماتها، فليتنبه الآباء إلى أنّ أفعالهم لها مردودات على أبنائهم، مثل الأب الذي يشرب المخدر أو الخمر، ويكوّن ولده فيخرج ضعيفاً أو مجنوناً، وبخلافه الأب الذي يراعي الآداب الشرعية في تكوين الولد وتربيته، فإنّه يهيئ له توفيقات وعنايات وخصائص عالية؛ لأنّ الجينات تتأثر بالأكل والشرب والحالات النفسية.

وراثه الأفعال والآثار

والملفت أنّ الرواية علقت هذا الجزاء على السعي دون العمل، ومعنى ذلك أنّه يقوم على نية الخير ونية الشر، والانشغال بمقدمات الأعمال حتى وإن لم تقع في الخارج، وهذا ما يقضي به البرهان؛ لأنّ النية تتعلق بالكيف النفسي، وإذا تكررت نية الخير صارت ملكة فتكون النتائج مطابقة لها فتكون خيراً، ولو تكررت نية الشر صارت ملكة فتكون نتائجها مثلها، وهذا ما ينبغي أن يلتفت إليه الإنسان دائماً في إصلاح أفكاره ونواياه وسريته، فإنّ من لا يصلحها يجني على نفسه وعلى ذريته، وهذه قضية قد يعبر عنها بالوراثة، ولكن العلم لا يستطيع أن يفسر سر الوراثة، ولماذا يتوارث الأبناء صفات آبائهم بالجبر التكويني إلا أنّ الدين يكشف عن بعض السر في ذلك، ويرجع الوراثة إلى الاختيار، وهو تأثير الآباء على الأبناء بأفعالهم في الخير والشر، فإنّ الأفعال والأقوال في الخير والشر

تؤثران على النفوس والأرواح، وفاعلية الأبدان تعود إلى الأرواح،
فحالات النفس تنعكس على الأبدان وتنقل آثارها.

للمحاسن ثوابان وللمساوئ ثلاثة

الثالثة: أن كل ما يفعله الإنسان من أعمال شر يذوق طعمها في نفسه وفي
ذريته، فالذي يتجاوز على أعراض الناس قد يبتلى بمثله، والذي يأكل المال
الحرام يؤكل ماله، وهكذا.

وهذا كله في الدنيا، وإذا لاحظ بعض الناس نفسه أنه يفعل ولا يؤخذ
في دنياه فليعرف أن أبناءه وإن نزلوا أي أبناء أبنائه وهكذا سوف يواجهون
هذا المصير، وهذا من فعله واختياره.

ومنه يتضح أن الأعمال الصالحة لها جزاءان وثوابان، ثواب لنفسه ثواب
للسنة الحسنة في أبنائه، والأعمال السيئة لها عقابان عقاب لنفسه وعقاب
للمظلم الذي يسببه لأبنائه، وربما يكون له عقاب ثالث إذا صار ظلمه سنة
من بعده، هكذا هي عدالة الله لا يفلت منها أحد، وكل فعل له أثر وجزاء،
وهذا كنز من الكنوز العظيمة التي لو التفت إليه الناس وعملوا به كانوا
سعداء في دنياهم وأخراهم.

ولا يقال: إن هذا يتنافى مع قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ
أُخْرَى﴾^(١)؛ لأن الجواب: أن الآية ناظرة إلى عقاب الأعمال لا آثارها
الوضعية، فإن الله سبحانه لا يعاقب العبد بذنوب غيره، ولكن آثار

الأعمال نتائج تكوينية تترتب على العمل وتعم الفاعل وغيره، وهي تعود إلى اختيار العبد فلا تضر بالعدل الإلهي.

أشرف كنوز العرش

والخلاصة: أنّ الكنز يطلق على كل شيء ثمين يحفظ ويدخر لأهله، وقيمة الكنز المعنوي أعظم من المادي بكثير، وعرش الله سبحانه فيه كنوز عظيمة، ومن أشرفها سورة الحمد.

محمد وآل محمد ﷺ أشرف الكنوز

ومن المضامين المودعة في سورة الحمد كونها خلاصة القرآن وأنها تؤول بالنبي والعترة ﷺ، وبه يعرف أنها أعظم كنز ادخره الباري عز وجل لخلافته وللبشر؛ لأنّ أشرف من خلق هم النبي والعترة ﷺ، وأعظم ما نزل هو القرآن، وكلاهما مجتمعان في سورة الحمد.

ومنه يعرف السر في وصفها بأشرف ما في كنوز العرش؛ لأنّ مدارها وقطب رحاها أشرف الخلق وهم محمد وآل محمد ﷺ، وهذا ما تؤكده الروايات الدالة على أنها كرامة خاصة أعطاها الله لرسوله ولأئمة.

ففي الرواية المتقدمة عن أمير المؤمنين ع قال: ﴿سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنّ الله تبارك وتعالى قال لي: يا محمد ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾^(١)، فأفرد الامتنان عليّ بفاتحة الكتاب، وجعلها بإزاء القرآن العظيم، وأنّ فاتحة الكتاب أشرف ما في كنوز العرش، وأنّ الله عزّ

(١) سورة الحجر: الآية ٨٧.

وجلّ خصّ محمدًا ﷺ وشرفه بها ولم يشرك معه فيها أحداً من أنبيائه^(١). والمعنى ظاهر سواء فسر العرش بمعناه المادي أو المعنوي أي العلم والقدرة، ومن آثار الكنز أنّه يدخر ليوم الفاقة والحاجة، وهي صفة سورة الحمد، فإنّها تدخر لأهلها في الآخرة، فتكون شافعة ومنجية في تفسيرها وتأويلها، أي صورتها القرآنية وصورة النبي والعترة الطاهرة ﷺ، فهم الشفعاء في كل شدة في الدنيا وفي الآخرة.

الكافية عن الأعمال

الاسم التاسع: الكافية؛ لأنها تكفي عن غيرها في الأعمال والعبادات والمعارف والحوائج، ولا يكفي عنها غيرها، وهذه التسمية مستفادة من بعض الروايات، فقد ورد عن النبي ﷺ في وصفها أنّها ﴿أمّ القرآن عوض من غيرها وليس غيرها عوضاً عنها﴾^(٢) والعوض هو البديل عما ذهب. يقال: عوضه أي أعطاه بدلاً عما ذهب منه، والبيع يسمى معاوضة؛ لأنّ كل واحد من البيعين يذهب منه شيء ويأخذ بدلاً عنه^(٣)، والمعنى أنّ الذي فاته شيء من الدعاء وقراءة القرآن أو فاته الدواء في معالجة المرض ونحو ذلك فإنه يستعوض بقراءة الحمد عما فاته وذهب.

-
- (١) تفسير الإمام العسكري عليه السلام: ص ٨٣؛ عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج ١، ص ٢٧٠، ح ٦٠؛ البحار: ج ١٤، ص ١٢٨، ح ١٤.
- (٢) مجمع البيان: ج ١، ص ٤٧؛ وانظر تفسير أبي الفتوح: ج ١، ص ١٣.
- (٣) مجمع البحرين: ج ٤، ص ٢١٧، (عوض)؛ المعجم الوسيط: ج ٢، ص ٦٣٧، (عوض)؛ معجم الفروق اللغوية: ص ٣٨٠، (١٥٢٨).

آيات العرش الإلهي

وعن الإمام الصادق عن آبائه الأطهار عليهم السلام عن النبي المصطفى صلى الله عليه وآله: ﴿لما أراد الله عز وجل أن ينزل فاتحة الكتاب وآية الكرسي وشهد الله ^(١) وقل اللهم مالك الملك ^(٢) إلى قوله بغير حساب تعلقن بالعرش، وليس بينهن وبين الله حجاب، وقلن: يا رب تهبطنا دار الذنوب وإلى من يعصيك ونحن معلقات بالطهور وبالقدس؟ فقال: وعزتي وجلالي ما من عبد قرأكن في دبر كل صلاة إلا أسكنته حظيرة القدس على ما كان فيه، وإلا نظرت إليه بعيني المكنونة في كل يوم سبعين نظرة، وإلا قضيت له في كل يوم سبعين حاجة أدناها المغفرة، وإلا أعذته من كل عدو ونصرته عليه، ولا يمنعه دخول الجنة إلا أن يموت أو إلا الموت ^(٣)﴾ .

وتضمنت دلائل عديدة:

علو سورة الحمد

الأولى: أن سورة الحمد والآيات المذكورة من كنوز العرش المعلقات به، وبقرينة الروايات المتقدمة تكون سورة الحمد أشرفهنّ، وحظيرة القدس فسر بالجنة، وإليه يشير الحديث النبوي: ﴿الثابت على سنتي معي في حظيرة القدس ^(٤) أي في الجنة، ومثله: ﴿لا يلج حظيرة القدس مدمن

(١) سورة آل عمران: الآية ١٨ .

(٢) سورة آل عمران: الآية ٢٦ .

(٣) تفسير نور الثقلين: ج ١، ص ٢٥٨، ح ١٠٢٦؛ مجمع البيان: ج ١، ص ٤٢٦ .

(٤) الفقيه: ج ١، ص ٣٥، ح ٧١؛ مجمع البحرين: ج ٣، ص ٢٧٤، (حظر) .

﴿خمر﴾^(١)، ومعناه اللغوي والعرفي أعم، إلا أنّ القرينة الداخلية تدل على ما ذكر لقوله: ﴿أسكنته حظيرة القدس﴾ فإنّ الجنة هي مسكن أهل النعيم.

الإمام عين الله الناظرة

الثانية: أنّ العين الإلهية المكنونة لها معنيان مجازي وحقيقي، والأول هو العناية الإلهية، ومعناه أنّ الله سبحانه يشمل قارئ الآيات المذكورة بعنايته سبعين نظرة.

والثاني هو الإمام المعصوم عليه السلام فإنّه عين الله الناظرة وأعمال العباد تعرض عليه، وهو الذي يرى الناس وأعمالهم، ومعناه أنّ أهل هذه الآيات ينظر إليهم الإمام نظر لطف في اليوم سبعين نظرة، فيكون كمن يكون مع الإمام وحاضراً عنده فيقع نظره عليه. هذا بناء على أنّ المراد بالسبعين العدد لا الكناية عن الكثرة.

ولا يخفى ما في هذا النص من إشارة لطيفة لأهل القلوب الذين يطلبون القرب من مولاهم، وينالون الخطوة بالحضور عنده، وربما تفتح لهم أبواب الغيب فيطلعون على بعض الأسرار، فإنّ مفتاح ذلك هو الآيات الشريفة التي ذكرت لاسيما سورة الحمد، ومعلوم أنّ ذلك كله من حيث الاقتضاء ووجود الاستعداد لا العلة التامة، وهو فضل إلهي يمنحه الله ووليه لعباده، ولا يظهر أثره إلا إذا توفرت الشروط وزالت الموانع وهي بأيديهم.

(١) الإيضاح: ص ٢٤٨؛ وانظر مجمع البحرين: ج ٣، ص ٢٧٤، (حظر).

الحاجات المعنوية

الثالثة: أن المراد من الحاجات السبعين ليس فقط المادية بل المعنوية، بل إن أهل المقامات والدرجات العالية لا يطلبون توافه الدنيا وإن كانت مهمة للبشر؛ لأنهم يعلمون أنها تجري بالأسباب والمسببات وهي اختيارية بين العباد، وإنما يطلبون الحاجات المعنوية والدرجات والمعارف؛ لأنها ليست بأيديهم، وإنما إفاضات ربانية ومفاتيحها بيد ولي الله، فكلما اقتربوا وتشبهوا بإمامهم في صفاتهم الباطنية وأعمالهم الظاهرية فتحت لهم الخزائن، ولذا قال: ﴿أدناها المغفرة﴾ لأن المغفرة تستر العيوب والقبائح، وتبييض صفحة العبد عند ربه، فينال الخطوة عنده، ومنه يعرف أن المراد من (العدو) ليس فقط الإنس بل الجن والشياطين، فإن العبد يتغلب على شرار الخلق ببركة الآيات الشريفة وسورة الحمد إذا واطب عليها وهياً في نفسه الاستعداد.

الرابعة: أن الموت في قوله: ﴿إلا أن يموت﴾ أو ﴿إلا الموت﴾ وبمناسبة الحكم والموضوع وقرينة السياق يحمل على موت الضمير والقلب، فإنه المانع الأكبر والحجاب الأعظم من ظهور الآثار المعنوية والخيرات والعنايات الربانية.

ويتحصل من منطوق الرواية: أن سورة الحمد تكفي العبد وتعوضه عن النواقص، وترتقي به إلى المقامات الربانية العالية؛ لذا سميت بالكافية، وهناك قول لبعض المفسرين بأنها سميت بالكافية لكفايتها في صحة الصلاة؛ إذ لا سورة مقومة للصلاة سوى سورة الحمد، وهو وجه لا ينفي

ما عداه^(١) ، وإليه يعود تسمية بعضهم له بالوافية؛ لأنها تفي بالغرض في الصلاة^(٢)؛ إذ لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب^(٣) .

الحمد والصلاة

الاسم العاشر: الصلاة؛ للملازمة الوجودية بين الصلاة وسورة الحمد؛ إذ لا تنفك عنها صلاة، وهي أول ما يتبادر إلى الأذهان من قراءة الصلاة، والظاهر أن تسميتها بالصلاة ورد في بعض الأحاديث القدسية نصاً، وفي بعضها مضموناً، ففي تفسير مجمع البيان وأبي الفتوح: (قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، نصفها لي ونصفها لعبدي)^(٤) فسمى سورة الحمد بالصلاة من باب إطلاق لفظ الكل على الجزء؛ لأهمية الجزء وعلو فضله. يشهد له الحديث الآخر.

ففي عيون الأخبار بسنده المتصل عن الأئمة من الإمام العسكري عليه السلام إلى أمير المؤمنين عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله عن الله عز وجل فهو حديث عالي السند عظيم المنزلة قال: ﴿قال رسول الله صلى الله عليه وآله: قال الله عز وجل: قسمت فاتحة الكتاب بيني وبين عبدي، فنصفها لي ونصفها لعبدي﴾^(٥) .

(١) انظر روح المعاني: ج ١، ص ٤٠؛ تفسير تسنيم: ج ١، ص ٣١٥.

(٢) مجمع البيان: ج ١، ص ٤٧.

(٣) مجمع البيان: ج ١، ص ٨٧.

(٤) مجمع البيان: ج ١، ص ٤٨؛ تفسير أبي الفتوح: ج ١، ص ١٣؛ تفسير تسنيم: ج ١، ص ٣١٤.

(٥) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج ١، ص ٢٦٩، ح ٥٩.

أسماء أخرى للسورة

هذا ولسورة الحمد أسماء كثيرة أخرى بعضها توصيفات للعلماء والمفسرين، مستفادة من مضامين النصوص، أو من آثار السورة، كالمناجاة والتفويض لاشتغال آياتها على هذين المعنيين، والنور لكونها أفضل ما في القرآن، وقد وصف القرآن بالنور في آيات عديدة، والأشرف في القرآن أشرف في النور، والهداية لأنها تنور العقول والقلوب وتهدي إلى الصراط المستقيم، والحمد والدعاء والشكر^(١)؛ لأن هذه المعاني وردت في آياتها، إلى غير ذلك من أسماء كثيرة تجمع فضائلها وآثارها، وما ذكرناه يكفي للدلالة على عظمة سورة الحمد وعظمة الآثار والخيرات التي ينالها العباد بمواظبتهم عليها قراءة ودراسة، في العقائد والمعارف والأعمال والثواب وحل المشكلات ومعالجة الأمراض الروحية والبدنية، وهداية الخلق إلى سعادتهم الدنيوية والدنيوية.

(١) تفسير تسنيم: ج ١، ص ٣١٦.

المبحث الرابع: في فضائل السورة وآثارها



شهد الباري عز وجل لسورة الحمد بأمرين:

الأول: أنها تعادل كل القرآن العظيم.

والثاني: أنها عطاء إلهي خاص أنزله الله على رسوله وأوليائه عليه السلام؛ إذ أعطاهم السبع المثاني، ولم ينزلها على أحد من الأنبياء والأولياء غيره؛ إذ قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾^(١).

وهذا يدعو إلى البحث في فضائل هذه السورة وآثارها التي صيرتها الأفضل من بين سور القرآن، فإنَّ الباري عز وجل وصف كتابه العزيز بأوصاف تبهر العقول وتذهل الأفكار، فوصفه بالنور والذكر والحكمة والكرم والهادي والمجيد، ومنع الناس من مسّه إلا عن طهارة روحية وقلبية، وحجب علمه ومكنونات أسرارهِ إلا عن المطهرين من أوليائه، كما منع من لمسهِ إلا عن طهارة بدنية، ولكل وصف من أوصافه خصائص وآثار وبركات يجب أن تبحث في الفرصة المناسبة. لكن الملفت هو جعل سورة الحمد تكافئ القرآن في العظمة والأسرار والآثار، وقد عقدنا هذا البحث لدراسة بعض هذه الأسرار، وقبل الدخول في تفصيله ينبغي تقديم مقدمة:

(١) سورة الحجر: الآية ٨٧.

تفاضل السور القرآنية

فقد وقع الكلام بين المفسرين وعلماء الكلام وعلوم القرآن في أن آيات القرآن وسوره هل بينها تفاضل أي أن تكون بعض السور أفضل من غيرها أم لا؟ وإذا كانت هناك أفضلية فما هي معايير الأفضلية؟ وقد اختلفوا في ذلك على قولين:

القول الأول: ذهب إلى العدم. اختاره جمع من العامة^(١)، واستدلوا لذلك بوجوه عمدتها وجهان:

الأول: عدم المقتضي؛ لأن جميع آيات القرآن وسوره هي كلام الله سبحانه ولا تفضيل بين كلام الله.

والثاني: وجود المانع، فإن التفضيل يوهم بنقص غير الفاضل بما يستلزم نسبة النقص إلى كلامه سبحانه.

القول الثاني: ذهب إلى التفضيل، وهو اختيار أصحابنا وجمع من العامة، واستدلوا له بوجوه:

الأول: النصوص الكثيرة الدالة على وجود الأفضلية، كقوله ﷺ بأن ﴿ياسين قلب القرآن﴾^(٢) و فاتحة الكتاب أفضل سوره، والبسملة ﴿أعظم آية في كتاب الله﴾^(٣) ونحو ذلك من الأدلة المتضافرة، والنص يبطل الموانع المتوهمه.

(١) انظر الإتقان في علوم القرآن: ج ٤، ص ١٣٦.

(٢) المجازات النبوية: ص ٤١٥؛ البحار: ج ٨٩، ص ٢٨٨، ح ١.

(٣) انظر تفسير العياشي: ج ١، ص ٢١ - ٢٢، ح ١٦؛ مجمع البيان: ج ١، ص ٥٠؛

تفسير الرازي: ج ١، ص ١٩٨؛ البحار: ج ٨٢، ص ٢١، ح ١٠.

في المعاني والآثار

الثاني: شهادة الوجدان بوجود تفاضل بينها من حيث المعاني والآثار، فإنّ كل ذي معرفة يدرك الفضل في آية الكرسي على آية الدين التي تنص على أنّ الدين جائز، وحبّدت للمتدائنين أن يكتبوا الدين فيما بينهم وهي الآية (٢٨٢) من سورة البقرة، كما يدرك فضل سورة الإخلاص على سورة تبتّ يدا أبي لهب مثلاً.

الثالث: عدم تمامية ما استدل به المانعون؛ لأنّ الوجه الأول منقوض بالقرآن والحديث القدسي، فإنّ الاثنين كلام الله سبحانه إلّا أنّ القرآن أفضل باتفاق الكلمة.

أفضلية الأنبياء على بعضهم

والثاني: منقوض بالتفضيل في الخلق وفي الدرجات بين الأنبياء كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾^(١) فلو صح ما ذكروا للزم الإبهام بنسبة النقص إلى المفضل عليه، وهو ممتنع عقلاً؛ لاستلزامه نقض غرض الاصطفاء والبعثة وتكذيب القرآن الذي شهد لجميع الأنبياء بعلو المقام والشرف العظيم، ودعا إلى الإيمان والاعتداء بهم.

ومنقوض أيضاً بتفضيل الأنبياء بالكتاب والشرع وعموم الرسالة وكثرة المعجزات، ووجهه هو تفاوت مراتبهم في الفضائل النفسانية والكمالات الروحانية وشدة القرب من ربهم تبارك وتعالى.

(١) سورة الإسراء: الآية ٥٥.

وفي مجمع البيان: أن الأنبياء وإن كانوا في أعلى مراتب الفضل فإنهم في ذلك طبقات، وبعضهم أعلى من بعض بزيادة الدرجة والثواب وبالمعجزات والكتاب، فسخر لبعضهم النار، وألان لبعضهم الحديد، وآتى بعضهم الملك، وكلّم بعضهم، كما خصّ رسول الله ﷺ بخصائص فاق بها جميع النبيين^(١)، وهذا مما اتفقت عليه كلمة أصحابنا. وعن الإمام الصادق عليه السلام: «سادة النبيين والمرسلين خمسة، وهم أولو العزم من الرسل، وعليهم دارت الرحى: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ﷺ وعلى جميع الأنبياء»^(٢).

وفي العلل عن النبي المصطفى ﷺ: «أن الله تعالى فضل الأنبياء والمرسلين على ملائكته المقربين، وفضلني على جميع النبيين والمرسلين، والفضل بعدي لك يا علي وللأئمة من ولدك، وأن الملائكة لخدامنا وخدام محبينا»^(٣).

أقسام التفضيل

ومحلول بأن التفضيل بين الأنبياء على أقسام ثلاثة:

الأول: التفضيل بين الفاضل والأفضل، ويقع بين شيئين كلاهما يتمتع بصفات الخير، لكن أحدهما أكثر اتصافاً، كالتفضيل بين العالم والأعلم، والعادل والأعدل، والتفضيل فيه لا يوجب الإيهام بالنقص للغير، بل بيان مزيد الكمال والعلو في الأكمل، وهذا ما وقع في النبيين، وكذلك بين آيات القرآن.

(١) انظر مجمع البيان: ج ٦، ص ٢٦٢ تفسير الآية ٥٥ من سورة الإسراء.

(٢) الكافي: ج ١، ص ١٧٥، ح ٣؛ تفسير نور الثقلين: ج ٣، ص ٥١٣، ح ١٩٥.

(٣) علل الشرائع: ج ١، ص ٥، ح ١؛ البحار: ج ٢٦، ص ٢٣٥، ح ١.

الثاني: التفضيل بين الفاضل والناقص، كتفضيل العالم على الجاهل.

الثالث: التفضيل بين الناقص والأنقص، كتفضيل الجاهل الأقل على الأكثر، يقال فلان جاهل لكن جهله أفضل من جهل فلان؛ لأنّ فلاناً جهله أكثر، وكذا بين أهل الشر، يقال فلان شرير لكن فلاناً أكثر شراً منه، فيطلق على الأقلّ بأنّه أفضل لا باعتبار أنّه يتصف بصفة الخير، بل باعتبار أنّه أقلّ شراً.

ويتحصل: أن المانع الذي توهمه المانعون من تفضيل آيات القرآن وسوره على بعضها ناظر إلى القسم الثاني والثالث، والحال أنّ التفضيل بينها من قبيل الأول فيرتفع المحذور.

معايير التفضيل بين الآيات والسور

فالحق الذي يقتضيه التحقيق وجود التفاضل بين سور القرآن وآياته، يبقى الكلام في سبب التفاضل والسر الذي لأجله فضّل الباري بعض السور والآيات على غيرها، وقد اختلفوا فيه على قولين:

القول الأول: ذهب إلى أنّ السبب هو كثرة الثواب والأجر، فإنّ الله جعل لقراءتها أجراً مضاعفاً يفوق الأجر الذي جعله لغيرها، كما ورد أنّ قراءة التوحيد ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تعدل ثلث القرآن، ومعنى ذلك أنّ قراءة هذه السورة المباركة ثلاث مرات تعدل ختمة قرآن، وينال بها القارئ أجر من ختم القرآن ^(١).

(١) انظر التهذيب: ج ٢، ص ١٢٧، ح ٤٨٢؛ البحار: ج ٨٩، ص ٢٥١، ح ٢٣؛ انظر الإتيقان في علوم القرآن: ج ٤، ص ١٣٦.

وهذا معهود في الأزمنة والأمكنة والأعمال، فيقال يوم الجمعة أفضل أيام الأسبوع، وشهر رمضان أفضل الشهور؛ لأنّ الأجر والثواب فيه مضاعف، وكذا الصلاة في المساجد أو في المسجد الحرام أو في حرم سيد الشهداء عليه السلام أجراها أضعاف مضاعفة عن الصلاة في البيت، كما أنّ الصلاة جماعة أجراها أفضل من أجر صلاة الفرادى بالأضعاف الكثيرة ^(١)، ومثله يقال في سور القرآن وآياته، فإنّ معنى أفضلية سورة على باقي السور وآية على باقي الآيات أنّ الأجر الذي يعطى لقارئها وسامعها ومتعلمها أكثر من غيرها.

القول الثاني: ذهب إلى أنّ السبب هو علو المضمون الذي اشتملت عليه السورة أو الآية لا مجرد مضاعفة الأجر.

أولاً: للنصوص الدالة على أنّ الأفضلية تعود إلى الذات لا لمجرد كثرة الثواب. ثانياً: ما ثبت في قواعد العلوم من أنّ تقدم علم على علم يعود إلى أسباب، منها شرف الموضوع، ومنها شرف الغاية؛ لذا قدّموا علم الكلام على علم الفقه؛ لأنّ موضوع علم الكلام ما يتعلق بالخالق تبارك وتعالى، بينما علم الفقه يتعلق بالمخلوق، والخالق أشرف، كما قدّموا علم الفقه على النحو مثلاً؛ لأنّ غايته إكمال الإنسان في ملكاته النفسية ونظامه الفردي والاجتماعي، بخلاف النحو فإنّه يصون لسانه من الخطأ في التعبير، وكمال الإنسان الروحي والعقلي أشرف.

(١) الخصال: ص ٥٢١، ح ١٠.

ومثله في تفضيل الأعمال الأدبية في الشعر والنثر وعموم الكلام ونحوها، فإنهم يفضلون قصيدة على أخرى وكلاماً على آخر باعتبار علو المضمون، وذات المعيار يجري في تفضيل آيات الكتاب العزيز وسوره، فإن الآيات التي تشتمل على المعارف العالية كالتوحيد الذاتي أو توحيد الصفات والأفعال أو التي تشتمل على اسم من الأسماء الحسنى تكون أفضل من غيرها، وبهذا الاعتبار تفضلت آية الكرسي على غيرها مثلاً، كما تفضلت سورة الحمد على باقي سور القرآن نظراً لعلو مضامين والمعاني التي تشتمل عليها؛ لذا ورد عن الإمام الرضا عليه السلام في بيان ذلك: ﴿لأنه ليس شيء في القرآن والكلام جمع فيه جوامع الخير والحكمة ما جمع في سورة الحمد﴾^(١) فضلاً عن الروايات المتقدمة التي وصفتها بأنها أشرف ما في كنوز العرش، وأنها تعادل القرآن العظيم، وما أشار إليه قول النبي ﷺ في الحمد والآيات التي تعلقن بالعرش.

فيتحصل: أن آيات القرآن الكريم كلها كلام الله العزيز، وكلها معاجز، ولها شرف عظيم، إلا أن هذا لا يمنع من أن تكون بعض الآيات والصور أفضل من غيرها باعتبار علو مضامينها، أو باعتبار أجرها، هذا ما ذكره بعض المفسرين من الخاصة والعامة^(٢).

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام؛ ج ١، ص ١١٤، ح ١؛ البحار: ج ٨٢، ص ٥٤، ح ٤٦.

(٢) انظر تفسير الميزان: ج ٢، ص ٣٣٧ في تفسير الآية ٢٥٥ من سورة البقرة؛

مواهب الرحمن: ج ٤، ص ٢٥٢؛ تفسير الرازي: ج ٧، ص ٤.

التحقيق في أسباب التفضيل

والتحقيق: أن أسباب التفضيل لا تنحصر بما ذكر، بل يمكن القول بأن أسبابه عديدة عمدتها أربعة:

الأول: أفضلية الذات، ولعل هذا مراد القائلين بالتفضيل بعلو المضمون.
والثاني: أفضلية الجزاء، وهو ما أشار إليه أصحاب القول الأول، ولكن هناك وجوهاً آخر للتفضيل.

منها: أفضلية الصفات، وأفضلية الخصائص والآثار.

وبيان ذلك: يستدعي النظر في معنى الفضل والأفضلية، فنقول: الفضل هو الزيادة وغالباً ما يستعمل في المحاسن والخيرات^(١)، ففي معجم مقاييس اللغة أن الفضل الزيادة في الخير^(٢)، والفضيلة الدرجة الرفيعة في الفضل^(٣)، والفاضل هو الزائد على غيره في خصلة من خصال الخير^(٤)، وفلان تفضل على فلان أي في الشرف والمنزلة^(٥)، وبهذا الاعتبار تتفاضل الأشياء، فبعضها تفضل في ذاتها على غيرها باعتبار ما لها من خصال الخير، كفضل العلم على الجهل، فإن ذات العلم نور والجهل ظلام، وفي التكوينيات فضل الحجر الكريم كالعقيق على الحصى مع أن الاثنين من منشأ واحد وهو

(١) مفردات الراغب: ص ٦٣٩، (فضل).

(٢) معجم مقاييس اللغة: ص ٨١٩، (فضل).

(٣) لسان العرب: ج ١١، ص ٥٢٤، (فضل).

(٤) المعجم الوسيط: ج ٢، ص ٦٩٣، (فضل).

(٥) معجم الفروق اللغوية: ص ٣٩٥، (١٥٨٦).

الأرض، وبعضها باعتبار الجزاء، كما في قوله تعالى: ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾^(١) وفي المعاملات والعقود يعطى المهندس أكثر مما يعطى العامل باعتبار أفضلية عمله، وبعضها باعتبار الصفات، كفضل العالم على الجاهل والعاقل على غيره مع أن الكل بشر، إلا أن صفة العلم تعطي لصاحبها أفضلية، وكذا العدالة.

وفي المعادن صفات الذهب أفضل من صفات النحاس مع أن المنشأ واحد. وفي الأطعمة يتفضل الحلو على المر باعتبار صفته. وبعضها باعتبار الخصائص والآثار، فالعسل مثلاً أفضل من السكر مع أن الاثنين حلو الطعم والمذاق، إلا أن آثار العسل وخصائصه أفضل من السكر.

آثار وجود العالم

وآثار وجود العالم في المجتمع أكثر بكثير من آثار غيره؛ لأنه يهدي الناس ويعلمهم، ويصلح نفوسهم وعقولهم، ويحل مشاكلهم، ويجمع كلمتهم، ولذا ورد في الأخبار أن فضل العالم على العابد كفضل النبي على أمته^(٢).

وفي الرواية المعتبرة عن الإمام الرضا عليه السلام يقال للعابد يوم القيامة: ﴿نَعَمْ الرجل كنت همتك ذات نفسك، وكفيت الناس مؤونتك فادخل الجنة﴾ إلا أن الفقيه من أفاض على الناس خيره، وأنقذهم من أعدائهم - أي نفوسهم وشياطينهم - ووفر عليهم نعم جنان الله تعالى، وحصل لهم رضوان الله

(١) سورة النساء: الآية ٩٥.

(٢) انظر فيض الغدير: ج ٤، ص ٥٧٠، ح ٥٨٦٣.

تعالى، ويقال للفقهاء: يا أيها الكافل لأيتام آل محمد ﷺ، الهادي لضعفاء محبيهم ومواليهم، قف حتى تشفع لكل من أخذ عنك، أو تعلم منك، فيقف فيدخل الجنة ومعه فئاماً وفئاماً وفئاماً حتى قال عشرين^(١).

وهم الذين أخذوا عنه علومه، وأخذوا عمن أخذ عنه وعمن أخذ عمن أخذ عنه إلى يوم القيامة، فانظروا كم فرق ما بين المنزلتين^(٢).

أثر العالم بين الناس

والحديث يلفت نظر الناس ويحثهم إلى معرفة فضل العلم والعلماء بينهم، وأن وجود العلماء بينهم فيه ضمانان هم في أمس الحاجة إليهما:

الأول: ضمان الهداية والاستضاءة بنور علمهم، فهم ينقذون الناس من الجهل والضلالة والفتن التي ينصبها لهم الأعداء وهم غافلون، فحكم العالم في الأمة حكم الطبيب الذي ينجي المريض من الموت، فإن العالم ينجي أرواحهم وقلوبهم وعقولهم من الموت، ولا شك أن حياة الأرواح أهم بكثير من حياة الأبدان.

الثاني: ضمان النجاة في الآخرة، فإن العلماء شفعاء لكل من يرتبط بهم ويأخذ عنهم العلم ولو بالواسطة، ومن عطايا الله سبحانه للعالم أنه يمنحه

(١) مجمع البحرين: ج ٦، ص ١٣٠، (فأم). والفئام الجماعة الكثيرة من الناس لا واحد له من لفظه. قال الجوهري وغيره: والعامة تقول الفام بلا همزة، وفي الحديث قلت: وما الفئام؟ قال: مائة ألف.

(٢) الاحتجاج: ج ١، ص ٩؛ عوالي اللآلئ: ج ١، ص ١٩، ح ٧؛ تفسير الإمام العسكري عليه السلام: ص ٣٤٤، ح ٢٢٣.

الجنة، ولكن قبل دخولها يعطيه حق الشفاعة لكل من تعلّم منه وإن كان عبر الأجيال منذ زمانه إلى آخر فرد تعلّم من بالوسائط، وهذا لا ينتهي إلى يوم القيامة.

وفي هذا تعليم للأمة وإرشاد إلى أن رضا الله تعالى ورضا آل محمد ﷺ والنجاة في الدنيا والآخرة رهينة بحب العلماء والارتباط بهم واتباعهم لا باتباع غيرهم، ولا نجاة للناس إلا بذلك.

الحذر من الدعاية ضد العلماء الربانيين

فلا ينبغي أن يستمع البعض إلى الأقاويل والدعايات المغرضة الكاذبة التي يشنها الأعداء لأجل إطفاء النور بينهم، وسلب الهداية منهم لكي يضلّوهم ويسوقوهم إلى مصالحهم. نعم يجب أن يتبعوا العلماء الربانيين لا من انتحل العلم أو خاض في الدنيا، فيتبعون علماء يفيضون على الناس بعلمهم وخيرهم وهدايتهم يعرفون من أفكارهم وأعمالهم ومواقفهم، وحيث إنّ هذا قد يغفل عنه البعض ويقع في فخ الأعداء ويتأثر بالدعايات المعادية ويتخذ موقفاً من العلماء الأطباء الذين ينقذونه من الفتن في الدنيا ومن النار في الآخرة. قال ﷺ: ﴿فانظروا كم فرق ما بين المنزلتين﴾ فالفرق كبير بين اتباع الغرب والشرق والجيوش المجيشة في وسائل التواصل والإعلام ونحوهما لتحريف الناس وتضليلهم والتي تهتك كرامة الأمة وتفسدها وتجعلها ذليلة تابعة للمشاريع المعادية، وبين من يتبع العلماء الربانيين الذين يقدمون للأمة هداها ورشدها.

وهذا فضل عظيم يتميز به العلماء من حيث الخصائص والآثار، بل باتباع

العلم والعلماء تجتمع الوجوه الأربعة للفضل والتفضيل، فإنَّ للعلم فضلاً في ذاته وصفته وأجره وأثره، وهذه هي ذات الخصائص والآثار التي جعلت لسورة الحمد، ومن هنا تضافرت الأخبار الشريفة في بيان جملة من هذا الآثار. ونكتفي في هذا المقام بالإشارة إلى أهم الفضائل والآثار التي وردت في الروايات الشريفة، فنكتفي باستعراض خمس منها:

فضائل سورة الحمد

الفضيلة الأولى: لقراءة الحمد وسماها

وقد مرت بعض الإشارات السريعة لدى بيان أسماء السورة وآثارها، وهو طريق نقلي لا يمكن إدراكه بالعقل؛ لقصور العقل عن درك فضل المعاني والآثار المعنوية؛ لذا لا بد من التعرض إلى بعض الروايات الواردة بهذا الشأن. منها: ما في مجمع البيان بسنده عن رسول الله ﷺ قال: ﴿أَيُّمَا مُسْلِمٍ قَرَأَ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ أُعْطِيَ مِنَ الْأَجْرِ كَأَنَّمَا قَرَأَ ثُلُثِي الْقُرْآنِ، وَأُعْطِيَ مِنَ الْأَجْرِ كَأَنَّمَا تَصَدَّقَ عَلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ﴾ وروي من طريق آخر هذا الخبر بعينه إِلَّا أَنَّهُ قَالَ: ﴿كَأَنَّمَا قَرَأَ الْقُرْآنَ﴾^(١).

ولعل هذه ناظرة إلى القراءة الأفضل الخالية من النواقص كاللحن في القراءة، أو الغفلة عن المضامين؛ لأنَّ تفاوت الفضل يخضع للسبب الأفضل، كما يتضح في الإلفات الثاني.

(١) مجمع البيان: ج ١، ص ٤٨.

والملفت فيها أمور:

الأول: أن الثواب المذكور لمن يقرؤها وهو مسلم؛ إذ ربما يقرؤها غير المسلم لأجل تحصيل آثارها ومنافعها، أو لأجل الاطلاع عليها، كما يلحظ من طريقة بعض غير المسلمين لدى رجوعهم إلى القرآن، وربما تقرأ بتشديد اللام أي (مُسلم) بقلبه، وهي من خواص المؤمن؛ لذا جعل الصدقة على المؤمن والمؤمنة لا المسلم والمسلمة، و (أيّا) من أدوات العموم التي تفيد العموم الأفرادي والأزماني والأحوالي، فكل من يقرؤها ينال الأجر المذكور لها، كما أنّ إطلاقها يشمل القراءة في الصلاة، وفي غيرها، وبذلك تفيد فائدة خاصة بالمصلين دون غيرهم، فالمصلون في كل يوم يختمون القرآن على عدد ركعات صلواتهم كأدنى ما ينالونه.

الثاني: لعل قوله: ﴿كأنّما قرأ ثلثي القرآن﴾، و: ﴿يقرأ القرآن﴾ ناظر إلى اختلاف القرّاء والقراءة، وهذا يعزز ما ذكرناه في اسمها.

الثالث: أنّ قارئها ينال نوعين من الأجر:

أحدهما: ثواب ختم القرآن.

وثانيهما: ثواب التصدّق على كل مؤمن ومؤمنة.

والفرق بين المؤمن والمسلم ظاهر، والتصديق على المؤمن أكثر فضلاً وثواباً ومنزلة من التصديق على المسلم أو غيره، وكلمة (كل) تفيد العموم الاستغراقي، ولو لم يقل بانصرافها إلى المؤمنين في زمان القارئ فقط فإنّها تشمل جميع المؤمنين والمؤمنات في الأرض منذ آدم ﷺ إلى ما شاء الله.

الحمد تعوض عن الصدقة

وفي هذا فتح لباب الأمل والاستثمار للفقراء الذين لا يجدون ما ينفقونه للصدقة أن يواظبوا على قراءة سورة الحمد، وللأغنياء أن يشجعوا ويؤسسوا لتعليم سورة الحمد وتفسيرها وترويجها في المجتمع، وفي الجزء الأول إشارة إلى علو المنزلة والمقام عند الله؛ لأنّ لحتم القرآن درجات لا ينالها غيرهم، ففي البرزخ القرآن نور وسرور يحضر قبر المؤمن ليلة الوحشة فيؤنسه ويطمئنه ويسليه، ودرجات الآخرة ومقاماتها تنال به.

وفي الجزء الثاني إشارة إلى نيل بركات وآثار الصدقة ليس على فقير واحد، بل على جميع المؤمنين والمؤمنات، وهذا أثر عظيم تقصر العقول عن إدراكه. إنّ أثر الصدقة الواحدة عظيم جداً، وفيه دفع للبلاء وقد أبرم إبراهيم، وفي الحديث: ﴿داووا مرضاكم بالصدقة﴾^(١) فكيف إذا كانت صدقة عن المؤمنين والمؤمنات، وربما يقال: إنّ الوجدان يشهد بعدم ترتب هذه الآثار على الكثير ممن يقرؤون الحمد.

والجواب: أنّ الآثار تارة تكون مادية محسوسة وتارة غيبية تتعلق بغيب العالم لا شهادته، وهي أعظم وأهم من الأول، ولعل الرواية ناظرة إليه.

ومنها: ما في الخصال في جواب النبي ﷺ عن سؤال أعلم علماء اليهود عما أعطى الله تبارك وتعالى رسوله، فقال: ﴿مما أعطاني فاتحة الكتاب﴾^(٢) فسأله

(١) الكافي: ج ٤، ص ٣، ح ٥؛ البحار: ج ٥٩، ص ٢٦٤، ح ٢٧.

(٢) الخصال: ص ٣٥٥، ح ٣٦.

اليهود فما جزاء من قرأ فاتحة الكتاب؟ فقال رسول الله ﷺ: ﴿من قرأ فاتحة الكتاب أعطاه الله تعالى بعدد كل آية نزلت من السماء ثواب تلاوتها﴾^(١).

وقوله: ﴿بعدد كل آية نزلت من السماء﴾ يحتمل ثلاثة معان:

الأول: آيات سورة الحمد، وهذا الاحتمال ضعيف؛ لمناقضته لمقتضى اللطف والامتنان، وناقض للغرض، وتوضيح للواضح، فإن النبي ﷺ في مقام بيان كثرة الثواب وعدد آيات سورة الحمد سبعة، فلو كان الثواب يعدل آياتها كان قليلاً، وهو ناقض لغرض جذب اليهود وأمثالهم إلى سورة الحمد، وفي عين الحال لم يأت بشيء جديد؛ لأنّ لقراءة كل آية من آيات القرآن ثواباً؛ لأنّ الله سبحانه لا يضيع أجر العاملين، فما الفائدة المترتبة على هذا المعنى؟

الثاني: بعدد آيات القرآن، فيعطى ثواب كل آيات القرآن، وهذا يتوافق مع الروايتين المتقدمتين اللتين نصتتا على أن قراءتها تعادل ثلثي القرآن أو كله.

الثالث: بعدد آيات الله سبحانه النازلة من السماء من القرآن ومن غيره، فيشمل كل رحمة نازلة سواء بمطر أو شعاع شمس أو إجابة دعوة أو رزق، فكل ما ينزل من السماء هو آية من آيات الله تعالى، وبعدد هذه الآيات يعطى ثواب التلاوة، وحيث إنّ عدد الآيات لا يُعدّ ولا يحصى يكون المعنى أنّ ثواب قراءتها لا يعدّ ولا يحصى، وهذا قد يكون مقتضى العدل لكننا نجهل القيمة والفضل والتكريم الإلهي فلا معنى لها، وهذا المعنى أوفق بالمنطوق من الثاني؛ لإضافة العدد إلى (كل) وهي من أدوات العموم معززة

(١) الخصال: ص ٣٥٥، ح ٣٦؛ البحار: ج ٩، ص ٣٠٠، ح ٥.

بحذف المتعلق في (الآية) فتشمل القرآن وسائر الآيات الكونية وآيات الفعل الإلهي، وفيه دلالة على الترابط التائيري بين سورة الحمد وبين حوادث الكتاب الكونية كما قدمناه في معنى تسميتها بفاتحة الكتاب، وهذا ما يتوافق مع مضمون رواية جابر عن النبي ﷺ عن الله تبارك وتعالى في بيان لطفه وامتنانه على أمة الإسلام قال: ﴿وَأَعْطَيْتُكَ لَكَ وَلَأَمْتُكَ كَنْزاً مِنْ كَنْوَزِ عَرْشِي فَاتْحَةَ الْكِتَابِ﴾^(١) سواء فسر العرش بمصدر الأوامر والنواهي أو عموم عالم الإمكان، والملفت أن أعلم علماء اليهود أقر هذه الحقيقة ولم يشك أو يتردد في قبولها مما يدل على أنها كانت عندهم من الحقائق، ولعل أنبياءهم أخبروهم عن النبي ﷺ وأخبروهم أيضاً عن مزاياه وخصائصه، ومنها عترته الطاهرة وسورة الحمد، بشهادة مجيئهم وسؤالهم عنها، كما تعززه الرواية التالية.

ومنها: ما رواه الصدوق رحمه الله في العيون بسنده عن الإمام العسكري عن الهادي والجاد والرضا عليهم السلام عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: ﴿سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَالَ لِي: يَا مُحَمَّدُ! ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾^(٢) فَأَفْرَدَ الْاِمْتِنَانَ عَلَيَّ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ، وَجَعَلَهَا بِإِزَاءِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، وَأَنْ فَاتِحَةُ الْكِتَابِ أَشْرَفُ مَا فِي كَنْوَزِ الْعَرْشِ، وَأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خَصَّ مُحَمَّدًا وَشَرَّفَهُ بِهَا وَلَمْ يَشْرِكْ مَعَهُ فِيهَا أَحَدًا مِنْ أَنْبِيَائِهِ، مَا خَلَا سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَإِنَّهُ أَعْطَاهُ مِنْهَا ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، أَلَا تَرَاهُ يَحْكِي

(١) الخصال: ج ٢، ص ٤٢٥ - ٤٢٦، ح ١؛ علل الشرائع: ج ١، ص ١٢٨.

(٢) سورة الحجر: الآية ٨٧.

عن بلقيس حين قالت: ﴿إِنِّي أُلْقِي إِلَيْكَ كِتَابٌ كَرِيمٌ * إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾^(١) ألا فمن قرأها معتقداً لموالاة محمد وآل محمد الطيبين منقاداً لأمرهما مؤمناً بظاهرهما وباطنهما أعطاه الله تعالى بكل حرف منها حسنة. كل واحدة منها أفضل من الدنيا وما فيها من أصناف أموالها وخيراتهما، ومن استمع إلى قارئ يقرأها كان له بقدر ما للقارئ، فليستكثر أحدكم من هذا الخير المعرض لكم، فإنه غنيمة لا يذهب أوانه فتبقى قلوبكم في الحسرة^(٢).

ويتميز هذا الحديث بأنه متوارث عن المعصومين عليهم السلام عن الله سبحانه، فهو من ضمن الأحاديث التي يجتمع فيها العنوانان الحديث القدسي والحديث النبوي، وهذا يدل على عظمة معناه وأهميته، وقد تضمن دلائل عديدة:

الدلالة الأولى: أن قوله: يا محمد! ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ يعزز ما حققناه في سورة القدر من وقوع التعدد في النزول للآيات والسور، وآية السبع المثاني نزلت مرة بعنوان حديث قدسي، ومرة بعنوان قرآن، والمقصود بها الأمة.

النبي المصطفى صلى الله عليه وآله والسبع المثاني

الدلالة الثانية: أن إتيان النبي السبع المثاني هو امتنان على رسول الله وعلى أمته، وهذا يدل على علو مقام السورة المباركة حتى يجعلها الباري وساماً

(١) سورة النمل: الآيتان ٢٩ و ٣٠.

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج ١، ص ٢٧٠، ح ٦٠؛ تفسير نور الثقلين: ج ١، ص ٢٠، ح ١٠.

لرسوله المصطفى ﷺ، والإزاء في قوله: ﴿وجعلها بإزاء القرآن العظيم﴾ المحاذاة والمقابلة^(١)، فيكون القرآن بوصف عظمته مقابلاً لسورة واحدة منه وهي الحمد، وتترتب على هذه المقابلة آثار عظيمة.

أحدها: إمكان التحدي بسورة الحمد وحدها لسائر أهل الفكر والأديان بدلاً عن كل القرآن.

ثانيها: أن البشر يقصر عن الإتيان بمثلها، ولم يستطع أحد من بلغاء العرب وأدبائهم الإتيان بمثلها، وإلى يوم القيامة تعجز آيات السورة أهل البلاغة والأدب، وكل من تصدى للإتيان بمثلها فضحته، وكشفت عجزه وقصوره.

ومن دلائل العجز أن القرآن حكى جملة من المعاني والمضامين التي قالها البشر، كما في نقل ما قالته بلقيس بأسلوب قرآني فريد، فمع أن المعنى موجود لديهم والألفاظ بأيديهم، إلا أن الصياغة التي جاء بها تفوق كل المهارات البلاغية.

وثالثها: أن كل الخيرات والبركات المودعة في القرآن مودعة فيها، وأن سليمان عليه السلام أوتي آية واحدة منها فنال ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، فكيف بمن أوتي السورة كلها؟ وهذا أحد أسرار ولاية النبي ﷺ على عالم الإمكان.

شروط تأثير السورة

الدلالة الثالثة: أن لظهور الآثار المودعة في سورة الحمد شروطاً لا تظهر إلا بها. أولها: القراءة مع الاعتقاد بالموالاة لمحمد وآل محمد عليه السلام، وبمقتضى

(١) مجمع البحرين: ج ١، ص ٢٧، (أزا).

البرهان والقواعد الحكمية يكون الاعتقاد بالموالاة بمنزلة الفصل الأخير الذي يعطي للشيء أثره وخاصيته، كالناطقية في الإنسان، أو هو الشرط الأخير من العلة الذي إليه تعود حقيقة التأثير كالمحاذاة للإحراق. أما ذات القراءة فهي بمنزلة الجامع المشترك الذي يعبر عنه بالجنس منطقياً، إلا أن خصائص الجنس لا تظهر إلا بالفصل، والمراد بالموالاة المتابعة^(١)، ولا يراد بها مجرد المتابعة في العمل، فإن المنافق كذلك يفعل كما كان يفعل البعض^(٢)، وإنما المراد المتابعة عن اعتقاد بوجوب متابعتهم والانقياد لهم ﷺ.

أركان الانقياد القلبي لآل محمد ﷺ

ثانيها: الانقياد لأمر رسول الله وآله ﷺ، وليس المراد به مجرد الطاعة؛ لأن الطاعة فعل البدن، والانقياد فعل القلب، ويتحقق الانقياد القلبي لأمرهما، ويتقوم بأركان:

الأول: التصديق بصحته دون غيره.

والثاني: الرضا به.

والثالث: العمل به، فلينظر المؤمن إلى فطرته وكيفية اعتقاده بما لديه من أوامر ونواهٍ، والملفت أنه جعل الواحد مثني، فإن النبي وآله واحد في الجوهر والأصل، والقاعدة تقتضي أن يقول لأمر رسول الله وآله كما قال

(١) مجمع البحرين: ج ١، ص ٤٦٠، (ولا).

(٢) انظر البرهان: ج ٢، ص ٣٧٨؛ مجمع البحرين: ج ١، ص ٤٥٧، (ولا).

سبحانه: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾^(١) إِلَّا أَنَّهُ ثَنَاهُ
هنا، فقال: (أمرهما) والعل السر فيه يعود لأمرين:

أحدهما: بيان أن ما جاء عن الإمام ولم يحد عن النبي واجب الطاعة.
وثانيهما: لإلغات أنظار بعض المسلمين الذين يتبعون النبي ولا يتبعون
آله فإنهم لا يتبعون الرسول في المال.

ثالثها: الإيمان بظاهرهما وباطنهما - أي النبي وآله عليه السلام - والإيمان
التصديق بظاهرهما أي ما لهم من مقامات ومناصب ظاهرية، وهي النبوة
والإمامة والعصمة والعلم، وباطنهما أي الولاية التامة على كل ما سوى الله
تبارك وتعالى، ولا يخلو هذا من إشارة إلى اتخاذهم الواسطة والوسيلة في
قضاء الحاجة، فإنه إذا بلغ من يقرأ سورة الحمد هذه المعارف والمعتقدات
وطابقها بالعمل امتلك سلطة التأثير، وهذا هو أحد وجوه الميز بين الأولياء
المقربين وبين غيرهم.

العطاء الإلهي على قدر المعرفة

الدلالة الرابعة: أن العطاء الإلهي لثواب الحمد العظيم يدور على هذه
العقيدة، وهو عطاء لا محدود؛ لأنه يكون على قدر حروفها، وعلى كل
حرف يعطى حسنة هي أفضل من الدنيا وما فيها من خيرات مادية
ومعنوية، فهو عطاء خاص لخواص المؤمنين وليس لكل من يقرأ الحمد،
فلا بد للمؤمن أن يجهد نفسه للارتقاء المعرفي والمعنوي والعمل؛ لكي ينال

كل هذا الخير الكبير.

وفي الفقرة دلالة على أن العطاء يكون على قدر المعرفة والاعتقاد لا مجرد العمل؛ لأن الله سبحانه ينظر إلى القلوب لا إلى الأبدان والأعمال، والقلوب تصنعها العقائد والمعارف، ومن هنا تكون الولاية مفتاح الأعمال، وهي سر قبولها، وأن العابد لا تنفعه عبادته بلا ولاية^(١)، وأن المنافق قد يتظاهر بالكثير من الأعمال لكنها لا تقبل منه^(٢)، بل تقوده إلى جهنم؛ لأن الميزان الإلهي يدور على القلوب لا الأعمال، فإذا سلم القلب وطبقه العمل بلغ غاية المقصود، وتعزز الدلالة الآتية.

سر صلاة الفجر

الدلالة الخامسة: أن هذا العطاء لا يختص بالقارئ، بل يشمل السامع لها، وفي ذلك فتح لباب الرحمة على جميع العباد، لاسيما الذين لا يعرفون القراءة أو يعجزون عنها بسبب مرض أو عرض - ونحو ذلك - أن لا يحرّموا أنفسهم من هذا الفضل العظيم، فيسمعوا السورة، وفيه تعليم للناس في أن يبدؤوا كل يوم من أيامهم بسورة الحمد قراءة وسماعاً، ولعل هذا جزء من حكمة فرض صلاة الفجر ولزوم الالتزام بها، فإن من يصلي الفجر في وقتها ينال هذا الشرف العظيم، والذي تفوته يفوته خير كثير.

ولو توجه الناس وجعلوا قراءة سورة الحمد ضمن المراسيم اليومية في

(١) الأملاني (للطوسي): ص ١٣٢، ح ٢٠٩؛ البحار: ج ٢٧، ص ١٧٣، ح ١٦.

(٢) ثواب الأعمال: ص ٢٠٣.

الدوائر الحكومية والمعاهد والمدارس والجامعات والمصانع والأسواق لظهر حياة الناس الكثير من الخير، واندفعت الكثير من المشاكل والأزمات، والأفضل أن يجعل ذلك في ثلاثة أوقات وأكثر، لاسيما أوقات الصلاة، ولذا كانت من الكنوز التي أعطيت للأمة، ولذا قال رسول الله ﷺ: ﴿فليستكثر أحدكم من هذا الخير المعرض لكم، فإنه غنيمة لا يذهب أوانه﴾^(١) لأنه مستمر ودائم. هذا إذا كان على مستوى الأفراد، فإذا صار عملاً جماعياً لعموم الناس في جميع حقول الحياة لاحظوا كم سيكون الأثر عظيماً، فلو غفل الناس عن هذا التعليم، ولما تنكشف لهم الحقيقة فستبقى قلوبهم في حسرة دائمة حتى وإن كانوا من أهل الجنة؛ لأنهم سيجدون الحرمان من الكثير من المقامات والدرجات بسبب تفريطهم بهذه السورة الوجيزة في ألفاظها والعظيمة في آثارها.

الفضيلة الثانية: أثرها في كسب العناية والألطف الإلهية

وهذا الأثر من قبيل الوعد الإلهي الذي تعهد به الباري عز وجل للبشر المقترن بالقسم بعزته وجلاله عز وجل، فحصوله واجب حتمي لا يختلف ولا يتخلف دل على ذلك ما رواه الطبرسي قدس في مجمع البيان عن الإمام الصادق عليه السلام عن أبيه عن آبائه عن النبي المصطفى ﷺ عن الله عز وجل، فالسند عالي الجمال والجلال، وقد توارثه المعصومون - معصوم عن معصوم - عن الله تبارك وتعالى. قال ﷺ: ﴿لما أراد الله عز وجل أن ينزل

(١) تفسير الإمام العسكري عليه السلام: ص ٢٩، ح ١٠؛ الأمالي (للصدوق): ص ٢٤١، ح ٣.

فاتحة الكتاب وآية الكرسي وشهد الله وقل اللهم مالك الملك إلى قوله بغير حساب تعلّقن بالعرش وليس بينهن وبين الله حجاب، وقلن: يا رب تهبطنا إلى دار الذنوب وإلى من يعصيك ونحن معلقات بالظهور وبالعرش؟ فقال: وعزتي وجلالي ما من عبد قرأكن في دبر كل صلاة مكتوبة إلاّ أسكنته حظيرة القدس على ما كان فيه، وإلاّ نظرت إليه بعيني المكنونة في كل يوم سبعين نظرة، وإلاّ قضيت له في كل يوم سبعين حاجة، أدناها المغفرة، وإلاّ أعدته من كل عدو ونصرته عليه، ولا يمنعه دخول الجنة إلاّ أن^(١).

وتضمنت عدة دلائل:

تعدد النزول

الدلالة الأولى: أن للسور والآيات القرآنية نزولات متعددة ولا تقتصر على نزول واحد، كما أن للآيات والسور حقائق عينية في عالم الملكوت حية وناطقة إما بالنطق الحقيقي كما هو الأصح أو المجازي أي نطق الحال، والعرش الذي تعلّقن به هو إما العرش الإلهي العلمي كما قدمناه، فيحمل تعلّقهن على تعلق العلم بهن، وهذا يتوافق مع المعنى المجازي للنطق، أو العرش المادي الذي تحمله الملائكة، وهو محل صدور الأوامر والنواهي والمقدرات الإلهية فيتوافق مع المعنى الحقيقي، وهو أوفق بالظهور، وبما حققناه في بحث خصائص عالم الملكوت.

الدلالة الثانية: أن الآثار المذكورة للحمد والآيات المذكورة تترتب

(١) مجمع البيان: ج ٢، ص ٢٦٧؛ تفسير كنز الدقائق: ج ١، ص ٤٧.

بشرط الانضمام، كما يفيد ظهور قوله: ﴿ما من عبد قرأكن دبر كل صلاة مكتوبة﴾ وعليه يكون تأثيرها من قبيل العموم المجموعي لا التركيبي الذي لا يظهر أثره إلا بالاجتماع، فلو قرأ بعضها دون بعض لا يظهر هذا الأثر المذكور. نعم لو كان الانضمام تركيباً فيكون لكل جزء من المركب بعض الأثر أمكن القول بظهور بعض الأثر بقراءة البعض لكنه خلاف منطوق الحديث، والملفت أنها وصفت القارئ بالعبد ولم تقل: (أيما مسلم) أو (مؤمن) أو (إنسان) للإشارة إلى أن قابلية التأثير تظهر بالعبودية لله تعالى، فلو كان الإنسان عبداً لله وقرأهن بعد صلاته نال الأثر، وبذلك يتضح أحد شروط التأثير في هذه الآيات المعنوية.

كما يجاب عن سؤال البعض لماذا نحن نقرأ ولا يظهر الأثر؟ فإن الإمام في هذه الرواية يجيب، وهو أن الذي لا يجاب له لم يصل مقام العبودية.

الدلالة الثالثة: أن للحمد والآيات المذكورة من أفضل الأعمال الروحانية التي تنظم أعمال العبد وتوصله إلى مطلوبه؛ لأنها مقيدة بالصلاة وتكون بعدها، فلا يظهر أثرها لغير المصلي، ولا لقراءتها في غير دبر الصلاة، وإن كان لقراءتها في كل وقت أثره وفضله الخاص إلا أن الأثر الذي ذكرته الرواية مشروط بشرطين: هما أن يكون القارئ لها مصلياً، وأن يقرأها بعد صلاته الواجبة.

الدلالة الرابعة: أن الآثار التي تترتب على قراءتها مجتمعة تضم جوامع خير الدنيا والآخرة:

أولها: بلوغ العبد مقام القرب ودخول حظيرة القدس الإلهي، وتحتمل

معانٍ أشهرها ولعلها المتبادرة هي الجنة. يشهد له قوله ﷺ: «الثابت على سنتي معي في حظيرة القدس»^(١) ومثله: «لا يلج حظيرة القدس مدمن الخمر»^(٢) والحظيرة المكان الذي يحاط عليه ليمنع الحر والبرد، وهو مأخوذ من الحظر أي المنع، وبهذا الاعتبار يطلق على المكان الذي تأوي إليه الماشية حظيرة^(٣)، وسميت الجنة حظيرة القدس لأنها محل تطهير العقول والنفوس والأعمال، ومنزهة من الشوائب والنواقص والرذائل والأمراض، والقدس الطهارة، والتقديس التطهير والتنزيه، ومن أسمائه تعالى القدوس أي الطاهر^(٤).

وقوله: «على ما كان عليه» ظاهر في أنه على ما كان عليه في الدنيا من الصفات والأعمال، فإن الأعمال والصفات الدنيوية تكون ملكات الإنسان، وملكاته تكون هويته الأخروية، فلو كان العبد متصفاً برذائل الأخلاق ومرتبكاً للقبائح فإنه ببركة قراءة هذه الآيات تحسن عاقبته، فإما يوفق للتوبة وتتغير حالته قبل رحيله من الدنيا، أو يطهره الباري بالبلايا والابتلاء في الدنيا والبرزخ حتى يطهره ويسكنه مع النبي وآله صلوات الله عليهم في الجنة، وهذه كرامة للحمد والآيات الشريفة، وإن كان العبد لا يستحقها إلا أن شرف الوساطة يزيل الموانع والحجب.

(١) الفقيه: ج ١، ص ٣٥، ح ٧٠.

(٢) مفردات الراغب: ص ٦٦٠، (قدس)؛ مجمع البحرين: ج ٣، ص ٢٧٤، (حظر)؛ النهاية في غريب الحديث والأثر: ج ١، ص ٤٠٤، وفيه: «مدمن خمر».

(٣) انظر مفردات الراغب: ص ٢٣٣، (حظر)؛ لسان العرب: ج ٤، ص ٢٠٢ - ٢٠٣، (حظر).

(٤) انظر مفردات الراغب: ص ٦٦٠، (قدس)؛ البحار: ج ٤، ص ٢٠٠.

الجنة والآثار الدنيوية

الدلالة الخامسة: أن الآثار التي ينالها العبد بقراءة الحمد والآيات الشريفة قسمان:

الأول: أخروي، وهو دخوله الجنة والسكونة فيها.

الثاني: دنيوي، وهو ثلاثة آثار ينالها على سبيل البدل.

أولها: قضاء الحاجات اللطيفة، أي يعطيها للعبد علم بذلك أو غفل، سأل ذلك أو لم يسأل، وإنما هي منحة إلهية للعبد، وهي عبارة عن سبعين نظرة سواء أريد بالسبعين المعنى الحقيقي كما هو الأصل أو المبالغة، فإن الاثنين يدلان على الكثرة، كما أن النظرة تكون بعين الله المكنونة، وهي قد يراد بها الكناية عن رحمة الله ولطفه وتوفيقه لعبده، وربما يراد بها عناية حجتة وخليفته بين عباده وهو الإمام المعصوم عليه السلام، فإنه عين الله الناطقة، والأول أظهر، والجمع الدلالي والبراهين العقلية يفيدان الثاني ولا تنافي بين المعنيين، فيكون العبد بتلاوة سورة الحمد والآيات التي معها بعناية ولي الله وحجته يحظى بالمحبوبية والتوفيق في أموره كلها.

وكثرة النظرة والعناية تكون بحكم الحظيرة المقدسة التي تمنع عنه كل ما يسيئه ويضره ويؤذيه، فكما هو في الآخرة يكون في حظيرة القدس، فكذلك في الدنيا يكون، كما يفيد وصف العين بالمكنونة مأخوذة من الكِن وهو ما يحفظ فيه الشيء، وتسمى المرأة المتزوجة كَنَّةً، لكونها في كِن من حفظ زوجها، كما سميت محصنة؛ لكونها في حصن من حفظ زوجها^(١)، والمكنونة اسم مفعول،

(١) مفردات الراغب: ص ٧٢٦ - ٧٢٧، (كن).

وتوافق حمل العين على الإمام عليه السلام، وقد تكون بمعنى اسم الفاعل وهي سبب الحفظ فتشمل الاثنين، فإن لم يمنحه هذه الكرامة أبدلها بالثانية.

ثانيها: قضاء الحوائج الطلبية، أي قضاء سبعين حاجة له في كل يوم، وهذا أثر بديل عن الأول؛ لإمكان فعل العبد ما يوجب حجه عن العين الإلهية وطرده من عنايته ولطفه، لكن تبقى قضاء الحوائج وهي لا تتوقف على محبوبة المحتاج، بل على لطف المعطي وكرمه، ولذا يستجيب الباري ويقضي حوائج العصاة والمذنبين و(أدناها المغفرة) ولكن إذا اتصف العبد بالشروط الثلاثة التي ذكرناها في الرواية السابقة ينال الأثرين معاً.

ثالثها: نصرته وغلبته على أعدائه، وقوله: ﴿أعدته من كل عدو﴾ يشمل أصنافاً عديدة من الأعداء، هم نفسه التي بين جنبيه وشيطانه وأهله وأولاده إذا مالوا عن الحق وأسأؤوا الفعل، وقد وصفهم القرآن بالعدو^(١)، وكذا الأمراض والأوبئة والسلطان الجائر، فكل ما يواجهه العبد من أعداء ينتصر عليهم؛ لأنه في عناية الله ولطفه وحظيرة قدسه، ولكن قوله: ﴿ولا يمنعه دخول الجنة إلا أن يموت﴾ ورد أيضاً ﴿إلى أن يموت﴾، وهذا الثاني أوفق بالمدلول؛ لأن الحديث عن الآثار الدنيوية، فإذا مات دخل في حظيرة القدس الأخروية، وأما على الصيغة الأولى (إلا أن يموت) يكون إشارة إلى الوجه المانع من ظهور الآثار المذكورة، وهو موت القلب والضمير، فإنه إذا مات قلب العبد وضميره فإنه يطرد من رحمة الله وفضله، ويمنعه من ظهور الآثار، إما بنحو الدفع أي لا يوفق لقراءة الحمد والآيات التي معها، أو يقرؤها بلا

توفر الشرائط فلا يظهر الأثر؛ لأن الأثر يدخل كجزء من العلة في التأثير.
ويتحصل: أن العبد يصل إلى حوائج الدنيا والآخرة ببركة قراءة سورة
الحمد والمواظبة عليها.

قضاء الحوائج بالحمد

وقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام تعليم لقضاء الحوائج ببركة سورة
الحمد، ففي رواية أبي بكر الحضرمي قال: قال الإمام الصادق عليه السلام: «إذا
كانت لك حاجة فاقرأ المثاني وسورة أخرى وصل ركعتين وادع الله» قلت:
أصلحك الله، وما المثاني؟ قال: «فاتحة الكتاب بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله رب العالمين»^(١).

وظاهرها أن تكون قراءة الحمد والسورة قبل الركعتين فضلاً عن الحمد
والسورة في صلاة الحاجة، والأضمن قراءتهما قبل الصلاة وفيها، وإطلاقها
يشمل جميع حوائج الدنيا والآخرة، ولا ينبغي أن يغفل عن أن ظهور الآثار
متوقف على الشروط التي تقدم بيانها.

الفضيلة الثالثة: أن بها محاربة إبليس

بتضعيف كيده ونزغاته في المشاكل والمخاصمات بين الناس، فقد روى
الصدوق قدس سره في الخصال عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «رنَّ إبليس أربع رنات
أولهن يوم لعن وحين أهبط إلى الأرض وحين بعث محمد صلّى الله عليه وآله على حين فترة

(١) تفسير العياشي: ج ١، ص ٣٤، ح ١١؛ البرهان: ج ١، ص ١٠٤، ح ٢٢.

من الرسل وحين أنزلت أم الكتاب^(١) والرنة الصيحة الحزينة، والرنين الصياح عند البكاء^(٢)، ووجه رنين إبليس في هذه المواطن الأربعة ظاهر، وفي قوله: ﴿على حين فترة من الرسل﴾ إشارة إلى أن الناس قبل بعثة النبي ﷺ كانوا في جاهلية، وفي مثلها يحكم الشيطان على الأفكار والعقول والقلوب، ويستولي على القضايا والأحداث، فيتيه الناس في الضلالات والانحرافات والفساد الأخلاقي والسياسي، وما ينبغي الالتفات إليه أن رنينه في الثلاثة الأولى انقضى لانقضاء السبب؛ إلا أن رنينه بنزول سورة الحمد مستمر إلى يوم القيامة؛ لأنها دافعة لمكائده، وقاضية على نزغاته، وما دامت السورة المباركة حاضرة بين الناس يتلونها صباحاً ومساءً وفي كل صعيد ومعتك، فإن الشيطان يصاب بالحزن والكآبة ويرنّ منها، وفي هذا تعليم مهم للناس في استحضار سورة الحمد لدى وقوع المشاكل والأزمات.

الوقاية والعلاج

ويمكن استحضارها بنحوين: الدفع للوقاية والرفع للعلاج.
والأول: يتم بقراءة سورة الحمد عند وقوع الأزمات والخصومات والمشاكل التي يسببها الشيطان لدفعها.

والثاني: بعقد المجالس الخاصة لقراءة سورة الحمد والإكثار منها لرفع الآفات والبلايا التي تصيب عموم الناس كالأمراض والأوبئة والحروب

(١) الخصال: ص ٢٦٣، ح ١٤١.

(٢) لسان العرب: ج ١٣، ص ١٨٧، (رنن)؛ المعجم الوسيط: ج ١، ص ٣٧٦ (رنّ).

والفتن الاجتماعية، وقد جرت سيرة المسلمين على قراءتها في مجالس الترحيم، ولو جرت سيرتهم على قراءتها للقضاء على مكائد الشيطان وخدعه وحروبه التي يشنها على الناس لنال الناس حظاً وافراً من الأمن الفكري والنفسي والاجتماعي، وقضوا على الكثير من المشاكل الاجتماعية لسبيين:

الأول: لأن سورة الحمد آثاراً تكوينية في الوقائع والأحداث بأمر الله وإذنه.

الثاني: لأن لها تأثيرات على الأرواح والقلوب حتى تبحث أسباب الشر منها، وتستحضر أسباب الخير فيها، والتجربة خير برهان على هذه الحقيقة، فلو التفت الزوجان مثلاً - إذا وصلا إلى الخلاف وربما الشقاق - إلى سورة الحمد وقرأها بنية قطع دابر الشيطان والشر بينهما لوجدوا فرصاً سانحة للتفاهم والصلح، ولو التفت الواقعون في النزاعات المالية والتجارية أو السياسية إلى ذلك لوجدوا أن فرص الحلول متاحة لديهم؛ لأن سورة الحمد مثلها مثل الدواء على الجراح تكفيهم شرور أنفسهم وشرور الشيطان، فتدع العقول هي التي تتحدث وتعمل بلا ضغوطات ونوازع شريرة.

ولا يخفى أن ظهور الآثار متوقف على الشروط التي ذكرناها، ويضاف لها شرط رابع هو العبودية ومنها الموالاتة لمحمد وآله عليهم السلام، والانقياد القلبي لهم والإيمان بظواهرهم وباطنهم، وهذا لا يخلو من إشارة إلى اتخاذهم الوسيلة لقضاء الحوائج؛ لأنها تقضى على أيديهم بأمر الله تعالى، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي

سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ»^(١) فإنها دالة على أن الفلاح في الأمور يتوقف على التقوى واتخاذ الوسيلة إليه والجهاد في سبيله، ولا يراد بالجهاد حمل السيف فقط، بل جهاد النفس وتهذيب الفكر والأخلاق وهو أهم، والوسيلة هم محمد وآل محمد عليهم السلام، وقد ورد في بعض الأخبار أن الوسيلة «هي التقرب إليه بالإمام»^(٢)، وهذا هو السبيل الموصل للغايات.

بهم تزال العظام

وفي رواية محمد بن الحسن بن ميمون كتبت إلى أبي محمد عليه السلام أشكو إليه الفقر، ثم قلت في نفس: أليس قد قال أبو عبد الله عليه السلام: «الفقر معنا خير من الغنى مع عدونا، والقتل معنا خير من الحياة مع عدونا»، فرجع الجواب: «إن الله عز وجلّ يخص أولياءنا إذا تكاثفت ذنوبهم بالفقر... وهو كما حدثتك نفسك الفقر معنا خير من الغنى مع عدونا، ونحن كهف لمن التجأ إلينا، ونور لمن استضاء بنا، وعصمة لمن اعتصم بنا. من أحبنا كان معنا في السنام الأعلى، ومن انحرف عنا فإلى النار»^(٣). وهذا مما اتفقت عليه كلمة المسلمين، وأذكر لهذا شاهدين:

الشاهد الأول: من طرقنا عن الإمام الرضا عليه السلام: «لما أشرف نوح عليه السلام على الغرق دعا الله بحقنا فدفع الله عنه الغرق، ولما رمي إبراهيم عليه السلام في

(١) سورة المائدة: الآية ٣٥.

(٢) تفسير القمي: ج ١، ص ١٧٥.

(٣) انظر مناقب آل أبي طالب: ج ٣، ص ٥٣٤؛ اختيار معرفة الرجال: ج ٢، ص ٨١٤، ح ١٠١٨؛ البحار: ج ٥٠، ص ٢٩٩، ح ٧٢.

النار دعا الله بحقنا فجعل الله النار عليه برداً وسلاماً، وإن موسى عليه السلام لما ضرب طريقاً في البحر دعا الله بحقنا فجعله ييساً، وإن عيسى عليه السلام لما أراد اليهود قتله دعا الله بحقنا فنجاه من القتل فرفعه إليه^(١).

فكل شدة وصعوبة بالتوسل بهم تزال، وإذا كان أنبياء الله لا ينجون في صعوباتهم إلاّ بواسطتهم فكذلك المؤمنون بهم، فلا ينبغي للناس أن يخافوا من الوباء وعندهم آل محمد عليهم السلام إذا راعوا شروط السلامة، وتوسلوا بهم، ووفروا الشروط.

الشاهد الثاني: رواية واردة بغير طرقنا: إن رجلاً ضرير البصر أتى النبي صلى الله عليه وآله فقال: ادع الله أن يعافيني. قال: ﴿إن شئت دعوت لك، وإن شئت أخرت ذلك فهو خير﴾ فقال: ادعه، فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه، فيصلّي ركعتين، ويدعو بهذا الدعاء: ﴿اللهم إني أسألك وأتوجه إليه بنبيك محمد نبي الرحمة. يا محمد إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه فتقضي لي، اللهم شفّعه في﴾^(٢).

وفيها إشارات إلى بعض شروط الإجابة، ومنها الوضوء والصلاة وبعض فلسفة الابتلاء.

(١) البحار: ج ١١، ص ٦٩، ح ٢٧؛ الوسائل: ج ٧، الباب ٣٧ من أبواب الدعاء، ص ١٠٣، ح ٨٨٥٣.

(٢) مسند أحمد: ج ٤، ص ١٣٨؛ سنن ابن ماجه: ج ١، ص ٤٤١، ح ١٣٨٥؛ ينابيع الحكمة: ج ٣، ص ٣١٨، ح ٥٤٦٨. وفيه: قال ابن حنيف: ﴿فوالله ما تفرقنا وطال بنا الحديث حتى دخل علينا كأن لم يكن به ضرر﴾.

الفضيلة الرابعة: معالجة الأمراض والآفات

فقد مر في رواية أبي بكر الحضرمي عن الإمام الصادق عليه السلام أن قراءة الحمد من موارد قضاء الحوائج ومنها الأمراض.

وفي رواية سلمة بن محرز قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: ﴿من لم تبرئه الحمد لم يبرئه شيء﴾^(١) ولسانها عام يشمل الأمراض البدنية الروحية. وفي مرفوعة النوفلي: ﴿ما قرأت الحمد على وجع سبعين مرة إلا سكن﴾^(٢) والوجع ظاهر في الأمراض المصحوبة بالآلام، كالرضوض والكسور ونحوهما، والإثبات بعد النفي يفيد حتمية الوقوع، ولكن بشروط:

شروط العلاج

الأول: قراءتها مع الاعتقاد بموالاته محمد وآل محمد عليهم السلام، والانقياد لأوامرهم ونواهيهم.

الثاني: قراءتها عن يقين بتأثيرها لا لأجل الاختبار والتجربة.

والثالث: أن تقرأ على الوجع سبعين مرة بهذا التعيين والعقيدة، ولعل تأثيرها يعود إلى الاستعانة بالله لإيجاد المقتضي للتأثير، أو رفع مستوى الاقتضاء للتأثير، أو إزالة المانع منه، وهذا أسلوب تمضي عليه النظرية الدوائية في معالجة الأمراض، ولكنها في البعد المعنوي، ولذا تشتمل وصفة الطبيب عادة على مجموعة من الأدوية لكل واحد جزء التأثير، ولعل السر

(١) الكافي: ج ٢، ص ٦٢٦، ح ٢٢؛ تفسير نور الثقلين: ج ١، ص ٤، ح ٧.

(٢) الكافي: ج ٢، ص ٦٢٣، ح ١٦؛ البحار: ج ٨٩، ص ٢٣٥، ح ٢١.

في تأثير اليقين والاعتقاد هو قوة الروح وفاعليتها، فإن كل ما يعود للبدن من أفعال النفس إيجابية أو سلبية منشؤها الروح، فإذا طابت الروح طاب البدن، وإذا مرضت مرض؛ لذا قد يكون الحزين سالماً بدنًا لكنه مريض لحزنه الروحي، وقد يكون مريضاً بدنًا لكن ارتياحه النفسي يعود عليه بالسلام، والحالة المعنوية في الجيش والفريق الرياضي من أبرز سمات الانتصار والهزيمة فيهم، وهذه في الدراسات الطبية النفسية من البدييات، فالآلام البدنية منشؤها الإحساس والشعور، وهو من حالات النفس، فإذا سكنت النفس صار إحساسها بالألم قليلاً، وإذا انقطعت وسكنت أكثر ينتفي الإحساس بالألم، والتجارب شاهدة على هذه الحقيقة، فإن الذي يزاول الرياضة ويصاب، وكذلك الجندي في ساحة المعركة ربما يصاب وهو لا يشعر إلا بعد فترة؛ لأن هيجان الروح يغلب ألم البدن.

وفي سورة يوسف حكى القرآن قصة النسوة اللاتي قطعن أيديهن لما انبهرن من جماله فانشغفت قلوبهنّ ونفوسهن به وقطعن أيديهن ولم يشعرن بالألم^(١)، وكن نساء رجالات الدولة ولسن بالعاديات.

وقد أثبت الطب أنّ للانفعالات النفسية والقناعات الأثر الكبير في المرض والعلاج، وقد جربوا ذلك في بعض الحالات، حيث أعطوا للمريض غلاف الكبسولة الخالية من الدواء وقالوا له هذا دواء فلما تناولها شفي؛ لأنه بلعها بتصور أنّها دواء، وربما تعطى الكبسول مع الدواء

(١) إشارة إلى سورة يوسف: الآية ٣١.

لشخص آخر لا تعالجه، وتوصلوا أن السبب هو اليقين والقناعة النفسية، واليوم يقولون أن بعض المصابين بوباء كورونا قد لا يموتون من الفيروس بل من الاضطراب والخوف الذي يصيبهم.

وبهذا يتضح أن قراءة سورة الحمد سبعين مرة تقضي على الآلام الروحية أيضاً، فكل حزين وكئيب مصاب بداء أو معضلة نفسية يمكنه الاستعانة بسورة الحمد على تخفيف آلامه وعلاجها إذا قرأها بعقيدة ويقين.

سر العلاج بها

ومما يدل على حتمية التأثير فيها أمور:

الأول: الإيمان واليقين بالعلاج.

الثاني: أن اسم الله الأعظم مقطّع فيها كما ورد في أكثر من رواية ^(١).

الثالث: ضمان الإمام الصادق عليه السلام، فقد روى الشيخ في الأمالي عنه عليه السلام: «من نالته علة فليقرأ الحمد في جيبه سبع مرات، فإن ذهبت العلة وإلا فليقرأها سبعين مرة وأنا الضامن له العافية» ^(٢).

والجيب هو ما يفتح على النحر والجمع أجياب وجيوب ^(٣)، والجيب هو محل الأمراض الروحية والاجتماعية، وإليه يشير قوله تعالى في حجاب النساء: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ مُحْرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ ^(٤) وقد أمرت بإلقاء المقانع على

(١) تفسير العياشي: ج ١، ص ١٩، ح ١.

(٢) الأمالي (للطوسي): ص ٢٨، ح ٥٥٣؛ البحار: ج ٩٢، ص ٦٥، ح ٤٢.

(٣) المعجم الوسيط: ج ١، ص ١٤٩، (جاء).

(٤) سورة النور: الآية ٣١.

صدورهن تغطية لنحورهن، وبه تستر شعورهم وأقراطهن وأعناقهن.

الحجاب الشرعي

فالحجاب الشرعي ليس تغطية الشعر فقط، بل كل الرأس والعنق والصدر، وقد كانت النسوة قبل ذلك يلقين مقانعهن على ظهورهن فتبدو صدورهن، وكُنِيَ عن الصدور بالجيوب؛ لأنها مما يجب أن تحفظ كما يحفظ الإنسان جيبه^(١).

وهو في البدن موضع شريف في الإنسان بعد القلب والعقل هو محل السكون والاطمئنان والخوف؛ لذا يعلمنا الإمام أن نقرأ الحمد في الجيب حتى يكون مؤثراً في العلاج. ويستفاد من الرواية أن لقراءة الحمد في الجيب أثراً كبيراً في معالجة المرض، ولعل سره هو قرب الجيب من القلب، فإذا سكن القلب ببركة الجيب تسكن العلة، فإذا قرأها سبع مرات ولم تشف فليقرأها سبعين، وهذا ليس من باب أن الحمد لا تؤثر وإنما لأحد سببين:

الأول: لأن بعض العلل لا ترفع إلا بمزيد القراءة، كما أن بعض الأمراض لا يعالجها الدواء إلا بكمية متواصلة.

والثاني: لأن حالة القارئ الروحية وثقته ويقينه بالتأثير قد لا يحصل بقراءتها سبع مرات، فلا بد وأن يقرأها سبعين مرة، فإذا كان من أهل اليقين فإن السبعة له كافية، وضمان الإمام الصادق عليه السلام له بالعافية من قبيل الوعد الإلهي الذي لا يخلف ولا يتخلف.

(١) انظر مجمع البيان: ج ٧، ص ٢٤١ - ٢٤٢، (بتصرف).

العافية والشفاء

الملفت أن الإمام عليه السلام ضمن له العافية لا الشفاء لإلفات القارئ إلى أمرين: أحدهما: أن بعض العلل تحتاج إلى مدة حتى تبرأ، فلو قرأ السورة بالشروط المذكورة ولم يظهر الأثر فوراً لا ينبغي أن ييأس بل عليه أن ينتظر؛ لأن العافية لا تعود دفعة بل بالدرجات.

ثانيهما: أنه ضمن له ما هو أهم من البرء من العلة وهي العافية؛ لأنّ العافية فيها ميزتان:

الأولى: برء المرض جسدياً وروحياً. أما البرء فيختص برفع المرض وليس بالضرورة يضمن الراحة واستعادة الصحة الكاملة.

والثانية: البرء مع ضمان عدم العود بخلاف البرء والعلاج، ولذا عرّفت العافية بالصحة التامة التي يسلم فيها الإنسان من الأسقام والبلايا ^(١).

والإمام الصادق عليه السلام مظهر إرادة الله ورحمته بين العباد، فإذا أعطى شيئاً للإنسان لا يعطيه ناقصاً، فالطبيب ربما يعالج المرض ولكن غير قادر على إعطاء العافية، أما المعصوم إذا أعطى وفي كاملاً، فلذا ليس فقط يرفع المرض بل يعطى العافية. وهنا يظهر أحد وجوه بركة المعصوم في الأنام، وأهمية وجوده في الناس، وهو أن يتم النعم عليهم، لكن ينبغي أن يتمسك به الإنسان حتى يتم عليه النعمة. أما الهارب منهم فيحرم نفسه، ووجه الوفاء بهذا الوعد يعود إلى سببين:

(١) المعجم الوسيط: ج ٢، ص ٦١٢، (عفا)؛ مجمع البحرين: ج ١، ص ٣٠٠، (عفا).

الأول: من باب الأسباب والمسببات الطبيعية، فيكون الوعد إخباراً عن حتمية تأثير الحمد في علاج العلل.

والثاني: من باب الإنشاء، أي أنّ الإمام عليه السلام يتكفل بعلاج العلة بعنايته بصاحب العلة أو بدعائه له فيتحقق الأثر، وأمر الله وإذنه بأمر أوليائه، فالإمام يشير إلى السبب الغيبي لأنّه أهم من السبب الطبيعي المادي؛ لأنّ السبب المادي يتوقف في كثير من الأحيان فيحتاج إلى سبب غيبي.

الأسباب الغيبية للعلاج

وهذه قضية من البديهيات لدى عموم الناس، فما أكثر ما يتوقف العلم عن معالجة الأمراض لكن المريض إذا التجأ إلى آل محمد عليهم السلام ينال شفاؤه، وهذه يدركها الجميع، لكن للأسف لا توجد عندنا دراسة علمية تدرس ما ورد في القرآن والسنة من معانٍ ومضامين في الطب وغير الطب لتوظيفها لخدمة البشر، وهذا خلل كبير وظلم عظيم تسببه الوزارات والمديريات المعنية بالبحث العلمي.

فعندنا كنوز عظيمة أهملت ولم يستفد منها، وللأسف يهتم بالطب المادي فقط، ولو أعملت الدراسات لمعرفة الأسباب الغيبية للعلاج لتمكنا من التقدم مسافات طويلة في إيصال علوم الحياة المختلفة لاسيما الطب.

الفضيلة الخامسة: إحياء الموتى

وهذا ما ورد في أكثر من رواية، ففي رواية القمي بسنده عن معاوية بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «لو قرأت الحمد على ميت سبعين مرة ثم

رُدَّت فيه الروح ما كان عجباً^(١) ولسانها لسان الإخبار لا الإنشاء، ولا يتضمن الوعد بحتمية الوقوع، بل احتمال الوقوع، وذلك لأسباب:

الأول: لأنّ الأرواح بيد الله سبحانه، ولعل الله سبحانه قدر له أن لا يعود إلى الدنيا؛ لأنّ أجله محتوم.

الثاني: لأنّ القراءة على الميت تتوقف على شروط أصعب من شروط علاج الأمراض وقضاء الحوائج؛ لذا لا يكون ذلك عادة إلا على أيدي أولياء الله تبارك وتعالى، وقد ورد في الأخبار المتضافرة أنّهم عليهم السلام أحيوا بعض الأموات لمصالح وحكم ذكرت في كتب الأخبار^(٢).

الثالث: لأنّ القدرة على إحياء الأموات إذا وقعت بيد غير أهلها سببت الفوضى واختلال النظام، وترتبت عليها مفسدات اعتقادية واجتماعية كبيرة، وصارت وسيلة للتضليل، وقد شهد القرآن أن النمرود ادعى هذه القدرة وضلل على الناس لما حاجّه إبراهيم عليه السلام بأنّ الله سبحانه يحيي ويميت. قال: أنا أيضاً أحيي وأميت، فأخرج شخصين من سجنه فقتل أحدهما وأطلق الآخر^(٣)، فقال: أنا القادر على الإماتة والإحياء، وهذه مغالطة قد تمر على ضعفاء العقول وغالباً ما يتخذها الدجالون والكاذبون من الحكّام وأصحاب المصالح لخداع الناس؛ لذا لم يُطل إبراهيم الحوار معه فطلب منه إظهار آية تظهر عجزه ولا يقدر على التضليل فيها، فقال إنّ الله يأتي

(١) الكافي: ج ٢، ص ٦٢٣، ح ١٥؛ البرهان: ج ١، ص ١٠٠، ح ٥.

(٢) مدينة المعاجز: ج ١، ص ٢٣٢، رقم ١٤٦؛ وانظر معجزات النبي صلى الله عليه وآله: ص ٤٥٥.

(٣) تفسير روح البيان: ج ١، ص ٤١٠؛ تفسير أبي السعود: ج ١، ص ٢٥١.

بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر ^(١).

فالقدره على إحياء الموتى تحصل بقراءة سورة الحمد ولكن ليست لكل أحد، بل لأولياء الله، وهذا أمر لا يمنعه العقل لا بالمانع الذاتي ولا بالعرضي، فإذا دل النقل على وقوعه وجب التصديق به، فلا ينبغي أن يستغربه البعض أو ينكره. وقد شهد القرآن بأن فيه قانون تكليم الموتى، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى﴾ ^(٢) وسورة الحمد خلاصة القرآن، وهي أمه ومفتاح أسرارها، كما أن فيها اسم الله الأعظم الذي إليه يعود التأثير في الأشياء.

أنواع الإحياء

وإطلاق الرواية يشمل ثلاثة أنواع من الإحياء:

الأول: الإحياء البدني، وهو المتبادر منه أولاً.

الثاني: الإحياء القلبي، أي أن القلوب الميتة يمكن أن تحيا بسورة الحمد؛ لدلالة الإطلاق والأولية القطعية، ولعموم القدرة وأسباب التأثير فيها؛ فإنها إذا عادت الروح إلى البدن تعيد الروح إلى القلب أيضاً إذا مات.

الثالث: الإحياء الروحي لمن يتلى بأمراض روحية بذات الملاك والدليل.

إن قلت: إن هذه النتيجة قد تتصادم مع ما ورد في رواية جابر بن عبد الله

(١) إشارة إلى سورة البقرة: الآية ٢٥٨.

(٢) سورة الرعد: الآية ٣١.

عن رسول الله ﷺ قال: «يا جابر! ألا أخبرك عنها - أي الحمد -؟» قال: بلى بأبي أنت وأمي، فأخبرني.

قال: «هي شفاء من كل داء إلا السام يعني الموت»^(١).

والحق عدم التصادم بينهما؛ لأنّ رواية جابر ناظرة إلى الموت المحتوم الذي قدّر الباري أن لا يعود صاحبه إلى الحياة، وأما لو كان أجله ليس محتوماً أمكن رجوعه.

(١) تفسير العياشي: ج ١، ص ٢٠، ح ٩.

المبحث الخامس: في لطائف السورة



وهي عديدة:

أهم مقاصد السورة

اللطيفة الأولى: الإكمال المعنوي

فإنَّ المستفاد من مجموع ما ورد في فضل سورة الحمد وعظمتها وما يستفاد من آياتها الشريفة أنَّ تربية الإنسان وتكميله روحاً وعقلاً ونفساً وجسداً وعملاً حتى يبلغ مقام التشبُّه بأولياء الله والكون في طبقتهم هي أهم مقاصدها وغاياتها، ويشهد لهذه الحقيقة ما وراه العياشي بسنده عن محمد بن سنان عن أبي الحسن موسى بن جعفر، عن أبيه عليه السلام. قال: ﴿قال لأبي حنيفة: ما سورة أولها تحميد وأوسطها إخلاص وآخرها دعاء؟ فبقي متحيراً، ثم قال: لا أدري، فقال أبو عبد الله عليه السلام: السورة التي أولها تحميد وأوسطها إخلاص وآخرها دعاء سورة الحمد^(١).

أركان الكمال الإنساني

وقد أشار فيها إلى ثلاثة أركان يقوم عليها كمال الإنسان واكتماله:

الأول: الحمد والشكر.

(١) تفسير العياشي: ج ١، ص ١٩، ح ٢؛ البرهان: ج ١، ص ٩٧، ح ٢٣٤.

الثاني: الطاعة والعبودية.

الثالث: الدعاء والتوسل، وهي ختم مراتب الإنسان في طور عمره، فإنَّ أول عمر الإنسان شكر وحمد لفيوض النعم الإلهية عليه دون تكليف وإلزام، فعبادته وكماله بشكر نعم الله وحمده، وعدم صرفها في معاصيه، ومتتصف عمره طاعة وعبودية فلا يكتمل إلّا بها، وفي خاتمة عمره الدعاء والتوسل لضعف البدن عن العبادات البدنية، بينما يبلغ من بعد متتصف عمره غاية نضجه العقلي والروحي، فيكون ذروة عمله الدعاء والتوسل، وهو سر الحدوث والبقاء، فإنَّ الاحتياج والفقر هو سر الحدوث، والدعاء والتوسل هو سر الدوام والبقاء، وأيضاً فإنَّ الكمال الروحي تدريجي يبدأ من الأدنى ثم الأعلى فالأعلى، وأول مراتب الكمال هو الحمد والشكر؛ لأنَّ الشكر يتضمن معرفة المشكور والإقرار بفضلته ورحمته بالعبد، وبها يقوم الإيمان ويعتمر في القلب حتى يقوم العبد بالعبادة لأداء الشكر، ولا تكتمل عبادة الشاكر إلّا بالإخلاص فيها، ولا يكتمل الإخلاص إلّا بالدعاء والتوسل.

بهذه السلسلة الطولية يبلغ الإنسان الدرجات العالية فيكون في مصافِّ الصديقين من عباد الله تعالى. هذا في كماله الروحي، وأما كماله العقلي فإنها توصل العقل إلى ذروة كماله؛ إذ يبصر أهم حقيقة في الوجود وهي الخالق العظيم.

اللطيفة الثانية: أصول العبودية وكمالها

تضمنت السورة المباركة أصول التزكية النفسية وهي عديدة:

أصول التزكية بالله تعالى

الأصل الأول: التخلية الفكرية عن التعطيل والشرك، وعن الجفاء والجحود والتوجه إلى المنعم المفضل المربي بالحمد والشكر والثناء عليه بأفضل صفاته والإقرار له بالملك، وحق الجزاء والحساب الذي تضمنته الآيات الأولى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾.

الأصل الثاني: التخلية النفسية عن الانقطاع إلى غيره من هوى النفس في فعل القبائح، والشيطان في فعل الذنوب، أو الصديق أو القائد إلى غيرهما مما له تأثير على الإنسان، فإن كل اتباع لغيره تعالى هو طاعة للغير؛ لذا حصرت الآية الرابعة بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾.

الأصل الثالث: التخلية العملية بالتخلي عن الاستعانة بحول النفس وقوتها، والاستمداد من طاقاتها التي تأتي بها الغفلة، فيشعر القوي أنه قوي بنفسه، والعالم أنه يعلم بذكائه، وصاحب المال أنه يملكه بقدرته ومجهوده، وصاحب السلطان أنه يحكم بسلطته، وكل ذلك وهم؛ لأن كل ما يملكه الإنسان في ملكاته الذاتية أو قدراته العرضية هي من الله. حدوثها وبقاؤها منه، واستمرارها منه، وهو ما يرسخه في القلوب قوله تعالى: ﴿وَإِيَّاكَ فَسْتَعِينُ﴾، فلولا إعانة الله للعبد في كل شؤونه فإنه لا يقدر على حركة بسيطة، ويعجز أن يحرك لسانه بحرف.

الأصل الرابع: إظهار الحاجة والفقر إليه سبحانه في كل كمال وقدرة في الأصول الثلاثة المتقدمة بأسلوب الدعاء والتوسل. أشار إليه قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ فإن الهداية بمعناها الأتم إيصال الإنسان إلى

مطلوبه في عقله ونفسه وعمله، وذلك لا يكون إلا بهدائه وإرشاده إلى الطريق المستقيم فيها، فإن كل عناية يطلبها الإنسان لها أكثر من طريق. بعض الطرق متعرجة وبعضها ذات صعوبة، وربما أجهدت الإنسان أو لا توصله إلى مطلوبه، أو توصله إلى بعض مطلوبه، ولولا أن يهديه الله سبحانه إلى الطريق المستقيم الذي يتميز بالسهولة والقصر فإنه لا يصل إلى غاية مطلوبه؛ لذا وصفه بالصراط المستقيم، وأضرب لذلك مثالين:

الاهتداء بالله تعالى

المثال الأول: في طالب العلم، فإنه إن كان شغوفاً في طلب العلم فإن العلوم كثيرة وطرق الوصول إليها عديدة، وربما يتحير الطالب إلى أي علم يتجه، وعند من يأخذ العلم، وما هو المنهج الذي يوصله إلى مطلوبه، وإذا استشار أهل الاطلاع ربما ضيعوه؛ لأن كل واحد منهم يدل على ما يعتقد به ويراه أنسب، والعمر لا يكفي لأن يتبع الجميع، ولا الطاقة تعين على ذلك، ولا جميع العلوم تحقق الطموح، فيكون أمام طريقتين لا ثالث لهما.

الأول: أن يتبع ما تمليه عليه نفسه وقناعاته، وفي كثير من الأحيان يخطئ الطريق فيمضي في طريق يتوصل في نهاية المطاف أنه كان على غير هدى. وفي تاريخ العلماء شواهد كثيرة لهذه الحقيقة. بعضهم مضوا في طريق الفلسفة والحكمة، وبعضهم في طريق العرفان النظري أو العملي، وبعضهم في طريق التقرب والاقتراب من طريق المخالفين ثم أدركوا بعد أن فاتهم الزمن وضاعت القدرة أنهم سلكوا الطريق الخاطئ، وندموا على ما مضوا عليه، ولكن حيث لا ينفعهم الندم.

الثاني: أن يتبع طريق الاهتداء واللجوء إلى الله سبحانه ليهديه أيسر السبل وأصحها لبلوغ الغاية، وهو طريق القرآن والعترة، فينظر ما يهدي إليه القرآن والنبى والعترة عليه السلام فيتبعه، فإنه يختصر الطريق، ويصل إلى المطلوب؛ لذا لا تجد فقيهاً من الفقهاء أظهر ندمه على الفقه، ولا مشغلاً بالآيات والروايات المتبحر فيها قعد عن بلوغ المعارف العالية التي ترتقي به في حياته وبرزخه وآخرته، بينما تجد ذلك عند المتكلمين والحكماء والعرفاء وأمثالهم.

المثال الثاني: طالب المال، فإن لكسب المال طرقاً كثيرة، ولو أراد الإنسان أن يعتمد على نفسه أو على زملاء السوق وأقوال التجار ضيعوه، وربما أوصلوه إلى ما يورث هلاكه، ولو استعان بالله واهتدى بهديه، فإنه يهديه للكسب الحلال، وطريقه معلوم يوصله إلى الكسب الطاهر، والذي ينمو بالبركة يكون له ولأهله هنيئاً مريئاً، وفي آخرته نجاة ونوراً، وهذه ضابطة تجري في كل ما يريده الإنسان تعلمه كيف يهتدي إلى الصواب والصراط المستقيم.

وجوب القدوة والافتداء

الأصل الخامس: التأسى والافتداء بالصالحين، وهو أهم الواجبات الإلهية العينية على الخلق بعد معرفة الله سبحانه، بأن يحب الإنسان أولياء الله ويواليهم ويقتدي بهم في عقيدته وعمله وأخلاقه؛ لكي ينال السعادة في حياته الدنيوية والأخروية، ويعيش في نعيم الله الدائم، ومن بعده تتفرع سائر الواجبات؛ بداهة أن عبادات الإنسان ومعاملاته وأخلاقه يمكن أن تؤخذ من عدة طرق، والطريق الذي يرتضيه الله تعالى لعباده هو طريق أوليائه وهم محمد وآل محمد عليهم السلام لا كل طريق، والمعرفة بالله هي التي

بينوها لا كل معرفة، ولذا لا تقبل عبادة ولا طاعة إلا ما كان عن الولاية لهم، فمهما عبد الإنسان وأطاع متبعاً لغير محمد وآل محمد ﷺ لا يبلغ إلى نعيم؛ لأنه متبع غير المنعم عليه. أشار إلى ذلك بقوله: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾.

تجب البراءة من ثلاثة

الأصل السادس: البراءة من أعداء الله الذين غضب الله عليهم وطردهم من ساحة رحمته وهم ثلاثة رموز:

الأول: الشيطان الرجيم.

الثاني: الذين عادوا علياً وفاطمة وأبناءهما المعصومين ﷺ.

الثالث: الذين عادوا شيعتهم ومواليهم لولايتهم لهم.

فالذين عادوا الله ورسوله وعترته هم أساس الفساد والظلم والجهل في الأرض، ولولا هم لما عصى الله عاص، ولا جهل بحقه وحق أوليائه جاهل، وقد أوجب الباري التبري منهم بالوجوب العيني، وإليه أشار بقوله: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ والعطف يقتضي المغايرة بين المغضوب عليهم والضالين، ولعل الأول يشمل الشيطان ورموز النصب والعداوة، والثاني يشمل الذين انخدعوا بهم واتبعوهم عن جهل وضلالة. وسنأتي إلى تفصيله لدى البحث في معنى الآية.

فصناعة الإنسان كائناً إلهياً في عقله وروحه وعمله يقوم على هذه الأصول الستة بشرط الانضمام، فلو نقص أحدها اختل إيمانه، كالأول

والخامس والسادس، أو انتقصت درجاته، كالثاني والثالث والرابع.

اللطيفة الثالثة: الخيرات حدوثاً وبقاءً من الله تعالى

إن أول السورة يشتمل على الحمد لله سبحانه والثناء عليه والإقرار بربوبيته للخلق ورحمته الرحمانية والرحيمية بهم، ومتصفها إقرار بالعبودية والسعي الحثيث للاهتمام إلى الطريق المستقيم، وآخرها يشتمل على ذم المعرضين عن الإيمان به وإقرار بطاعته، وذلك يدل على أمرين مهمين:

الأول: أن الخيرات والبركات المادية والمعنوية تبدأ من الله وتنحتم به، فالإقبال عليه هو سر نزولها ودوامها، فلا خير يرتجى من غير الله، ولا دوام لأي خير إلا بالله، فالإقبال الحدوثي هو سر نزول الخيرات حدوثاً، ودوام الإقبال هو سر دوام الخيرات؛ لذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً﴾^(١) لأن الإعراض هو قطع الإقبال فيوجب الحرمان، فالخير والسعادة مع الله سبحانه، والفقر والشقاء بالإعراض عنه. هذا قانون وسنة إلهية ثابتة في عالمي التكوين والتشريع، وهذا سر شقاء العالم بالرغم من تطوره العلمي وتفوقه التقني، فالشقاء والإعراض عن الله متلازمان، ولا ينفع معه علم ولا صناعة، والسعادة والإقبال على الله متلازمان فلا يضرها علم ولا صناعة.

الثاني: أن الإقبال على الله يتم بالعبودية التامة في اتباع أوليائه، فكل توجه إلى الله بعيداً عن الاقتداء بأولياء الله من أنبياء وأئمة لا يوصل؛ لأن الإقبال

(١) سورة طه: الآية ١٢٤.

يفتقر إلى صراط، والصراط المستقيم هو الموصل، وهو طريق من أنعم الله تعالى عليهم وهم آل محمد ﷺ، أما اتباع الضالين فهو إقبال على الشيطان والهوى وليس على الله؛ لذا لا يوصل إلى السعادة.

صفات الربوبية والعبودية

اللطيفة الرابعة: لأهل المقامات المعنوية

وهي أن السورة المباركة مشتملة على عشر صفات. خمس هي صفات الربوبية، وخمس هي صفات العبودية. أما صفات الربوبية فهي الله والرب والرحمن والرحيم والمالك، وهي في الآيات الأولى للسورة، وأما صفات العبودية فهي العبودية والاستعانة وطلب الهداية وطلب الثبات والاستقامة وطلب القدوة الصالحة لا القدوة الضالة، وهي في الآيات التالية للسورة، وصفات العبودية تركز على ثلاثة أركان هي: الإقرار بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ والدعاء بقوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ والافتداء بقوله: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾.

وفي ذلك إشارة لأهل المعرفة في أن جوهر العبودية يقوم على هذه الأركان الثلاثة، فكل عبادة ودعاء ومناجاة وتوسل يجب أن يتضمن هذه الثلاثة، والذي يراجع الأدعية الواردة عن المعصومين ﷺ يجد أنها تشتمل على هذه الحقائق الثلاث، والملفت أنه لم يكتفِ بوصف القدوة بالصلاح، بل بيّن الجهة المخالفة لها، أي طلب أن يكون صراط الذين أنعم عليهم لا صراط المغضوب عليهم ولا الضالين؛ للإشارة إلى وجوب أن تكون

القدوة معصومة في العقيدة وفي العمل، فإن غير المعصوم قد لا يكون سليم العقيدة ولا سليم العمل، فإن كان مختل العقيدة فهو ضال، وإن كان مختل العمل فهو مغضوب عليه، ومن هنا يعرف السر في جملة أمور.

لماذا جعل المعصوم واسطة؟

الأول: لماذا جعل الباري النبي والإمام الطريق الموصل إليه لا غيره وكل طريق آخر غير طريقهما لم يقبله من العبد؟

الثاني: لماذا لم يخل الباري الأرض من حجة له قائمة إما ظاهرة مشهورة أو مخفية؟

الثالث: لماذا جعل الشرع العلماء الربانيين الذي يأخذون منهم عليه السلام الحجة على الناس في زمان الغيبة دون غيرهم؟ لأن نظام العبودية يبدأ من النفس بالإقرار بالعبودية لله سبحانه، وهو الإقرار بالجنان ثم الدعاء والاستمرار المتواصل، ثم الاقتداء بأولياء الله تعالى.

وأما صفات الربوبية فهي متسلسلة طويلاً تبدأ من لفظ الجلالة الجامع لكل صفات الجمال والجلال، ثم باسم الرب الذي يربي الخلق وينميهم، ثم باسمه الذاتي الذي من جهته يربي وينمي وهو الرحمن، ثم الرحيم الذي هو صفة الفعل في التربية، ثم المالك؛ لأن الذي يوجد ويربي وينمي يملك من أوجده ورباه، وهذه الصفات العظيمة ذاتها تقابل صفات العبودية؛ إذ ابتداءً من الذات وهو الإقرار بالعبودية والاستعانة، ثم الدعاء وهو سر التربية والنماء، ثم القدوة التي هي مظهر رحمة الله وربوبيته ومالكيته.

مراتب الاتصال بالخالق عز وجل

ومن هنا قالوا إن تجلي الباري لعبده يكون بدوام الاتصال وتطابق الأحوال، ويكون على ثلاث مراتب:

الأولى: التجلي للعبد بأفعاله وآياته، وهو طريق العارفين له بعقولهم، ولذا ابتدأت السورة بقوله الحمد لله رب العالمين، فإن الربوبية طريق المعرفة، فإذا أدركت العقول ذلك أوجبه على أهل الحمد والشكر؛ لأنها تقضي بوجوب شكر المنعم.

الثانية: التجلي بصفاته، وهي الرحمن الرحيم وهو طريق العارفين ببصائرهم؛ لأن العقول تهدي البصيرة إلى حكمة الربوبية وليست إلا الرحمة، فإن كل عاقل يدرك بنفسه أنه من حيث ذاته لا يستحق الوجود، ولا يستحق دوام الوجود فضلاً عن استحقاقه كمالات الوجود، وحيث يلحظ حصول ذلك كله لديه يدرك بأن الرب رحيم، وبمقتضى رحمته أوجده وأسبغ عليه النعم.

الثالثة: التجلي بملكوته وإحاطته المطلقة بالأشياء، وهو طريق العارفين بقلوبهم؛ إذ لا يرون في الوجود إلا الله وجوداً وتأثيراً وهداية، وفي الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام أشار إلى ذلك، فقال: ﴿نحمده على ما كان، ونستعينه من أمرنا على ما يكون، ونسأله المعافاة في الأديان كما نسأله المعافاة في الأبدان﴾^(١) وفي آخر يقول: ﴿نحمده على آلائه كما نحمده على بلائه،

(١) نهج البلاغة: ج ١، ص ١٩١، الخطبة ٩٩.

ونستعينه على هذه النفوس البطء عما أمرت به، السراع إلى ما نهيت عنه^(١).

اللطيفة الخامسة: إشارات لأهل الاستدلال والنظر

وتتضمن جملة من الإشارات المهمة:

الأولى: أن الابتداء بالحمد لله سبحانه رب العالمين يشير إلى أن وجوده بديهي فطري لا يحتاج إلى دليل، وأنه واحد لا شريك له، وأنه لا محمود سواه، ولا يوجد من يستحق الحمد غيره.

لماذا اختص بالحمد؟

وهنا قد يخطر في أذهان بعض أهل النظر سؤال، وهو لماذا استحق الحمد ولا شيء غيره يستحقه؟

والجواب: أشارت إليه الآية وهو أنه رب للعالمين، والرب يعني أنه أوجد العالمين، وأنه قائم عليها يوجدها وينميها ويديمها، وبعد هذا قد يسأل سائل أن الرب ربما أوجد الخلق لحاجته إليهم، أو أوجدهم عبثاً لا لفائدة من ذلك. أجاب عن ذلك بقوله: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ للإشارة إلى أنه أوجدهم بالرحمة؛ لأنه رحمن رحيم رحم الخلق فأوجده وأخرجه من العدم إلى الوجود، ورحمهم بإبقائهم في الوجود، وهذه الرحمة لنفع الخلق وليست لنفع الخالق، فإنه غني عن ذلك كله، ويقول ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ أشار إلى وجود يوم هو المالك فيه، وإليه يعود الخلق ويحاسبهم ويجازيهم على ما

(١) نهج البلاغة: ج ١، ص ٢٢٣، الخطبة ١١٤؛ شرح نهج البلاغة: ج ٧، ص ٢٥٠، الخطبة ١١٣.

فعلوا، فلا عبثية في الوجود، بل كلُّ ميسر لما خلق.

الثانية: أن قوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إشارة إلى حقيقتين هامتين:

الأولى: أن العالمين كلها مفتقرة ومحتاجة إلى موجد يوجدها.

الثانية: أن الموجد هو الله لا غير؛ لأنه مربيها ومعلمها وهاديها، فهو الوحيد الذي يستحق العبادة والحمد والشكر؛ لذا تعبده جميع العوالم وتسبحه وتطيعه، وإلهي يشير قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾^(١).

الثالثة: أن بقوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ يجب عن سؤال فئتين من أهل النظر:

الأولى: بعض الحكماء الذين ينكرون قيام العلم الضروري على وجود الخالق وتديره، ويلتزمون بالعلم النظري، فإنه بقوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أشار لهم بأن العوالم المحسوسة بأنواعها وأصنافها موجودة بلا شك، وخاضعة لنظام واحد، وهذا يدل على وجود الخالق المدبر لها ووحدانيته.

الثانية: أهل السفسطة الذين يذهبون إلى العبثية في الوجود أو الوهم فيه، فإن بقوله: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ ينفي العبثية والوهم.

اللطيفة السادسة: إشارات لأهل الذكر والعبادة

إن السورة من أولها إلى آخرها تشير إلى أعظم الأذكار وأكثرها أثراً في العبادة، وهو قول: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ، وَلَا

حول ولا قوة إلا، بالله العلي العظيم^(١) فإن الربوبية في قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ تتضمن التسبيح، وهو التنزيه من الحاجة والعبث والظلم في التربية والإنماء، وقد قدّم الحمد في السورة على التسبيح؛ لاقتضاء ضرورة المدح والشكر على نعمة إيجاد العبد، ثم التنزيه؛ إذ لولا وجود العبد لم يكن تسبيح.

وإطلاق الحمد يشمل كل مراتبه، وقد حكي عن الشيخ البهائي قدس أن السورة تتضمن أربع مراتب للحمد:

الأولى: حمد المحبة، أي حمد الذات، وهو ناظر إلى أهلية ذات الحق سبحانه للتحميد، وقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ كافية للدلالة عليه.

الثانية: حمد الشكر، وفيها يحمد العبد ربه ويشكره على ربوبيته المطلقة وإحسانه، وقوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ناظر إليه.

الثالثة: حمد الشوق، وهو الحمد الذي يصدر بدافع الرجاء والطمع بالثواب، وقوله: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ يشير إليه.

الرابعة: حمد العبودية، وهو الصادر بداعي الخوف من العذاب، وقوله: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ يشير إليه^(٢)، وبهذا إرشاد لأهل العبادة والذكر في لزوم الالتفات إلى هذه المعاني العالية لدى تلاوة الآية لنيل مقاصدهم، ويقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أشار إلى توحيد الألوهية، ويقول: ﴿وَإِيَّاكَ فَسْتَعِينُ﴾ أشار

(١) مسند زيد بن علي: ص ١٨٤.

(٢) انظر مفتاح الفلاح: ص ٢٨٢، وما بعدها، (بتصرف).

إلى (لا حول ولا قوة إلا بالله). وبقوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ أشار إلى أنه الأكبر فلا يوجد كبير إلا هو.

فالسورة المباركة مطابقة لأعظم الأذكار، ولعل من هنا جاز أن يقرأ المصلي سورة الحمد بدلاً من التسيحات الثلاثة في الركعتين الثالثة والرابعة، كما تتضمن الصلاة على محمد وآله وجميع الأنبياء والأولياء بقوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ فإنّ إنعام الله على أوليائه يتم بالصلاة عليهم، وعلى هذا إذا قرأ العبد سورة الحمد بدلاً من الذكر نال آثاره وبركاته، وستأتي إشارات إلى ذلك.

ويتحصل من كل ما تقدم: أنّ سورة الحمد الإكسير الأعظم في الآثار المادية والمعنوية الشامل لكل حياة الإنسان الدينية والدنيوية، فالخوض في أبحاثها والاطلاع على أسرارها وآثارها من الدواعي الهامة التي ينبغي أن يهتم بها الناس في حياتهم الفردية والاجتماعية.

المبحث السادس: في تعاليم السورة



يتضمن منطوق السورة العام تعاليم عديدة نستعرض بعضها على التوالي:

التعليم الأول: بالحمد والشكر تدوم النعم

إن كل عمل أو فكر أو نشاط يجب أن يبدأ بأمرين هما ذكر الله سبحانه وشكره وحمده؛ لأنهما العلة الحقيقية لصدور كل عمل وظهور كل أثر، فلو لا إذن الله بصدور الفعل وظهور الأثر لم تقع، ولو لا شكره وحمده لا يدوم، فإن بالشكر تدوم النعم، فأصل الأفعال ودوامها وكذلك أصل النعم ودوامها من الله سبحانه وبه، وإليه يشير قول أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿إن العبد إذا أراد أن يقرأ أو يعمل عملاً فيقول بسم الله الرحمن الرحيم فإنه يبارك فيه﴾^(١).

ومباركة العمل تتم بدوامه وظهور آثاره، فلو أراد الإنسان أن ينال توفيق الإنجاز والنجاح وضمان دوام الأعمال والآثار فليبدأ بذكر الله والاستعانة به، ويشكره ويحمده على ذلك.

التعليم الثاني: البركة باسم الله تعالى

إن من عوامل البركة ودوام الخير جعل العمل في حدوثه وبقائه يدور على اسم الله سبحانه، فإن للاسم الأثر البالغ في شحن الطاقات والإيجاءات

(١) تفسير الإمام العسكري عليه السلام: ص ٢٥، ح ٧؛ البحار: ج ٨٩، ص ٢٤٢، ح ٤٨؛ انظر كنز العمال: ج ١٠، ص ٣١١، ح ٢٩٥٥٨.

للعاملين والمتعاملين معه، وقد كانت الأمم السابقة تبدأ أعمالها بالأسماء التي تعتقد أنها مقدسة وتملك قوة التأثير والإيحاء، فالمشركون كانوا يبدؤون بأسماء أصنامهم، وأتباع الحكّام والطواغيت كانوا يعملون بأسماء طغاتهم.

وقد حكى الباري عزّ وجلّ ذلك عن سحرة فرعون لما جاء بهم ليغلبوا موسى عليه السلام؛ وقد اختار منهم أكثرهم اعتقاداً به، فقد جمع ألف ساحر، واختار من الألف مائة ومن المائة ثمانين، وبهم بارز موسى عليه السلام، فلما جاؤوا بسحرهم فألقوا حبّالهم وعصيتهم وكانت كثيرة. وقيل بلغت سبعين ألفاً، وكانت الحبال مطلية بالزئبق والعصي مجوفة ومملوءة منه، فلما ألقوها حميت بحرارة الشمس واشتدت حركتها، فصارت كأنها حيّات تتحرك من كل جانب من الأرض^(١)، ولما ألقوها قالوا: ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾^(٢) والباء إما للقسم أو للاستعانة والتبرك، وفي جامع الجوامع أن ذلك من أقسام الجاهلية^(٣)، ولا زالت البشرية تتوسم بأسماء عظمائها وأشرفها، فصحح الباري عزّ وجلّ هذه النظرة، ولكن قومها بأن التبرك والاستعانة يجب أن تكون بالأسماء التي تستحق وتليق بالذكر والبركة، وهي أسماء الله سبحانه وأسماء أوليائه التي هي الأخرى مظهر لأسمائه. وقد ورد الحث على الابتداء باسم الله في كل عمل وقول بنحو الوجوب أو

(١) تفسير القمي: ج ٢، ص ١١٩ - ١٢٠؛ نفحات الرحمن: ج ٤، ص ٥٢١؛ تفسير

كنز الدقائق: ج ٩، ص ٤٦٠.

(٢) سورة الشعراء: الآية ٤٤.

(٣) جوامع الجامع: ص ٣٢٩.

الندب، فأوجب ذكر اسم الله سبحانه لدى الذبح ليحل أكلها، فقال سبحانه: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾^(١) فلا يحل أكلها إلا بذلك، ولا يكون الطعام والشراب مباركاً إلا بذكر اسمه تعالى، ولو أكل ولم يذكر اسم الله شاركه الشيطان في أكله وشربه. وسيأتي في بحث البسملة تفصيل ذلك.

التعليم الثالث: أربع قواعد للعلماء والأدباء

للأدباء والخطباء والمؤلفين والباحثين وأمثالهم يلفتهم إلى أربع قواعد هامة في البيان والاستبيان:

القاعدة الأولى: عدم الإطالة، فإن إيجاز المقدمة وعرض الغرض من البيان بأوجز عبارة تشتمل على سهولة الألفاظ وعمق المعاني؛ لأنّ الأسع تمل من طول الانتظار لمعرفة غرض البيان، وإذا طال الكلام ابتلي بالتكرار والإعادة، وضاع الغرض الأصلي منه، ولا بد للأذهان من تنبيه وإلفات لكي تعمل وتفكر وتستنتج حتى تكون فاعلة، والبعض يتصور أن الإسهاب في الكلام يزيد الأمر وضوحاً وهو توهّم؛ لأنّ الأذهان إذا ملّت بالإسهاب فترت عن العمل وأصابها الخمول، بخلاف الكلام السهل الواضح في البيان والمركّز في المعنى، فإنّه ينشط الأذهان، ويمتّع النفوس، ويقطع الملل، ولذا نلاحظ أن الباري عزّ وجلّ لخص أغراض القرآن ودواعيه في سورة الحمد، ومع أنّها سورة قصيرة في آياتها إلا أنّه جعلها أول القرآن سابقة على السور الطوال ليراعي مستويات الناس، فكل من فتح

القرآن يجد أخصر بيان في أعمق وأشمل معنى، وإذا أراد التفصيل يرجع إلى السور الأخرى، وهو ما يوصف بجوامع الكلم، وهو أحد سمات رسول الله ﷺ؛ إذ أوتي جوامع الكلم.

القاعدة الثانية: عذوبة البيان، ويتم بالابتداء بما يشد العقول ويختصر الغرض بعبارات تستطيهها النفوس وتستحسنها الطباع، فالابتداء باسم الله والحرمة والحمد والشكر للرب تبارك وتعالى حسن، وهو ما يعبر عنه في الأدب ببراعة الاستهلال؛ لأنّ النفوس إذا أقبلت على الشيء واستحسنته واصلت معه التلقي وتأثرت به. وقد عرف هذا النهج في البلاغة، وجرت عليه سيرة الأنبياء والأئمة والعلماء في أحاديثهم وخطبهم، فإنّ خير الكلام ما قلّ ودلّ، وابتدأ بما يجذب الأسماع إلى الاستماع، وتلتذ به الطباع، فعادة ما ينقض غرض الكلام إذا لم يبدأ ببراعة الاستهلال؛ لنفور الطباع منه وتململ النفوس. وقد كان أدباء الجاهلية وبلغاؤها المعاندون يسدون آذانهم لكيلا يستمعوا القرآن ويتهربوا من الاستماع إليه؛ لأنه كان إذا تلي عليهم جذبهم إليه، وأخذ بمجامع قلوبهم لبراعة بيانه وحسن استهلاله.

القاعدة الثالثة: محاكاة الوجدان، بأن يشتمل الكلام على أهم ما ينفع الناس ويمس واقعهم لكي يحقق غرضه وإلا خرج عن ميزان الحكمة؛ لذا يجب أن يتجرد الكلام عن أربعة أمور ليكون مفيداً:

الأول: تجرده من الشبهات الفكرية.

والثاني: تجرده من إثارة الفتن والرذائل الأخلاقية.

والثالث: حث النفوس على الكمال والتعلم من الحياة وإعطاء الحقوق لأهلها والاقتداء بالصالحين وتجنب الطالحين.

الرابع: إرشاد الناس إلى معالجة الأزمات والمشاكل، وهذه هي المضامين التي وردت بها سورة الحمد.

القاعدة الرابعة: الوضوح، والمراد الوضوح في بيان الحقيقة وتجريدها من الشبهات واللوابس مع رسم الغاية الأهم للكلام والتواضع فيه، وهو ما يوصف بفصل الخطاب، فسورة الحمد ابتدأت ببيان الحقائق التي تلزم الإنسان، فما يجب عليه الابتداء باسم الله وشكره على نعمه والإقرار له بالعبودية، ثم طلب الهداية والاستقامة والافتداء بالصالحين والتجنب عن الضالين.

وبهذا التعليم إرشاد للمستمعين وطالبي المعرفة أن يكونوا متواضعين للحقائق يستمعون إليها بإجلال واحترام، ويتجردون من العناد والمكابرة؛ لكي يصلوا إلى الصواب، فإن العناد أو الإهمال أو الاستصغار للبيان يحرمهم من منافع الكلام، فإن تواضع المتكلم ينطقه بالصواب، وتواضع المستمع يوصله إليه.

التعليم الرابع: أسلوب الكلام مع الله تعالى

يستفاد من مجموع ما ورد من أسماء سورة الحمد وفضائلها وما ورد في الأخبار من الإشارة إلى أهميتها أنها السورة الوحيدة اللازمة في جميع الصلوات، بل ورد في حديث قدسي تسميتها بالصلوة كما في تفسيري مجمع البيان وأبي الفتوح: ﴿قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، فنصف لي ونصف لعبدي﴾^(١).

(١) مجمع البيان: ج ١، ص ٤٨؛ تفسير أبي الفتوح: ج ١، ص ١٣.

وورد عن النبي ﷺ عن الله تبارك وتعالى: ﴿قسمت فاتحة الكتاب بيني وبين عبدي﴾^(١) وقد اتفقت الكلمة على أن سورة الحمد موضوعة للعبادة وليس في القرآن سورة تناظرها في شأنها العبادي وجامعيتها لمضامين القرآن وأغراضه^(٢)، ولعل من أسرار ذلك أن سورة الحمد تختلف عن باقي السور؛ لأن سائر السور تعليمية يخاطب بها الباري الناس ويعلمهم ويرشدهم إلى مصالحهم، إلا سورة الحمد فإنها تعلم الناس كيف يتحدثون مع الله سبحانه، خصوصاً حين يقفون لعبادته والصلاة إليه، وهذا وحده شاهد على وجوبها؛ إذ لولاها يعجز المصلي عن مخاطبة الباري والتحدث إليه إلا بكلمات ناقصة ومعان باهتة فاترة.

وجوب سورة الحمد في الصلاة

لكن المسلمين اختلفوا في وجوبها على قولين: والخاصة طراً وأكثر العامة على أنها واجبة، ولهم في ذلك أدلة كثيرة، منها قولهم (عليه السلام): ﴿لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب﴾^(٣) سواء قُدِّرَ خبر لا النافية للجنس بأنها مقبولة أو صحيحة أو كاملة أو أي مفردة أخرى فإنه يدل على بطلانه من دون الفاتحة كما حقق في الفقه، فضلاً عن السيرة القطعية عن المعصومين والتابعين لهم على ذلك، بل تواتر النقل عن الرسول المصطفى ﷺ أنه داوم على قراءة الحمد في

(١) الأمامي (للطوسي): ص ٢٣٩، ح ١؛ البحار: ج ٨٩، ص ٢٦٠، ح ٥٥.

(٢) تفسير الميزان: ج ١، ص ٤٢.

(٣) الفقيه: ج ١، ص ٥٦٤، الحاشية ٢؛ عوالي اللآلئ: ج ١، ص ١٩٦، ح ٢؛ ج ٢، ص ٢١٨، ح ١٣.

صلواته^(١)، وذهب أبو حنيفة إلى عدم الوجوب، واستدل بوجهين:
الأول: قوله تعالى: ﴿فَاقْرَأْ مَا تيسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾^(٢) وإطلاقه يشمل غير
الفاتحة من الآيات والسور.

والثاني: ما رواه أبو هريرة قال: أمرني رسول الله ﷺ (أن أخرج وأناذي
لا صلاة إلا بقراءة ولو بفاتحة الكتاب) وهو ظاهر في عدم الوجوب^(٣)،
وضعفه ظاهر من جهتين:

الأولى: قصور دليلي الإثبات؛ لأن الأول استدلال بالأعم بأن الآية
أمرت بقراءة ما تيسر من القرآن ولم تعين ذلك في الصلاة، فربما يراد به
القراءة في غير الصلاة، كما أن الرواية بغض النظر عن المناقشة السنية
تحتل الاكتفاء بقراءة الحمد وعدم لزوم قراءة أخرى، وقرينة الأمر
بالخروج في الناس والمناداة ظاهرة في أنه في قضية خاصة أو ضرورة فيسقط
وجوب السورة وتبقى الحمد، وحينئذ يكون على خلاف مدعاهم أدل،
وتعززه جملة من الروايات الواردة عن آل محمد ﷺ في سقوط ما عدا
الحمد من السور عند الضرورة^(٤).

الثانية: أن الاستدلال باطل؛ لأن الآية على فرض ورودها في الصلاة فإنها
ليست في مقام البيان من كل جهة، وحينئذ تكون النسبة القولية والعملية

(١) منتهى المطلب: ج ٥، ص ٥٤.

(٢) سورة المزمل: الآية ٢٠.

(٣) انظر التهذيب: ج ٢، ص ٧٠، ح ٢٥٥؛ ص ٧١، ح ٢٦١.

(٤) تفسير الرازي: ج ١، ص ١٧٦.

القائمة على قراءة الحمد في كل الصلوات مفسرة ومعينة لها، وتدل على أنّ المقصود بما تيسر من القرآن هو الحمد؛ لأنها أم الكتاب والجامعة لأغراضه. والرواية معارضة بروايات كثيرة دلت على وجوب الحمد في كل صلاة، وترجح عليها بالكثرة وقوة الدلالة واعتضادها بالسيرة، بل ومعارضة برواية أخرى عن أبي هريرة أنّه قال: (أمرني رسول الله ﷺ أن أخرج وأنادي لا صلاة إلّا... بفاتحة الكتاب)^(١).

بين الإثبات والنفي

ويعزز ذلك العقل، فإنّه إذا لاحظ إجمال دليل المدعي وتعارضه يحصل لديه ثلاثة احتمالات:

الأول: أن يحكم بوجوب الحمد تعييناً، وهو الأوفق بالقواعد ويقتضيه الاحتياط.

الثاني: أن يحكم بوجوب غير الحمد من السور بعد الفراغ من وجوب القراءة في الصلاة، وهو باطل بالإجماع القولي والعملي والسيرة القطعية.

الثالث: أن يحكم بالتخير بين قراءة الحمد وقراءة غيرها وهو ممتنع؛ لأنّ التخير فرع التكافؤ ولا تكافؤ؛ لحكومة العقل بوجوب الاحتياط بالقول بوجوب الحمد.

ويتلخص: أن قراءة سورة الحمد واجبة في كل صلاة، ولا صلاة إلّا بها، ولا يخرج منها إلّا ما دل الدليل عليه.

(١) تفسير الارزي: ج ١، ص ١٧٦.

المبحث السابع: الاستعاذة مفهومها ودلائلها



بحث جماعة الاستعاذة قبل سورة الحمد مع أنّها لم ترد قبلها وإنّما وردت في الآية الثامنة والتسعين من سورة النحل؛ إذ أمرت بالاستعاذة لمن رام قراءة القرآن، وبعضهم أوكّل بحثها إلى محلها.

والاستعاذة أن يقول من يريد قراءة القرآن (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) وهي الصيغة المشهورة، وهناك صيغ أخرى فيها بعض الإضافات، ويستحب ابتداء القراءة بها لدى الافتتاح بقراءة القرآن في الصلاة وفي غير الصلاة، بل في كل كلام وقول وفعل؛ لأنّها نوعين من الآثار.

الأول: طرد الشيطان وإزالة الموانع التي يوجدها في الطريق الإنسان لكيلا يصدر منه قول أو فعل حسن.

الثاني: إيجاد الدافع الأقوى في نفس قائلها للقيام بالأفضل في غايته وأسلوبه، ولكن خصص الباري عزّ وجلّ الاستعاذة قبل قراءة القرآن بالخصوص، فقال عزّ وجلّ: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾^(١) وأمر بالاستعاذة لإلفات القارئ أنّه بدخوله للقرآن لا بد وأن يتهياً نفسياً وقلبياً وعقلياً للولوج إلى واحة القدس والنور والطهارة، فلا بد وأن يكون متطهراً من خبائث الشيطان المادية بالوضوء والغسل، ومنزهاً

(١) سورة النحل: الآية ٩٨.

من ظلماته المعنوية.

والأمر (استعد) ظاهر في الوجوب، فلو لا توجد قرينة على غيره يحمل على الأصل فيه وهو الوجوب، وبه قال بعضهم ^(١)، وقد اتفق القراء على التلفظ بها قبل التسمية ^(٢)، وفي التبيان ومجمع البيان وبعض تفاسير العامة قالوا بأن الاستعاذة عند التلاوة مستحبة غير واجبة بلا خلاف ^(٣)، وبه ورد بعض الأخبار.

ففي الكافي عن الإمام الباقر عليه السلام: ﴿إِذَا قرأت بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فلا تبالي ألا تستعين﴾ ^(٤) ومن أصحابنا القدماء من ذهب إلى الوجوب ^(٥)، وعلى كل تقدير فالبحث في الاستعاذة يقع في أربعة محاور:

أولاً: في معناها وغاياتها

فإن الاستعاذة منقية لمطهرة لباطن العبد، والمرقى الذي به يرتفع عقل الإنسان ويتسع لقلبه لدرك معاني القرآن وحقائقه، ومن أرقى ما فيها أن العبد يستند إلى ربه ويستجير به لرد تأثيرات الشيطان على عقله وقلبه لكي يمنعه وينقيه من الجهل والظلمات، فيحول دون الدنو من القرآن وتلاوة

(١) روح المعاني: ج ١٤، ص ٦٢٥ تفسير الآية ٩٨ من سورة النحل.

(٢) التبيان: ج ١، ص ٩٣.

(٣) التبيان: ج ٦، ص ٣٨٤؛ مجمع البيان: ج ٦، ص ١٩٨؛ روح المعاني: ج ١٤، ص ٦٢٥؛ التحرير والتنوير: ج ١٣، ص ٢٢٣.

(٤) الكافي: ج ٣، ص ٣١٣، ح ٣؛ التفسير الصافي: ج ٣، ص ١٥٥، ح ٩٨.

(٥) حكي عن ابن الجنيد، انظر تفسير الكاشف: ج ١، ص ٢٠؛ كنز العرفان: ص ١٣٣.

آياته، أو يسهيه ويغفل قلبه إذا عجز عن منعه من القراءة.
 فالاستعاذة جبران لنواقص الإنسان وقصوره وعجزه، وتعلي شأنه
 ليكون لائقاً لفهم معاني القرآن والتعلم منها.
 فإنَّ القرآن يعطي لكل من يقرؤه على قدر استعداده وقابليته، وهناك من
 يقرأ القرآن كما يقرأ جريدة أو مجلة أو أي كتاب عادي، وهو الذي يقرؤه
 لأجل الثواب أو أداء الوظيفة، وهناك من يقرؤه للاطلاع عليه وليس
 لأجل الثواب، وهناك من يقرؤه ليتخذه قدوة للعلم والعمل، فالناس
 مراتب ومستويات. قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ
 عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ
 وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾^(١).

فهؤلاء كانوا يحضرون مجالس النبي ﷺ ويستمعون القرآن منه ولكن
 قلوبهم كالحجارة وأذانهم صماء لا يسمعون، ولو سمعوا لا يدركون؛ لذا
 إذا خرجوا منه يسألون عما تلاه وبيّنه لهم ماذا قال؟

ومن خصائص القرآن أنه يعطي لمن يطلب منه العطاء، ويهدي من يريد
 الهداية، أما الذي لا يطلبها فإنه يبعده عن الهدى ويعميه. قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ
 لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾^(٢).

وهذه صفة لا يتصف بها غير القرآن أن يحمل أثرين متقابلين متضادين،

(١) سورة محمد: الآية ١٦.

(٢) سورة فصلت: الآية ٤٤.

فيكون هدى لمن يطلب الهداية، ويكون عمى لمن يطلب العمى، ولعل هذه واحدة من أسرار وصفه بالكريم؛ لأنّه لا يحرم أحداً من عطائه، فيعطي لكل على حسب مطلوبه، فعطاؤه عام وشامل، ولكن على من يتعامل معه أن ينظر إلى نيته ومقصده.

تأثير الشيطان

والمشكلة مع الشيطان أنّه يرانا ولا نراه ولا نعرفه إلّا بإيحاءاته وتأثيراته، وهذا أمر يزيد من شدة الاختبار، كما يزيد من مقام الذين يحاربونه ويعلي درجاتهم. قال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(١) والملفت أنّ الشيطان لا يأتي للإنسان مفرداً، بل يأتيه بقبيلة من الشياطين هم جنوده ليحوطوا الإنسان، ويضلّوه من مختلف الجهات؛ لذا قال تعالى: ﴿هُوَ وَقَبِيلُهُ﴾.

ومعلوم أنّ الواحد لا يقوم للجماعة إذا كانوا ظاهرين، فكيف يقوم لجماعة مستورين ومكارين خداعين؛ لذا لا مخلص من الشيطان إلّا بالاستعاذة بالله تعالى؛ لأنّ سائر الخلق هم أنفسهم مبتلون بإغواءات الشيطان وخدعه.

(١) سورة الأعراف: الآية ٢٧.

مواطن نفوذ الشيطان

وقد بين لنا البارئ المواطن التي يأتينا منها لأجل الإغواء والإغراء، وهي الصراط المستقيم، فكل وسوسة تأتي في مواطن الخير والعمل الصالح لأجل ثني العزم أو إهمال العمل أو التواني فيه فليعرف أنه من الشيطان. ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(١) وفي كل موطن للشر والرديلة أحسست بدافع للفعل اعلم أنه من إغواء الشيطان، فهو في المحاسن مخذل، وفي المساوئ مضلل ومدلل.

ومن هنا نلاحظ أن المؤمنين الصالحين في معاناة وشدة وهم في سجن، بينما المنحرفون الضالون ليسوا كذلك؛ لأن الشيطان لا يمنع الخمار والمرابي وفاعل المنكر، ولا يجهد نفسه لإغواء من يرتبط بهم؛ لأنهم يعبدونه ويطيعونه، وإنما يجهد نفسه على المؤمنين الصالحين الذين يعبدون الله لأجل تخذيلهم وتضليلهم، فشغله الشاغل منذ فجر كل يوم البحث عن أهل الطاعة ليُزيّن لهم المعاصي، ويغريهم بالأموال المحرمة والشهوات حتى يبعدهم عن طريق الطاعة ﴿ثُمَّ لَا تَأْتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾^(٢).

جهات الشيطان الأربع

والملفت أنه يأتي للإنسان من أربع جهات الأمام والخلف واليمين والشمال؛ وجهتان أخريان لا يأتي منهما هما الجهة العليا والسفلى؛ لأن الجهة

(١) سورة الأعراف: الآية ١٦.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٧.

العليا لاستقبال العناية الإلهية والفيوضات الربانية، فهي جهة العلو الإلهي واللفظ الرباني بالعبد. والجهة السفلى هي جهة الخضوع والتواضع والسجود لله سبحانه، وما دام العبد خاضعاً لله لا يناله الشيطان، فجها الربوبية والعبودية ليس للشيطان سلطة عليها بخلاف الجهات الأخرى، فإن جهة الأمام هي جهة الآمال والطموحات، وجهة الخلف الدوافع والغايات، واليمين جهة القوة؛ لأن اليمين قوة الإنسان، والشمال جهة الحب والرغبة، وهي جهة القلب.

منافذ الشيطان في البشر

من هذه الجهات الأربع يُزَيَّن ويغري ويغوي، إما بالآمال أو بالدوافع والغايات، أو من جهة تحصيل القوة والهروب من الضعف، أو من جهة الحب والرغبة. والواقع الخارجي شاهد على هذه الحقيقة، فإن إغراءات الشيطان من هذه الأبواب تأتي سواء كانت على الصعيد الشخصي أو النوعي، وفي البعد المادي أو المعنوي، حتى الفئات والأحزاب والتيارات المنحرفة تأتي من هذه الوجوه الأربعة لكسب الأنصار وإغوائهم؛ لذا وصفتهم النصوص بجنود إبليس، فالذين يحاربون الإيمان والصراط المستقيم إما ينتمون إلى اليمين أو إلى الشمال، وينسبون أنفسهم إلى الأمام والتقدم والتطلع، ويتهمون المؤمنين الصالحين بأنهم مترجعون متأخرون.

نهج الشيطان ونهج الرحمن

واليوم نشاهد ما يروج في الإعلام وشبكات التواصل - ويتم التثقيف له لزرعه في عقول الشباب - أن الإيمان تراجع، والفوضى والميوعة

والانحلال الأخلاقي تقدّم وتطور، وتذويب القيم الأخلاقية مواكبة وعصرنة وتمدن، والحفاظ على القيم تأخر وتخلّف، وهذا فارق أساس بين نهج الشيطان ونهج الرحمن، ولو أراد الإنسان أن يعرف هو في أي سبيل يمضي لينظر إلى أفكاره وثقافته وكلماته وتصوراتهِ إذا انسجمت مع الصراط المستقيم فليعرف أنّه في طريق صحيح، وإذا لاحظ أنّها مع الشهوات والانحلال والفساد فليعرف أنّه ماضٍ في طريق الشيطان.

فلا ينبغي أن يتألّم المؤمن مما يلاقيه من الشيطان وحزبه؛ لأنه يحمل النور والعاقبة له بخلاف هؤلاء، وليعمل لطرده عنه بالاستعاذة.

غاية الأمر بالاستعاذة

فالله عزّ وجلّ الذي خلق الإنسان ويعرف مداخله وداخله ومطلع على أسرارهِ وما يضره وما ينفعه أمره بالاستعاذة من الشيطان لدى قراءة القرآن لينبّه على أمرين:

الأول: صفّ نفسك وقلبك وكن متهيئاً لتستقبل من القرآن عطاءه ونفحاته وخيره وبركته.

الثاني: تحصّن بالله في ذلك كله لكيلا يداخلك الشيطان ويحرمك من هذا الخير الإلهي.

قارئ القرآن كلم الله

فإنّك إذا قرأت القرآن كنت في حال تستحق أن يكلمك الله به، وأنت بهذا المعنى تكون كلم الله، فالله يكلمك بالقرآن، وإذا أردت أن تكلم الله أنت

فبدعائك تكلم. فقراءة القرآن مقام عظيم يرتقي بالعبد إلى مقام كليم الله.
ومن هنا يجب أن يتخذ إجراءات هامة ليكون لائقاً بهذا المقام ومستثمراً له
أفضل استثمار، وأول هذا الإجراءات طرد الشيطان وجنوده من حواليه لكيلا
يمنعه من هذا الخير، واللجوء إلى الله تعالى في ذلك ليتقبله حتى يكلمه ويهديه،
وهذا ما يشير إليه الإمام الصادق عليه السلام حينما أشار إلى مُكَدِّرات الإنسان التي
لا يقوى على ردها إلا بالاستغاثة بالله تعالى، وهي الخوف من الغم والهَم
والضرر، وزوال النعمة، فقال عليه السلام: ﴿عَجِبْتُ لِمَنْ خَافَ كَيْفَ لَا يَفْزَعُ إِلَى قَوْلِهِ
عَزَّ وَجَلَّ: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾^(١) فَإِنِّي سَمِعْتُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بِعَقْبِهَا
يَقُولُ: ﴿فَأَنْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسْسَهُمْ سُوءٌ﴾^(٢) وَعَجِبْتُ لِمَنْ ابْتَلَى
بِالضَّرِّ وَلَمْ يَفْزَعْ إِلَى قَوْلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ: ﴿أَنِّي مَسْنِي الضُّرِّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ
الرَّاحِمِينَ﴾^(٣) فَقَدْ سَمِعْتُ اللَّهَ بَعْدَهُ يَقُولُ: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنَ
ضُرِّ^(٤) وَعَجِبْتُ لِمَنْ ابْتَلَى بِالْغَمِّ كَيْفَ لَمْ يَفْزَعْ إِلَى قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا
أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾^(٥) فَقَدْ سَمِعْتُ اللَّهَ بَعْدَهُ يَقُولُ:
﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٦) وَعَجِبْتُ لِمَنْ مُكَّرَ

(١) سورة آل عمران: الآية ١٧٣.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٧٤.

(٣) سورة الأنبياء: الآية ٨٣.

(٤) سورة الأنبياء: الآية ٨٤.

(٥) سورة الأنبياء: الآية ٨٧.

(٦) سورة الأنبياء: الآية ٨٨.

به ولم يفرع لقول الله سبحانه: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾^(١)
فقد سمعت الله تعالى بعدها يقول: ﴿فَوَقَاةُ اللَّهِ سَيِّئَاتٍ مَا مَكْرُوهًا﴾^(٢) ﴿٣﴾ .
وقد تضمن أموراً:

الأول: أن بقراءة القرآن يقبل العبد إلى ربه ليسمع كلامه، ولذا كرر الإمام الصادق عليه السلام قوله: ﴿قد سمعت الله يقول﴾.

الثاني: أن اللجوء إلى الله في كل مشكلة هو الحل الذي يعالج به الإنسان كل همومه، ولكن اللجوء لا يعني مجرد قراءة الآية، بل الفرع إليها، أي أن يكون اللجوء عن انقطاع وصدق ويقين بالإجابة. هذه هي حالات الفازع إلى الشيء. والفرع من الشيء الخوف والذعر منه، أما الفرع إلى الشيء الركون إليه والاستغاثة به^(٤).

الثالث: أن إهمال الإنسان وغفلته عن ذلك من مورثات العجب، لأنّ الحل بيده والاستجابة مضمونة إذا لجأ إلى الله تعالى، ولا يحتاج إلّا إلى صحوّة عن الغفلة ولجوء بالعمل، والإجابة وعد إلهي بذلك، ورغم ذلك يغلق على نفسه الأبواب ولا يسعى لنجاته، ويحرم نفسه من الخير.

فبالاستعاذة بالله من الشيطان يفتح الإنسان لنفسه أبواب الخير والهدى والنور، ويغلق أبواب الضلال والضيايق، وهذه فائدة كافية لحكم العقل

(١) سورة غافر: الآية ٤٤.

(٢) سورة غافر: الآية ٤٥.

(٣) انظر الأمالي (للصدوق): ص ٥٥، ح ٩؛ الفقيه: ج ٤، ص ٣٩٢، ح ٥٨٣٥.

(٤) المعجم الوسيط: ج ٢، ص ٦٨٧، (فرع)؛ مفردات الراغب: ص ٦٣٥، (فرع).

والشرع بلزوم الالتزام بها والدوام عليها في كل قول وعمل لاسيما عند تلاوة القرآن، ومن هنا لا بد من استعراض معانيها ولطائفها وتعاليمها؛ لأنها آية إلهية عظيمة.

ثانياً: مفردات الاستعاذة

تتضمن الاستعاذة (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) خمس مفردات، ولكل واحدة منها معنى وأثر.

معنى العوذ

الأولى: (أعوذ) وهو فعل مضارع من عاذ يعوذ، والعوذ الالتجاء إلى الغير والتعلق به للاستغاثة والانتصار به على أمر صعب^(١)، ولا يليق إلا بالله، وبه وردت الآيات، كقوله تعالى: ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ﴾^(٢) وقوله سبحانه: ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾^(٣) وقوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾^(٤) فكل التجاء لا يكون مفلحاً منجحاً إلا إذا كان لله سبحانه، و (أعوذ) إظهار للحاجة التامة إلى الله، وهو إذعان بالغنى التام والقدرة المطلقة، فقوله: (أعوذ بالله) إقرار بعجز الإنسان عن حماية نفسه وبقدرة الرب على ذلك. وهذا الشعور من أعظم وسائل القرب ونيل

(١) مفردات الراغب: ص ٥٩٤، (عوذ) .

(٢) سورة الدخان: الآية ٢٠ .

(٣) سورة مريم: الآية ١٨ .

(٤) سورة الفلق: الآيتان ١ و ٢ .

المطالب، أي الشعور بالعجز والفقر والانكسار المطلق أمام الله سبحانه، والحاجة إليه، وصيغة المضارع تفيد الاختيار والدوام في كل حال، وفيه إشارة إلى أنّ ظهور آثار الاستعاذة متوقف على شرطين:

١. اللجوء إليه عن اختيار ورغبة.

٢. أن تكون الاستعاذة حدوثاً وبقاءً، فدوام الاستعاذة واللجوء شرط أساس في ظهور الأثر، فلو كانت حدوثية لا بقاءية فربما لا يلزمها الأثر؛ لأنّ اللجوء لا يكون إلّا بدوام الحال.

الاستعاذة بالله

الثانية: (بالله) الباء سببية تفيد الوساطة والاستعانة، والمعنى الجامع لها في الاصطلاح (الإلصاق) والمراد من لفظ الجلالة العياذ باسمه المبارك؛ لأنّه الوساطة بين الخالق والمخلوق. وقد ذكر دون غيره من أسمائه الحسنی؛ للإشارة إلى عمومية الالتجاء وشمولية الإلجاء؛ لأنّه الاسم الجامع لجميع صفات الجمال والجلال الإلهي، وينطبق على المعصوم ﷺ باعتباره المصدق الكامل للاسم المبارك.

ومن هنا تضافرت النصوص بالاستعاذة والاستعاذة بالنبي والعترة ﷺ لطرده وساوس الشيطان والتغلب عليه، فإنّ الاسم المبارك له معنى مفهومي ومصادقي والمعصوم هو الثاني، ووجهه أنّ الاسم سمة المسمى والعلامة عليه، فكل ما يكون سمة وعلامة على شيء فهو اسمه، وكذلك المعصوم فإنّه سمة لجمال الله وجلاله وكمال علمه وسمو خلقه، وهو علامة دالة على الله في أقواله وأفعاله، وقد مر تفصيل ذلك وسيأتي بعضه في معنى البسملة.

غاية الاستعاذة

الثالثة: (من) ابتداء الغاية تشير إلى أنّ الاستعاذة بالله تكون من كل ما يتبدى ويرد من الشيطان، فتتناول جميع أقسام الشرور الفكرية والعملية والقضائية، فتشمل المذاهب الباطلة والعقائد الزائفة وكل ما يضر دين الإنسان، وكذا تشمل المعاصي والذنوب التي تهلك العبد وتبعده من ربه، فضلاً عن الحوادث والنوازل كالأفات والبلايا من غرق وحرق وفقر وأمراض مزمنة ونحوها، فإنها في كثير من الأحيان تنزل بسبب ذنوب العباد وعبوديتهم للشيطان. والعقل السليم يقضي بأن معالجة هذه الشرور لا يكون إلا بالاستعاذة بالله تعالى بترتيب أمور:

الأول: أنّ الشرور المحيطة بالإنسان لا متناهية بعضها معلومة وكثير منها مجهولة.

الثاني: أنّ عداوة الشيطان لبني آدم لا متناهية فسببته للشرور لا متناهية.

الثالث: أنّ التحرز منها بقدرته واختياره محال؛ لأنّ فاقد الشيء لا يعطيه.

الرابع: أنّ اللجوء إلى مثله للتحرز منه محال؛ لاستلزامه الدور والتسلسل ونقض الغرض، فلم يبق إلا ملجأ واحد هو المحيط الوحيد بالنوازل، والقادر على رفعها وحماية الإنسان منها وهو الله تعالى؛ لذلك لا تكون الاستعاذة إلاّ به سبحانه.

ما معنى الشيطان؟

الرابعة: (الشيطان) مأخوذ من شطن أي تباعد، بناء على أن النون أصلية، ففي لسان العرب: الشيطان فيعال من شطن إذا بُعد فيمن جعل

النون أصلاً^(١)، ومنه قولهم شطنت الدار أي إذا بُعدت.

وإذا كانت النون زائدة يكون مأخوذاً من شاط يشيط أي احترق غضباً.
وهذا أقرب إلى جوهر الشيطان؛ لأنه مخلوق من نار بناء على أنه من الجن
كما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَحَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾^(٢) والمارج طرف
النار المخلوط بالدخان، فهو من خليطين من نار ودخان، مأخوذ من
مرجت الشيء بالشيء خلطته به، وبعضهم قال هو اللهب الأصفر
والأخضر الذي يعلو النار^(٣)، وبه وردت بعض الأخبار^(٤).

صفات الشيطان

ومن هنا اختص بصفتين هما: القوة الغضبية فيه فسرعان ما يغضب
ويتوجع من محاسن بني آدم كما تعززه الشواهد، والحمية الدميمة، ولذا
تكبر وامتنع عن السجود لآدم عليه السلام، وكلاهما صفات النار؛ لأنها تتعالى
وتنفور غضباً.

وتوسعوا في إطلاق لفظ الشيطان على كل من يشاركه في الصفات
والأفعال، وفي المفردات وغيره: سمي كل خُلُق ذميم للإنسان شيطاناً،
ولذا سمي قادة أهل النفاق والضلالات بالشياطين. قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا

(١) لسان العرب: ج ١٣، ص ٢٣٨، (شطن).

(٢) سورة الرحمن: الآية ١٥.

(٣) مجمع البحرين: ج ٢، ص ٣٢٩، (مرج).

(٤) انظر: مسند أحمد: ج ٤، ص ٢٢٦؛ حلية الأولياء: ج ٢، ص ١٣٠.

إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُنَ ﴿١﴾ بل أُطلق الشيطان على كل عارم من الجن والإنس والحيوانات ^(٢) .

قال تعالى: ﴿شَاطِطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ ^(٣) ولا تنافي بين المعنيين، بل بينهما ملازمة؛ لأنَّ الشيطان بمعناه الثاني يلزم الأول؛ لأنَّ من شاط غضباً وغيضاً يبعد عن الخير. ويعززه الخبر عن ابن عباس أنَّ إبليس لما عصى ولعن صار شيطاناً، وأما قبله فاسمه عزازيل ^(٤) .

ووجود الشيطان أمر بديهي أخبر به الشرع القويم في الآيات والروايات الكثيرة جداً، وهو من المسلمات عند جميع الشرائع، ويدركه وجدان بني آدم، ولم ينكر ذلك إلا طائفتان:

الأولى: الطبيعيون الذين ينكرون الحقائق الخفية العاقلة.

والثانية: جماعة من الفلاسفة ^(٥) ، وقد أنكروا ما هو معلوم الوجود.

ومن باب أنَّ معرفة حقيقة الشيء تعين على معرفة التعامل معه والتخلص من أضراره لا بد من التعرف على حقيقة الشياطين.

(١) سورة البقرة: الآية ١٤.

(٢) مفردات الراغب: ص ٤٥٤ - ٤٥٥، (شطن)؛ التبيان: ج ١، ص ٩٤؛ مجمع البيان: ج ١، ص ٤٩؛ تفسير الرازي: ج ١، ص ٦٨.

(٣) سورة الأنعام: الآية ١١٢.

(٤) تفسير غريب القرآن: ص ٢٧.

(٥) مقتنيات الدرر: ج ١، ص ٦؛ تفسير الرازي: ج ١، ص ٧٨.

حقيقة الشياطين

وقد اختلفوا فيها على أقوال:

منها: أنّها أجسام هوائية قادرة على التشكل بأشكال مختلفة، ولها عقول وأفهام وقدرة على الأعمال الصعبة الشاقة.

ومنها: أنّها موجودات روحية شقية وشريرة^(١)، وقيل: هي موجودات نارية، والقرآن الكريم يشهد أنّ إبليس الذي هو أكبر الشياطين من نوع الجن مخلوق من نار. قال تعالى: ﴿إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾^(٢) وأوّل ما أطلق لفظ الشيطان عليه لتمرده وطغيانه وتولّاه بالشر، ومنه تفرّع إطلاق لفظ الشيطان على كل ما يشابهه في الأثر.

والظاهر أنّ شياطين الجن مخلوقون من دخان النار كما يستفاد من مجموع الأدلة، وبه نجمع بين القول بأنّها موجودات هوائية والقول بأنّها نارية عاقلة وفاعلة بالقدرة والاختيار، وقادرة على التشكل بأشكال مختلفة كالحیوان والطير وبني آدم، وتستطيع على ما يستطيع عليه الإنسان من الأفعال الشاقة. وقد كانوا من جنود سليمان عليه السلام يعملون له المحاريب والتمائيل والجفان والقذور.

ولوجودها في جهاز سليمان وتدير أمور مملكته العظيمة أسرار نوكلها محلها. وباختصار: الشيطان يلزم الشر، ولأنّ قدرته خارقة في الأفعال فإنّه قادر

(١) انظر تفسير الارزي: ج ١، ص ٧٨.

(٢) سورة الكهف: الآية ٥٠.

على إيذاء الإنسان وجذبه إلى مهاوي الشر؛ لذا وصف بأنه رجيم كما ستعرف.

معنى رجيم

الخامسة: (الرجيم) وهو فعيل مبالغة من الرجم بمعنى اسم المفعول أي مرجوم، وهو وصف للشيطان؛ لأنه مرجوم في جميع الأوقات. وهناك حالات خاصة رجم فيها:

موارد رجم الشيطان

الأولى: لما طرد ولعن وأُخرج من الجنة فلعهن الله، ورمته الملائكة منذ أول الخلق حينما استكبر وعصى أمر ربه بالسجود لآدم. قال تعالى: ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾^(١) وإطلاقها يدل على أنه لا يزال يرجم من فعلته تلك.

والثانية: لما رماه إبراهيم عليه السلام حين ظهر له عند الجمرة، ومنه تأسست سنة رجم الجمرات في الحج فيرميه الحجيج كل عام.

والثالثة: في كل وقت أراد اختراق السمع على الملاء الأعلى فتقذفه الملائكة بالشهب كما ذكر القرآن^(٢).

الرابعة: وقت الظهور المبارك؛ لأن المؤمنين يرمونه في زمان القائم عليه السلام، ففي معاني الأخبار عن الإمام الهادي عليه السلام في معنى رجيم أنه مرجوم باللعن مطرود من مواضع الخير لا يذكره مؤمن إلا لعنه، وأن في علم الله السابق

(١) سورة الحجر: الآية ٣٤.

(٢) انظر سورة الصافات: الآية ١٠.

أنه إذا خرج القائم عليه السلام لا يبقى مؤمن في زمانه إلا رجه بالحجارة كما كان قبل ذلك مرجوماً باللعن ^(١).

وفي ذلك دلالة على أن الشيطان في زمنه صلوات الله عليه سيظهر للناس ويشاهدونه إما لانتهاه أمد خفائه بانتهاه سنة الاختبار التي أخبر عنها الباري بقوله: ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ ^(٢) ﴿إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ ^(٣) وهو الظهور المبارك، وإما لأن الناس يرتقون في حواسهم فيرون المخفيات؛ لأن الأرواح إذا زكت رأت الغيب، والأول أوفق بالمنطوق، وعليه شواهد النقل الكثيرة، فالرجيم صفة ملازمة للشيطان منذ أول الخليقة إلى منتهاها. وقيل معنى المرجوم المشؤوم، فكل مشؤوم بقول ردي فهو مرجوم ^(٤)؛ لأن الكلام النابي يرمي ويقذف به الغير، وهو يتوافق مع اللعن الإلهي له على لسانه ولسان أنبيائه وملائكته وعموم المؤمنين.

وفي تفسير الإمام العسكري عليه السلام عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في معنى الاستعاذة: ﴿أعوذ بالله أي أمتنع بالله السميع لمقال الأخيار والأشرار ولكل المسموعات من الإعلان والأسرار والعليم بأفعال الأبرار والفجار، وبكل شيء مما كان وما يكون وما لا يكون أن لو كان كيف يكون من الشيطان البعيد من كل خير، الرجيم المرجوم باللعن، المطرود من بقاع الخير﴾ ^(٥).

(١) معاني الأخبار: ص ١٣٩، ح ١؛ التفسير الصافي: ج ١، ص ٧٩.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٥.

(٣) سورة الحجر: الآية ٣٨.

(٤) انظر التبيان: ج ١، ص ٢٣.

(٥) انظر تفسير الإمام العسكري عليه السلام: ص ١٦، ح ٣؛ التفسير الصافي: ج ١، ص ٧٩.

وفيه دلالة على أن الشيطان حاضر مع البشر في كل حركاتهم وأقوالهم وأفعالهم، فالذي يستعيز بالله منه يكون في حرز وحصن إلهي منيع، وإلا تداخل معه.

أخبت الشياطين

ويستفاد من بعض الأخبار أن الرجيم اسم علم لنوع خاص من الشياطين. ففي تفسير العياشي عن الإمام الصادق عليه السلام قيل له: كيف أقول عند الاستعاذة؟ قال عليه السلام: «تقول أستعيز بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم» وقال: «الرجيم أخبت الشياطين»^(١) وعليه تكون الألف واللام عهدية، وبقرينة النصوص الأخرى يحمل الشيطان فيها على المعنى الأعم، أي كل ما ورد من شياطين الجن والإنس والحيوان، وأخبتهم إبليس وجنوده.

محاورة النبي صلى الله عليه وآله لإبليس وإقراره

ويستفاد من الأخبار أنه يفعل ويتوقع من أعمال العباد الصالحة. فقد روى ابن عباس قال: خرج النبي صلى الله عليه وآله ذات يوم من المسجد فإذا هو بإبليس - إمّا لأنّ إبليس ظهر له أو أنّه عليه السلام أراد رؤيته فراه؛ لأنّ الأنبياء يرون الشياطين؛ لأنّهم حجة عليهم، ولسمو نفوسهم المرتبطة بالغيب يرون ما يخفى على الناس رؤيته، والأول هو المستفاد من الرواية - فقال له النبي صلى الله عليه وآله: «ما الذي جاء بك إلى باب مسجدي؟» قال: يا محمد! جاء بي الله. قال: «فلم ذا؟» قال: لتسألني عما شئت. فقال: ابن عباس فكان أول

(١) تفسير العياشي: ج ٣، ص ٢٣، ح ٢٤٢٦؛ التفسير الصافي: ج ٣، ص ١٥٥.

شيء سألته الصلاة. فقال له: ﴿يا ملعون لم تمنع أمتي عن الصلاة بالجماعة؟﴾ قال: يا محمد! إذا خرجت أمتك إلى الصلوات تأخذني الحمى الحارة فلا تندفع حتى يتفرقوا. قال ﷺ: ﴿لم تمنع أمتي عن العلم والدعاء؟﴾ قال: عند دعائهم يأخذني الصمم والعمى فلا يندفع حتى يترفقوا - وهذا لأن طينته نارية فتسخن وتلتهب - قال ﷺ: ﴿لم تمنع أمتي عن القرآن؟﴾ قال: عند قراءتهم أذوب كالرصاص. قال ﷺ: ﴿لم تمنع أمتي عن الجهاد؟﴾ قال: إذا خرجوا إلى الجهاد يوضع على قدمي قيد حتى يرجعوا - ولعله كناية عن عجزه عن تخذيل المجاهدين - وإذا خرجوا إلى الحج أسلسل وأغلل حتى يرجعوا، وإذا هموا بالصدقة توضع على رأسي المناشير فتشترني كما ينشر الخشب، وكل معروف صدقة^(١)، وفي ذلك دلائل:

الأولى: أن إبليس أقرّ على نفسه وكشف عن أحواله، والإقرار على النفس سيد الأدلة الصادقة فلا يحتاج إلى برهان.

الثانية: أن الناس يهلكون إبليسهم ويتقمنون منه إذا أصلحوا نفوسهم وتوجهوا إلى عبادة ربهم، فكما هو يؤذيم ويشقيهم كذلك هم يؤذونه ويشقونه إذا ساروا على الصراط المستقيم، فإن الحياة ساحة حرب مع الشيطان وجنوده، والموارد التي يتمكن فيها الناس من الشيطان ويضربونه ضربات موجعة هي الطاعة.

الثالثة: أن الآثار التي اعترف بها إبليس توافقت تكوينه البدني والروحي،

(١) مقتنيات الدرر: ج ١، ص ٦-٧؛ نفحات الرحمن: ج ١، ص ١٧٦؛ روح البيان: ج ١، ص ٥.

فإنه يشيط غيضاً ويتحرق، وأنه يغلل ويقيد.

الرابعة: أن لكل عادة وعمل صالح يقوم به الإنسان أثراً بالغاً على إبليس؛ لوجود مناسبة بين العمل والأثر، ولعله يستفاد من الأدلة أن الصدقة أشدها إيلاًماً لإبليس؛ وتفصيله يستدعي وجود فرص أكبر ووقت أسنح. وفي المجموع ينكشف للإنسان أن إبليس لا يريد له الخير أبداً، وأنه إذا توجه إلى ربه تخلص منه، ومفتاح التخلص منه الاستعاذة بالله تعالى منه. وربما يستفاد مما تقدم أن لوصف الشيطان بالرجيم أثراً بالغاً على روحه؛ لأنها الصفة التي يبغضها إبليس.

ثالثاً: لطائف الاستعاذة

وهي عديدة:

اللطيفة الأولى: الاستعاذة وطهارة القلب

أن الاستعاذة إذا التفت إليها العبد هي حبل الوصل الذي يربط الناقص بالكمال، والفاقد بالواجد، والداني بالعالى، والظلماني بالنوراني، فيرتقي إلى العالم الأكمل والأفضل، فتطهر لسانه مما جرى عليه من أقوال أهل الدنيا وظلماتها وأدرانها، وليستعد لذكر الله تبارك وتعالى وتلاوة كلماته، وتطهر سمعه للاستماع إلى القرآن، وتنظف قلبه من الشكوك والوساوس والأوهام التي يودعها الشيطان فيه فيتهيأ روحياً، ويستعد لتلقي الفيوضات الإلهية في القرآن، ويتعامل معها، ويجد حلاوتها في لسانه وقلبه وفي العمل بها. فإن الإنسان في معاشراته اليومية مع أهل الدنيا يخوض في أمور كثيرة،

وهي في كثير من الأحيان تسبب له الظلمانية النفسية، لسانه يخوض في كلام أهل الدنيا ويتعد عن الشأن الملكوتي للكلام، وسمعه هكذا أيضاً وانشغاله بهموم الدنيا ومشاغلهما يظلم القلب، والمخلص من الظلمانية باللجوء إلى النور، والمخلص من فقدان الالتجاء إلى الوجدان، والمنجي من الفقر التمسك بالغني، وباب ذلك الاستعاذة.

فالاستعاذة وإن كانت عند البعض عبارة عن كلمات ولكنها في المعنى منقية مطهرة مزكية تنقي اللسان، وتطهر القلب، وتزكي العقل والنفس، وتصير الإنسان إذا التفت إلى معناها كائناً إلهياً ملكوتياً.

فالدخول إلى تلاوة كتاب الله عند أهل الملكوت قيمة عظيمة، وأما عند أهل الدنيا فالنوادير من الناس يعرفون قيمة القرآن المعنوية وآثاره، فإنه كلام الله، والله تجلى لعباده في كلماته وآياته.

وحتى يرتقي الإنسان إلى مقام يصبح مؤهلاً ومستعداً لتلقي فيوضات القرآن لا بد وأن يرتقي، ولقلبه أن يتطهر، ولعقله أن يزكو حتى يسانخ ملكوتية القرآن.

فالبشر لا بد وأن يصبح ملكوتياً حتى يدرك ملكوت القرآن وفيوضاته. وهذا ليس باستطاعة كل أحد، ولا يبلغه إلا النوادير، أما عموم الناس فيحتاجون إلى مفتاح، والمفتاح هو الاستعاذة ولكن بشرط أن تكون مع التوجه والانقطاع لا بمجرد اللسان.

ركنا الاستعاذة

ومن هنا يتضح أن الاستعاذة تقوم على ركنين هما تطهير القلب من كل ما يكون مانعاً من الاستغراق في الله واللجوء إليه، والتحرز من عداوة

الشیطان ومهاویه، وهذا ما يتوافق مع قواعد التنقية والتطهير مادياً ومعنوياً، فإنَّ طبيب الأجسام لا يمكنه تنقية البدن من الأمراض إلاَّ بإزالة أسبابها من البدن وتعقيمه منها وإلاَّ لم يجد العلاج، وكذلك طبيب القلوب والأرواح فإنَّه لا بد وأنَّ يبدأ بتنقيتها من ظلمات الأفكار والقبائح والعقائد الباطلة، ومن دون ذلك لا يظهر أثر العلاج، ولا تنزل خيرات القرآن وأنواره على قلب غير نقي؛ لأنَّ الأدراَن موانع من تجليات أنوار القرآن، فإنَّ الباري عزَّ وجل قال: ﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ﴾^(١) ولكن النزول يتوقف على وجود المحل القابل، وقابلية المحل تكون بتنقيته من الرواسب الظلمانية والكدورات.

التخلية قبل التحلية

ومن هنا اتفقت كلمة أهل المعرفة وأصحاب التهذيب على وجوب التخلية قبل التحلية، فلولا التخلية لا يمكن أن تكون تخلية وتركية للنفس، وإلاَّ لزم اجتماع المتنافيين. والتخلية في الأقوال واللسان ودرك المعاني والفيوضات العلمية والمعرفية متوقفة على الاستعاذة العملية والقولية والأولى أهم؛ لأنَّها تطهِّر الإنسان من كدورات الشيطان وتلويحاته، فإذا أراد الإنسان أن يلج عالم القرآن - في مقام التلاوة أو العبارة - ويفهمه ويبلغ فيوضاته لا بد وأنَّ ينفكَّ من شرقة الشياطين، فإذا لم يزل الموانع لا تتجلَّى عليه أنوار القرآن، وكذلك إذا أراد الرقي والتكامل الروحي، فلا بد وأنَّ يرتقي حتى يدرك العالم الملكوتي الغيبي، وهذا الارتقاء مفتاح الاستعاذة،

(١) سورة الإسراء: الآية ٨٢.

فحضور القلب يجرد الإنسان من الدنيا وشواغلها، وهذه الروح الحقيقية للاستعاذة، فإذا نالها الإنسان بحضور القلب ارتقى وصار مسانخاً لعالم الملكوت، وحينئذ يصير القلب مستودعاً لعلوم القرآن ومحلاً للفيوضات الإلهية، وسمعه يصير سمع معرفة، ولسانه يصير نوراً ينطق بحكمة ونور، وكذلك عقله وفعله، وكل ذلك يدور على محورية القلب وطهارته.

وفي بعض الأخبار: ﴿أَنْ مِنْ اسْتَعَاذَ بِاللّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ عَلَى وَجْهِ الْحَقِيقَةِ بِحُضُورِ الْقَلْبِ وَبِشَرَائِطِهَا جَعَلَ اللَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الشَّيْطَانِ ثَلَاثَةَ حِجَابٍ. كُلِّ حِجَابٍ كَمَا بَيْنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(١).

فحضور القلب موضوع هذا الأثر العظيم، ولولاه لا يظهر؛ ولعل عدد الحجب كناية عن شدة بُعد الشيطان عنه.

مفاتيح القلوب النيرة

وفي مصباح الشريعة عن الإمام الصادق عليه السلام: ﴿فَقَارِئُ الْقُرْآنِ مُحْتَاجٌ ثَلَاثَةَ أَشْيَاءَ: قَلْبٌ خَاضِعٌ، وَبَدَنٌ فَارِغٌ، وَمَوْضِعٌ خَالٍ، فَإِذَا خَشَعَ اللَّهُ قَلْبَهُ فَرَّ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾^(٢) ﴿^(٣)﴾.

والقلب يخشع بالطهارة والانقطاع عن الدنيا، والبدن الفارغ من تحمة

(١) مقتنيات الدرر: ج ١، ص ٦؛ وانظر نفحات الرحمن: ج ١، ص ١٧٧؛ تفسير

روح البيان: ج ١، ص ٥.

(٢) سورة النحل: الآية ٩٨.

(٣) مصباح الشريعة: ص ٢٨؛ التفسير الصافي: ج ١، ص ٧٣.

الأكل والشرب والأوجاع والآلام الناشئة منهما؛ لأنها من مفسدات القلوب، وأكثر الآلام والأوجاع تأتي من التخمة وكثرة المنام، والموضع الخالي المكان الخالي من الشواغل والمنغصات. وهذه مفاتيح يعطيها الإمام الصادق عليه السلام لأهل الإيمان لو التزم بها المؤمن سيصبح إنساناً آخر، وفهمه ومداركه وفقهه يرتقي أكثر، فإذا جاء الإنسان إلى القرآن ببدن مملوء متخوم لا بد وأن يعرف أنه محجوب عن الارتقاء، فإذا أراد الإنسان أن ينال خشوع القلب لا بد وأن يكون بدنه فارغاً، فالقلب الخاشع يحصل بفراغ البدن وخلو المكان وافتتاح العمل بالاستعاذة. وبهذه الشروط يصبح الإنسان نورانياً يليق بنورانية القرآن حتى يستفيض منه الفيض الكامل.

الولوج لنور القرآن

ومن آثار الاستعاذة أنها تربط العبد بمصدر الحياة والعلم والقدرة ليتهاياً للدخول إلى عالمه الملكوتي العظيم، ليصحو فيه من غفلته، ويسمو بعقله، ويتسع بقلبه، ويمتلئ طاقة إيجابية للانتصار على الوسوس والظلمات الشيطانية، ويعود إلى إنسانيته الرحمانية.

فهي مدرسة عظيمة يصبح فيها الإنسان كائناً إلهياً يتطابق مع سنن الحياة السعيدة لو التفت إلى معانيها وغاياتها، وفي الحديث النبوي: ﴿أغلقوا أبواب المعصية بالاستعاذة، وافتحوا أبواب الطاعة بالتسمية﴾^(١).

ويتحصل: أن القرآن وجود ملكوتي رفيع القدر عظيم الشأن لا يمكن

(١) الدعوات: ص ٥٢، ح ١٣٠؛ البحار: ج ٩٠، ص ٣١٣؛ الكبريت الأحمر: ج ١، ص ٦٩.

أن يلججه من ليس من سنخه؛ وحيث أن الإنسان في الدنيا ليس من سنخه فلا بد من وسيلة ترتقي به إلى مسانخة عالم القرآن، وحيث أنه بنفسه قاصر عن ذلك فلا مخلص له إلا باللجوء إلى الله ويستعيذه ويستعين به.

اللطيفة الثانية: صيغ الاستعاذة

وردت صيغ عديدة للاستعاذة.

منها: الصيغة المشهورة: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم).

ومنها: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم إن هو السميع العليم) وضعفها ظاهر؛ لمخالفتها للبلاغة وعدم ورود نص بها، والظاهر أنها من اجتهاد القراء.

ومنها: (نستعيذ بالله من الشيطان الرجيم) وهي كسابقتها من الاجتهادات، وبعضهم يضيف كلمة (شر) فيقول (أعوذ بالله من شر الشيطان) وهي صيغة خاطئة؛ لأنها توحى بوجود خير في أفعال الشيطان لا يستعاذ منها، بخلاف الاستعاذة من ذات الشيطان فإنها تفيد التطهر من ذاته وفعله وعدم وجود جهة خير فيه لبني آدم.

ومنها: (أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم) وقد وردت عن المعصومين عليهم السلام كما في رواية سدير عن الإمام الصادق عليه السلام^(١)، والصحيح الذي يظهر له الأثر منها ما ورد به النص، وأما غيرها فهي وإن كانت صحيحة إلا أنها غير مضمونة الأثر لما للصيغ اللفظية من آثار في عالم

(١) قرب الإسناد: ص ١٢٤، ح ٤٣٦؛ التفسير الصافي: ج ٣، ص ١٥٥.

المعنى، بل الآيات والأذكار المنصوصة توقيفية. وقد روت العامة عن ابن مسعود قال: قرأت على رسول الله ﷺ فقلت: (أعوذ بالسميع العليم من الشيطان الرجيم) فقال ﷺ: ﴿قل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. هكذا أقرأنيه جبرائيل عن القلم عن اللوح المحفوظ﴾^(١).

سر الاستعاذة بلفظ الجلالة

وتتميز الصيغة المجردة عن ذكر السميع العليم بأنها استعاذة باسم الجلالة الجامع لكل صفات الجمال والجلال، أما الصيغة المشتملة على ذكر السميع والعليم فهي لتأكيد الخصوصية معاً عند المتكلم بأن من يلجأ إليه سميع لكلامه وعالم بحاله. فإنَّ الغرض من الاستعاذة الاحتراز من وساوس الشيطان، والوسوسة كلام خفي يحدثه الشيطان في قلبه ولا يطلع عليه غيره. فالاستعاذة بالله من جهة سمعه وبصره تدفع عنه هذا الداء العضال الذي يصاب به ابن آدم من الشيطان بما أنَّك تسمع ما تخفي النفوس وتعلم السر وأخفى.

ولذكر العلم بعد السمع خصوصية؛ لأنَّ السميع قد يسمع الكلام ولا يعلم بأسراره وخفائاه، ولبيان أنَّه سميع يدرك جميع الخفايا والدواعي والأغراض ذكر وصف العلم بعده. وصيغة المبالغة شاهدة على ذلك، ولو قال: (السامع العالم) لما دل على الإحاطة الشاملة بالمستعيز.

(١) انظر تفسير البيضاوي: ج ١، ص ٥٥٧؛ تفسير أبي السعود: ج ٥، ص ١٤٠؛
نفحات الرحمن: ج ٣، ص ٦١٣ الهامش ٥.

اللطيفة الثالثة: العوذ واللوذ

أنّ الآية عبرت عن الاستجارة بالله سبحانه واللاجوء إليه بالعوذ دون اللوذ، فقالت: ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾^(١) لا (لِذْ بِاللَّهِ) مع أنّ الاثنين يتضمنان معنى الالتجاء. يقال: لاذ به لوذاً ولياذاً أي لجأ إليه واستتر به وتحصن^(٢)، ومنه الملاذ أي الملجأ والحصن، وفي الدعاء: ﴿اللهم بك ألوذ﴾ أي التجئ وأستغيث وأتحصن، واللوذ من علامات التضرع، وقد ورد (وتلوذ بسبابتك) أي تظهر التضرع بها^(٣)، وفي بعض الأدعية ورداً معاً كما في قوله: ﴿بك أعوذ وبك ألوذ﴾^(٤) والعطف يقتضي المغايرة، وهما كالفقير والمسكين إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا، والفرق بينهما أنّ اللوذ يكون في الماديات، والعوذ في المعنويات، واللوذ من جهة أخرى أعم؛ لأنّه الالتجاء سواء كان إلى الله أو إلى غيره. وقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام في الحروب: ﴿كُنَّا إِذَا حَمِيَ الْوُطَيْسُ لَدُنَّا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ﴾^(٥) أمّا العوذ لا يكون إلّا بالأمر الغيبية مباشرة أو بوسائطه، كالدعاء والقرآن والذكر والملك والنبي والإمام والجن، ومنه قوله تعالى: ﴿مَعَآذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا

(١) سورة النحل: الآية ٩٨.

(٢) مفردات الراغب: ص ٧٥٠، (لوذ)؛ المعجم الوسيط: ج ٢، ص ٨٤٥، (لوذ).

(٣) انظر مجمع البحرين: ج ٣، ص ١٨٧ - ١٨٨، (لوذ).

(٤) مصباح المتهجد: ص ٣٢٤.

(٥) مقتل الحسين عليه السلام للخوارزمي: ص ٣٠١؛ البحار: ج ١٩، ص ١٩١، ح ٤٤.

مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ ﴿١﴾ أي أستجير به، وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ ﴿٢﴾، وقد ورد في معناها أن الناس كان الرجل منهم إذا سافر وخاف الجن في سلوك الطريق قال: (أعوذ بسعيد هذا الوادي) ثم يسلك فلا يخاف اعتقاداً منهم بأن الجن يحبرونهم، لكن الآية أبطلت معتقدهم وقالت إن الجن لا يحبرهم بل يزيدهم رهقاً أي تعباً وجهداً ﴿٣﴾.

والمعوذتان سورتا الفلق والناس سميتا بذلك؛ لأن جبرئيل عليه السلام عوذ بهما رسول الله ﷺ حين وعك، وفي الدعاء: ﴿هذا مقام العائذ بك من النار﴾ ﴿٤﴾ أي الملتجئ المستعصم بك من عذاب النار، فالعوذ إذا قابل اللوذ يحمل على الالتجاء في المعنويات.

ويتحصل: أن الاستعاذة تصح بقول القائل: (أعوذ بالله) و: (ألوذ بالله) لأن كليهما يتضمنان معنى الالتجاء والتحصن، كما يتضمنان الدفع والرفع، سوى أن العوذ تحصن بالأمور المعنوية، واللوذ بالأمور المادية، ولأن المراد من الاستعاذة لدى قراءة القرآن اللجوء إلى الله والاستعانة به والارتقاء الروحي والعقلي في الغلبة على الشيطان - وكلها أمور غير محسوسة - وردت بلسان العوذ.

(١) سورة يوسف: الآية ٧٩.

(٢) سورة الجن: الآية ٦.

(٣) انظر مجمع البحرين: ج ٣، ص ١٨٣، (عوذ).

(٤) مصباح المتهجد: ص ٦٨٢؛ الكافي: ج ٤، ص ٤١٠، ح ٣.

اللطيفة الرابعة: أقسام الاستعاذة

يستفاد من الأدلة أن الاستعاذة على أقسام عديدة عمدتها ثلاثة:

الأول: استعاذة العبادة، وتكون لدى قراءة القرآن والدخول في الصلاة.

الثاني: استعاذة الندم والاستغفار والتوبة، وتكون لدى فعل الإنسان ما يوجب بعده من ربه عز وجل. وقد ورد في الأدعية الشريفة: ﴿أعوذ بالله من غضب الله﴾.

الثالث: استعاذة التحصن ودفع الأضرار عن النفس والغير التي يمكن أن تسببها الشياطين والأعداء، أو شرور النفوس ونحوها كما ورد في المعوذتين.

والفرق بينها في الغاية والغرض، فإنَّ غرض الأولى تطهير العقل والقلب والتهيم لاستقبال تعاليم القرآن وفيوضاته فهي رافعة للدرجات، وأما الثانية فغرضها إظهار التوبة وطلب العفو فهي ماحية للسيئات، وأما الثالثة فغرضها تحصين الإنسان ودفع الأضرار عنه فهي دافعة للمضرات، وكلها لا تتحقق إلا بالاستعاذة بالله عز وجل؛ لأنَّه القادر على دفع ذلك كله، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾^(١) والهمزات جمع همزة وهي شدة الدفع، وسمي أول حروف الهجاء بالهمزة لأنه يخرج من أقصى الحلق باعتماد شديد ودفع، وهمز الشيطان دفعه بالإغواء إلى المعاصي^(٢)، والهمز يتضمن الإغراء والدفع الخفي للقبیح.

(١) سورة المؤمنون: الآيتان ٩٧ و ٩٨.

(٢) مجمع البيان: ج ٧، ص ٢٠٥.

وقد وصف إغراء الشياطين بالهمز دون اللمز لأنّ مكائده خفية، بخلاف اللمز فإنّه إغراء ظاهر في الوجه وفي اليد أو القول ونحوه^(١).

والآية تتضمن العداء والاستغاثة بالله عزّ وجلّ من جهة مقام ربوبيته وعنايته بعبده أن يدفع عنه شرور الشياطين في كل مورد يخاف منهم فيه، وترقى الدعاء لطلب النجاة من حضورهم عند الإنسان؛ لأنّ حضور الشيطان عند ابن آدم ملازم لكل الشرور والآفات الروحية والبدنية^(٢).

وصيغة الجمع في ﴿الشَّيَاطِينِ﴾ تشمل كل أصنافهم من الجن والإنس والحيوان الذي يشغل الإنسان ويصرفه عن الطاعة، وهو ما ورد في تفسير علي إبراهيم عنهم عليه السلام؛ إذ عرّف همزات الشياطين بكل ما يقع في القلب من وساوس الشيطان^(٣)، وهي تشمل الأقسام الثلاثة للاستعاذة؛ لأنّ الوسوسة تحجب القلب عن المعرفة واستقبال معاني القرآن، وتحجبه عن الذكر والانقطاع إليه سبحانه، كما تصيب الإنسان بالأضرار الكثيرة، ولذا حرّم الشرع الوسوسة؛ لأنّها من موارد العبودية للشيطان.

اللطيفة الخامسة: سر تقديم الفعل على الاسم

أنّ الاستعاذة ابتدأت بالفعل لا بالاسم أي (أعوذ بالله) مع أنّ الحكمة قد تستدعي تقديم لفظ الجلالة للشرفية وإفادة الحصر، فيقول: (بالله أعوذ) والحق أنّ الحكمة تستدعي تقديم الفعل لا الاسم لأسباب ثلاثة:

(١) انظر معجم الفروق اللغوية: ص ٥٥٩، (٢٢٥٨)، (٢٢٥٩).

(٢) مجمع البيان: ج ٧، ص ٢٠٨.

(٣) تفسير القمي: ج ٢، ص ٩٣.

الأول: أن قوله (أعوذ بالله) جملة خبرية تتضمن الإنشاء الملازم للصدق، ومعناها الدعاء، وتقديرها (اللهم أعذني وحصّني) نظير قول المستغفر (أستغفر الله)، بخلاف (بالله أعوذ) فهي جملة خبرية تحتمل الصدق والكذب.

الثاني: لأن الاستعاذة تبدأ من الفقير إلى الغني ومن المستمد إلى الممد، وهذا يتحقق بتقديم الفعل.

الثالث: أنه استجابة للعهد الحاصل بين الله وبين عباده في أمرين:

أحدهما: أنه قال: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾^(١).

وثانيهما: أنه قال ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾^(٢) وبتقديم الفعل يكون ابتداء الذكر والدعاء من العبد، وهو موافق لسنة الله تعالى ووعدته بالإجابة، وبه يكون العبد ضامناً للإجابة وواصلاً لمطلوبه بخلاف تقديم الاسم.

رابعاً: تعاليم الاستعاذة

وهي عديدة:

التعليم الأول: طريقان للتخلص من الشيطان

على الإنسان أن يدرك أن الشيطان قريب منه دائماً، وبعضه يجري في دمه مجرى الدم في العروق كما أخبروا بذلك ﷺ^(٣)، وهو حاضر عنده يوسوس

(١) سورة البقرة: الآية ١٥٢.

(٢) سورة غافر: الآية ٦٠.

(٣) الكافي: ج ٨، ص ١١٣، ح ٩٢؛ عوالي اللآلئ: ج ٤، ص ١١٣، ح ١٧٥؛ البحار: ج ٦٨، ص ٢٤٨، ح ١٠.

له كما نص على ذلك القرآن في آيات عديدة.

فمثله مثل الهواء الذي يتنفسه قسم منه يدخل جوفه ويخترقه من الداخل، وقسم آخر يحيطه من كل جانب، فهو عدو خارجي وداخلي معاً، وأفضل الحلول للتخلص منه هو الوقاية منه، فإنّه خير من العلاج، ويتم عبر طريقين هما: الانتباه له ومخالفته والاستعاذة بالله منه.

ولو سأل سائل هل يمكننا أن نستشعر ذلك؟ والجواب: نعم في مواطن كثيرة أشار القرآن إلى بعضها أذكر اثنين منها:

الموطن الأول: لدى قراءة القرآن في الصلاة وفي غيرها. أشار إليه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾^(١) فلا بد وأن ينتبه الإنسان إلى أنّه إذا حان وقت الصلاة حضر الشيطان، وإذا دخل فيها داخله فيها ووسوس له وحاول أن يشغله عنها؛ لذا وضع الشرع جملة آداب وأحكام تنقذ المصلي.

منها: الطهارة، فإنّ الشيطان تكوين خبيث وكلما كان الإنسان نقيّاً طاهراً فرّ منه الشيطان.

ومنها: التعطّر، فالصلاة مع العطر ثوابها أعظم؛ لأنّ الملائكة على عكس الشياطين فإنّها تحب العطر الطيب لأنّه غذاؤها، وغذاء الشياطين الخبائث، فإذا تهيّأ المصلي بطهارة بدنية وتعطّر حضرته الملائكة، والمكان الذي تحضره الملائكة تفرّ منه الشياطين، والتمسوك وتمشيط الشعر لتهيّأ لربه في المنظر

(١) سورة النحل: الآية ٩٨.

الجميل والشكل الحسن، ولبس اللباس النظيف والحضور في المسجد ونحو المسجد كالمراقد المقدسة؛ لأنها محل عناية الله ورحمته، ولا يحضرها الشياطين، وإنما الملائكة وأرواح الأنبياء والأولياء، وإذا يصلي في البيت يجعل لنفسه مكاناً خاصاً للصلاة.

ومنها: حضور صلاة الجماعة، وقبل القراءة يبدأ بالاستعاذة ثم التعقيبات بعد الصلاة ونحو ذلك من إجراءات تبعد عنه الشيطان، أو تخفف من تأثيره.

تؤكد ذلك الآيات التي تلتها؛ إذ يقول تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾^(١) وقد أخبرت عن أثر الاستعاذة وكشفت عن حقيقتين:

الأولى: أن الشيطان ليس له سلطة على المؤمنين المتوكلين على الله، فلو قوى المؤمن إيمانه وزاد توكله على الله قطع دابر الشيطان.

سر الوسوسة والنجاة منها

الثانية: أن سلطاناً على الذي على الذين يتولون الشيطان أي يتبعونه وبه يشركون، وهذه قاعدة علمية من علمي النفس والاجتماع أن التأثير لا يكون إلا بوجود استجابة من الداخل، والوسواسيون هم الذين يجعلون للشيطان عليهم سبيلاً باتباعه، وعلاج الوسوسة المخالفة الدائمة له، ولذا حرم الشرع الوسوسة؛ لأنها اختيارية وبإمكان الإنسان أن لا يتبع الشيطان

(١) سورة النحل: الآيتان ٩٩ و ١٠٠.

لكنه يضعف أمامه.

ومن مجموع الحقيقتين يستفاد أمران:

أحدهما: أن سلطة الشيطان على بني آدم ليست قهرية بل اختيارية؛ لذا لا تكون إلّا على من اختار أن يتولاه ويشركه في أعماله، فإن السلطان قسمان سلطان القهر وسلطان الحجة وهو سلطان الإقناع بأن يجعلك تقبل الفعل عن رضا منك، والشيطان فاقد للآتين سوى أنّه يغري ويخدع، فإذا وجد استجابة في النفوس خدعها، فلو اختار الإنسان الإيمان وتوكل على ربه لا يغلبه الشيطان مهما حاول.

ثانيهما: أنّ الذي ينجي المؤمن من الشيطان ليس الاستعاذة القولية بل القلبية والعملية، ولذا نفى سلطته عن المتوكلين؛ لأنّ التوكل على الله يتضمن الثقة بالله والاعتماد عليه والانقطاع عن غيره، وأثبتت التجارب فضلاً عن البراهين العقلية والأدلة النقلية أنّ من استعان بغير الله ذل، ومن استجار بسواه خاب، وأنّ الأمانى والآمال لا ينالها الإنسان باللجوء إلى المناصب والحكّام، ولا إلى قوة النفوذ من الناس أو خزائن الأموال، فإنّ كل ذلك زيف ولا يغني عن الشدة، وإنّما باللجوء إلى الله وحده، فإنّه خلق الإنسان إحساناً، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة حباً، وهو الذي يريد لعباده الخير والفلاح، ولذا أرسل له الأنبياء، وأنزل الكتب لإسعاده، وأمّا الذين تولوا الشيطان وشاركوه في غاياته ولجؤوا إليه فإنّه يخذلهم عند الشدائد، ولذلك يأتي الشيطان يوم القيامة ليقول لأتباعه ومن انخدع به ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ

سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ^(١) وهنا الخيبة العظيمة التي يشعر بها من يتخذ الشيطان وركناً ويتبعه.

العصبية والنزاع سلاح الشيطان

الموطن الثاني: العصبية والنزاع، وهو يشمل غير المصلين أيضاً، فلا بد أن يعرف الإنسان أنه إذا ظهرت عليه العصبية ووقع في نزاع فليعرف أن الشيطان له يد فيها. أشار إلى ذلك الباري عزَّ وجلَّ في آيتين أولاهما في سورة الأعراف: ﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ^(٢) وثانيهما في سورة فصلت^(٣)، وكلاهما وردتا في سياق الفتن والمشاكل والخصومات بين الناس.

والنزغ في اللغة هو دخول في أمر لإفساده^(٤)، ومن موارده ما صنعه بين يوسف عليه السلام وإخوته. قال تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي^(٥) إذ حمل بعضهم على بعض^(٦)، وطريقة الإغواء بالوسوسة، وأكثر

(١) سورة إبراهيم: الآية ٢٢.

(٢) سورة الأعراف: الآية ٢٠٠.

(٣) انظر سورة فصلت: الآية ٣٦.

(٤) مفردات الراغب: ص ٧٩٨، (نزغ).

(٥) سورة يوسف: الآية ١٠٠.

(٦) المعجم الوسيط: ج ٢، ص ٩١٤، (نزغ).

ما يكون عند الغضب^(١)؛ لذا لا يكون إلا في الشر^(٢).

طريقان لطرد شيطان الغضب

وعلمنا القرآن طريقين لمعالجته:

الأول: ذكر الله سبحانه، فإنه إذا حضر ذكره تعالى عمّت السلامة، وهدأت النفوس، واطمأنت القلوب، ومن ذكره الصلاة على محمد وآل محمد فإنّها تطرد الشيطان. أشار إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾^(٣). أي يبصرهم الحقائق والخفايا؛ لأنّ العصبية والغضب تعمي القلوب والعقول، وتحفّر الإنسان إلى التسرع والتعجل في الأحكام والمواقف. وهذا من شأنه أن يجعله متخبطاً متوغلاً في الخلاف والخصومة، فيضيع عليه الحل بل يشتد أوار الخلاف، وربما وصل إلى التضارب، وربما القتل، فإذا ذكر الله تهدأ عصبيته وتنجلي غشاوة العقل وعمى القلب فيبصر الحقائق، وتزول الشبهة التي أورثت الخلاف أو العناد الذي يزيد المشاكل، فإنّ أكثر نزاعات الناس الاجتماعية تنشأ من وجود شبهة غير واضحة توجب سوء الفهم، أو وجود عناد ومكابرة يمنع الحل وبينهما ملازمة، فإذا ذكر الله سبحانه وهدأت النفوس يجد المتخاصمون طريقاً للتفاهم فتزول الشبهة، وإذا ارتفعت الشبهة زال العناد أيضاً؛ لذا قال: ﴿تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾.

(١) معجم الفروق اللغوية: ص ٥٣٧، (٢١٦٠).

(٢) مجمع البحرين: ج ٥، ص ١٧، (نزغ).

(٣) سورة الأعراف: الآية ٢٠١.

والثاني: المبادرة إلى الاستعاذة من الشيطان الرجيم كما نصت عليه الآيات الكريمة، فإذا لا يبادر امتلكه الغضب وجرّه إلى المفاصد؛ لأنّ الغضب يلزم محرّكات كثيرة، وربما يجر لسان الغاضب إلى السب والشتيم، وربما الشتمات والتعير والتعيب وإفشاء الأسرار ومنع الحقوق، وربما الضرب والجرح والقتل، ثم ينجرّ إلى الحقد والعداوة والبغض إلى غير ذلك من الكبائر المهلكة؛ لذا قال رسول الله ﷺ: «الغضب يفسد الإيمان كما يفسد الخل العسل»^(١).

كيف يخترق الشيطان بني آدم؟

وفي رواية أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إنّ هذا الغضب جمة من الشيطان توقد في قلب ابن آدم، وإن أحدكم إذا غضب احمرت عيناه، وانتفخت أوداجه، ودخل الشيطان فيه»^(٢).

وفي هذا يكشف الإمام عن سر من علوم الروحانيات، وهو أنّ البعض الذين يدخلهم الشيطان ويتحكم بتصرفاتهم عند العصبية الشديدة؛ لأنّ حصانة العصبي الروحية ومناعته تضعف فيخترقه الشيطان ويتولى التصرف بشؤونه. وفي الخبر قال نوح عليه السلام لإبليس: «أخبرني متى تكون أقدر على ابن آدم؟ قال: عند الغضب»^(٣).

(١) الكافي: ج ٢، ص ٣٠٢، ح ١؛ البحار: ج ٧٠، ص ٢٦٧، ح ٢٢.

(٢) الكافي: ج ٢، ص ٣٠٤، ح ١٢؛ البحار: ج ٦٠، ص ٢٦٥، ح ١٤٩.

(٣) البحار: ج ٦٠، ص ٢٥١، ح ١١٣؛ مستدرک الوسائل: ج ١٢، ص ١٠، ح ١٣٣٧٢؛ جامع أحاديث الشيعة: ج ١٢، ص ٤٦٨، ح ٩.

معالجات الغضب

وقد وردت في الأخبار علاجات عديدة للغضب.

منها: الوضوء بالماء البارد.

ومنها: تغيير حركة الجسم فإذا كان الغاضب واقفاً فليجلس، وإذا قاعداً فليقم ويذهب، وإذا نائماً فيجلس.

ومنها: مس الرحم، فإن الرحم إذا مُسَّت سكنت، وأهم ما يجب أن يبادر له الغضبان هو الاستعاذة، ورد ذلك عن النبي ﷺ والأئمة عليهم السلام، فعن الإمام الصادق عليه السلام: ﴿لو قال أحدكم إذا غضب: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) ذهب عنه غضبه﴾^(١).

ومن هنا يجب أن يتعلم الإنسان أهمية الذكر والحضور النفسي، وأن يهذب نفسه لكيلا يغضب، وإذا غضب يستعيز بالله لكيلا يستغفله الشيطان.

إلفات لأهل القلوب

وهنا التفاتان لصنفين من الناس:

الأول: لأهل التربية والتهذيب الذين يبذلون جهوداً كبيرة لبناء أنفسهم فإن الغضب يهدم ما بينونه، وعملهم ليلاً ونهاراً لطرده وساوس الشيطان يبطئ في الغضب، ويقتربون من الشيطان؛ لذا قال الإمام الصادق عليه السلام: ﴿الغضب محقة لقلب الحكيم﴾^(٢) ومحق القلب يعني إذهاب أثره وبركاته

(١) الدعوات: ص ٥٢، ح ١٣٢؛ البحار: ج ٩٢، ص ٣٣٩، ح ٢.

(٢) الكافي: ج ٢، ص ٣٠٥، ح ١٣؛ البحار: ج ٧٠، ص ٢٧٨، ح ٣٣.

وإبطال خصائصه^(١)، ومنه قوله تعالى: ﴿يَمَحُقُ اللَّهُ الرَّبَا وَيُزِيهِ الصَّدَقَاتِ﴾^(٢) أي يبارك في الصدقة وينميها ويزيل الخير عن الربا.

الثاني: لعموم الناس، فإنَّ الغضب يقودهم إلى الكبائر، وربما هدم كل ما بنوه لأنفسهم وأولادهم، فعن الإمام الصادق عليه السلام: ﴿كان أبي محمد يقول: أي شيء أشد من الغضب؟ إنَّ الرجل إذا غضب يقتل النفس، ويقذف المحصنة﴾^(٣) وأكثر الجرائم والجنايات تحدث عند الغضب؛ لذا ورد في رواية أبي حمزة عن الإمام الباقر عليه السلام: ﴿من كفَّ غضبه عن الناس كفَّ الله عنه عذاب يوم القيامة﴾^(٤) وبهذا نتعلم أنَّ الغضب من الشيطان، وأنَّ علاج الغضب والشيطان هو الاستعاذة.

التعليم الثاني: كيف نساعد الشيطان على أنفسنا؟

تعلمنا الاستعاذة أن نأخذ الحيطة والحذر في الأقوال والأفكار والأعمال لكي نضمن سلامة الدين والدنيا؛ لأنَّ الإنسان مبتلى بالشيطان في الدنيا ومختبر، وبه يتميز المؤمن من غيره والصالح وغيره، وأن ما يزيد الابتلاء على بني البشر أمور:

الأول: أنَّهم لا يرون الشيطان، ولا يعرفون وجهه وشكله، ولا يتحدثون

(١) مفردات الراغب: ص ٧٦١، (محق)؛ المعجم الوسيط: ج ٢، ص ٨٥٦، (محق).

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٧٦.

(٣) الكافي: ج ٢، ص ٣٠٣، ح ٤؛ مستدرک الوسائل: ج ١٢، ص ٨، ح ١٣٣٦٥.

(٤) الكافي: ج ٢، ص ٣٠٥، ح ١٥؛ ثواب الأعمال: ص ١٣٣؛ البحار: ج ١، ص ١٤٣، ح ٣٠.

معه، وإنّما هو الذي يراهم ويعرفهم ويتحدث إليهم، والعدو إذا صار مجهولاً تكبر خطورته، خاصة وأنّه يلازم حياة الناس منذ زمان آدم إلى زمان الوصي الخاتم عجل الله تعالى فرجه، وهو معاصر لكل يعرف أصنافهم وأخبارهم وأسرارهم وخفاياهم ومطلع عليها، وهو مواكب لبني البشر.

الثاني: أنّ عداوته لا تبرد بل تشتد بمرور الزمن، وكلما ازداد الإنسان معرفة وتهذيباً فإنّ عداوة الشيطان له تكبر (أشدّ الناس بلاء الأنبياء ثم الأوصياء ثم الأمثل فالأمثل)^(١) فالعداوة لها حدود إلّا مع الشيطان فإنّها مستمرة ومتزايدة وخفية.

الثالث: أنّ إيجاءاته متنوعة وتأتي من الوجوه التي يحبها الإنسان كما بينها سابقاً، فتشمل الأفكار والمعتقدات، كما تشمل الأخلاق والأعمال، وكلها في معرض تدخل الشيطان وتأثيراته، فما يحبه الإنسان ويشتهيّه هو مدخل الشيطان، فإنّه لا يحارب الإنسان بالأشياء التي يبغضها وإنّما في الأشياء التي يحبها.

أشكال الشيطان

ويعتبر لكل فرد وشخص بالأشياء التي يطمح إليها ويشتهيها، فالشخص الذي يحب الدين يزيّف له الدين. لا يقول الدين غير صحيح؛ لأنّه لا يستجيب له، وإنّما يزيّف له ديناً مقابل الدين الصحيح في العبادة الإلهية الحقّة، يزيّف له قائداً بديلاً وإماماً مزيّفاً يقول اتبعه.

والمرأة الملتزمة بحجابها لا يقول لها اخلعي حجابك؛ لأنّها لا تستجيب،

(١) الكافي: ج ٢، ص ٢٥٢ - ٢٥٣، ح ٤؛ البحار: ج ٦٤، ص ٢٣١، ح ٤٥.

لكنه يزيّف لها الحجاب ويفرّغه من محتوئ التحجب، فتلبس الجلباب ولكن فيه تزيينات مختلفة، فهو في ظاهره حجاب لكنه في واقعه فارغ من التحجب. وفي رمضان لا يقول للناس لا تصوموا ولكن يفرغ صيامهم من محتواه بالبرامج والأفلام والقضايا التافهة، وهكذا يتمظهر بالأشياء التي يحبها الناس، فإذا لا يلتفت الإنسان إلى هذه الحقائق فإنّه يقع فريسة له، والذي يعرف ذلك ويعمل على مخالفته وتحديه يرتقي المقامات العالية والدرجات العظيمة، وهذه هي صفات شياطين الجن.

خداع شياطين الإنس

وينطبق هذا العنوان على شياطين الإنس أيضاً لتشابه الأساليب والدواعي والآثار، فإنّ في الناس من يقوم بدور الشيطان. بعضهم أفراد وقادة وزعماء، وبعضهم تجار، وبعضهم عمال، وبعضهم مفكرون وهكذا، ولا يفترق عن شيطان الجنّ إلّا بفارق واحد هو أنّ الناس يرونه ويتعاملون معه، بخلاف شيطان الجن، ولكن إذا صار الشيطان الإنسي منهجاً وتياراً يعمل على تضليل الناس وإفسادهم وتخريب أفكارهم وأخلاقهم وتوظيفهم للشر صار كشيطان الجن تماماً؛ إذ لا يرى الناس لهم وجهاً واحداً؛ لأنّهم يتمظهرون بمختلف الأشكال والصور، ولكن يجد أهل العقل والبصيرة آثارهم السلبية في الجامعات والمعاهد، وفي الرياضة والتجارة والإعلام والسوق والشارع، وفي كل مكان يقومون بأعمال الشيطان، ويفسدون عباد الله، ويخربون بلاده بأسماء وعناوين مختلفة، ولهذا نماذج كثيرة:

تشويه الفضائل وتجميل للمساوئ

مثلاً: الفسق والفجور والانحلال الأخلاقي يعبرون عنه بالانفتاح، وأنه ثقافة عصرية، فإذا دعاهم الصالحون إلى الانضباط والتحشم والأدب الإنساني قالوا هم معقدون ومتخلفون وبعيدون عن الحياة، ولهذا جماعات وتيارات بعضها مسلمة ومؤمنة، ويتعوذون من الشيطان لكنها سائرة في نهج الشيطان وكأنها تتعوذ من نفسها. وهذه الظاهرة يجدها المتبع في مختلف الجهات، وحينما يصبح شرب الخمر مظهراً للاحتفال، والرشوة هدية، والربا تجارة، والسرقه والاختلاس حقاً واستحقاقاً، بينما الأمانة والنزاهة ونظافة اليد خروجاً عن المألوف وبعد عن واقع الحياة يجب أن يعرف الناس إلى أي مدى من الانحراف والضلال صاروا، وحينما يصبح الإعلامى مروجاً لأعداء البلد والمتمتعين بخيراته، والمفكر ينظر لهم، والمعلم يربي الأجيال على طريقتهم، والتاجر يروج لسلعهم ويجسد أفكارهم في الملابس والادوات، والحلاق في قصات الشعر، وكل ذلك في مقابل سيادتهم وأصالتهم الفكرية والأخلاقية والاجتماعية فإنه يكون مؤشراً على أن أفراد المجتمع على اختلاف شرائحهم ومجالاتهم مشوا في نهج الشيطان، وصاروا من جنوده، وكل ذلك بأساليب منمقة مغرية، تحترق فكر الإنسان البسيط وقلبه دون أن يشعر.

هيمنة الشيطنة

وهذه هي أساليب الشيطان يلبس الباطل بلباس الحق، والقيح بمظهر الحسن، والرذيلة بلون الفضيلة ليس فقط على الناس، بل يحاول أن يلبس

ذلك حتى على العالم المحيط بالأشياء، فقد ورد أن إبليس قال لله عز وجل: لا يجوز أن تعاقبني على ترك السجود لآدم. قال سبحانه: ولم؟ قال: لو أردت السجود مني حقاً لأجبرتني عليه قهراً - يبرر لعناده ومخالفته بلسان حسن - قال تعالى: ومتى علمت أنني لم أرد منك السجود لآدم؟ هل علمت ذلك بعد أن أمرتك وعصيت أمري أو قبل أن أمرك بالسجود؟ قال: بعد أن أمرتني. قال: إذاً لزمك الحجة؛ لأنك خالفت وامتنعت قبل أن تعلم بأنني أردت غير ما أظهرت، هذا ولو ألجأتك إلى السجود قهراً لم يبق من داع للأمر به إطلاقاً.

إبليس يخادع الأنبياء

وقيل: إن إبليس التقى ذات يوم برسول الله ﷺ فقال له: إن الله نعتك بالمرشد الهادي ووصفني بالمضلل الغاوي وكل من الهداية والغواية في يده وليس في يدك ويدي شيء.

فقال رسول الله ﷺ: ﴿كلا إن في يدي بيان الباطل والزجر عنه والوعيد عليه، وفي يدك الخداع والنفاق والإغراق بالباطل، وفي يد الإنسان القدرة والتمييز والاختيار، فمن أحسن الاختيار فلنفسه ومن أساء فعليها﴾.

وقيل: إنه جاء إلى عيسى عليه السلام وقال له: ألا تزعم أن لك مكاناً علياً عند الله؟ فالتق بنفسك من شاهر لئلا يرى هل ينفذك من الهلاك؟ فقال المسيح عليه السلام: ﴿إن الله يمتحن عبده وليس للعبد أن يمتحن ربه﴾.

وقيل إنه قصد نوحاً بعد أن غرق الناس وجف الماء وقال له: يا نبي الله! إن لك عندي يداً وأريد مكافأتك عليها. قال نوح عليه السلام: ﴿أستغفر الله أن

يكون لي على مثلك يد». قال إبليس: هو ما أقول لك.. قال نوح: ﴿ما هي يدي عليك؟﴾ قال: إبليس: دعوت على قومك بالهلاك فهلكوا وقد كنت من قبل مشغولاً ليل نهار في إغوائهم وتضليلهم وأنا الآن بعد هلاكهم في إجازة لا أجد من أغويه!!.

إبليس يكافئ نوحاً ﷺ

قال نوح: ﴿بماذا تكافئني؟﴾ قال: أنصحك أن لا تغضب، فما غضب إنسان إلا وهان عليّ انقياده، ولا تحكم بين اثنين، فإذا فعلت كنتُ ثالثاً لكما، ولا تخلُ بامرأة وإلا أغريتك بها وأغريتها بك!!

ويغالط موسى ﷺ

وقيل إن موسى ﷺ كان ذاهباً يناجي ربه فالتقاه إبليس فقال له: إلى أين يا كليم الله؟ قال: ﴿ذاهب إلى ربي أتلقى كلمات منه وأنا على استعداد أن أتوسط لك لديه سبحانه كي يعفو عنك إذا وعدتني بالإفلاخ عن غيك وضلالك﴾. قال إبليس: أنا لا أستشفع بك ولا بسواك إليه، بل هو عليه - أستغفر الله - أن يطلب مرضاتي!!

قال له موسى: ﴿قبححت من كافر لعين﴾ قال إبليس: ولم يا كليم الله؟ وأي ذنب لي؟ لقد طلب مني السجود لآدم وأنا من شدة إخلاصي له لا أسجد لسواه، ومتى كان الإخلاص ذنباً؟

قال موسى ﷺ: ﴿إن هذه مغالطات وتلاعب بالألفاظ لا يغني عنك فتيلًا، وسترى ماذا سيحل بك غداً﴾. قال إبليس: وأنت أيضاً ستري ماذا

سأفعل غداً. قال موسى ﷺ: ﴿وما أنت بفاعل؟﴾ قال إبليس: أطلب الله بوعده، وأحتج بقوله إن رحمتي وسعت كل شيء وأنا شيء فوجب أن تتسع لي رحمته، وإذا كنت أنا لا شيء فاللأشياء لا يحاسب ولا يعاقب.

قال موسى ﷺ: ﴿إن رحمة الله تتسع لمن فيه الأهلوية والقابلية لها، وأنت بعيد عنها كل البعد﴾.

وهذه الرواية ذكرها بعض المفسرين ^(١)، وهي نقل بالمضمون للكثير من الآيات والروايات التي وردت في ذلك، فالمضمون صحيح بغض النظر عن المتن، لكنها تضمنت دلائل هامة:

الأولى: أن إبليس يسعى لخداع أنبياء الله وأوليائه، بل ويسعى للمكر على الله عز وجل، وهذا يكشف عن خبث طينته وسوء سريره التي وحدها تكفي لطرده ولعنه وإهلاكه.

التبرير والمغالطة أسلوب الأبالسة

الثانية: أنه يبرر لنفسه أعماله بألفاظ وكلمات قد تغري البسطاء لا أصحاب العقول، فلرسول الله ﷺ يبرر عمله بالجبر وأن غوايته من فعل الله لا من فعله، ولعيسى يحثه للتجرؤ على الله واختباره، ولنوح يشعره بأن له فضلاً عليه وليس الفضل لله عليه، ولموسى يبرر عصيانه بالسجود لآدم بأن ذلك من مقتضيات إخلاصه لربه، ويؤمل نفسه بأنه في الآخرة سيلجأ إلى وعد الله بسعة رحمته.

(١) انظر تفسير الكاشف: ج ١، ص ٢١ - ٢٣، (بتصرف).

وهذه كلها إغواءات وتبريرات لتمرده وعصيانه لربه.

مغالطات النهج الشيطاني المعاصر

وبذات التفكير والمغالطات يعمل أصحاب النهج الشيطاني من الإنس وشواهد كثيرة:

اليوم أصبحت الرشوة هدية، والاختلاط المحرم تحضراً، والتبرج أناقة، والتعري حرية، والأمر بالمعروف تشدداً، والنهي عن المنكر تخلفاً وتدخلاً في الحرية الشخصية، فإذا نصحت أحداً بترك معصية يجيبك بأن أكثر الناس تفعل ذلك ولست وحدي، ولو قلت للموظف أنك تتقاضى أجوراً على عملك فلماذا تبتز المواطن يقول لا يكفيني، ولو نصحت المؤمنة أن تواظب على سترها وحجابها تقول لك ليس المهم أن تتحجب المهم أن يكون قلبها أبيض، وشارب الخمر يقول أشرب الخمر أفضل مما أسرق أو أزني، والتاجر حينما يستورد الملابس الفاضحة المنكرة يقول هذا ما يطلبه السوق، والغناء والرقص ومجالس اللهو والفجور يسمونها فناً، وهكذا كلمات جميلة يركبونها على واقع فاسد فاضح، عمّا إذا يكشف هذا؟ يكشف عن نهج شيطاني يتشابه فيه فعل الإنسان بفعل الشيطان. هذا في البعد الشخصي والأخلاقي.

الشيطنة السياسية

وهناك نهج شيطاني في البعد السياسي والقيادي، فلما أخذوا الخلافة من علي عليه السلام ونصبوا مكانه خليفة تمظهروا بموافقة الناس عليه وانتخابهم له، ولو يسأل سائل: من الذين انتخبوه؟ والجواب: ليسوا إلا بعض أفراد

قلائل تواطؤوا على ذلك، وصادروا رأي الناس في قضايا فاضحة كما هو معروف مشهور في التاريخ^(١).

واليوم حينما تجري انتخابات رئاسية أو نيابية فإن الملحوظ أنها وفي أكثر البلدان غير واقعية، ولم تأت عن اختيار حر للناس، بل اختيار مسيرٍ بالمال والإعلام أو التزوير أو القوة؛ لأنّ المهم عندهم ظهور الأصوات في صناديق الاقتراع لا غير، فلو جاء صندوق الاقتراع بأساليب ماهرة بشخصيات غير أمينة تعتبر شرعية، وتعطى صلاحية القيادة والإدارة، فهو خداع وتضليل واستبداد بلون يسمى ديمقراطياً، وهكذا أكثر ما نراه ونعيشه، وهو بعيد عن الواقعية، وإنّما يجسد نهج الإنس في الشيطنة.

مداخل الشيطان

الثالثة: أنّ الشيطان أقرّ على نفسه بأمور يجب أن يتعلمها الناس:

الأول: أنّ الغضب مدخل الشيطان لبني آدم، فالذي يريد أن يعتصم من الشيطان فلا يغضب.

الثاني: التصدي للحكم بين الناس والقضاء فيهم، فإن هذا منصب لم يجعله الله إلّا لنبيّ أو وصي نبي أو فقيه جامع للشرائط، فكل من يتصدى للحكم والقضاء فليعرف أنّه قريب من الشيطان، ولذا ورد في الأخبار تصنيف لأهل النار، ومنها: رجل قضى بالحق وهو لا يعلم^(٢).

(١) انظر الخلفاء والملوك: ج ١، ص ٣٥٩ وما بعدها.

(٢) الكافي: ج ٧، ص ٤٠٧، ح ١؛ فقه الرضاء^(عليه السلام): ص ٢٦٠؛ الخصال: ص ٢٤٧، ح ١٠٨.

الثالث: أنَّ الاختلاط بين الرجال والنساء منشأ الفساد وحضور الشياطين لاسيما الاختلاط مع الخلوة، ولذا حرّم الشرع ذلك، ونهى الناس عنه.
فلا نجاة للناس من شياطين الجن والإنس إلّا بالمعرفة والالتفات إلى أساليبهم والحذر منها، والاستعاذة بالله تعالى منهم.

التعليم الثالث: قاعدة النجاح

أنَّ القاعدة العامة للنجاح في كل عمل شخصي أو نوعي هو إزالة الموانع والحجب خصوصاً الطاعات والأعمال الصالحة؛ لذا وردت الاستعاذة قبل البسملة، وهو ما يعبر عنه علماء الأخلاق بالتخلية قبل التحلية، وعلماء النظم بالهدم ثم البناء، وعلماء الإدارة برفع العراقيل ثم التدبير. هكذا تقوم المؤسسات والدول والحضارات، ولما نشر رسول الله ﷺ الإسلام ودعا الناس إليه فأول ما دعا إليه أن يقولوا: (لا إله إلا الله) فقدّم نفي الآلهة أولاً، ثم إثبات الألوهية لله عزّ وجلّ، وهذا هو النهج القائم في زمان الظهور المبارك، فإنّه يزيل المعرقلات، ويبطل الضلالات، ويزيل الجور وأهله، ثم يبني دولته الإلهية العادلة. وقد تضافر هذا المعنى في النصوص الكثيرة الواردة بشأنه ﷺ.

ومنها: ما ورد في دعاء زمن الغيبة الوارد عن النائب الأول بسند معتبر عنه ﷺ، وهو من الأدعية المهمة ذات الأثر البالغ لاسيما قراءته يوم الجمعة.
يقول فيه: ﴿اللهم عجل فرجه، وأيده بالنصر.. وأظهر به الحق، وأمت به الجور، واستنقذ به عبادك المؤمنين من الذل، وأنعش به البلاد، واقتل به

جبابرة الكفر، واقصم به رؤوس الضلالة، وذلّل به الجبارين والكافرين، وأبر به المنافقين والناكثين وجميع المخالفين والملحدين في مشارق الأرض ومغاربها وبرها وبحرها، وسهلها وجبلها، حتى لا تدع منهم دياراً، ولا تبقي لهم آثاراً، طهّر منهم بلادك، واشف منهم صدور عبادك، وجدد به ما امتحى من دينك، وأصلح به ما بُدّل من حكمك، وغَيّر من سنتك حتى يعود دينك به، وعلى يديه غضاً جديداً صحيحاً لا عوج فيه ولا بدعة معه حتى تطفئ بعدله نيران الكافرين ﴿ إلى آخر الدعاء ^(١) .

منهج الإمام المهدي عليه السلام

ونلاحظ فيه أمرين:

الأول: أن القتل والإبادة تكون لرؤوس الكفر والضلالة وأئمة الظلم والجور؛ لأنّ هؤلاء هم سبب الفساد في الأرض، ومنشأ الظلم والجور، ويمثلون نهج الشيطان، ولا يرجعون عن نهجهم فيعانداً ويحاربوا الإمام عليه السلام فيبيدهم بقدره الله تعالى، فقتاله عليه السلام ليس مع عموم الناس، ولا يقتل إلاّ من يحاربه ويعانده اتباعاً لشيطانة.

الثاني: أنّ إقامة دولة العدل الإلهي تتوقف على إبادة الذين يعرقلون طريقها، وذلك يكون باستحقاقهم، فإنّه لا يعادي العدل إلاّ الظالمون، ولا يخالف الصلاح إلاّ الفاسدون، والظلم والفساد يستحقان الإبادة.

(١) كمال الدين وتمام النعمة: ج ١، ص ٥٤٢؛ مصباح المتعبد (للطوسي): ص ٤١٤.

النجاح في العلاقات الاجتماعية

ويتحصل: أنّ كل من يريد النجاح والصلاح لا بد وأن يتبع نهج الاستعاذة بإزالة العوائق الشيطانية حتى تحل الرحمة الرحمانية؛ إذ لا يجتمع ما هو رحماني مع ما هو شيطاني.

وهذه القاعدة قائمة حتى في العلاقات الاجتماعية، فإنّ الذي يطلب الصلاح وحسن السلوك والمستقبل الأفضل من الشباب لا يمكنه أن يصل لمطلوبه إذا يصاحب أصدقاء السوء، والذي يريد أن يبنى لنفسه بيتاً سعيداً وحياة زوجية طيبة من الرجال والنساء لا يمكن أن يستمر على سوء خلقه، ولا يسعى لإزالة الكدورات والمنغصات، فإنّ كل سوء ومنغص هو شيطاني، فلما لم يستعذ به الإنسان ويطرده من جانبه لا يمكن أن يفتح على الحياة الأفضل، ولعل هذا هو السر وراء قراءة الإمام الاستعاذة قبل تلاوة بعض الآيات حين احتجاجه لدى هارون العباسي بسبب انتساب الأئمة لرسول الله ﷺ دون بني العباس، فإنّه أراد إزاحة حجب نفس هارون وظلمانيته لكي تؤثر به الآيات، والقضية مفصلة رواها الصدوق رحمته الله في العيون ^(١).

التعليم الرابع: معالجة الأمراض النفسية

وهو لأهل الطب والمبتلين بالأمراض النفسية كالكآبة، والروحية كالوسوسة والتشكيك، أو المركبة كالصرع، فإنّ هذه الأمراض تصيب نوعين من الناس:

(١) انظر عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج ٢، ص ٨١، ح ٩.

الأول: الذين يتبعون الشيطان ويخضعون له في تسويلاته ووسوسته وتشكيكه، فيقودهم في كل ما يحبون، فإذا وجدهم يحبون العبادة يدخل لهم منها ويشككهم فيها حتى لا يقر لهم قرار، وإذا وجدهم يحبون الطهارة أوقعهم في وسوسة الطهارة والنجاسة، وإذا وجدهم يحبون العلاقات الاجتماعية أوقعهم بالشكوك فيها، ومن أكثر ما يحطم سعادة الإنسان وراحته كثرة الشك؛ لأنّ الباري عزّ وجلّ يقول: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ **✽ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ**^(١).

الثاني: الذين لا يستعينون بالله منه، لأنّ كل من لا يستعيز بالله تعالى يكون الشيطان قريباً منه، فيقوّض مضجعه بالتشكيك والوسوسة، فلاستعانة دواء الشيطان، والأمراض الروحية دفعاً ورفعاً، وعدمها يضعف المناعة، فربما يصيبه الشيطان. ومن هنا أمر الباري بالاستعانة يومياً لدى الصلاة وتلاوة القرآن.

ومن ذلك يتضح أنّ الصرع والجنون والانهيارات العصبية التي تصيب بعض الناس ليست من الأمراض النفسية أو الروحية الشيطانية، وإنّما تعود إلى أمراض البدن^(٢)، ونقصان بعض العناصر الغذائية أو الهرمونية التي تسبب ذلك، ولو تطور الطب وتوصل إلى سرّ هذه الأمراض عالجها.

كما يتضح أنّ الذين يصيبهم شر من الشيطان ويلبسهم الجن ونحوه

(١) سورة النحل: الآيتان ٩٩ و ١٠٠.

(٢) انظر التبيان: ج ٦، ص ٣٨٤.

سببه يعود إليهم؛ لجهة ضعف إيمانهم، أو خضوعهم لشیطانهم، أو ضعف توكلهم على الله تعالى كما دلت عليه الآية المباركة.

الطرق الروحية للخلاص من الشيطان

وطريق الخلاص من الشيطان يتم بأربعة أمور:

الأول: الإخلاص في طاعة الله تعالى؛ لأنّ الشيطان أقرّ على نفسه بأنّه يعجز عن إغواء المخلصين ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾^(١)، المخلص اسم مفعول، وهو في المعنويات لا يكون إلّا بعد التلبس بالمبدأ، فما لم يكن الإنسان مخلصاً لا يكون مخلصاً.

والثاني: الإيمان والتوكل على الله.

والثالث: الاستعاذة المستمرة بالله تعالى منه.

والرابع: الزهد والتزهد؛ لأنّ الشيطان يتسلط على رقاب بني آدم بالمغريات والشهوات كشهوة البطن والفرج، فإذا زهد الإنسان في أكله وشربه وفرجه واكتفى بالحلال المعتدل يكون قد سدّ على الشيطان باباً من أبواب الشر، وكذلك شهوة الرئاسة والسلطة وحب المال ونحوها، فإنّ هذه جنود إبليس لتضليل الإنسان. وقد ورد أنّ نوحاً عليه السلام لما خرج من السفينة جاءه إبليس عليه اللعنة فقال نوح: ﴿يا عدو الله أي أخلاق بني آدم أعون لك ولجنودك على ضلالتهم وهلاكهم؟﴾ قال: إذا وجدنا من بني آدم شحيحاً حريصاً حسوداً جباراً عجولاً تلقفناه تلقف الكرة، فإنّ اجتمعت

(١) سورة ص: الآيتان: ٨٢ و ٨٣.

فيه هذه الأخلاق سميناه شيطاناً مريداً؛ لأنّ هذه الأخلاق من أخلاق رؤوس الشياطين^(١).

وبذلك يتضح لدى الإنسان الميزان الذي يحكم به على الأشياء في المناهج السياسية والاقتصادية والتربوية والإعلامية وغيرها.

فإنّه إذا لاحظ فيها حب الدنيا والمال والسلطة والشهرة وغيرها من مظاهر تقوم على الشهرة والأنا فليعرف أنّه نهج شيطاني ورؤوسه من شياطين الإنس قد تسلط عليهم وقادهم إلى ذلك.

وإذا لاحظ فيها الإيمان والمحبة والطاعة لله تعالى والزهد في الدنيا فليعرف أنّه نهج إلهي رحمان.

هذا هو المحك الذي به يتميز الناس، وبه يعرف الإنسان طريقه، فلو وضعه نصب عينه لا يضل ولا يخدع، وهذا هو روح الاستعاذة وجوهرها.

التعليم الخامس: هل المعصوم يستعيز من الشيطان؟

وهو لأهل الفضل والفقاهة، فإنّ الآية المباركة أمرت النبي ﷺ بالاستعاذة من الشيطان الرجيم عند قراءة القرآن؛ إذ قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾^(٢) وفي آية أخرى قال: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾^(٣)

(١) تفسير روح البيان: ج ١، ص ٦.

(٢) سورة النحل: الآية ٩٨.

(٣) سورة المؤمنون: الآيتان ٩٧ و ٩٨.

والحال أنه معصوم ومسدد بروح القدس، فالأمر بالاستعاذة للمعصوم من تحصيل الحاصل، وفيه جوابان، نقضي بمثل أمره في قوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾^(١) و: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾^(٢) فإنه كيف يؤمر بالاستعاذة من شرار الخلق ويؤمر بالتوحيد مع أنه لا يكون نبياً إلا بعد خلوصه في توحيده واستعاذته برب الفلق.

وحلي من وجهين:

الوجه الأول: أن أمر المعصوم بالاستعاذة يمكن أن يكون على ثلاثة وجوه:
الأول: أن يكون لأجل إطاعة المعبود من باب التعبد له وأداء شكره وإظهار التعظيم والخضوع له. وهذه فائدة عظيمة في نفسها تنفي

المحذور المذكور، وإليه يشير قول أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك﴾^(٣) و: ﴿كفى لي عزاً أن أكون لك عبداً﴾^(٤).

الثاني: أن يكون لتحصيل المفقود، بمعنى أنه عليه السلام بالاستعاذة يكتسب العصمة من الله بعد أن كان فاقداً لها، وهذا باطل ومستلزم لتحصيل الحاصل؛ لأن المعصوم عصمه الله سبحانه في تكوينه الفطري، واصطفاه منذ العوالم الأولى.

الثالث: أن يكون لأجل الحفاظ على الموجود نظير قوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ

(١) سورة الفلق: الآيتان ١ و ٢.

(٢) سورة الإخلاص: الآية ١.

(٣) عوالي اللآلئ: ج ١، ص ٤٠٤، ح ٦٣؛ البحار: ج ٤١، ص ١٤، ح ٤.

(٤) الخصال: ص ٤٢٠، ح ١٤؛ البحار: ج ٩١، ص ٩٤، ح ١٠.

الْمُسْتَقِيمَ ﴿١﴾ مع أنه الهادي للناس والمرشد لمصالحهم، وطلبه ليس للاهتداء؛ لأنه مهتد، بل لأجل دوام الهداية وبقائها، واستعاذة المعصوم بالله من الشيطان لأجل الحفاظ على دوام العصمة والبقاء في حصنها وأمانها. وهذه فائدة عظيمة لأمره بذلك.

والخلاصة: أن أمر النبي ﷺ بالاستعاذة ليس لأجل تحصيل العصمة حتى يلزم منه المحذور، بل لأجل أداء شكرها، ولأجل الحفاظ عليها. وهما فائدتان هامتان تنفيان المحذور.

وعليه فلا مانع من توجيه الأمر للنبي ﷺ فيشمل غيره، إما بقاعدة الاشتراك، أو بالأولوية القطعية، أو بأصالة التأسي به.

يستعيز لتعليم الناس

الوجه الثاني: يمكن أن يكون أمره بالاستعاذة لا لأجل نفسه، بل لأجل تعليم الناس وهدايتهم إلى دوام الاستعاذة بالله، فإنه إذا كان المعصوم وهو مسدد بالعبادة الإلهية يتحذر من مداخلات الشيطان ويطلب النصرة عليه فكيف بغيره؟ وقد اتفقت الكلمة على أن القرآن نزل بلغة (إياك أعني واسمعي يا جارة).

وعليه فإن الأمر ليس موجهاً حقيقة للنبي ﷺ بل للناس بواسطته. والوجه الأول أولى وأوفق؛ لأصالة الحقيقة، واحتياج حمل الأمر على خلاف ظاهره إلى القرينة في الوجه الثاني وهي مفقودة، ولما تضافر في الأدلة من أن الشيطان يتعرض للأنبياء والأولياء كما يتعرض لسائر الناس

فالحاجة إلى الاستعانة عند الجميع واحدة.

هذا وقد أجاب بعض المفسرين بجواب آخر لا يخلو من ضعف^(١) ، وفيما ذكرناه ما يكفي لدفع الشبهة.

التعليم السادس: فروع الاستعانة الفقهية

المستفاد من إطلاق الآية ومن (إذا) الشرطية الدالة على الدوام استحباب الاستعانة في كل قراءة كثيرة كانت أو قليلة، وسواء كانت في الصلاة أو في غيرها، وتتفرع على ذلك جملة فروع:

الفرع الأول: يستحب الإسرار بالاستعانة في الصلاة حتى الجهرية منها، حكي على ذلك الإجماع^(٢) ، وبعضهم علله بأنه ذكر بين التكبير والقراءة، فليس فيه إلا الإسرار حذراً من القطع بينهما، وفي استحباب الإسرار في غير الصلاة احتمالان، والأقوى العدم، بل لا يبعد رجحان ملاك الجهر فيه لما فيه من تأثير على نفس المستعيز والسامعين.

الفرع الثاني: ذهب أصحابنا إلى استحباب الاستعانة في أول ركعة من الصلاة لا غير^(٣) ، وذهب بعض العامة إلى استحبابها في كل ركعة^(٤) ،

(١) انظر مناهج البيان: ج ١، ص ٧٦.

(٢) انظر التذكرة: ج ٣، ص ١٢٧؛ الخلاف: ج ١، ص ٣٢٦، المسألة (٧٨) ؛ كنز العرفان: ص ١٣٣.

(٣) انظر التذكرة: ج ٣، ص ١٢٧؛ الخلاف: ج ١، ص ٣٢٦، المسألة (٧٨) ؛ كنز العرفان: ص ١٣٣.

(٤) هو قول للشافعي، انظر: المجموع: ج ٣، ص ٣٢٦؛ فتح القدير: ج ٣، ص ←

ودليلهم الإطلاق، وتعليق الحكم على الشرط يقتضي تكراره بتكرر الشرط؛ لأصالة عدم تداخل الأسباب، وقد علق الاستعاذة على إرادة القراءة في الآية المباركة فيستحب تكرارها في كل مرة أريدت. وهو تام لو لم يقيم دليل على الخلاف. وقد استدل أصحابنا على وجود الدليل وهو فعل النبي ﷺ فإنه اكتفى بالاستعاذة في الركعة الأولى ولو كانت مستحبة في غيرها لما تركها^(١)، وعلى فرض الشك فإنَّ القدر المتيقن هو المرة، فجريانه في الثانية يفتقر إلى دليل، والأصل العدم، وللعمامة أقوال أخرى لا تخلو من غرابة^(٢).

الفرع الثالث: ذهب بعض أصحابنا إلى سقوط استحبابها للمأموم في صلاة الجماعة؛ لأنَّ الاستعاذة من سنن القراءة، فإذا سقطت القراءة سقطت سنتها^(٣) وذهب بعض العامة إلى أنَّها من سنن الصلاة لا القراءة، فيستحب للمأموم فعلها وإن لم يقرأ^(٤)، ومرجع الخلاف إلى أنَّها من سنن الصلاة أم القراءة، والأول لا دليل عليه، ونص قوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾^(٥) صريح في أنَّها من سنن القراءة.

→

٣٠٠؛ مغني المحتاج: ج ١، ص ١٥٦؛ كنز العرفان: ص ١٣٣.

(١) كنز العرفان: ص ١٣٣.

(٢) انظر تفسير الرازي: ج ١، ص ٦٤ - ٦٦؛ التحرير والتنوير: ج ١٣، ص ٢٢٣.

(٣) كنز العرفان: ص ١٣٣.

(٤) السراج الوهاج: ص ٤٣؛ المبسوط: ج ١، ص ١٣؛ المحلى: ج ٣، ص ٢٤٧.

(٥) سورة النحل: الآية ٩٨.



البسمة روح القرآن العظيم
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد/ ١

وهي أعظم آية في القرآن ومفتحه في كل سورة إلا سورة براءة، وفي سورة الحمد بالخصوص التي هي السبع المثاني التي تعادل القرآن العظيم، فإنّ أفضل آية فيها هي البسملة، كما ورد في رواية محمد بن مسلم عن الإمام الصادق عليه السلام^(١)، وهي الأقرب إلى الاسم الأعظم^(٢)، والبسملة اسم لجملة ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ والبحث فيها يقع في مباحث:

(١) التهذيب: ج ٢، ص ٢٨٩، ح ١١٥٧؛ تفسير نور الثقلين: ج ٣، ص ٣٧، ح ٩٧.

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج ١، ص ٨، ح ١١؛ البحار: ج ٩٠، ص ٢٢٤، ح ١.

المبحث الأول: في فضائل البسملة



وطريق معرفتها منحصر بالنقل؛ لقصور العقول عن دركها دون الاستعانة بالشرع.

وقد تقدم في تفسير سورتي ياسين والقدر جملة من الأبحاث المتعلقة بفضائلها، ونشير هنا إلى جملة من فضائلها الأخرى، وهي صنفان: فضائل تتعلق بالدنيا وأخرى تتعلق بالآخرة.

أولاً: فضائلها الدنيوية

وهي عديدة أهمها اثنتان:

مفتاح الخزائن الإلهية

الأولى: أنّها مفتاح الخزائن المادية والمعنوية، فبواسطتها يرتقي الإنسان إلى الكمالات في المعنويات، وينال الكثير من الخيرات والبركات في رزقه وسلامته وسلامة أهله وذريته وحسن عاقبته. ينال ذلك من يقرأ البسملة في أحواله المختلفة، ويجعلها ذكره الدائم.

يستفاد ذلك من الروايات التي وصفتها بأنّها أعظم وأكبر آية كما بيناه سابقاً، وفي رواية أبي حمزة عن أبي جعفر عليه السلام وصفها بأنّها أكرم آية في كتاب الله ^(١).

(١) تفسير العياشي: ج ١، ص ١٩، ح ٤.

معنى أكرم آية

والفرق بين الأعظم والأكبر والأكرم في اللحاظ، فإنّ الأعظم باعتبار المنزلة، والأكبر باعتبار سعة الآثار، والأكرم باعتبار عطائها ولأكرميتها معنيان:

الأول: الأكرم في الشرف والمنزلة.

والثاني: الأكرم في العطاء والنفع، وبشرفها يرتقي قارئها وسامعها شرفاً وكرماً عند الله، كما ينال عطاؤها وخيرها، وعطاؤها نوعان: مادي ومعنوي، والأول يشمل الرزق والعافية والسلامة في العقل والبدن. والثاني يشمل الفيوضات العلمية ونقاء القلب وسعادة الروح والتوفيقات، وذلك إما من باب كونها مفتاحاً للخيرات والبركات، أو لاشتغالها أو أقربيتها من الاسم الأعظم.

وقد وصف الباري عزّ وجلّ القرآن بأوصاف عظيمة، وأشار إلى خصائص خاصة به.

خصائص القرآن والبسملة المعنوية

منها: أنّه يُنزل فيه ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين، والإطلاق يشمل شفاء الروح والبدن، فكل علة وكدورة ومنغصة في حياة الإنسان بالقرآن شفاؤها، بل فيه الشفاء والرحمة، أي شفاء تتبعه العافية والسلامة، فربما المريض يشفى من المرض ولكن يفتقد العافية، وينال العافية إذا كان في الشفاء رحمة، وهذا سر كشفه الباري.

ومنها: أنّه يهدي للتي هي أقوم.

فإن الإنسان في مختلف شؤونه يبحث عن الأصوب والأفضل في القرار والمنهج، ولكن ليس بإمكانه دائماً أن يصل إلى هذه الغاية، فإذا استعان بالقرآن فإنه يهدي للتي هي أقوم، وهو إخبار عن حقيقة تكوينية واقعية، فأحياناً توجد أمام الإنسان عدة حلول كلها صحيحة ولكن لا يعرف أيها الأصح، وربما تكون كل الطرق موصلة ولكن لا يعلم الأفضل؛ لذلك قال الأقوم ولم يقل القويم، فهناك صحيح وأصح، وفاضل وأفضل، والقرآن لا يهدي للصواب والصحيح، فربما العقل يوصلك إليهما، وإنما القرآن يهدي للأصوب والأفضل، وهذه خصوصية للقرآن.

فالقرآن شفاء ورحمة للروح والعقل والقلب، وكذلك للبدن، ومن ناحية المواقف والأفكار والأعمال فإن القرآن يهدي للتي هي أقوم، وقد تلخص القرآن بكل خصائصه في سورة الحمد، وسورة الحمد تلخصت في البسملة، والبسملة هي أكرم ما في القرآن، وهي لبه وجوهره، وخصائص الشيء تجتمع في روحه ولبه وجوهره، كما قرر في الحكمة وعلوم الطبيعة وخواص الأشياء، ولذا ورد في بعض الأخبار أن قراءتها تكفي عن قراءة القرآن في مواطن الحرج والعجلة وضيق الوقت^(١).

التحصين من الأعداء

الثانية: التحصين وطرد الأعداء، ففي رواية أبي حمزة عن أبي جعفر عليه السلام قال: ﴿كان رسول الله صلى الله عليه وآله يجهر بـ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ويرفع صوته

(١) تفسير العياشي: ج ١، ص ٣٥، ح ١٤.

بها، فإذا سمع المشركون ولوا مدبرين، فأنزل الله: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾^(١) ورفع الصوت فيه تعمد، وهو أعلى من الجهر، ويستفاد منها أن للجهر ورفع الصوت بها جزء الأثر وطرده الأعداء، واستشهاد الإمام عليه السلام يشير إلى أن ﴿الْقُرْآنِ وَحْدَهُ﴾ هو البسملة، وأن بها يتم ذكر الله سبحانه الكامل التام، وهو من مصاديق الروح التي تجمع خصائص الشيء، وهو يتوافق مع الروايات التي نصت على أن الاسم الأعظم قريب منها كقرب سواد العين إلى بياضها.

وقريب من ذلك ورد في رواية ابن أذينة عن الإمام الصادق عليه السلام^(٣).

وبذلك يستفاد أن البسملة سلاح معنوي إذا اتخذ شعاراً يجهر به، وهو كفيل بإعداد المقدمات والمقومات لهزيمة الأعداء، ويعززه ما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام بأن الشيطان أنسى قومًا من المسلمين فانتزعوها من القرآن ليقودهم على نهجه، ففي رواية عيسى بن عبد الله عن أبيه عن جده عن علي عليه السلام قال: ﴿بلغه أن أناساً ينزعون﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فقال: هي آية من كتاب الله أنساهم إياها الشيطان^(٤).

ودواعي إنسائهم معلومة. وربما يراد بالشيطان شيطان الجن أو شيطان الإنس الذي ضلل الناس وخدعهم في دينهم ودنياهم، وأبعدهم عن نهج

(١) سورة الإسراء: الآية ٤٦.

(٢) تفسير العياشي: ج ١، ص ٣٤، ح ٦.

(٣) تفسير القمي: ج ١، ص ٢٨.

(٤) تفسير العياشي: ج ١، ص ٢١، ح ١٢.

الله ورسوله، وسنّ سنة انتزعها من القرآن، وقد أفتى بعضهم بعدم كونها آية من الكتاب، وبعضهم أفتى بعدم جواز الجهر بها، وبعضهم عدّها بدعة؛ لذا ورد في رواية خالد بن المختار قال: سمعت جعفر بن محمد عليه السلام يقول: ﴿ما لهم قاتلهم الله عمدوا إلى أعظم آية في كتاب الله فزعموا أنّها بدعة إذا أظهروها، وهي ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾﴾^(١).

ودعاء الإمام عليه السلام عليهم بمقاتلة الله لهم يدل على أمرين:

الأول: أنّهم بفعلهم هذا بحكم من قاتل الله وسعى لإماتة اسمه تعالى فاستحق أن يقاتله الله.

الثاني: أنّهم يستحقون الهلاك؛ لأنّ من يقاتله الله يتبرأ منه ويستحق الهلاك.

التحصن بها من السلاطين

وفي رواية المفضل عن الإمام الصادق عليه السلام تعليم للمؤمنين في الاحتجاب بالبسملة وسورة التوحيد من أذى الظالمين. قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: ﴿احتجبوا من الناس بـ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ وبـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ اقرأها عن يمينك وعن شمالك ومن بين يديك ومن خلفك ومن فوقك ومن تحتك، وإذا دخلت على سلطان جائر فاقراها حين تنظر إليه ثلاث مرات، واعقد بيدك اليسرى ثم لا تفارقها حتى تخرج من عنده﴾^(٢)، ولعلها تشير إلى أمرين:

(١) تفسير العياشي: ج ١، ص ٣٥، ح ١٦؛ البرهان: ج ١، ص ١٠٣، ح ٢٦.

(٢) الكافي: ج ٢، ص ٦٢٤، ح ٢٠؛ البحار: ج ٨٩، ص ٣٥١، ح ٢٢.

الأول: أن تحويط الإنسان نفسه بالبسملة والتوحيد يدفع الشياطين من حوله، فتجعل قلبه آمناً مطمئناً لا يمسّه خوف أو شك، فيكون أربط جأشاً واثبت في الدفاع عن نفسه، أو يطرد الشياطين من حول الأعداء فلا يهّمون بأذاه، والإطلاق يشمل الاثنين.

الثاني: أن للدخول على السلطان الجائر طريقة أخرى في التحصن بها، ولعل لعقد اليد اليسرى علاقة في التأثير على القلب؛ لأنه في الجهة اليسرى أيضاً.

ثانياً: فضائلها المعنوية

وهي كثيرة وعظيمة، نشير إلى بعض ما لم نتعرض إليه في السور السابقة.

الأولى: أنها فاتحة الفيوضات الإلهية، ففي رواية صفوان الجمال قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: ﴿ما أنزل الله من السماء كتاباً إلّا وفتحته ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ وإنما كان يعرف انقضاء السورة بنزول ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ابتداءً للآخرى^(١) وصدرها ظاهر في نزول البسملة مع جميع الكتب السماوية، وذيلها قرينة على إرادة القرآن وهو الحق لما تقدم في بحث فضائل الحمد أنّها من مختصات رسول الله صلّى الله عليه وآله وأمته، ولم ينلها أحد من الأنبياء ولا الأمم. وسيأتي في رواية عن الزمخشري في ربيع الأبرار عن النبي صلّى الله عليه وآله ما يعزز ذلك.

والثانية: رفع الدرجات ومحو السيئات، فعن بن مسعود عن رسول الله صلّى الله عليه وآله قال: ﴿من قرأ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ كتب الله له بكل حرف أربعة آلاف حسنة، ومحا عنه أربعة آلاف سيئة، ورفع له أربعة آلاف

(١) تفسير العياشي: ج ١، ص ٣٣، ح ٥.

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ٢٤٩

درجة^(١) ومجموع حروفها تسعة عشر حرفاً، ولو ضرب العدد في أربعة آلاف بلغ ستة وسبعين ألف حسنة، ومُحِيت عنه ما يعادلها من السيئات، وارتفعت له بهذا القدر الدرجات.

والتعبير يفيد بلوغ العبد أسمى الدرجات ونجاته من الحساب وضمان دخول الجنة، ولذا ورد في رواية أخرى لابن مسعود عن رسول الله ﷺ قال: ﴿من أراد أن ينجيهِ الله تعالى من الزبانية التسعة عشر فليقرأ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ فإنّها تسعة عشر حرفاً ليُجعل الله كل حرف منها جنة عن واحد منهم^(٢) ومعنى ذلك أنّه مضمون النجاة من النار.

وعن ربيع الأبرار عن النبي المصطفى ﷺ قال: ﴿لا يرد دعاء أوله ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ فإنّ أمتي يأتون يوم القيامة وهو يقولون: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ فتثقل حسناتهم في الميزان، فتقول الأمم: ما أرجح موازين أمة محمد ﷺ، فتقول الأنبياء: إنّ ابتداء كلامهم ثلاثة أسماء من أسماء الله تعالى لو وضعت في كفة الميزان ووضعت سيئات الخلق في كفة أخرى لرجحت حسناتهم^(٣) والأسماء الثلاثة هي الله والرحمن والرحيم، وهي من أشرف أسماؤه التي لا يصدر منها إلّا العفو والرضا والكرم؛ لذا لا تؤثر معها السيئات؛ لأنّ أثر السيئات العقوبة والانتقام، وهي لا تناسب لفظ

(١) جامع الأخبار: ص ١٢٠، ح ٢١٦؛ البحار: ج ٨٩، ص ٢٥٨، ح ٥٢؛ البرهان: ج ١، ص ١٠٣، ح ٢٩.

(٢) جامع الأخبار: ص ١١٩ - ١٢٠، ح ٢١٥؛ البرهان: ج ١، ص ٩٩، ح ٢٤٩.

(٣) ربيع الأبرار: ج ١، ص ٤٤٩، ح ٤؛ البرهان: ج ١، ص ١٠٤، ح ٣٤.

الجلالة الجامع لصفات الجمال والجلال المختص بالرحمة المطلقة. فما يفعل الله بعذاب الخلق؟ إنه لا يريد تعذيبهم، ولولا حاجة المؤمنين إلى التطهير من الذنوب والقبائح لما عذب أحداً، فإنه كله رحمة وخير، وفي الآخرة سيرحم عباده حتى إبليس ظن بأن الله سيغفر له^(١)، فيجب أن يعلم الإنسان أنه عبد لرب خالق غني رحيم كريم. خلق الإنسان ليسعده لا ليعذبه، ويكمله لا ليحرقه بالنار.

وما طلب من الإنسان شيئاً إلا لأجل كماله وسعادته، فما يستفيد الله من صيام العبد وصلاته؟ إنه غني عن الخلائق إلا أن الإنسان لا يكتمل إلا بالصلاة والصوم والطاعات، وفي الآخرة سيعرف كم للكمال من فوائد وآثار، وسيعرف في الآخرة أثر النقص الذي يتصف به إذا لا يعالجه بالطاعات.

فهذه الأسماء المباركة إذا وضعت في كفة الميزان تمحو السيئات. وهذه فضيلة خاصة بأمة رسول الله كرامة لرسول الله وأهل بيته عليهم السلام.

أثر البسملة على الصراط

ولا يختص هذا الأثر العظيم في مشهد الميزان والحساب، بل حتى في الجواز على الصراط الذي هو من أصعب المشاهد، وهو أدق من حدّ السيف، والذي تزلّ قدمه عليه يهوي إلى النار، فإنّ البسملة أمان وضمان لأهلها فيه، فقد ورد عن النبي المصطفى صلى الله عليه وآله: ﴿إِذَا مَرَّ الْمُؤْمِنُ عَلَى الصَّرَاطِ فَيَقُولُ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ أَطْفَأَ لَهَبَ النَّارِ، وَتَقُولُ: جَزِيََا مُؤْمِنٌ

(١) انظر التسهيل لعلوم التنزيل: ج ١، ص ٣٠٤؛ تفسير ابن عجيبة: ج ٢، ص ٢٦٧.

فإنَّ نورك قد أطفأ لهبي^(١) ومنطوقها يشير إلى دلائل:

أحدها: أنَّ المؤمن لا يقول البسملة على الصراط إلَّا إذا كان متعوداً على ذكرها في الدنيا حتى صارت من ملكاته النفسية، ولو لم يكن كذلك فإنَّ العادة بل القاعدة قاضية بأنَّ مهاول الصراط ومشاهد القيامة تنسيه نفسه، فلو لم يكن متطعاً على ذكر البسملة فإنَّه سيغفل عنها. وهنا تظهر أهمية تربية الإنسان لنفسه في الدين وتعويدها على ذكر البسملة في كل شؤونه حتى تلازمه في الآخرة.

ثانيها: أنَّ للمؤمن نوراً في الآخرة إلَّا أنَّه بذكر البسملة يزداد نوره حتى يطغى على لهب النار، وهكذا البسملة في الدنيا؛ لذا تطرد عنه الأعداء، وتفيض عليه الخيرات والبركات، ومن مصاديق ذلك أنَّها تنير له الطريق، وتهديه إلى أفضل مصالحه.

ثالثها: أنَّ نار جهنم إمَّا سوداء مظلمة؛ لذا تخاطب المؤمن وتقول: ﴿نورك أطفأ لهبي﴾ وإمَّا أنَّ نور المؤمن يطغى على ضوء النار حتى يظهر ذلك على النار، وفي مخاطبة النار للمؤمن شاهد على أنَّها حية تدرك وتنطق، وأنها تفتخر بمرور المؤمن وتعز به؛ لذا تخاطبه وتشيد بنوره.

الثالثة: الشفاعة، وهذا فضل خاص يناله المعلمون والمتعلمون، فقد ورد عن النبي المصطفى ﷺ: ﴿إذا قال المعلم للصبي قل: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ فقال الصبي: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ كتب الله براءة للصبي

(١) جامع الأخبار: ص ١٢٠، ح ٢١٩؛ البرهان: ج ١، ص ١٠٤، ح ٣١.

وبراءة لأبويه وبراءة للمعلم^(١) والمقصود البراءة من النار، وفي ذلك تتضح عدة حقائق:

أثر التعليم المعنوي

أحدها: أنّ للتعليم المعنوي الأثر الكبير في علو الدرجات ونيل السعادات الأخروية وضمان النجاة من النار، وأنّ هذا الأثر لمجرد القول، فلو علمه كتابة البسملة والدوام عليها في كل أقواله وكتابات وأفعاله فإنّ الضمان يكون أشد، ولعل مناسبة الحكم والموضوع تقتضي أن يراد من التعليم ما يكون له سنّة متبعة لا مرة واحدة يقولها.

ثانيها: أنّ هذا الأثر لا يختص بالمعلم والصبي، بل يشمل الأبوين أيضاً؛ لأنّ لأفعال الأبناء أثراً على الآباء في المنافع والمضار، وكذلك العكس، وإطلاق الحديث يشمل كل معلّم فلا يختص بمعلم الحساب أو القراءة أو علوم الحياة الأخرى، كما يشمل كل من يسعى لتعليم الغير في أي موقع ومكان كان في مدرسة أو في غيرها.

وهنا يجب أن تعرف الأمهات والآباء مكانتهم، وأنّ تربية الأولاد وتعليمهم أمور الدين وذكر الله كم لهم فيه من الأجر، وبه يضمنون النجاة في الآخرة، وفيه تنبيه لهم في أن يختاروا لأولادهم المعلم الصالح الذي يعلمهم ما ينفع دينهم ودنياهم، لا المعلم الذي يعلمهم ما يخالف ذلك لاسيما في مناهج التعليم المبنية على المغالطات والأخطاء والمجاملات السياسية.

(١) جامع الخبر: ص ١١٩، ح ٢١٤؛ البرهان: ج ١، ص ١٠٤، ح ٣٢.

ثالثها: أنّ هذا الجزاء لطفي تفضلي للمؤمن، وهو من التكريم للبسملة، ولذا لا يلحظ فيه مستوى المعلم والمتعلم ونوع أعمالهما.

كرامة الجنة

الرابعة: التكريم في الجنة، فقد ورد عن النبي ﷺ قال: ﴿من قرأ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ بنى الله له في الجنة سبعين ألف قصر من ياقوتة حمراء، في كل قصر سبعون ألف بيت من لؤلؤة بيضاء، في كل بيت سبعون ألف سرير من زبرجدة خضراء، فوق كل سرير سبعون ألف فراش من سندس واستبرق، وعليه زوجة من حور العين، ولها سبعون ألف ذؤابة مكللة بالدرّ والياقوت، مكتوب على خدّها الأيمن محمد رسول الله، وعلى خدّها الأيسر علي ولي الله، وعلى جبينها الحسن، وعلى ذقنها الحسين، وعلى شفتيها ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ قلت: يا رسول الله لمن هذه الكرامة؟ قال: لمن يقول بالحرمة والتعظيم ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾^(١) ولدرك معنى هذه الرواية لا بد من الإلفات إلى أمور:

الأول: أنّ هذا الجزاء المذكور هو من التكريم الإلهي للعبد، فهو تفضلي لا استحقاق، وبه يندفع استغراب البعض.

عطايا لا تدركها العقول

الثاني: أنّ بعض هذه العطايا مما لا تدركها العقول، ولعله من موارد ما ورد عنهم ﴿فيها ما لا يخطر على قلب بشر﴾^(٢) لكن الذي ندركه أن موازين

(١) جامع الأخبار: ص ١٢٠، ح ٢١٧؛ البرهان: ج ١، ص ١٠٤، ح ٣٠.

(٢) انظر سند زيد بن علي عليه السلام: ص ٤٩٢؛ صحيح البخاري: ج ٤، ص ٨٦.

عالم الآخرة لا تقاس بموازين عالم الدنيا، فإنّ الدنيا دار محدودة في كل شيء، بخلاف الآخرة فإنّها لا محدودة، فالحياة فيها دائمة لا محدودة واللذات كذلك، والعطايا والكرم كله لا محدود، فالذين يقارنون موازين الآخرة بموازين الدنيا يستغربون من مثل هذه الروايات، ولربما تعجلوا فأنكروها لقصورهم عن دركها، وهذا غير صحيح، فمثلهم مثل طالب الابتدائية إذا أنكر الحقائق العلمية التي يتحدث بها الكيميائي والفيزيائي، ولو أراد الكيميائي أن يشرح له تفاصيل العناصر ومكوناتها وتركيباتها استنكره واستغربه.

مقام فاطمة عليها السلام

الثالث: أنّ الأدلة متضافرة في الآخرة على أنّ لفاطمة عليها السلام المقام العظيم، والسؤال أنّ وجودها لا يفارق وجود النبي والولي وولديها عليهم السلام، فلماذا هنا لم يذكر اسمها؟ لعل البسملة التي تكتب على شفة الحورية هي كناية عن فاطمة عليها السلام، ولعل هذا أحد معاني الفطم الذي وردت به الأخبار بأنّها تفطم شيعتها ومحبيها من النار^(١)، ومعنى ذلك أنّ الذي يواظب على ذكر فاطمة ويلهج باسمها حتى يصير ملكة له يكون هذا جزاؤه في الجنة.

الرابع: أنّ هذا الجزاء التكريمي لا يكون لكل من قرأ البسملة أو ذكر فاطمة عليها السلام، بل من قال ذلك بشرطين:

أحدهما: أن يقولها بمعرفة حرمتها وكرامتها.

(١) علل الشرائع: ج ١، ص ١٧٩، ح ٥؛ البحار: ج ٤٣، ص ١٥، ح ١٢.

وثانيهما: أن يقولها بداعي تعظيمها. والفرق بين الشرطين أن الأول يتعلق بالاعتقاد، والثاني بالنية.

سر لأهل البصيرة

وبذلك تنفتح أسرار لأهل البصيرة في أن البسملة قريبة من الاسم الأعظم؛ لأنها تتضمن اسم فاطمة، وأن رضا الله رضاها. يرضى الله لرضاها ويغضب لغضبها^(١)، وأن من ذكر فاطمة فقد ذكر الله، ومن أطاعها فقد أطاع الله. كما يتضح من ذلك أحد معاني قولهم ﴿على معرفتها دارت القرون الأولى﴾^(٢) وقد يراد بالقرون الأولى عوالم ما قبل الدنيا. هذا وقد وردت فضائل وآثار كثيرة للبسملة نكتفي منها بما ذكرناه^(٣).

(١) الاحتجاج: ج ٢، ص ١٠٣؛ مؤتمر علماء بغداد: ص ١٨٧.

(٢) البحار: ج ٤٣، ص ١٠٥، ح ١٩.

(٣) الكبريت الأحمر: ج ١، ص ٧٠-٧٦.

المبحث الثاني: في مفردات البسملة ودلائلها



وقد مرّ البحث في المفردات في تفسير سورتي ياسين والقدر، ونبحث هنا بعض دلائلها في ضمن أمور:

الأمر الأول: أنّ الابتداء في كل أمر يكون باسم الله تعالى لغرض الاستعانة والتبرّك والتوفيق لإنجاز العمل والدوام عليه. هذه المداليل تفيدها (الباء) والملفت أنّ ذلك كله يتم باسم الله تعالى لا بالله، فلم تقل (أستعين بالله) أو (أبتدئ بالله) مع أنّ المؤثر الحقيقي هو الله تبارك وتعالى، فهو خالق العالم وإلهه، وهو الحاكم فيه، فلماذا لا يكون الابتداء والاستعانة والتبرّك به أيضاً؟

لماذا الاستعانة بالاسم؟

والإجابة عن هذا السؤال العميق يمكن أن تتم من وجوه عديدة نشير إلى وجهين:

الوجه الأول: أنّ الابتداء والاستعانة والاستمداد يبدأ من العبد فهو الذي يطلب ذلك، فالبسملة تبدأ من العبد وهو قاصر محدود فقير، فإذا أراد أن يتصل بمن هو لا محدود وله قدرة مطلقة وفيض مطلق وغنى كذلك، فهو مستحيل للقصور الذاتي، فحتى يتم الاتصال وتحقق الإفاضة والإعانة لا بد من وجود واسطة، ومن دونها فالاتصال محال.

وبيان ذلك: أن الله سبحانه في ذاته وصفاته لا محدود، ولا يمكن أن يدركه المحدود، ولا يمكن أن يتصل به؛ لأنّه غيب مطلق لا يحيطه عقل ولا حس، وشرط الاتصال المباشر المسانخة أو المشاكلة، فلذا جعل أولياءه واسطة الاتصال بينه وبين خلقه، وجعل الملائكة واسطة الاتصال بينه وبين أوليائه، كما جعل القلب والعقل بقدراتهما الروحية واسطة الدرك والمعرفة لوجود التناسب، وكل ذلك يجمعها جامع واحد وهو اسم الله سبحانه.

وهذا الاسم يتم التواصل بين الخالق والمخلوق، فلذا لا يمكن أن يكون الابتداء بالله؛ لأنّه محال لاستلزامه إمّا محدودية الخالق أو لا محدودية المخلوق، وحيث إنّ ذلك محال كان الابتداء به محال.

فيتعين أن يكون الابتداء باسمه تعالى؛ لأنّه محدود بحدود درك الإنسان وقدرته. ومثاله بالمحسوس الصور والأصوات المبتوثة في الفضاء، وهي كثيرة جداً، ولكن الأسماع العادية والأبصار لا تستطيع أن تسمعها وتبصرها لقصور في السمع والبصر، وعدم السمع والبصر لا يعني أنّ الصور والأصوات غير موجودة، ولكن قابلية الاستماع والبصر غير موجودة، وهذه القابلية تتحقق إذا توفرت واسطة لها، والتي يعبر عنها بأجهزة الاستقبال، كما يلحظ في القنوات الفضائية وأجهزة النقل لدى إرسال رسالة على رقم خاص فإنّها تنتقل إلى ذاك الجهاز بلاقط وأشباه هذا حسب قانون الإرسال والاستقبال، فحتى يتصل المحدود باللامحدود لا يعقل أن يتم الاتصال بالمباشرة؛ لعدم وجود قابلية في المحدود، فلا بد من واسطة تستقبل من اللامحدود وتعطي للمحدود.

لماذا الدعاء باسم الله تعالى؟

وهنا نتجلى حقيقة معرفية هامة نلفت إليها وهي:

أن المعرفة والعبادة والمحبة تكون لله مباشرة، فيقال: (معرفة الله) و: (عبادة الله) و: (حب الله) لأن ذلك كله يعود إلى الذات ومعرفة كمالاتها وجلالاتها، والانقياد يكون لها، وأمّا الدعاء والابتداء والاستعانة تكون باسم الله؛ لأن المعرفة لا تتوقف على الوساطة.

أمّا التواصل والاستمداد فيفتقر إلى الوساطة، ومن باب المثال الحسي المقرّب الطالب الذي يحبه معلمه ويعرفه، وهذا لا يحتاج إلى واسطة؛ لأنّ الحب والمعرفة قضية قلبية تتعلق بشخصه، ولكن إذا أراد الطالب أن يتعلم من المعلم فلا يكفي مجرد المحبة والمعرفة، بل لا بد من واسطة للتعلم وهي وسائل التعليم، وذات القضية تقال في محبة النبي وأهل بيته عليهم السلام فإنّها واجبة عيناً لا تحتاج إلى واسطة، ولكن اتباعهم وتولّيهم يحتاج إلى واسطة حتى تتحقق المتابعة والمشايعة، والواسطة هي الاقتداء، ولذا وردت الآيات في تسبيحه وذكره باسم الله تعالى، كقوله سبحانه: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ﴾^(١) فالتسبيح للاسم لا للذات؛ لأنّ الذات منزّهة عن كل نقص، أمّا الاسم الذي هو وسيلة الاتصال لا بد من تنزيهه عن نواقص الأفعال بوصفه بالعدل والحكمة والرحمة، وتجريده من مصادقاتها، والفعل الإلهي منزّه عن النواقص والخلل، لكن عقيدة العبد يجب أن تنزهه من الأوهام والشكوك

(١) سورة الأعلى: الآية ١.

٢٦٠ مايقوله القرآن في سورة الحمد

التي تتهمه بمخالفة ذلك. وقوله سبحانه: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾^(١) لأن معرفة القراءة لا تكون للذات، بل باسمه وبواسطته يتعلم البشر البيان والقراءة: ﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾^(٢) فمن جهة رحمته وباسمه الرحمن تم الخلق والتعليم.

وقوله سبحانه: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ﴾^(٣) لأنه منشأ الخيرات والفيوضات. والخلاصة: أن حبل الوصال بين الخالق والمخلوق ليس الذات؛ لأنه محال للقصور في القابل وإنما الاسم، وحيث إن البسملة تتضمن الابتداء والاستعانة وجب أن يكون الابتداء بالاسم لا بالذات.

أنواع الاسم

الوجه الثاني: أن الاسم كل ما يدل على المسمى^(٤)، ويشمل الاسم اللفظي والوصفي والعيني، فإن ما يدل على الذات قد يكون اسم العلم، مثل: (علي) على أمير المؤمنين عليه السلام، وقد تكون الصفة كالعدل والحق والخليفة فإنه حينها تقال هذه الأوصاف يتبادر إلى الأذهان أمير المؤمنين عليه السلام، وقد يدل عليه الوجود الخارجي، فإن وحدة الشمائل تدل على الشيء، كما قال سيد الشهداء عليه السلام في ولده علي الأكبر عليه السلام: ﴿كان أشبه الناس خلقاً وخلقاً

(١) سورة العلق: الآية ١.

(٢) سورة الرحمن: الآيات ١ - ٤.

(٣) سورة الرحمن: الآية ٧٨.

(٤) انظر معجم الفروق اللغوية، ص ٥١، (١٨٥).

ومنطقاً برسول الله، وكنا إذا اشتقنا إلى رؤية رسول الله نظرنا إليه^(١).

علي الأكبر ورسول الله ﷺ

وبهذا المعنى يكون علي الأكبر ﷺ بوجوده الخارجي اسماً لرسول الله؛ لأنّه علامة دالة عليه. والاسم في اللغة هو السمة أي العلامة، كما أنّ وجود أمير المؤمنين ﷺ في صفاته وأفعاله هو وجود رسول الله ﷺ.

هذا ما كان بين أولياء الله، والله تعالى بذلك أسماء تدل عليه، وكل ما في الوجود الإمكانى بوجوده وآثاره هو اسم من أسمائه تعالى، لأنّه من آياته الدالة عليه، وأشرف الأسماء وأكثرها دلالة هم محمد وآل محمد ﷺ؛ لذا وصفوا بالأسماء الحسنی^(٢)، وأمر الناس أن يدعوا الله تعالى بأسمائه كما تضافر في الأدلة النقلية ودلت عليه البراهين العقلية، كما تضافرت على أنّهم الوسطة بين الله وبين خلقه، لأنّهم مظهر إرادة الله وعلمه وقدرته.

الاستعانة بالله وبآل محمد ﷺ

وعلى هذا المعنى يكون معنى (باسم الله) بمحمد وآل محمد أستعين بالله وأبتدئ عملي وقولي؛ لأنّهم واسطة التأثير وطريق الارتباط بالله عزّ وجلّ، وهذا ما يقضي به العقل، فإنّّه إذا استحال الاتصال بالذات الإلهية وجب الاتصال بما ينوب عنها ويستخلفها في الأرض وهم الأنبياء والأولياء،

(١) انظر مقتل الحسين (لأبي مخنف): ص ١٦٢؛ البحار: ج ٤٥، ص ٤٣.

(٢) تفسير العياشي: ج ٢، ص ٤٢، ح ١١٩؛ الكافي: ج ١، ص ١٤٣ - ١٤٤، ح ٤؛ البحار: ج ٩١، ص ٦، ح ٧.

وسادتهم محمد وآل محمد عليهم السلام. فهم الواسطة بين الخالق والمخلوق، ولا يتم اتصال وتقرب وإمداد من الله سبحانه إلا بواسطتهم.

وقد وردت نصوص كثيرة جداً شاهدة على ذلك أكتفي بشاهدين:

أحدهما: ما ورد في زيارة أمير المؤمنين عليه السلام المروية بإسناد معتبر عن الإمام الهادي عليه السلام يبين فيه موقعية أمير المؤمنين عليه السلام في العقيدة، وجهة تمثيله لصراط الله ولرسوله. يقول: ﴿أشهد يا أمير المؤمنين أنّ الشاك فيك ما آمن بالرسول الأمين، وأنّ العادل بك غيرك عادل عن الدين القويم الذي ارتضاه لنا رب العالمين، وأكمّله بولايتك يوم الغدير، وأشهد أنّك المعني بقول العزيز الرحيم: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾^(١) ضلّ والله وأضلّ من اتبع سواك، وعند عن الحق من عاداك^(٢) .

ومنه يتضح أنّ من أراد الله واتباع سبيله لا بد وأن يتبع علياً عليه السلام، ويعقد قلبه على ذلك.

ثانيهما: في زيارته المخصوصة يوم ميلاد النبي صلّى الله عليه وآله المروية عن الإمام الصادق عليه السلام الواردة عن محمد بن مسلم. ورد فيها: ﴿السلام على اسم الله الرضي ووجهه المضيء وجنبه القوي وصراطه السوي﴾ و: ﴿السلام عليك يا عين الله الناضرة ويده الباسطة، ولسانه المعبر عنه في بريته أجمعين﴾^(٣) ، فهو

(١) سورة الأنعام: الآية ١٥٣.

(٢) المزار (لابن المشهدي): ص ٢٦٦.

(٣) انظر المزار (للشهيد الأول): ص ٩٤ - ٩٥؛ إقبال الأعمال: ج ٣، ص ١٣٣.

صلوات الله عليه بوجوده العيني اسم الله وعينه وجنبه؛ لأنه علامة دالة على الله عز وجل، ووساطته في الخلق وساطة الاسم.

معنى الاسم وعبادته

الأمر الثاني: للاسم معانٍ كثيرة وردت في اصطلاحات العلماء، وليست جميعها تناسب الباري عز وجل. عمدتها اسمان:

الأول: الاسم اللفظي، وهو اللفظ الموضوع للدلالة على الشيء، وهذا هو الشائع في الاستعمالات العرفية، ويتميز بأنه له وضع وواضع ومعنى موضوع له ومناسبة بين اللفظ والمعنى، ولا بد وأن تكون الألفاظ سابقة على المعاني يحيط بها الواضع فيضعها للمعاني، كما أن الاسم بهذا المعنى يجب أن يغاير المسمى، ويعرف ذلك من وضع الأسماء للأبناء وأسماء الأدوية والأطعمة ونحوها، ومثل هذا الاسم لا يصح إطلاقه على الباري عز وجل لاستلزامه المحال، وإليه أشارت الروايات الكثيرة.

ففي رواية هشام بن الحكم أنه سأل الإمام الصادق عليه السلام عن أسماء الله تعالى واشتقاقها والعبادة الصحيحة لله تعالى، فقال عليه السلام: ﴿الاسم غير المسمى، فمن عبد الاسم دون المعنى فقد كفر ولم يعبد شيئاً، ومن عبد الاسم والمعنى فقد أشرك وعبد اثنين، ومن عبد المعنى دون الاسم فذاك التوحيد. أفهمتم يا هشام؟﴾. قال: قلت: زدني. قال: ﴿الله تسعة وتسعون اسماً، فلو كان الاسم هو المسمى لكان كل اسم منها إلهاً، ولكن الله معنى يُدل عليه بهذه الأسماء وكلها غيره، يا هشام! الخبز اسم للمأكول، والماء

اسم للمشروب، والثوب اسم للملبوس، والنار اسم للمحرق^(١) وهذا من باب تشبيه غير المحسوس بالمحسوس، فإنّ الذي يشبع الجائع ويروي العطاش ويكسي العريان ويحرق الأجسام هو ذات الخبز والماء والثوب والنار لا أسماؤها؛ لأنّ الأسماء مجرد ألفاظ وضعت للدلالة عليها في مقام التفاهم، أمّا الفعل والتأثير للحقائق والذوات، وهكذا أسماء الله تعالى في رتبة الوضع اللفظي فإنّها وضعت للدلالة على الذات، والذات هي منشأ الأثر، وهي الكاملة التي تستحق المعرفة والعبادة، فالذي يعبد الذات فقد اهتدى للحق، والذي يعبد الاسم وحده فقد كفر بالذات، والذي يعبد الاسم مع الذات جعل للاسم تأثيراً واستحقاقاً للعبادة وقد أشرك، فليس الاسم بهذا المعنى إلّا دليلاً للمعنى وطريقاً إليه.

وفي رواية ابن رئاب عن الإمام الصادق عليه السلام قال: ﴿ومن عبد الاسم دون المعنى فقد كفر، ومن عبد الاسم والمعنى فقد أشرك، ومن عبد المعنى بإيقاع الأسماء عليه بصفاته التي وصف بها نفسه فعقد عليه قلبه ونطق به لسانه في سرائره وعلايته فأولئك أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام حقاً^(٢) وتضمنت دلائل:

الأولى: أن عبادة الاسم اللفظي ليس بإيمان ولا طاعة بل كفر، وأنّ العبادة الحقيقية تكون للمعنى.

(١) الكافي: ج ١، ص ١١٤، ح ٢؛ التوحيد: ص ٢٢١، ح ١٣.

(٢) الكافي: ج ١، ص ٨٧، ح ١؛ البحار: ج ٥٤، ص ١٧٩، ح ١٣٦.

حقيقة الإيمان

الثانية: أن الإيمان الكامل يتم بعقد القلب على هذه الحقيقة وإظهارها والنطق بها في السر والعلن، فلو لم يعقد قلبه على ذلك وأظهرها باللسان فقط لم يبلغ مقام الصحبة لأمر المؤمنين عليهم السلام، وفيه دلالة على أن الصحبة ليست بالمعاشرة والمعايشة بالبدن، بل بالاتباع في الاعتقاد، فلذا من لم يعايش أمر المؤمنين عليهم السلام وجاء بعده بقرون يحمل هذه العقيدة يكون من أصحابه، ومن كان معه ولا يحمل هذه العقيدة فليس من أصحابه.

وربما يكون من يظهر ذلك بلسانه ولا يعقد قلبه عليها من المؤمنين لكنه لا يبلغ مقام الصحبة الحقة المرتضاة لديهم عليهم السلام، وهذا المعنى يعين وظيفة على المؤمنين في المعرفة وعقد القلب.

الثالثة: أن الأسماء تشتق من الصفات وتنسب إلى الذات للدلالة عليها، لا لبيان أنها تملك التأثير والفعل، ويعززه ما ورد عن أبي جعفر عليه السلام: ﴿أن الأسماء صفات وصف بها نفسه﴾^(١).

وعن الإمام الصادق عليه السلام: ﴿والله يسمى بأسمائه وهو غير أسمائه والأسماء غيره﴾^(٢).

مراتب المعنى

ولا يخفى أن المعنى له ثلاث مراتب من الوجود هي: الوجود اللفظي ومحله اللسان وقد عرفت أنه غير المسمى، ووجود علمي ومحله الأذهان،

(١) الكافي: ج ١، ص ٨٧ - ٨٨، ح ٣؛ تفسير نور الثقلين: ج ١، ص ٣٩، ح ٤١.

(٢) الكافي: ج ١، ص ١١٣ - ١١٤، ح ٤.

وهو الصورة الذهنية التي تحصل للمعنى في الذهن، ويعبر عنها بالعلم؛ لأن العلم الاكتسابي يتقوم بحصول صور المعاني في الأذهان، وهذه الصورة ليست هي منشأ الأثر؛ لوضوح أنها مجردة عن الآثار، والذي هو منشأ الأثر الوجود الخارجي، فحينما نقول نار فإن لهذه الحقيقة وجوداً لفظياً مكوناً من حروف ثلاثة يتلفظها اللسان، وبالتلفظ بها تحصل صورة ذهنية يمكن أن نصفها بأنها لها حرارة ومضيئة وتحرق الأشياء، إلا أن الضوء الحقيقي والإحراق ليس للصورة الذهنية، فلو كانت الآثار للصورة الذهنية للزم احتراق الذهن بها والحال ليس كذلك، والوجدان يشهد بأن الوجود الخارجي للنار هو منشأ الإحراق والإضاءة. وحينما نقول بأن النار خيفة وهي حارقة لا يراد بها النار اللفظية ولا الذهنية بل الخارجية الواقعية.

مراتب أسماء الله تعالى

وهكذا في أسماء الله تعالى، فإن لها ثلاث مراتب: مرتبة الوجود اللفظي، ومرتبة المفهوم الذهني، ومرتبة المصداق الخارجي، والعبادة لا يمكن أن تكون للأول لأنه فكر، ولا للثاني لذات السبب، وإنما للمرتبة الثالثة لأنها حقيقة المعبود ومنشأ الأثر، أما اللفظ والمفهوم فهما دالان عليها، فالذي يعبد الله تعالى ويعقد قلبه على هذه الحقيقة ويظهرها بلسانه في سره وعلايته يكون من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام حقاً.

حقيقة الاسم الأعظم

وبذلك يظهر بطلان من يتصور أن الاسم الأعظم لفظي ومكوّن من حروف فقط.

الثاني: الاسم العيني، ويراد به الذات الإلهية المتصفة بصفات الجمالية

والجلالية؛ فالمجموع المكون من الذات والصفة يعبر عنه بالاسم.
وبيان ذلك: أنّ الأسماء الإلهية كقولهم العالم والقادر ينحل لغوياً ومنطقياً إلى أمرين هما: الذات المتصفة بالعلم والقدرة، فالذات والصفة متغايران في المفهوم لكنهما متحدان في المصداق، وإذا أطلق اللفظ على الذات الإلهية باعتبار اتصافها بالصفة يقال للمجموع اسم؛ لأنه دال على الذات بجمالها وجلالها، ومن هنا يقال العالم اسم والعلم صفة والقادر اسم والقدرة صفة وهكذا.

وفي رواية ابن سنان قال: سألت أبا الحسن الرضا عليه السلام عن الاسم ما هو؟ فقال: «صفة لموصوف» ^(١) أي صفة باعتبار انتسابها لموصوفها لا مجردة عنه، ومنه تتضح حقيقتان:

التسبيح بالاسم العيني

الأولى: أن التسبيح والذكر والاستعانة والابتداء تكون بالاسم لا بالصفة؛ لأنّ الصفة وحدها دون الذات مفهوم مجرد، والذات وحدها مجردة عن الصفة مفهوم مجرد، والمجموع بينهما هو الحقيقة الواقعية التي إليها تعود الآثار والخيرات، ولذا لم يرد في النصوص التعبير عنه سبحانه بها فيقال (الله قدرة) بل قدير وقادر، ولا يقال (الله علم) بل عليم وعالم وهكذا، وقد نسب لنفسه تعالى الأسماء الحسنى وأمر بأن ندعوه بها، فقال

(١) الكافي: ج ١، ص ١١٣، ح ٣؛ معاني الأخبار: ص ٢، ح ١.

تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾^(١) لأن الاسم بهذا المعنى هو الحقيقة العينية التي إليها يعود التأثير.

آثار حروف الاسم

الثانية: أن الاسم الأعظم الذي هو منشأ الآثار ليس هو الاسم اللفظي المكون من حروف مقطعة، ولا الأوصاف بما هي مفاهيم مجردة، بل الذات المتحيثة بالصفة الخاصة، وقد نصت الأخبار على أن كل حرف من حروف الأبجد هي اسم من أسمائه بهذا اللحاظ؛ لأن كل حرف في اللغة يحدث ثلاثة آثار.

الأول: إفادة شيء من المعنى.

والثاني: الارتباط بغيره وإظهار المعنى مركباً من مجموعة الحروف.

الثالث: التأثير الدلالي في عقل السامع وروحه، وهذه كلها أفعال تأثيرية، وبهذا اللحاظ يكون منشأ للأثر كما أن أسماء الله تعالى منشأ للأثر.

هل للحروف معنى؟

إن قلت: لكن أهل اللغة يقولون الحروف لا معنى لها بمفردها، والمعنى يستفاد من اجتماعها بغيرها، فمثلاً: (ع) لا معنى له، و (اللام) و (الألف) المقصورة) وحدهما كذلك، ولكن إذا اجتمعت الثلاثة صارت (على) وأفادت معنى العلو، وهكذا (من) و(في) و(إلى) كل حرف فيها لا معنى له، ولكن إذا اجتمعت أفادت معنى.

(١) سورة الأعراف: الآية ١٨٠.

فالجواب: نقضاً بمثل (ع) و(ق) و(ف) فإنّها حروف، وإذا وردت للأمر أفادت معنى، فالأول الأمر بالوعي، والثاني الأمر بالوقاية، والثالث الأمر بالوفاء، ومن الثابت في علم الجفر أن للحروف معاني وأرقاماً ودلائل، وكذا الحروف المقطعة في أوائل السور، بل عن الإمام الصادق عليه السلام: ﴿إن آه اسم من أسماء الله عز وجل، فمن قال: آه فقد استغاث بالله تبارك وتعالى﴾^(١) والآه ليست حرفاً بل صوتاً كاشفاً عن معنى.

ومحلول من وجهين:

أحدهما: أن الحروف لها معاني، وكل حرف منها له دلالة خاصة به بدليل أنه بالانضمام إلى غيره يفيد معنى كاملاً، ولو كان فاقداً للدلالة لما دل على المعنى بالانضمام؛ لأنّ فاقداً الشيء لا يعطيه.

والحاصل: أن الحرف له معنى وليس فاقداً له، ولكن لا يظهر معناه إلاّ باجتماعه بغيره؛ لقصور عقل الإنسان عن درك معناه لوحده، نظير التركيب المادي في الأشياء، فإنّ الماء مثلاً مركب من هيدروجين وأوكسجين، ولكل واحد منهما لا يظهر للعيان ولا تراه العين ولا تلمسه اليد، ولكن إذا انضما لبعضهما ظهر أثر كل منهما في الماء، والذبذبات الصوتية والضوئية وأمثالها موجودة في الفضاء ولكن لا يظهر لها أثر إلاّ إذا توفر المحل القابل للظهور، فبالانضمام إلى المحل القابل تظهر فتصبح صورة أو صوتاً ينعكس في جهاز الجوال، وهكذا الحروف.

(١) التوحيد: ص ٢١٩، ح ١٠؛ تفسير عقود المرجان: ج ١، ص ٣٢.

وفي هذا تعليم مهم لبني آدم أن أذهانهم قاصرة عن درك أبسط الأشياء لديهم، فلا بد من تركيب حتى يدركوا، فلا ينبغي أن يتعجلوا في إنكار ما لا يعرفونه أو لا يدركونه.

دلالة الحروف على الصفات

ثانيهما: أن النص الوارد عن المعصوم عليه السلام أخبر عن وجود معنى لكل حرف في غاية العظمة والجلالة، وهذا الإخبار عمن هندس الوجود وأوجده، وأبدع اللغات وعلمها، فلا تملك العقول إلا الإذعان له والتسليم لقوله والسعي لتفهم قوله والتعلم منه.

ففي التوحيد بإسناده عن الإمام الرضا عليه السلام: ﴿إن أول ما خلق الله عز وجل ليعرف به خلقه الكتابة حروف المعجم إلى أن قال: ولقد حدثني أبي عن أبيه عن جده عن أمير المؤمنين عليه السلام في (أ، ب، ت، ث) أنه قال: الألف آلاء الله...﴾ إلى آخره ^(١)، وهي ظاهرة في أن أول ما خلق الله حروف المعجم، والمراد بأول ما خلق في اللغات والألسنة لا أصل الخلق، وتعززه الشواهد النقلية الكثيرة:

الأول: قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ ^(٢) فبعد خلق الإنسان علمه البيان.

الثاني: الآيات الكثيرة التي نصت على أنه يوجد الأشياء بقوله: ﴿كُنْ

(١) التوحيد: ص ٢٣٣، ح ١، تفسير حروف المعجم.

(٢) سورة الرحمن: الآيات ١ - ٤.

﴿فَيَكُونُ﴾^(١) ، وظاهر القول التكوين من الحروف وهو الأصل فيه .

الثالث: ما دل على اللوح والقلم، وأن الله تعالى يدوّن في اللوح المقدرات بواسطة القلم^(٢) .

وهنا نلفت الأنظار إلى حقيقتين:

البسملة والاسم الأعظم

الأولى: تضافر في الأخبار أن البسملة أقرب إلى اسم الله الأعظم كقرب سواد العين إلى بياضها، والتمثيل بسواد العين وبياضها إشارة إلى اتصالها، أي الذي يستعين بها يكون قد اتصل بالاسم الأعظم، فلذا تكون منشأً للآثار .

وقد تضافر في النقل أن الكثير من أصحاب القلوب والولاية يؤثرون في الأشياء حتى في مثل المشي على الماء ومعالجة المرضى واستنزال المطر ونحوها بواسطة البسملة، وقد أشار القرآن إلى بعض ذلك في قضية سفينة نوح عليه السلام لما أركب فيها الخلق المؤمن وأراد الانطلاق بها فوق الموج قال: ﴿ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾^(٣) فكان عليه السلام إذا أراد أن تجري قال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ فجرت، وإذا أراد أن ترسو قال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ فرست^(٤) كما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام^(٥) ، وكانت سفينة عظيمة طولها ألف ومئتا ذراع

(١) سورة البقرة: الآية ١١٧؛ سورة آل عمران: الآية ٤٧ .

(٢) انظر روح المعاني: ج ٧، ص ٢٨٦ .

(٣) سورة هود: الآية ٤١ .

(٤) نفحات الرحمن: ج ٣، ص ٣١٧؛ تفسير روح البيان: ج ٤، ص ١٢٩ .

(٥) تفسير القمي: ج ١، ص ٣٢٧ .

وعرضها ستمائة ذراع^(١)، فلو قلنا إن الذراع يعادل نصف المتر تقريباً يكون طولها ستمائة وعرضها ثلاثمائة متر.

آل محمد ﷺ والاسم الأعظم

الثانية: وصفت الأخبار المعتبرة أن المعصومين ﷺ هم اسم الله الأعظم، ولا يراد بذلك أن المعصوم هو اسمه اللفظي ولا الذات؛ إذ ليس كمثل شيء، ولا الصفة لأن صفته عين ذاته، وإنما المراد المشابهة في الأثر، فإن المعصومين ﷺ مظهر قدرة الله وعلمه وإرادته، والواسطة بين الله تعالى وبين خلقه، وهذا ما تعززه البراهين العقلية والنصوص الكثيرة الدالة على أن فعل الله سبحانه وإرادته يجري على أيديهم، وأن الأنبياء جميعاً استعانوا بهم في إظهار معاجزهم والانتصار على أعدائهم، وبهم بلغوا المراتب الإلهية العالية.

وفي رواية الاحتجاج عن الإمام الصادق عليه السلام: ﴿أن نوحاً عليه السلام لما ركب السفينة وخاف الغرق قال: اللهم إني أسألك بمحمد وآل محمد لما أنجيتني من الغرق فنجاه الله عز وجل﴾^(٢).

وقد مر في بحث أسماء سورة الحمد أنهم ﷺ خلاصتها والمحكم الذي يرجع إليه عموم القرآن، وبذلك يظهر أن مبدأ الخلق وأثره

(١) تفسير الأمل: ج ٦، ص ٣٦٥.

(٢) الأمل (للصدوق): ص ٢٨٧، ح ٣٢٠؛ الاحتجاج: ج ١، ص ٥٥؛ التفسير الصافي: ج ٢، ص ٤٤٧؛ نفحات الرحمن: ج ٣، ص ٣١٧.

وعوده كله إليهم عليه السلام، وهو معنى ولايتهم وخلافتهم عن الله تعالى في أرضه وحجته على عباده.

حقيقة الاسم والمسمى

الأمر الثالث: وقع النزاع لدى المتكلمين والمفسرين في أن الاسم هل هو عين المسمى أم غيره؟ وذهب جماعة إلى العينية، وآخرون إلى الغيرية، وهو ناشئ من اختلاف اللحاظ، فإن الاسم له ثلاث مراتب:

الأولى: الاسم اللفظي، ولا شك في أن الاسم بهذا المعنى غير المسمى.

الثانية: الصفة بما هي مفهوم ذهني مجرد عن الذات، وهو الآخر غير المسمى.

الثالثة: الذات المتحيثة بالصفة، والاسم الذي هو منشأ الأثر الثالث، والذات والصفة متحدان، والاسم عينهما مصداقاً ومغاير لهما مفهوماً، والظاهر أن القائلين بالغيرية ناظرون إلى الأول والثاني، والقائلون بالعينية ناظرون إلى الثالث، ومنه يتضح بطلان نظرية العامة القائلة بزيادة الصفات على الذات.

مراتب اسم الله وخصائصها

الأمر الرابع: الأسماء الإلهية توقيفية ولا يجوز للإنسان أن يتدع أسماء الله سبحانه؛ لأن الاسم يجب أن يكون لائقاً بالمسمى وكاشفاً عن جماله وجلاله، وإدراك ذلك يتوقف على الإحاطة، وحيث إن الإحاطة ممتنعة للقصور الذاتي في البشر سلبت منه صلاحية التسمية والتوصيف، ويترتب على هذه الحقيقة أثران:

توقيفية الأسماء الإلهية

الأثر الأول: أن أسماء الله سبحانه وتعالى أعلام بالنسبة له واضعها الباري تبارك وتعالى بالوضع الخاص؛ لأنها سواء كانت مشتقة أو جامدة لا تنطبق في معناها الكامل إلا عليه تبارك وتعالى، مثل عالم وقادر ورازق وراحم ومحبي ورب وخالق؛ لذلك ترد إما بصيغة اسم فاعل أو صفة مشبهة، أو صيغة مبالغة، مثل عليم قدير رزاق للدلالة على دوام الاتصاف وعدم انفكاكها عن الذات، وعليه فلا يجوز إطلاقها على غيره كما لا يجوز اختراع أسماء له، وإذا لوحظ إطلاقها على غيره فهو من باب الاشتراك اللفظي باعتبارين:

الأول: الإشارة إلى التلبس بالمبدأ في الجملة، فالعالم مقابل الجاهل والقادر مقابل العاجز، ولا يريدون به العالم والقادر المطلق من كل جهة.

الثاني: التبرك بأسماء الله تعالى وطلب القرب منه، ولا يراد بها المشابهة والمشاكلة في الاسم والصفة، وهذا أيضاً لم يجبّده الشرع؛ لذا حيب التسمية بالتعبيد والتحميد لا وضع الأسماء الإلهية المطلقة، فيقال عبد الرحمن لا رحمان، وعبد الخالق وعبد السلام لا خالق ولا سلام، وهكذا باقي الأسماء.

وبذلك يظهر بطلان نظرية التشكيك التي نسبت إلى البعض^(١) بدعوى أن العلم والقدرة وباقي الصفات حقائق مشككة فإطلاقها على الخالق باعتبار أتم مراتبها، وعلى غيره باعتبار المراتب الدانية، ووجه البطلان ظاهر؛ لأن

(١) انظر مناهج البيان: ج ١، ص ١١١.

الصفات الإلهية تنطبق على الذات على مرتبة واحدة بتمامها وكما لها، فلا يتصور فيها نقص أو خلل، ولا يشاركه فيها أحد لا في الذات ولا في المرتبة، بخلاف غيره فإنه مهما اتصفوا من صفات كالعلم والقدرة، فإنها مكتسبة منه تعالى، والتشكيك يتوقف على الاشتراك في الذات والاختلاف في المرتبة، ولا اشتراك بين الصفة الذاتية والمكتسبة إلا بالاسم اللفظي.

معرفة الأسماء بالطريق النقلي

الأثر الثاني: انحصار طريق معرفة أسماء الله تبارك وتعالى بالطريق النقلي وهو القرآن والسنة، وتضافرت الآيات والروايات ببيان أسماء عديدة للباري عز وجل كما هو معلوم لكل من قرأ القرآن واستمع له ^(١)، وعن بعض المفسرين أنه استقرأ الأسماء الواردة في القرآن فبلغت (١٢٧) اسماً ^(٢). وفي رواية أبي الصلت عن الإمام الرضا عن آبائه عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: ﴿قال رسول الله ﷺ: الله عز وجل تسعة وتسعون اسماً من دعا الله بها استجاب له، ومن أحصاها دخل الجنة﴾ ^(٣) واتضح من البحث السابق أن المراد ليس الإحصاء اللفظي بل الاعتقادي.

وفي رواية أخرى عن الإمام الصادق عليه السلام أنها: ﴿ثلاثمائة وستون اسماً﴾ ^(٤) وعن النبي ﷺ: ﴿أن الله تعالى أربعة آلاف اسم﴾ ^(٥) وهناك وجوه للجمع بينها.

(١) انظر سورة الحشر: الآيتان ٢٣ و ٢٤.

(٢) انظر تفسير الميزان: ج ٨، ص ٣٥٧.

(٣) التوحيد: ص ٩٥، ح ٩؛ عدة الداعي: ص ٢٩٨؛ البحار: ج ٤، ص ١٨٧، ح ٢.

(٤) الكافي: ج ١، ص ١١٢، ح ١؛ البحار: ج ٤، ص ١٦٧، ح ٨.

(٥) عوالي اللآلئ: ج ٤، ص ١٠٦، ح ١٥٧؛ مستدرک الوسائل: ج ٥، ص ٢٦٦، ح ٥٨٣٥.

منها: أن الرواية الأولى ناظرة إلى الأسماء التي يستجيب بها الباري عز وجل الدعاء، ومعرفتها توجب دخول الجنة، أما الرواية الثانية والثالثة فناظرة للأعم.

ومنها: أن (الثلاثمائة والستين اسماً) ناظرة إلى عدد أيام السنة؛ لأنه سبحانه كل يوم هو في شأن، وشأنه في كل يوم يتجلى باسم من أسمائه.

ومنها: أن الرواية الثالثة ناظرة إلى أسماء الذات والفعل، وبغض النظر عن صحة وسقم الوجوه المذكورة فإنّ اختلاف العدد كاشف عن أن الحصر لأسمائه سبحانه إضافي لا حقيقي؛ لأن كل ما في الوجود هو آية من آياته، واسم من أسمائه بمعناه اللغوي، وحيث إن ما في الوجود يتعذر عدّه وإحصاؤه، كانت أسمائه كذلك، ولعل ما يعززه قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾^(١) فإنّها بعد أن أثبتت وحدانية الذات والألوهية نسبت له الأسماء الحسنى، وبناء على أن اللام جنسية دلت على أن كل اسم حسن ثابت له سواء ورد بنص أو لم يرد؛ لوضوح أن النصوص لا يمكن أن تحصى جميع أسمائه، وقد ورد في دعاء الجوشن الشريف ألف اسم^(٢)، وما يستفاد من الآية أكثر من ذلك، ويعززه ما ورد عن النبي ﷺ بأنها أربعة آلاف^(٣).
 إن قلت: لكن قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾^(٤) ظاهر في الحصر.

(١) سورة طه: الآية ٨.

(٢) المصباح (للكفعمي): ص ٢٤٧؛ البحار: ج ٩٤، ص ٣٨٤.

(٣) عوالي اللآلئ: ج ٤، ص ١٠٦، ح ١٥٧؛ مستدرک الوسائل: ج ٥، ص ٢٦٦، ح ٥٨٥٣.

(٤) سورة الأعراف: الآية ١٨٠.

فالجواب: ذلك تام لكنها ناظرة إلى أسماء خاصة، وهي الأسماء التي يصح الدعاء بها، وهي ما وردت بها النصوص، أو الأسماء الخاصة وهم محمد وآل محمد ﷺ كما وردت به الأخبار^(١)، فلا تنافي بين مدلول الآيتين.

هل الأسماء طويلة أم عرضية؟

الأمر الخامس: يترتب على ما تقدم وجوب النظر في أن أسماء الله سبحانه عرضية يقع أحدها في عرض الآخر، أم طويلة تتداخل ببعضها، والتداخل يعني احتواء بعض الأسماء على بعضها الآخر، وهذا يفترض وجود أسماء أكثر دلالة وإحاطة على جمال الخالق وجلاله من غيرها حتى تنتهي سلسلة التداخل إلى اسم واحد هو أوسع الأسماء وأكثرها إحاطة.

تداخل الأسماء الإلهية

والإجابة عن هذا السؤال تتم بملاحظة مداليل الأسماء ومعانيها، والذي يستقرئ الأسماء الإلهية يجد أن بعضها يندرج في بعض، ولذا حصر علماء الكلام صفات الذات الإلهية في ثلاثة: هي الحياة والعلم والقدرة؛ لرجوع سائر الأسماء الإلهية إليها سواء كانت من أسماء الذات أو أسماء الفعل، وإذا دققنا النظر أكثر نجد أن صفتي الذات الثانية والثالثة – أي العلم والقدرة – تعودان إلى الحياة؛ لاستحالة أن يكون العالم والقادر غير حي، فالعلم والقدرة من خصائص الحياة الإلهية الكاملة، فهي أشمل اسم

(١) الكافي: ج ١، ص ٣٥١، ح ٣٦٠؛ مستدرك الوسائل: ج ٥، ص ٢٣٠، ح ٥٧٦٠؛ البرهان: ج ٣، ص ٦٧٨.

تندرج فيه سائر صفات الذات والفعل، وإذا لاحظنا صفة العلم نجد جملة من الصفات الأخرى تندرج فيه كالبصير والسميع والشهيد والخبير؛ لأنّها كلها من آثار العلم باختلاف الحثيات، فالبصير عالم لكن من جهة انكشاف الأشياء لديه، والسميع عالم من جهة دركه لأقوال الموجودات، وهكذا باقي الأسماء والصفات، وإذا لاحظنا صفة القدرة نجد اندراج جملة من الصفات والأسماء الأخرى فيها كالمريد والصانع والقاهر والخالق وهكذا، وما يقال في صفات الذات يقال في صفات الفعل أيضاً، فمثلاً الرازق يندرج فيه الواهب والجواد والمعطي والكريم وهكذا باقي الأسماء، فالوجدان شاهد على أن الأسماء الإلهية ليست عرضية بل طولية، وهذا من معاني اتحاد الذات والصفات، وإذا لاحظناها بهذا الاعتبار ستحصل لنا مراتب عديدة للأسماء.

مراتب الأسماء الإلهية

الأولى: الاسم.

والثانية: الاسم الأعظم.

والثالثة: الاسم العظيم الأعظم.

والرابعة: الاسم الأعظم الأعظم.

والخامسة: الأعظم الأعظم الأعظم، وكل ذلك ورد في نصوص الروايات والأدعية^(١).

(١) الكافي: ج ٢، ص ٥٨٣، ح ١٧؛ مهج الدعوات (لابن طاوس): ص ٩١.

وفي بعضها وردت تسميته بالأكبر^(١) وهو بالقياس إلى الأعظم ناظر إلى سعة الإحاطة، بينما الأعظم إلى علو الشرف والمنزلة، والقاعدة العقلية قاضية بأن الاسم كاشف عن جمال الخالق وجلاله في الوصف والأثر، وكلما كان الاسم أوسع إحاطة كان أشمل في الصفات والآثار؛ لأن الأوسع مشتمل على خصائص الأقل منه وزيادة، وعليه فإن الأسماء في رتبها الأولى يعبر عنها بالاسم، وفي الثانية يعبر عنها بالاسم الأعظم، وفي الثالثة يكون عظيم وأعظم حتى تصل السلسلة إلى أوسع الأسماء وأشملها وهو الأعظم الأعظم الأعظم؛ بداهة أن التسلسل صعودي، وكلما اقترب الاسم من الذات دل على جمعية صفاتها الجمالية والجلالية فكان مقامه أعظم وأثره أكبر حتى يصل إلى مرتبة سادسة هي مرتبة الاسم المخزون المكنون الذي احتفظ الباري به لنفسه ولم يطلع عليه أحداً من خلقه.

ففي الدعاء الذي علّمه جبرائيل ليوسف عليه السلام ليخرج من السجن: ﴿اللهم إني أسألك باسمك المكنون المخزون الطاهر الطاهر المبارك، وأسألك باسمك العظيم وسلطانك القديم﴾^(٢) وهذا الاسم ليس هو لفظ (الله) لأنه أظهره لعباده، والقواعد تقتضي أن يكون (الله) هو الأعظم الأعظم الأعظم؛ لأنه اسم العلم الدال على جمعية صفات جماله وجلاله^(٣)،

(١) المصباح: ص ٣١١؛ عدة الداعي (لابن فهد الحلي): ص ٦٤.

(٢) معاني الأخبار: ص ١٤٠، ح ١.

(٣) وذكروا للاسم الأعظم ظاهراً وباطناً هو (هو) وهناك أقوال أخرى نوكلها لمحلها. انظر تفسير الفرقان: ج ١، ص ٨٧.

وهو ما يشير إليه قول أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿إِنْ قَوْلِكَ (الله) أَعْظَمَ اسْمٍ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَهُوَ الْاسْمُ الَّذِي لَا يَنْبَغِي أَنْ يُسَمَّى بِهِ غَيْرُ اللَّهِ، وَلَمْ يَتَسَمَّ بِهِ مَخْلُوقٌ﴾^(١) وبعدها ربما يكون الحي أو الحي القيوم كما ورد في بعض الأخبار؛ لأنه مرجع جميع الأسماء.

وفي دعاء السمات: ﴿اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُ بِاسْمِكَ الْعَظِيمِ الْأَعْظَمِ الْأَعَزِّ الْأَجَلِّ الْأَكْرَمِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ عَلَى مَغَالِقِ أَبْوَابِ السَّمَاءِ لُفَّتْ بِالرَّحْمَةِ انْفَتَحَتْ، وَإِذَا دُعِيَ بِهِ عَلَى مِصْبَاحِ أَبْوَابِ الْأَرْضِ لُفَّتْ لِلْفَرَجِ انْفَرَجَتْ، وَإِذَا دُعِيَ بِهِ عَلَى الْعَسْرِ لِلْيُسْرِ تيسرت، وَإِذَا دُعِيَ بِهِ عَلَى الْأَمْوَاتِ لِلنَّشُورِ انْتَشَرَتْ، وَإِذَا دُعِيَ بِهِ عَلَى كَشْفِ الْبُؤْسَاءِ وَالضَّرَاءِ انْكَشَفَتْ﴾^(٢).

وفي الدعاء الرجبي الشريف: ﴿وَبَارِكْ لَنَا فِي شَهْرِنَا هَذَا الْمَرْجَبِ الْمَكْرَمِ وَمَا بَعْدَهُ مِنَ الْأَشْهُرِ الْحَرَمِ، وَأَسْبِغْ عَلَيْنَا فِيهِ النِّعَمَ، وَأَجْزِلْ لَنَا فِيهِ الْقِسْمَ بِاسْمِكَ الْأَعْظَمِ الْأَعْظَمِ الْأَجَلِّ الْأَكْرَمِ الَّذِي وَضَعْتَهُ عَلَى النَّهَارِ فَأَضَاءَ، وَعَلَى اللَّيْلِ فَأَظْلَمَ﴾^(٣).

أثر الاسم الأعظم

ومن اختلاف الأثر بينهما يعرف اختلاف المرتبة، فإن في دعاء السمات يظهر الأثر في الرزق والبركة وتيسير الأمور وكشف الهموم والغموم،

(١) التوحيد: ص ٢٣١، ح ٥؛ تفسير نور الثقلين: ج ١، ص ١٣، ح ٥٠؛ البحار:

ج ٨٩، ص ٢٣٢، ح ٤.

(٢) مصباح المتهجد: ص ٤١٦ - ٤١٧.

(٣) البلد الأمين: ص ١٧٩؛ إقبال الأعمال: ج ٢، ص ٦٤٧.

والسؤال بالاسم العظيم الأعظم، وفي الدعاء الرجبي: ﴿باسمك الأعظم الأعظم الأجل الأكرم الذي وضعته على النهار فأضاء وعلى الليل فأظلم﴾^(١) وهذا تأثير كوني أكبر من الأول؛ لذا ورد السؤال باسمه الأعظم الأعظم، وقد اشترك الاسمان في صفتي الجلالة والكرم؛ لأنهما أعظم قدراً، وأكثر أثراً. هذا كله إذا وردت الأوصاف متكررة ومفصلة.

الاسم الجامع للأسماء

وربما يطلق الاسم الأعظم على جميع المراتب المذكورة بشكل مجمل؛ لما عرفت من أن حصر الأسماء إضافي لا حقيقي، وإليه يشير قول الإمام الباقر عليه السلام في رواية جابر: ﴿إن الاسم الأعظم على ثلاثة وسبعين حرفاً، وإنما كان عند آصف منها حرف واحد فتكلم به، فخُسِفَ بالأرض ما بينه وبين بلقيس حتى تناول السرير بيده، ثم عادت الأرض كما كانت أسرع من طرفة عين، ونحن عندنا من الاسم الأعظم اثنان وسبعون حرفاً، وحرف واحد عند الله تعالى استأثر به في علم الغيب عنده، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم﴾^(٢) والحرف لا يراد به اللفظ، بل الوجه والجهة التي منها تصدر الأفعال، فهو وجه من وجوه القدرة والمقام، وهو معنى الحرف في اللغة، والحرف اللفظي يقال له حرف لأنه طرف الكلمة واللسان^(٣)،

(١) مصباح المتهجد: ص ٨٠٤.

(٢) الكافي: ج ١، ص ٢٣٠، ح ١؛ خصائص الأئمة: ص ٤٧؛ البحار: ج ٢٧، ص ٣٧.

(٣) انظر مجمع البحرين: ج ٥، ص ٣٦ - ٣٧، (حرف).

والروايات بهذا المضمون عديدة^(١)، وبضمنية الروايات التي نصت على أن كل حرف هو اسم من أسماء الله تعالى يتضح أن آصف كان يملك اسماً واحداً أعظم من أسماء الله العظيمة، وفعل ذلك كله، فالذي يملك جل الحروف أي جميع الأسماء الإلهية وهم محمد وآل محمد ﷺ فإن ولايته وتأثيره في الوجود يكون أعظم.

معنى أنهم الاسم الأعظم

ومن هنا يتضح معنى أنهم ﷺ اسم الله الأعظم؛ لأنهم محيطون بكل ما سوى الله وهم الأدلاء عليه ومظاهر قدرته وعلمه وإرادته، فلا يوجد في الخلق اسم أعظم ولا أكبر ولا أبلغ أثراً منهم ﷺ، فعن الإمام الرضا ﷺ قال: ﴿إِذَا نَزَلَتْ بِكُمْ شِدَّةٌ فَاسْتَعِينُوا بِنَا عَلَى اللَّهِ﴾، وهو قول الله ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾^(٢) قال: قال أبو عبد الله ﷺ: ﴿نَحْنُ وَاللَّهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ الَّذِي لَا يَقْبَلُ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِمَعْرِفَتِنَا. قَالَ: فَادْعُوهُ بِهَا﴾^(٣) وقرينة المناسبة بين الحكم والموضوع وامتناع العلو والاستيلاء عليه سبحانه يحمل (على) في قوله (على الله) على معنى (إلى) والمراد اتخذونا وسيلة وواسطة إليه، وهو ما أمر الباري عز وجل في قوله: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾^(٤).

ويستفاد من بعض الأخبار تفسير حروف لفظ الجلالة بولايتهم والبراءة

(١) الكافي: ج ١، ص ٢٣٠، ح ٢ و ح ٣.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٨٠.

(٣) تفسير العياشي: ج ٢، ص ٤٢، ح ١١٩؛ مستدرک الوسائل: ج ٥، ص ٢٣٠، ح ٥٧٦٠.

(٤) سورة المائدة: الآية ٣٥.

من أعدائهم، فقد روى الصدوق قَدْ سَمِعْتُ بسنده عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَنَّهُ سَأَلَ عَنْ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ فَقَالَ: ﴿الْبَاءُ بِهَاءِ اللَّهِ، وَالسِّينُ سِنَاءُ اللَّهِ، وَالْمِيمُ مِلْكُ اللَّهِ﴾. قَالَ: قُلْتُ: اللَّهُ؟ قَالَ: ﴿الْأَلْفُ آلاءُ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ مِنَ النِّعَمِ بَوْلَايَتِنَا، وَاللَّامُ إِلْزَامُ اللَّهِ خَلْقَهُ وَلايَتِنَا﴾. قُلْتُ: فَالْهَاءُ؟ قَالَ: ﴿هُوَ أَنْ لَمْ خَالَفَ مُحَمَّدًا وَآلَ مُحَمَّدٍ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ﴾ ^(١) كَمَا يَتَضَحُّ مَفَادُ الرِّوَايَاتِ الَّتِي نَصَّتْ عَلَى أَنَّ الْبِسْمِلَةَ هِيَ اسْمُ اللَّهِ الْأَكْبَرِ أَوْ الْأَعْظَمِ ^(٢)، فَإِنْ جَوْهَرُ اسْمِهَا الْأَعْظَمُ هُمْ مُحَمَّدٌ وَآلُ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ كَمَا فَصَّلْنَاهُ فِي أَسْمَائِهَا وَفَضَائِلِهَا، وَبِهَذَا يَتَضَحُّ السَّرُّ فِي كَوْنِهَا أَعْظَمَ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ؛ لِأَنَّهَا جَمَعَتْ أَشْرَفَ الْخَلْقِ وَأَعْظَمَهُمْ عِلْمًا وَقُدْرَةً وَدَلَالَةً عَلَى اللَّهِ، كَمَا يَتَضَحُّ سِرُّ الْإِبْتِدَاءِ بِاسْمِ اللَّهِ تَعَالَى دُونَ بَاقِي أَسْمَائِهِ؛ لِأَنَّهُ الْأَوْسَعُ تَأْثِيرًا وَالْأَكْبَرُ.

رحمة الخالق والمخلوق

الأمر السادس: قيل إن الرحمن الرحيم يحتمل أن يكونا وصفين للفظ الجلالة كما لعله المتبادر إلى الأذهان، والمعنى أبتدئ باسم الله المتصف بالرحمانية والرحيمية، ويحتمل أن يكونا وصفين للاسم، والمعنى أبتدئ باسم الله أي الاسم المتصف بالرحمن الرحيم، وهذا المعنى يتوافق مع معنى الاستعانة؛ لِأَنَّ الْإِعَانَةَ تَأْتِي فِي جَانِبِ الرَّحْمَةِ وَلَا تَبْتَدِئُ مِنْ جَانِبِ لَفْظِ الْجَلَالَةِ؛ لِأَنَّهُ الْجَامِعُ لِكُلِّ صِفَاتِ الْجَمَالِ وَالْجَلَالِ، وَإِفَاضَةُ الْوُجُودِ

(١) معاني الأخبار: ص ٣، ح ٢.

(٢) التهذيب: ج ٢، ص ٢٨٩، ح ١٥؛ تفسير نور الثقلين: ج ١، ص ٨، ح ٢٢؛ تفسير كنز الدقائق: ج ١، ص ١٧.

تستدعي تحديد جهة الإفاضة ومسانختها لجهة الاستفاضة، فيكون المعنى أبتدئ باسمه الرحمن الرحيم، وقد تقدم أن الاتصال بالذات الإلهية لا يكون إلا بالواسطة والأسماء منها، فالقرينة العقلية توجب إرجاع الوصفين إلى الاسم^(١)، واختلاف الاحتمالين يرجعان إلى مخالفة الظهور للقرينة العقلية، فالأول هو مقتضى الظهور، والثاني مقتضى حكم العقل.

والحق أن الخلاف لفظي لا حقيقي؛ لأن مرجع الاسم وأوصافه إلى المسمى، فالمحصلة أن الرحمن الرحيم هما وصفان للذات الإلهية المقدسة وفعلها، ولا ثمرة ظاهرة للخلاف المذكور غير التدقيق العقلي.

آل محمد ﷺ الرحمة الواسعة

نعم يفيد أن محمداً وآل محمد صلوات الله عليهم الذين هم الاسم التوسطي بين الخالق والخلق كلهم رحمة وعطاء، ولا يرد من جهتهم ما ينافي ذلك، وهو ما نص عليه الباري بوصف رسوله الكريم بأنه رحمة للعالمين^(٢) وتواترت الأدلة على أن ما ثبت لرسول الله ﷺ ثبت لهم إلا ما كان من مختصاته صلوات الله عليه، والتأريخ شاهد على هذه الحقيقة، فبالرغم من وجود أعداء ألداء لهم كانوا يتربصون بهم ليجدوا ما يوجب قدهم، ومع توفر الدواعي الكثيرة في ذلك لم يجدوا ما يوجب ذلك؛ لأنهم رحمة لجميع الخلق، وخيرهم متواتر على أوليائهم وأعدائهم، وهذا مما يقر به العدو والصديق، ولم يرد عن واحد أنه شكا منهم؛ لأنهم مجلى رحمة الله الواسعة التي

(١) بيان السعادة: ج ١، ص ٢٨.

(٢) إشارة إلى الآية ١٠٧ من سورة الأنبياء.

تسع الجميع، فهم موضع رحمة الله، وهم محل صدورها إلى الخلائق، وهو ما يشير إليه قول الإمام الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ قال: «المختص بالرحمة نبي الله ووصيه صلوات الله عليهما وآلهما، إن الله خلق مائة رحمة. تسعة وتسعون عنده مذكورة لمحمد وعلي وعترتهما عليهم السلام، ورحمة واحدة مبسوطة على سائر الموجودين»^(١) لذا ينحصر طريق النجاة بهم، وهم رحمة الله الواسعة، وباب نجاة الأمة في الدنيا والآخرة.

ومن عبارة الخلق يفهم أن الرحمة هنا من صفات الفعل، ولهذا الفعل تجليان أحدهما في الآخرة، والثاني في الدنيا، فإن الرحمة المذكورة تشمل معنيين:

الأول: أن الله سبحانه ادخر لهم الرحمة الواسعة في الآخرة، فيقبل شفاعتهم في المذنبين، فكل من تشفع بهم نال شفاعتهم، وهذا الموقف يستدعي أن يرتبط الإنسان بهم وينال حبهم، ولا يزاوّل ما يوجب بعده عنهم حتى ينال هذا المقام، وما يحتاجه المؤمن دائماً أن لا يصدر منه كلام أو قول أو فعل يوجب بُعده عنهم، فإن النور يحب النور ولا يحب الظلمة، والخير يحب الخيرين ولا يحب الشريرين، والطهر يحب الطاهرين ولا يحب المذنبين.

الثاني: أن الله سبحانه أعطاهم سلطة الرحمة فيتصرفون ويعطون للخلق من رصيد الرحمة الذي ادخره لهم، وهذا لا يختص بالآخرة، بل يجري في الدنيا، فإذا قصدهم المغموم والمهموم وطالب الحاجة ولجأ إليهم حقق ما يريد، ونال خيرهم وعطاءهم، وإطلاق الرواية يشمل الاثنين معاً.

(١) البحار: ج ٢٤، ص ٦٢، ح ٤٤؛ سفينة البحار: ج ٣، ص ٣٣٤؛ البرهان: ج ١، ص ٣٠٠.

وقد خص الرحمن الرحيم دون غيرهما من الأوصاف لأسباب عديدة ربما تجتمع في معنى واحد هو الحب والتحبب، فإن الحب هو سر الحدوث والبقاء ودوام الإفاضة في الوجود، فلولا الحب لما خلق الله الخلق، ولولا الحب لما أدام عليهم خيره وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة.

بالحب والرحمة قامت الأشياء

فبالرحمة والمحبة انتظم وجود الأشياء، وتكاملت وتناسقت أدوارها ووظائفها، وهي سر قيام الحياة الإنسانية، فلولا الحب لما قامت أسرة ولا أنجبت أولاداً، ولولا الحب لما تحملت الأم حملها ولا أرضعته ولا احتضنته، ولم يتعب الأب لتوفير رزقه والعناية به، ولولا الحب لما ترابطت القلوب وتكونت العلاقات وسخر الناس بعضهم لبعض، ولصارت الحياة غابة قاسية، والكل يعيش وحيداً فريداً، ولولا الحب لما ذهب طالب إلى المدرسة، ولا عامل إلى معمل، ولا فلاح إلى مزرعته، ولما أطمع الطائر فرخه، ولا أنبت الأشجار وتفتحت الأزهار، ولا هطلت الأمطار، فبالرحمة والحب استقامت الحياة وانتظمت، فالله رحمان رحيم، ورحمته تجلت على أوليائه، وظهرت في كل جوانب الوجود، وبهذه الرحمة يبتدئ العبد لما يقرأ البسملة ويستعين بها، فالحب هو مدار الوجود حدوثاً وبقاءً، والرحمة هي وسيلة الارتباط بين العالمين عالم الخالق وعالم المخلوق؛ لأن الرحمة هي مظهر المحبة الإلهية بالخلق، وهي سبب حب المخلوق لخالقه، فالله عز وجل رحمن، ورحمانيته صفة ذاته المباركة، وبها يرحم الخلق برحمته الرحيمية، وبسببها يحب العباد خالقهم، ويدعون له، ويستقيمون على طريقه، وهذه الرحمة زرعها في قلوب عباده، فيها يتراحمون ويتحابون.

الحب سبب الخلق

والسؤال: هل خلقهم ليتنفع بهم؟ كلا، وهو الغني عن الخلائق، أم خلقهم لأنهم يستحقون الخلق؟ كلا، فإنهم قبل الخلق لا شيء، واللاشيء لا يوصف باستحقاق، كما ان الاستحقاق يحتاج إلى ثبوت حق، فما هو الحق الذي يثبت لهم الاستحقاق؟ لكنه سبحانه رحيم يحب خلقه فأوجدهم وأدام عليهم نعمه ظاهرة وباطنة، ولولا الحب لما خلّدهم في نعيم الجنة، فإن الجنة لا يدخلها العباد بالاستحقاق؛ لأن أعمالهم الصالحة مهما بلغت لا تستحق الثواب؛ لأنها أداء حق المنعم وشكره، وامثال الواجب لا ثواب له، لكنه سبحانه رحيم جعل لما يعملونه من المحاسن أجراً وثواباً حباً لهم، وأعمالهم الطالحة تستحق العذاب الدائم، وأن لا يقبل لها عفواً ولا مغفرةً ولا شفاعة، لكنه رحيم يعفو عن الخاطئين، ويغفر للمذنبين، ويقبل شفاعة الشافعين حباً لهم، ولولا ذلك لخلدوا في النار، وفي الدنيا كلفهم بالأحكام بمقدار ما يطيقون لأجل أن يرتقوا ويكتملوا حباً بهم، ولا يؤاخذهم بجرائرهم، بل يؤخرهم لعلهم يتوبون ويستغفرون حباً بهم، ولولا هذا الحب لاستحقوا العذاب الدائم، ولا يفرج عنهم كرباً، ولا يكشف همّاً، ولا يوسع رزقاً، لكنهم يذنبون ويعصون ويغيثهم حينما يستغيثون؛ لأنه رحيم ودود يحب خلقه، فالحب هو مدار الوجود حدوثاً وبقاءً.

مفهوم الرحمة والحب

وهذا يتوافق مع معنى الرحمة في اللغة، فقد عرفوها برقة تقتضي الإحسان إلى المرحوم، لكنها إذا نسبت إلى الباري عز وجل تجردت من

الركة؛ لأنها حالة انفعالية لا تليق بشأنه تبارك وتعالى؛ لذا قالوا إذا وصف الباري عز وجل بالرحمة فيراد بها الإحسان المجرد دون الرقة، وروي أن الرحمة من الله سبحانه إنعام وإفضال، ومن الآدميين رقة وتعطف^(١)، بل قيل إن الرحمة هي النعمة، والراحم المنعم، ويقال للنبي ﷺ والقرآن والغيث رحمة؛ لأن كل واحد منها نعمة، ولا يصح تفسيرها بالركة؛ لأنها منفية عن الباري عز وجل^(٢)، وعلى التفسيرين فإن الرقة والنعمة منشؤهما الحب، وفي بعض الروايات الرحمن الذي يرحم ببسط الرزق علينا، وفي رواية العاطف على خلقه بالرزق لا يقطع عنهم مواد رزقه وإن انقطعوا عن طاعته^(٣)، والرحمة الإلهية تتضمن أطافاً إلهية عظيمة جوهرها تقرب الإنسان إلى الله وصيرورته في كنفه وظله ورعايته، وهذا الإحساس هو الذي يرفع قدر الإنسان ويشحنه بالطاقات الإيجابية، ويجعله متوازناً مع السنن الإلهية في الوجود ليعيش كريماً وسعيداً، ومنه يتضح بعض السر في اختيار هذين الوصفين في البسملة ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ ليتكررا في كل يوم مرات عديدة على لسان العبد ومسامعه، ويلاهما مشاعره بالرغم من وجود الأسماء الكثيرة.

(١) مفردات الراغب: ص ١٩١، (رحم)؛ تاج العروس: ج ٣٢، ص ٢٢٥، (رح م).
 (٢) التوحيد: ص ٢٠٤، (الرحيم)؛ وانظر البحار: ج ٤، ص ١٩٥؛ غريب الحديث في بحار الأنوار: ج ٢، ص ٩٣، (رحم).
 (٣) التفسير الصافي: ج ١، ص ٨١؛ وانظر التوحيد: ص ٢٣٢، ح ٥؛ تفسير كنز الدقائق: ج ١، ص ٣٥.

سر التكرار في القرآن

الأمر السابع: افتتح الباري عزَّ وجلَّ كتابه الكريم وأعظم سورة فيه بالبسملة، ثم جعلها مفتتح سائر السور إلا سورة براءة؛ لأنها ابتدأت بإعلان البراءة من الشرك والمشرّكين استثنائها من ذلك، وقد وقع الكلام في سر تكرار البسملة في جل سور القرآن، ولا خلاف في أنها من حيث الألفاظ متكررة، ولكن هل هي من حيث المعنى كذلك، أم في كل سورة لها معنى مغاير لمعناها في السور الأخرى؟ ولأجل الإجابة عن ذلك لا بد من استعراض قضية التكرار؛ لتنقيح الكبرى الكلية ليتضح انطباقها على البسملة، فنقول: هنا مقدمتان:

أنحاء التكرار

المقدمة الأولى: أن التكرار الوارد في القرآن يتصور على نحوين:

الأول: التكرار اللفظي، وهو أقسام عديدة:

منها: ما وقع في بعض المفردات مثل: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾^(١).

ومنها: ما وقع في الجمل، كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾^(٢).

ومنها: ما وقع في الآيات، كقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ

(١) سورة الفجر: الآية ٢١.

(٢) سورة الشرح: الآيتان ٥ و ٦.

٢٩٠ مايقوله القرآن في سورة الحمد

كُنْتُمْ صَادِقِينَ^(١) فقد ورد تكرارها حوالي ست مرات في سور مختلفة، وأظهر منها قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فقد تكررت إحدى وثلاثين مرة^(٢).

الثاني: التكرار المعنوي، ويظهر في حكاية القصص القرآنية نظير قصة آدم وموسى عليهما السلام وقصة قوم عاد وهود ولوط والعذاب الذي أخذهم ونحو ذلك، والإشكال الذي يعترض التكرار هو اللغوية، ولكن حيث إن القرآن حكيم وهو كلام الخالق العظيم فلا يليق بشأنه ذلك.

دفع إشكال اللغوية

المقدمة الثانية: أن إشكال اللغوية في التكرار إنما يلزم لو لم يكن في كل مورد معنى مغاير لسابقه، فلو ثبت تعدد المعنى في كل مرة تكرر اللفظ فيه ارتفع المحذور، بل كان من مقتضيات البلاغة، وفي الاستعمالات العرفية والشرعية موارد كثيرة للتكرار باختلاف المعاني.

منها: الترادف الواقع في اللغة - على القول المشهور بوجوده -.

ومنها: المشتركات اللفظية - بناء على وجودها - فإن التكرار في الترادف معنوي لا لفظي، وفي المشتركات اللفظية لفظي لا معنوي، وكلاهما يعدان من جماليات اللغة، فلو كان كل تكرار قبيحاً لنقض بذلك.

(١) سورة يونس: الآية ٤٨؛ سورة الأنبياء: الآية ٣٨؛ سورة النمل: الآية ٧١؛ سورة

سبأ: الآية ٢٩؛ سورة يس: الآية ٤٨؛ سورة الملك: الآية ٢٥.

(٢) سورة الرحمن: الآية ١٣ وما بعدها.

ومنها: تكرار التوصيف إذا اقتضت الضرورة، كالأخبار عن شجاعة أمير المؤمنين عليه السلام من حيثيات مختلفة، والأخبار عن كرم الإمام الحسن عليه السلام ومظلومية الإمام الحسين عليه السلام من حيثيات مختلفة، وهكذا توصيف الباري عزَّ وجلَّ في آيات عديدة بأنه ﴿عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ و: ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ونحو ذلك من أوصاف تتكرر من حيث الألفاظ ولكن تختلف من حيث المعاني.

منها: ما ورد في قراءة الحمد والسورة في الصلوات، وكذا التسيحات والأذكار ونحوها فإنها مكررات ولا مانع منه؛ لأن في كل مرة تقرأ لها غاية وغرض يغير القراءة الأولى، وعلى هذا تقوم أسس التعليم والتعلم في المدارس والمعاهد وبيان القرارات والتعليمات في الدوائر الرسمية وغيرها، فإنه يقع التكرار فيها كثيراً لكن لغايات وأغراض يستدعيها التعليم والتفهم للعلوم والقرارات.

ويتحصل من المقدمتين: أن التكرار في نفسه ليس بقبيح ولا لغوي بنحو مطلق؛ لأنه على قسمين: تكرار لإفادة معانٍ وغايات جديدة، وتكرار خال من ذلك، والقبيح هو الثاني لا الأول، وهذا في التكرار اللفظي واضح، وكذلك في المعنوي، فإن القصص القرآني ليست من التكرار، بل في كل مرة ينقل القرآن جهة من جهات الواقعة لم يذكرها من قبل حتى تكتمل الصورة كما لا يخفى على المدققين، وربما خفت بعض هذه الجهات فيتوهم أنها من التكرار، وعلى فرض التسليم بالتكرار فإن في كل مرة ينقلها له داع وغرض مغاير للسابق عليه، فينتفي قبح التكرار موضوعاً.

حسن التكرار وجماله

هذا وقد وسعى المتكلمون والمفسرون وأصحاب علوم القرآن للإجابة عن شبهة التكرار بأجوبة عمدتها جوابان:

الجواب الأول: أن التكرار وقع لأجل التأكيد وترسيخ المعنى، أو ترسيخ اللفظة في الأذهان؛ ليكثر تداولها على الألسنة فتؤدي غرضها الإيحائي على النفس والعقل، ولا خلاف في أن تأكيد المعنى والمضمون من أهم دواعي الكلام وأساليب البلاغة، ولكن التعبير عن التأكيد يمكن أن يقع بنحوين: أحدهما: أن يلحق التعبير بعبرة أو أكد ولا تنسى ونحو ذلك.

وثانيهما: أن يكرر ذات اللفظ، وهذا الثاني أفصح من الأول وأبلغ في التأثير لاسيما وأن آيات القرآن في ألفاظها ومعانيها نور، ولها تأثير معنوي على النفوس والقلوب، وتأثير حقيقي في تحصين الإنسان وطرده الوسوس والشياطين عنه، أو استئزال الرزق، فمثلاً لو قال الباري: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾^(١) مرة واحدة وفي كل مرة يريد التعبير بها لا يذكرها وإنما يشير إليها بالرمز أو بقول أو كدها عليكم ونحو ذلك من عبارات قد تفيد تأكيد المعنى، فهل يجد صاحب الذوق السليم أن ذلك من جمال البلاغة؟ بخلاف ما لو كررها، فإن الوجدان شاهد على أن لتكرارها في سورة الرحمن مجالاً خاصاً وتنبيهاً مستمراً للعقول والنفوس لا تؤديه مفردات التأكيد، انظر مثلاً إلى تكرار ﴿يَا قَوْمُ﴾ في الآية ٣٨ و ٣٩ من

(١) سورة الرحمن: الآيات ١٣ و ١٦ و ١٨.

سورة غافر كم له من الجمالية والتأثير على السامعين. قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ * يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ﴾^(١) ونلاحظ أن بتكرار ﴿يَا قَوْمِ﴾ ذكر معنيين منفصلين لكل واحد منهما داع وغرض يغاير الآخر، وفي عين الحال يقرع الأسماء والقلوب في مضمونه ومعناه ليترسخا، وفي الأدب العربي موارد تتفق الكلمة على حسن التكرار فيها، ول كبار الشعراء والأدباء قصائد رائعة مبنية على ذلك، وربما يضاف إلى التأكيد غرض آخر فيزيده جمالاً كالتحويل والتعظيم، كما في قوله تعالى: ﴿الْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ﴾^(٢) و ﴿القَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ﴾^(٣) فَإِنَّ للتكرار دلالة كبيرة في تهويل الموقف وتعظيم شأنه.

ويتلخص: أن التكرار القرآني ليس فارغاً من الغاية والغرض، فهو من موارد التكرار الحسن فلا محذور فيه^(٤).

دواعي البيان القرآني

الجواب الثاني: أن القاعدة العقلية قاضية باستحالة اللغوية في كلام الحكيم، وهي تكفي في رد الإشكال، على أن الإشكال مبني على قصور في فهم غايات القرآن ومهامه التكوينية والتشريعية، ولو عرفنا دواعي التكرار

(١) سورة غافر: الآيتان ٣٨ و ٣٩.

(٢) سورة الحاقة: الآيتان ١ و ٢.

(٣) سورة القارعة: الآيتان ١ و ٢.

(٤) انظر البرهان (للزركشي): ج ٣، ص ١١ - ١٢؛ إعجاز القرآن للباقلاني: ص

وغاياته وفهم مداليه وآثاره ارتفع المحذور من أصله، ويمكن القول بأن الخطاب القرآني يختلف عن باقي الخطابات فلا يمكن مقايسته بغيره.

وبيان ذلك: أن القرآن الكريم كلام الله الواسع العليم الخبير الذي أنزله الله تعالى ليكون معجزة أشرف أنبيائه وخاتم رسله، ويكون حجة دامغة في جميع العصور على جميع البشرية إلى يوم القيامة، وقد أودع الله فيه أسرار الخلق والتكوين ونظام التشريع وتهذيب النفوس وتنبيه العقول.

كتاب بهذا المستوى من العظمة والشرف لا يمكن أن يقاس بكلام البشر القاصر العاجز الجاهل.

غايات الآيات

فإن كل آية من آيات القرآن عظيمة في ألفاظها ومعانيها وآثارها، وتتضمن عدة غايات نشير إلى ثلاثة منها:

أولها: أنها معجزة إلهية دالة على صدق النبي ﷺ وكمال الخالق.

ثانيها: تتضمن تعاليم إرشادية ومعرفية للإنسان تقوده إلى كماله الروحي والعقلي والسلوكي.

ثالثها: تتضمن أحكاماً وتشريعات لتنظيم أموره الدينية والدنيوية، وهو في ذلك كله يخاطب مختلف أصناف الناس من علماء وغير علماء وأقوياء والإيمان وضعفائهم، والقادة وغيرهم، وأهل الأديان وغيرهم، والكبير والصغير، فلسانه لسان عام لا يوجد خطاب أشمل ولا أوسع منه. يخاطب جميع البشرية أفراداً وجماعات وقوميات ودولاً، والغاية من ذلك هدايتهم

وإكمالهم وإسعادهم؛ لذا لا بد وأن يتصف خطابه بثلاثة أوصاف متميزة:

أوصاف الخطاب القرآني

الأول: أن لسانه واضح يفهمه كل من يعرف لغته.

الثاني: أن مضمونه عميق يقنع العالم الخبير كما يقنع الجاهل.

الثالث: أن لسانه جميل عذب يستولي على القلوب والعقول حتى يؤثر فيها، ومثل هذا الخطاب يجب أن يتوفر على بعض التكرار؛ لأن بسطاء الناس وصغارهم يحتاجون ذلك، والعلماء وأهل المعرفة قد يغفلون أو ينسون كما تقتضيه القاعدة أو العادة في البشر، فلا بد من تذكيرهم، وأن جمال الأسلوب والبيان يجب أن يتمتع بالسهل الممتنع الذي يستهوي القلوب والعقول في معانيه وألفاظه، فلا بد وأن تكون ألفاظه رقيقة وليست ركيكة، ومفهومة وليست مبهممة، وقريبة للذوق وليست غريبة، وذلك كله يستدعي تكرار بعض المفردات أو الجمل لجمال سحرها وقوة تأثيرها.

فالتكرار القرآني بنوعيه اللفظي والمعنوي ضرورة تقتضيها رسالة القرآن وغاياته، والمثال المعهود لتكرار قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ لو استقرأنا موارد ورودها وأعملنا النظر بعد التخصص في البلاغة والأدب وفهم معاني الآيات لوجدنا أن تكرارها في غاية العذوبة والجمال؛ لأن الآية السابقة عليها لا يتم معناها ولا يتحقق غرضها إلا بها فيكون مثلها مثل اللوحة المرسومة إذا لوحظت بعض خطوطها بمفردها فإنها لا تعني شيئاً وربما تكون شخطات قلم لاغية، ولكن إذا لوحظت مع غيرها شكّلت منظراً في غاية الروعة والجمال.

لماذا تكررت البسملة في السور؟

وهكذا المفردات المكررة أو الآيات المكررة، وذات القضية تقال في تكرار البسملة في جل سور القرآن، فإنها إذا لوحظت بالقياس إلى كل سورة يكون لها معنى وبيان وغرض يغير السورة الأخرى، وعليه فإن تكرار البسملة لفظي لا حقيقي، ويعززه أن البسملة فاقت سائر آيات القرآن من وجوه عديدة:

منها: جامعيتها لدواعي وأغراض الآيات الأخرى؛ لذا وصفت بأنها أفضل الآيات وأعظمها.

ومنها: جامعيتها لمعاني القرآن وأغراضه.

ومنها: أنها مفتاح الدخول في كل سورة.

ومنها: أنها شعار النبي ﷺ والمسلمين يتميزون به على سائر الأمم في الدنيا والآخرة، والشعار يستدعي التكرار والمداومة عليه من قبل الجميع في جميع الأحوال، وتضافرت بذلك الشواهد:

الشاهد الأول: ما ورد عن النبي ﷺ في ذلك، وقد أوردناه في فضائل البسملة.

الشاهد الثاني: ما رواه العياشي عن زيد بن علي قال: دخلت على أبي جعفر الباقر عليه السلام فذكر: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ فقال: ﴿تدري ما نزل في ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾﴾ فقلت: لا. فقال: ﴿إن رسول الله ﷺ كان أحسن الناس صوتاً بالقرآن، وكان يصلي بفناء الكعبة فرفع صوته﴾، وكان عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو جهل بن هشام وجماعة منهم يستمعون قراءته. قال: وكان يكثر قراءة ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ فيرفع بها صوته.

قال: فيقولون: إنَّ محمداً ليردد اسم ربه تردداً، إنه ليحبه، فيأمرون من يقوم فيستمع إليه ويقولون: إذا جاز ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ فأعلمنا حتى نقوم فنستمع قراءته، فأنزل الله في ذلك ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿وَلَوْ أَعْلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً﴾^(١).

البسملة ونفور الكفار

والرواية تتضمن دالتين:

الأولى: أن الكفار كانوا ينفرون من البسملة؛ لأنها تتضمن ذكر الله سبحانه الواحد الأحد فتبطل معتقداتهم الشركية.

الثانية: أن ترديد النبي ﷺ البسملة وبصوت مرتفع يشعر بأنه ﷺ صيّر لها شعاراً للتوحيد؛ لذا كانوا يتجنبون استماعها، ويحبون الاستماع إلى غيرها من الآيات.

استحباب البسملة

الشاهد الثالث: ما تضافرت به الأدلة من استحباب البسملة لدى الشروع بكل قول أو عمل حتى الطعام والشراب والمنام، فإن محبوبة ذكرها في جميع الأوقات والأحوال يشير إلى شعاريتها، وأنها علامة المؤمن الموحد.

الشاهد الرابع: ما ورد في كتاب سليمان عليه السلام بلقيس فإن الآية التي حكى القضية ظاهرة في أن البسملة كانت شعاراً عنده؛ إذ قال سبحانه:

(١) تفسير العياشي: ج ٢، ص ٢٩٥، ح ٨٥؛ البرهان: ج ٢، ص ٤٢٣.

﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾^(١).

وتعززه السيرة المتواصلة لدى المسلمين من الابتداء بالبسملة في كل كتبهم ومقالاتهم وأعمالهم، بل حكي أن الناس في زمان رسول الله ﷺ حتى الجاهلين منهم تعاملوا مع البسملة على أنها شعار، وكانوا يتداولون في استعمالهم البسملة مع تغيير في الصيغة، فقد ورد أنهم كانوا يفتتحون كتبهم بـ (باسمك اللهم).

ويتلخص من كل ما تقدم: أن البسملة هي مفتاح السور القرآنية، وتكرارها لفظي لا معنوي؛ لأنها ترد في كل سورة بمعنى وغاية تغاير غيرها.

المبحث الثالث: في لطائف الآية المباركة



وهي عديدة:

اللطيفة الأولى: أثر الاستعانة وموانعها

أن الابتداء في كل قول وعمل هو نهج الله تبارك وتعالى لعباده، وهو أدب القرآن يلفتنا إلى أن الإنسان لا يمكنه أن يركن إلى نفسه في شؤونه، وإنما لا بد له من استعانة وإعانة، ومن دون ذلك يتعذر عليه تحقيق ما يرضي ويورث البركة والسعادة؛ لأنه إذا أراد أن يعمل عملاً في الغالب يبتلى بموانع عديدة تعرقل مسيرته وما يريد.

موانع الأعمال

الأول: فتور النفس وكسلها وخمولها، وهذا أحد مشاكل البشر في حياتهم اليومية.

الثاني: حسد الحاسدين؛ لأن الذي يتفوق في شيء قد يبتلى بالحسد، ويشهد التاريخ منذ أول تكوينه أن الحسد عامل مهم ومؤثر في مجريات الكثير من أحداثه، حتى أولياء الله لم ينجوا منه، ولذا قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾^(١)؛ لأن الخصومة مع أولياء الله كانت بدافع الحسد غالباً.

(١) سورة النساء: الآية ٥٤.

والثالث: مزاحمة المنافسين، وهذا ما تقتضيه طبيعة الحياة.

الرابع: عداوة الشيطان وموانعه الذي يدبر لضياح ابن آدم وفشله، وهي في مجموعها موانع. إما لأصل العمل أو للإتيان فيه أو للنجاح به، فكيف يستطيع الإنسان أن يركن لنفسه في تحقيق ما يريد؟ فإنه متعذر ولا بد من الاستعانة بالله والابتداء بالبسملة، فإذا ابتداء باسم الله تعالى أوجد في نفسه الشعور بالثقة، وأزال الموانع عن طريقه، إما بإيجاد مقتضيات أو برفع المانع من النفوس، أو باتخاذ اسمه سبحانه درعاً يتحصن به، ولذا ورد عن النبي ﷺ: ﴿كل أمر ذي بال لم يذكر فيه باسم الله فهو أبتر﴾^(١) أي مقطوع لا دوام له ولا أثر، والمراد بذی بال إما ذو الشأن والاعتبار الذي يبقى في البال دون الأمور الحاقيرة كما ذهب إليه جماعة، فكل أمر ذي شأن لكي يبقى في ذهنه ليبدأ فيه باسم الله حتى مثل الزواج والحج ونحوهما التي هي من الأمور التي لا ينساها الإنسان، ومن باب المثال الزواج، فإن الإنسان حينما يشيخ ويكبر وينسى كثيراً من الأشياء ولكن غالباً لا ينسى يوم زواجه، فإذا بدأ زواجه باسم الله صادقاً مخلصاً حصل على بركة الزواج بدوامه، وتكون الذرية الناشئة منه مباركة، بخلاف من يبدأ زواجه بالمعاصي والمنكرات والغناء والرقص وشرب الخمر، فإنه يبدأ بالشيطان ومكدراته.

(١) تفسير الإمام العسكري عليه السلام: ص ٢٥، ح ٧؛ البحار: ج ٨٩، ص ٢٤٢، ح ٤٨؛ مسند أحمد: ج ٢، ص ٣٥٩، وفيه: ﴿كل كلام أو أمر ذي بال لا يفتح بذكر الله عز وجل فهو أبتر، أو قال: أقطع﴾.

سبب كثرة الطلاق

ولعل هذا أحد أسباب كثرة الطلاق في المجتمعات الإسلامية اليوم؛ لأنّ العادات والتقاليد والثقافات المستوردة من الخارج تنسي القيم الأصيلة التي جاء بها الدين لبناء الحياة الأسرية، والشرع وضع آداباً وأحكاماً للزواج ليتأسس على أساس رباني ورحماني، وفي ليلة الدخلة التي هي مهمة صيرّها الدين ليلة دعاء وصلاة وذكر؛ ليجعل غاية الزواج نقيّة بالعفة والغاية السامية. هذا النوع من الزواج يكون مباركاً، أما الزواج الذي يبدأ بالمنكرات فالشيطان حاضر فيه، ويشاركهم في الأموال والأولاد، ويزيل عنهم البركة، فكل أمر مهم لا يبدأ فيه بالبسملة يكون أبتّر، هذا معنى.

أو المعنى أن كل أمر يذكر كبيراً كان أو صغيراً، وعظيماً كان أو حقيراً، لا بد وأن يبدأ فيه باسم الله حتى يكون مباركاً ويبقى، وهذا هو الأوفق، ويدل عليه العقل والنقل. أما العقل فلأنه يحكم بقصور الإنسان عن فعل شيء دون إعانة من الله سبحانه؛ لأن كل قدرة في الممكنات هي عرضية مكتسبة منه، ولا يوجد قادر في الوجود بالقدرة الذاتية إلا سبحانه هو، فإذا لا يقدر الباري الإنسان فإنه يقصر عن تحريك يده، أو حمل ريشة، فليذكر الإنسان عجزه حينما كان نطفة، وهو في آخره ينزل إلى أرذل العمر، وفي وسطه ما يحمله في جوفه، فقدرة الإنسان ليست منه، فإنه إذا نام لا يملك القدرة على الاستيقاظ، ولو استيقظ وأخذ الأرق يعجز عن النوم، فمن الذي يوقظه إذا نام؟ وإذا تأرق من يأتيه بالنوم؟ فلا بد أن يلتفت الإنسان لهذه الحقائق حتى يكون عبداً لله لا لشیطانة ونفسه، ويكسر غروره وكبرياه.

أطلب حتى ملح طعامك

وأما النقل فلما تضافر في النصوص الشريفة من الحث على أن يسأل العبد ربه كل ما يريد حتى ملح طعامه وعلف شاته^(١)، فضلاً عن عظام الأمور، وهذا هو التوحيد الخالص والانقطاع إلى الله سبحانه، أن يركن الإنسان إلى ربه في كل شؤونه الصغيرة والكبيرة، وينقطع من كل حول وقوة إلا به، وهذا أحد وجوه تسمية الاسم الأعظم بالبسملة؛ لأن العبد إذا ابتدأ أموره بهذه العقيدة والانقطاع نال الأثر قطعاً، واستجيب دعاؤه، وبلغ غايته، ولا يستطيع أن يغلبه عدو أو يقهره مانع، وبهذا يظهر اللطف البالغ في الابتداء بالبسملة، كما يظهر وجوب أن يكون الابتداء باسم الله سبحانه لا بالفعل والقول الذي يقوم به العبد، فالحسن والبلاغة وتمام الدلالة أن يقول العبد: (باسم الله أقرأ) و: (باسم الله أكل وأنام وأمشي وأتكلم) وليس صحيحاً أن يقول: (أتكلم باسم الله) و(أنام باسم الله)؛ لأنّ هذا من التناقض والمحال؛ لأن معنى أتكلم باسم الله أنه من دون اسمه تعالى قادر على الكلام والفعل، وباسمه سبحانه يشرف عمله، والحال أنه من دونه لا يقدر على فعل أو قول.

لطائف اسم الجلالة

ومن لطائف اسمه تبارك وتعالى (الله) أنه يدل عليه، ويحصر التأثير به في أي صيغة ورد، فإذا حذف الألف منه صار (له) وإذا حذفنا اللام الأولى صار (له)

(١) المجتنبى من دعاء المجتنبى: ص ٦.

وإذا حذفنا اللام الثانية صار (هو) وكلما قل منه حرف تخصص أكثر في المعنى، ومعنى ذلك أنه محيط بالأشياء، ولا يخلو منه خلق ومخلوق وزمان ومكان.

اللطيفة الثانية: غاية التخفيف في البسملة

أن البسملة وردت بصيغة التخفيف (بسم الله) مع أن المعنى أبدأ (باسم الله) لإشعار العبد بأمور ثلاثة:

الأول: أن الأمور تبدأ بالتسهيل والتخفيف، وهذا من بواعث التفاؤل والمحفز على العمل، وهي قاعدة نفسية عامة، فمن استسهل الصعب سهل عليه، ومن استصعب السهل صعب عليه، وحيث إن الله سبحانه عند حسن ظن العبد فإنه يسهل له الأمور، ويدفع عنه العسير، وهي مرتبة من مراتب الاستعانة والإعانة.

الثاني: المحبة والرحمة الإلهية، فإن الابتداء يكون باسم الله المتصف بالرحمن الرحيم، ومن شأن الرحيم أن يتجاوز عن العبد، ويسهل أمره، ويقضي حاجته، بما يوحى له أن يتعامل هو الآخر مع الناس والأشياء بمنطق الرحمة والتسامح لا التشديد، وهو من عوامل النجاح في الأعمال.

الثالث: والابتداء يكون باسمه سبحانه، ولكل حرف من حروف الاسم يشير إلى صفة من صفاته العليا، فالباء بهاء الله، والسين سناء الله، والميم ملك الله، كما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام^(١).

(١) تفسير القمي: ج ١، ص ٢٨؛ الكافي: ج ١، ص ١١٤، ح ١؛ البحار: ج ٨٩، ص ٢٣١، ح ١١.

والبهاء الحسن والجمال والعظمة^(١) سمي بذلك لأن الناظر إليه يأنس به ويحب قربَه^(٢) ، والسناء الرفعة وعلو الشأن، وفي الخبر: ﴿بشّر أمتي بالسناء﴾ أي بارتفاع القدر والمنزلة عند الله^(٣) ، والضوء يعبر عنه بالسناء؛ لارتفاعه وعلوه في الآفاق والأنظار^(٤) ، وبهذا يكون معنى الابتداء بالبسملة الاستعانة بحسن الله وجماله ورفعته وعلو شأنه، وبملكه الذي لا يزول ولا ينقص ولا يضعف، وبمثلها يضمن الإنسان مطالبه؛ لأن الجميل العظيم يقبح به أن يرد الضعيف المحتاج إذا استعان به، وعالي الشأن والمنزلة يتنزّه عن نواقص الرد، والمالك المطلق الذي ملكه لا يجد ولا ينقص لا يخل بعطاءه وجوده، فلو ابتدأ الإنسان يومه وصباحه بالبسملة لاسيما في صلاة الفجر وبدأ عمله بالبسملة وتوسط نهاره بالبسملة وختم يومه بها يكون دائماً مأنوساً بالله، وسعيداً بقربه، وآمناً مطمئناً به، بخلاف من يبدأ يومه وصباحه وتوسطه وختمه بغيرها، فإنه محروم من كل هذا الفضل، ولذا تكون أعماله بتراء كما نصت عليه الرواية^(٥) .

-
- (١) مجمع البحرين: ج ١، ص ٦٩، (بها)؛ معجم الفروق اللغوية: ص ١٠٦، (٤٢١).
 (٢) معجم مقاييس اللغة: ج ١، ص ٣٠٧، (بها)؛ المعجم الوسيط: ج ١، ص ٧٢، (بها).
 (٣) مفردات الراغب: ص ٢٤٥، (سنا)؛ لسان العرب: ج ١٤، ص ٤٠٣، (سنا)؛ تاج العروس: ج ١٩، ص ٥٤٢، (سنى).
 (٤) معجم مقاييس اللغة: ج ٣، ص ١٠٣، (سنى)؛ المعجم الوسيط: ج ١، ص ٤٥٦، (سنا).
 (٥) تفسير الإمام العسكري عليه السلام: ص ٢٥، ح ٧؛ البحار: ج ٨٩، ص ٢٤٢، ح ٤٨؛ مسند أحمد: ج ٢، ص ٣٥٩.

اللطيفة الثالثة: تصحيح الأساليب الخاطئة

أن الابتداء بالبسملة يحاكي عقلية الناس في الكبرى، ويصحح عندهم الصغرى، فقد كان العرب قبل الإسلام يبدؤون أعمالهم بأسماء آلهتهم، فيقول باسم اللات أو باسم العزى، وكذلك كان يفعل غيرهم من الأمم، فإذا أراد امرؤ منهم أن يفعل أمراً مرضاة لملك أو أمير يقول أعمله باسم فلان، أي أن ذلك العمل لا وجود له لولا ذلك الملك أو الأمير، فغيّر الباري هذا المفهوم الخاطئ في الاعتقاد والتوكل والابتداء، وجعل مفتاح كتابه البسملة؛ ليعلمهم أن الابتداء يقوم على اسم الله ورحمته. هو الوحيد الجدير بالابتداء باسمه والاعتقاد والاستعانة به، كما علمهم الإخلاص في ذلك، فمعنى ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ أنني أبتدئ عملي بأمر الله والله لا لحظ نفسي وشهواتها، وهو ما يقضي به العقل والوجدان؛ لأن فعل الإنسان يعود إلى القدرة، فلولا قدرته على العمل ما عمل شيئاً، ففعل الإنسان واسطة، والقدرة من الله، ونسبة الفعل إلى السبب والعلة أولى من نسبته إلى الواسطة، فكل ما يفعله الإنسان هو باسمه تعالى؛ لأنه صدر بحوله وقوته وعونه وإذنه، وحيث جعلت البسملة مفتاحاً للقرآن وجلّ سوره تدل البشر أيضاً على حقيقتين:

كل ما في القرآن إلهي

الأولى: أن كل ما جاء في القرآن من تعاليم وأحكام ومبادئ ومواعظ وآداب هي من الله سبحانه وباسمه لا باسم غيره، فتكتسب قدرتها وقدسيّتها ومكانتها منه، فكل ما في القرآن إلهي ليس من تأليف بشر ولا من إبداعاتهم؛ لذا يقرؤها كل الناس حتى رسول الله ﷺ في كل تلاوة وصلاة.

الثانية: أن كل ما يأتي به النبي ﷺ من القرآن ويتلوه عليهم ويدعوهم إلى تلاوته لا يريد به نفسه، ولا يطلب أن يتسيد عليهم، أو ينال مالا أو منصباً لا يريد إلا الله باسمه ولأجله، وهو واسطة بين الله وبين خلقه، وهو عبد مأمور مسلم لأمر الله، فلا ينبغي أن ينظر إلى النبي ﷺ نظرة عصبية أو مصلحة كما كان يتصور الكفار والمشركون؛ لذا قال تعالى: ﴿وَأْمُرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ * وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾^(١) وقال: ﴿إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ لالفاتهم إلى أنه ليس الوحيد الذي دعا قومه لله، بل منذرون كثر جاؤوا إلى أهمهم ومضوا على هذا السبيل، وهذا أدعى لقبولهم بالإسلام؛ لأنّ تجريد الدعوة من الدواعي والأغراض الشخصية ينزهها في قلوب الناس، ويدعوهم للإيمان بها^(٢).

اللطيفة الرابعة: أصالة الرحمة في السنن

أن الابتداء بالبسملة باسم الله المتصف بالرحمة الرحمانية والرحيمية يدل على أمرين:

الأول: أن الأصل في السنن الإلهية هي الرحمة لا الغضب. يشهد له قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾^(٣) والشيء الذي تسعه ما يظن أنه من مواطن الغضب كالعقاب والعذاب ومحاسبة المذنبين في الآخرة؛ لأنه رحمة

(١) سورة النمل: الآيتان ٩١ و ٩٢.

(٢) تفسير المراغي: ج ١، ص ٢٨.

(٣) سورة الأعراف: الآية ١٥٦.

نوعية يقوم عليها النظام والعدل، وشخصية لأنها تطهّر المجرم من الدناءة والنقصان؛ لذا قال حملة العرش: ﴿وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةٌ﴾^(١) فالنار وحرق المذنبين فيها هو رحمة في جوهره وإن كان في ظاهره غضباً.

خُلِقَ الناس للرحمة

والثاني: أن الناس خلقوا للرحمة وينبغي لهم أن يتعاملوا بالرحمة والمحبة، ويبدؤوا أمورهم بذلك لا بالشدة، فيحسنوا الظن بأنفسهم وبربهم وبسائر من يتعاملون معه، ويعزز ذلك الشواهد:

الشاهد الأول: أنه سبحانه أوجب على الناس ذكر البسملة في خمس صلوات مفروضة في كل صلاة أربع مرات؛ لترسيخ هذه القيمة في النفوس والعقول والسلوك العام.

صرامة العقاب لماذا؟

الشاهد الثاني: أنه سبحانه لم يذكر البسملة في سورة التوبة؛ لأنه ابتداءً بالأمر بالبراءة من المشركين ومجاهدتهم، فإن الجهاد يستدعي الشدة والعزم على القتال، وهو لا يتوافق مع الرحمة، بالرغم من أن الروح العامة للجهاد هي الرحمة، فما هو غير رحمة بالنسبة إلى شخص قد يكون رحمة بلحاظ النوع، وهذه قضية مهمة تنحل بها الكثير من الشبهات التي تثار عن رحمة الإسلام وسلميته وسماحته، بينما يأمر بالجهاد ويشدد في عقوبة الجناة، ويحث على الدعاء ولا يستجاب لبعضهم، فإنّ هذه الأمور تحل بملاحظة

(١) سورة غافر: الآية ٧.

المصلحة الشخصية والمصلحة النوعية، فإنَّ الجهاد قد يوجب الضرر على المجاهد لكنه في مصلحة الأمة؛ لأنه يحررها من أعدائها، والعقاب الصارم قد يكون شديداً على الشخص لكنه يقطع دابر الفساد من المجتمع، والدعاء قد لا يستجاب للشخص وهو أمر قد يؤذيه لكن قد تكون المصلحة النوعية لنظام الوجود أن لا يستجاب وهكذا.

الشاهد الثالث: أنه سبحانه جعل الواجب لدى ذبح الحيوان وتذكيته هو ذكر اسمه سبحانه؛ إذ قال سبحانه: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾^(١) ويكفي في اسم الله سبحانه أن يقول: (باسم الله)^(٢) أو (باسم الله على أوله وآخره)^(٣) وورد في رواية محمد بن مسلم أن التسييح والتكبير والتهليل والتحميد من أسماء الله تعالى^(٤)، ولم يرد ذكره تعالى بالبسملة والرحمة.

الشاهد الرابع: أن الأنبياء وأتباعهم توسلوا بربهم في الشدائد بالرحمة، فقوم موسى عليه السلام قالوا: ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ﴾^(٥) ولما أنجى هوداً عليه السلام وقومه قال: ﴿فَأَنْجِينَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾^(٦) فكل استمداد وإغاثة وإنقاذ

(١) سورة الأنعام: الآية ١١٨.

(٢) التهذيب: ج ٩، ص ٦٩، ح ٢٩٣؛ الوسائل: ج ٢٤، الباب ١٥ من أبواب الذبائح، ص ٣٠، ح ٢٩٩٠٧.

(٣) الكافي: ج ٦، ص ٢٣٣، ح ٤؛ الوسائل: ج ٢٤، الباب ١٥ من أبواب الذبائح، ص ٣٠، ح ٢٩٩٠٦.

(٤) الكافي: ج ٦، ص ٢٣٤، ح ٥؛ الفقيه: ج ٣، ص ٣٣٣، ح ٤١٨٧.

(٥) سورة يونس: الآية ٨٦.

(٦) سورة الأعراف: الآية ٧٢.

طريقه الرحمة، ومقتضى الجمع بينها وبين ما دل من وصف النبي وعترته صلوات الله عليهم بالرحمة الإلهية يتضح أنهم توسلوا بشفاعه محمد وآل محمد ﷺ للنجاة من شدايدهم.

شعار الرحمة وغايته

الشاهد الخامس: في باب الجهاد حبيب الباري عز وجل اتخذ الرايات وهي رمز الجيش وشعاره، وفي الغالب يكتب عليها بعض الآيات أو الأذكار المعززة للقوة المعنوية للجيش، والدالة على غاية الجهاد وأهدافه الإلهية، وقد روى الحميري في قرب الإسناد عن الإمام الصادق ﷺ عن أبيه عن آبائه ﷺ: ﴿أن رسول الله ﷺ بعث علياً ﷺ يوم بني قريظة بالراية وكانت سوداء تدعى العقاب، وكان لواؤه أبيض^(١) والراية العلم الكبير الذي يتولاه صاحب الحرب ويقاقل عليه وإليه تميل المقاتلة، واللواء دون ذلك، وهو علامة كبكبة الأمير تدور معه حيث دار^(٢).

وروى الشيخ بسنده عن الإمام الصادق ﷺ عن أبيه ﷺ قال: ﴿أول من قاتل إبراهيم ﷺ حين أسرت الروم لوطاً فنفر إبراهيم ﷺ حتى استنقذه من أيديهم - إلى أن قال - وأول من اتخذ الرايات إبراهيم ﷺ عليها لا إله إلا الله^(٣) ويتخذ المقاتلون شعاراً لهم يرفعونه في المعركة.

(١) قرب الإسناد: ج ١، ص ١٣١؛ الوسائل: ج ١٥، الباب ٦٢ من أبواب جهاد العدو، ص ١٤٤، ح ٢٠١٧٧؛ البحار: ج ٢٠، ص ٢٤٦، ح ١٢.

(٢) مجمع البحرين: ج ١، ص ١٩٩، (روى)؛ البحار: ج ٢٠، ص ٢٤٦، ح ١٢.

(٣) التهذيب: ج ٦، ص ١٧٠، ح ٣٢٨؛ الوسائل: ج ١٥، الباب ٦٢ من أبواب
←

ففي صحيح ابن عمار عن الإمام الصادق عليه السلام قال: ﴿شعارنا يا محمد يا محمد، وشعارنا يوم بدر يا نصر الله اقترب، وشعار المسلمين يوم أُحد يا نصر الله اقترب - إلى أن قال - ويوم صفين يا نصر الله، وشعار الحسين يا محمد، وشعارنا يا محمد﴾^(١) إلى غير ذلك من موارد عديدة.

ونلاحظ أن البسملة مع أنها شعار المسلمين في كل مجال ومعتكز لكنها في الحرب والجهاد لم تتخذ شعاراً؛ لأنها مشتملة على الابتداء بالعمل بالرحمة والدوام عليه، وهي لا تناسب موضوع الجهاد ومقتضياته.

اللطيفة الخامسة: لطف الأسماء في البسملة

تضمنت البسملة ثلاثة أسماء إلهية (الله، الرحمن، الرحيم) دون غيرها، وفي ذلك لطف إلهي خاص يظهر من ثلاث جهات:

الأولى: ليعرف الناس أن الكلمات القرآنية كلها محسوبة، فلا يوجد نقص أو زيادة أو جزافية في التعبير، وكل شيء عنده بمقدار.

الثانية: لكي يتعلم الناس من القرآن ويستعينوا به ويستغنوا عن غيره، فإن كل طالب معرفة لو تأمل في آيات الكتاب ودرسها دراسة واقعية فتحت له أبواباً من المعرفة ولبت حاجته إجمالاً أو تفصيلاً، فلو لجأ إليه الإلهيون كشف



جهاد العدو، ص ١٤٤، ح ٢٠١٧٦؛ البحار: ج ٤٢، ص ٥٩، ح ١.

(١) الكافي: ج ٥، ص ٤٧، ح ١؛ الوسائل: ج ١٥، الباب ٥٦ من أبواب جهاد

العدو، ص ١٣٨، ح ٢، ٢٠١٦٠؛ البحار: ج ١٩، ص ١٦٣، ح ١.

لهم ما يريدون، ولو لجأ إليه علماء النفس والاجتماع أو علماء الأخلاق أعطاهم حاجتهم، ولو لجأ إليه الملك والسلطان والسياسي أعطاه حاجته، فكل من يلجأ إلى القرآن يهديه للتي هي أقوم بشرط أن يلجأ ليتعلم منه.

أثر الأسماء الحسنة

الثالثة: ليعرف الناس أهمية الأسماء وعمق تأثيرها على أهلها، فإن للأسماء الحسنة تأثيرات حسنة على أهلها، وللأسماء القبيحة كذلك، حتى في أسماء الأولاد فما هو الأثر الذي يترتب على الولد الذي اسمه محمد وحسن وحسين والبنت التي اسمها فاطمة، والوالد الذي يسمي ولده بأسماء أخرى مناهضة، مثل معاوية ويزيد وهند وأمثالها، فالطاقة الإيجابية للأسماء كبيرة، وينبغي للمؤمن أن يتأدب بأدب القرآن في اختيار الأسماء لأولاده أو لمؤسسة يقيمها أو مدرسة يبنها... وهكذا البسملة ابتدأت بثلاثة أسماء لثلاث مزايا:

دلائل الأسماء في البسملة

الأولى: السعة والشمول، فقد افتتح الباري بهما كتابه التكويني والتدويني معاً، فبعلو شأنه ورحمته أوجد العالم وهداهم إلى مصالحهم، وأنزل عليهم كتبه، والسعة في الرحمة جليلة.

وأما في لفظ الجلالة فيستفاد من الأخبار الشريفة أن لفظ الجلالة (الله) متميز بخصوصية لم يحظ بها اسم في الوجود؛ لأن المغايرة بين المشتق والجامد متضادة، والاسم إما أن يكون مشتقاً فهو ليس بجامد، أو جامداً

فهو ليس بمشتق، أما الاسم الذي يجمع صفتي الاشتقاق والجمود ليس إلا لفظ الجلالة، وهذا من دلائل سعته سبحانه، وعدم محدوديته بحد حتى مثل حد الاشتقاق والجمود، وتنزهه عن صفات المخلوقين.

فعن الإمام الباقر عليه السلام في تفسيره قال: ﴿الله معناه المعبود الذي أله الخلق عن درك ماهيته والإحاطة بكيفيته، ويقول العرب: أله الرجل إذا تحير في الشيء فلم يحط به علماً، ووله إذا فزع إلى شيء مما يحذره ويخافه﴾^(١). ومفاده أن الاسم المبارك مشتق.

وورد عن أمير المؤمنين عليه السلام ما يفيد أنه جامد، فقد قام إليه رجل وقال يا أمير المؤمنين! أخبرني عن ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ما معناه؟ فقال: ﴿إن قولك (الله) أعظم اسم من أسماء الله عز وجل، وهو الاسم الذي لا ينبغي أن يسمّى به غير الله ولم يتسم به مخلوق﴾^(٢) وهو ظاهر في أن الاسم المبارك علم للذات المقدسة لا يشاركه فيه غيره، واسم العلم يكون جامداً. وتعززه شواهد:

خصائص اسم الجلالة

الأول: كلمة الإخلاص (لا إله إلا الله) فإنّها لا تستقيم دلالتها على التوحيد إلا إذا حمل الاسم المبارك على العَلَمِيّة.

(١) التوحيد: ص ٨٩، ح ٢؛ البحار: ج ٣، ص ٢٢٢، ح ١٢؛ الوافي: ج ١، ص ٣٦٥.
 (٢) التوحيد: ص ٢٣١، ح ٥؛ البحار: ج ٨٩، ص ٢٣٢، ح ١٤؛ جامع أحاديث الشيعة: ج ١٥، ص ٣٧٦، ح ١٢٠١.

والثاني: أن اللام فيه مفخمة ولا توجد في العربية الفصحى لام مفخمة إلا في لفظ الجلالة^(١)، وذلك لا يكون إلا في اسم العلم.

والثالث: أنه يطلق اسماً ولا يطلق وصفاً، فهو موصوف لجميع الأسماء الحسنى ولا يصح وصفها به، فيقال: الله رحمن رحيم، ولا يقال الرحمن الله مثلاً.

والرابع: أن العرب في الجاهلية كانوا إذا سُئلوا مَنْ خلق السماوات والأرض؟ يقولون: الله، وإذا سُئلوا هل خلقت اللات والعزى شيئاً من ذلك؟ يجيبون: لا^(٢). مما يدل على أن (الله) كان لديهم علم مختص بالباري عز وجل ولم يطلق على غيره، ولكن لأن صفاته عين الذات، والجهة الوصفية لا تنفك عن جهة الذات فإنه يكون اسم علم ووصف في عين الحال؛ ولذا فسره الأئمة عليهم السلام تارة بالجمود، وتارة بالاشتقاق، وفي الرواية المتقدمة التي نص الإمام أمير المؤمنين عليه السلام فيها على أنه اسم خاص لا يشاركه فيه أحد. قال الرجل بما يفسر قوله (الله)؟ فقال عليه السلام: ﴿هو الذي يتأله إليه عند الحوائج والشدائد كل مخلوق عند انقطاع الرجاء من جميع مَنْ هو دونه﴾^(٣) ففسره بالوصف، وبهذا يتطابق الاسم والصفة في السعة والشمول.

(١) خواطري عن القرآن: ج ١، ص ٥٧.

(٢) تفسير المراغي: ج ١، ص ٢٧؛ تفسير المنار: ج ١، ص ٣٧.

(٣) التوحيد: ص ٢٣١، ح ٥؛ البحار: ج ٨٩، ص ٢٣٢، ح ١٤؛ جامع أحاديث الشيعة: ج ١٥، ص ٣٧٦، ح ١٢٠١.

عقل الموجودات وعبوديتها

الثانية: أن الغاية من الابتداء بأسمائه سبحانه هو إظهار جهة الفقر والحاجة والاستعانة به عز وجل، كما ورد في بعض الأخبار في معنى (باسم الله) أي استعين بالله^(١)، فإن الاستعانة المطلقة من كل جهة تستدعي الإعانة من كل جهة، وذلك يستدعي أن تكون التسمية بأوسع الأسماء وأكثرها إحاطة بالمخلوقات.

وبيان ذلك: أن البرهان والوجدان يشهدان على أن الوجود ملازم للحياة والشعور؛ لأنه أثر الحي العالم السميع البصير، فكل ما له حظ من الوجود مهما صغر فإن له حظاً من الشعور، فشدة الوجود ملازمة لشدة الشعور، وهذا ما نلاحظه في مراتب المخلوقات، فإن شعور الإنسان أعظم وأشد من شعور الحيوان، وهو الآخر شعوره أشد من النبات، وشعوره أشد من الجماد، ولكن جميعها بحسب نسبتها في الحياة والشعور تدرك وتعرف ربها وتسبحه ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾^(٢) والفقه وضمير الجمع الذي يستعمل للعاقل يدلان على وجود العقل في الأشياء؛ لذا قالت الآية يسبح بالحمد لا بالشكر، ومعنى ذلك أن الأشياء قادرة على التمييز بين الحمد والشكر والصلاة والذكر، وأدنى مراتب الشعور أن يدرك المخلوق أنه مصنوع وله صانع، وله كامل

(١) التوحيد: ص ٢٣٠، ح ٥؛ البحار: ج ٨٩، ص ٢٣٢، ح ١٤؛ جامع أحاديث الشيعة: ج ١٥، ص ٣٧٦، ح ١٢٠١.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٤٤.

الفضل في إيجاده، وهذا الإدراك في نفسه يصيِّره عبداً خاضعاً مطيعاً لصانعه وموجده، ولذا يسبِّح بحمده.

إيمان الموجودات بالنبي والإمام عليهما السلام

وتضافرت الأدلة على أن جميع الموجودات تمضي بهذا السبيل، فتعرف أن لها خالقاً ولها حجة إلهية يجب عليها الخضوع والطاعة لهما وهو النبي والإمام عليهما السلام، كما تدرك بأن هذه العلاقة علاقة الفقر والحاجة والاستمداد لا تنتهي، بل دائمة مستمرة، فلذا جميع الخلق متجهون إلى خالقهم، خاضعون له، وسائلون فيضه، وأنهم بدوام الإفاضة باقون يزاولون حياتهم، ولو انقطع عنهم الفيض لحظة فنوا وتحولوا إلى العدم، وهذا الشعور العالي لا ينكره إلا الإنسان، فإنه بسبب جهله وغروره وتكبره قد يحدد ذلك، ولكن جحوده لا يغيّر من الحقيقة شيئاً، فإنه مستمد حتى في صورة إنكاره، فالمنكرون للخالق أو لدوام فيضه ورحمته إما تبدلت فطرهم وقست قلوبهم وصاروا أمواتاً لا يشعرون بها، وإما يعاندون ويكابرون وهم في واقعهم يدركون.

العبودية والربوبية باسم الله

فالعبودية والربوبية حقيقة تكوينية لا تنقطع ولا تضعف أو تزول، وبها حدث الوجود ودام واستقر، وتقوم على (اسم الله) سبحانه الجامع لكل صفات الخير والجمال، والرحمن بجميع خلقه، والرحيم بالمؤمنين خاصة، فلولاً هذه الأسماء المباركة لانقطع الفيض عن العالم حدوثاً وبقاءً، وهذه

خصوصية تتعلق بهذه الأسماء المباركة دون غيرها، وبذلك يتضح سرّ اختيار هذه الأسماء الثلاثة دون غيرها من الأسماء، وقال الباري عزّ وجلّ: ابتدئوا واستعينوا باسم الله الرحمن الرحيم دون باقي الأسماء الإلهية العظيمة، فإن هذا مقتضى العبودية والربوبية، فعلى الذي يسعى إلى العبودية الكاملة ويلجأ إلى الربوبية الكاملة أن يعرف أن المنطلق والمبدأ هو الرحمة، والإعانة والاستعانة تتوقف على هذه الحقيقة.

قصور المخلوق

وتوضيحه: أن العطاء يأتي على نحو التدرج لا الدفع، وشأن الأمور الدنيوية أن المقدرات لا بد وأن تطوي مرحلة الإمكانيات الاستعدادية حتى تتحقق، ولولا ذلك لا تتحقق. أمثل لذلك بمثال من المحسوس، المهندس الذي يبني بناية ليس من المعقول أن يبنّيها دفعة؛ لقصور في الأشياء أن تكون هكذا مهما كان عبقرياً والإمكانيات متاحة له، بل لا بد من التدرج، فأولاً يجب أن يمتلك ملكة الهندسة وهذه قدرة ذاتية، ثم يقدر ويريد أن يبني البناية ويرسم الخطة وهذه مرحلة الإرادة، ثم بعدها يبدأ بالتنفيذ. هذه المراحل يجب أن تطوى حتى توجد البناية، وهكذا سائر الأعمال والتخصصات، فلا يوجد في العالم الإمكان ما يتحقق دفعة، لكنّ الله إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون^(١). أما كل ما سواه فوقعها وفعلها يكون تدريجياً، وحتى يعطي الباري الإعانة للمخلوق حينما يقول باسم الله فإن هذا الاسم المبارك له جهة

(١) إشارة إلى سورة يس: الآية ٨٢.

إحاطة وسعة لا يمكن ان يفيض على المخلوق ما يريد دفعة؛ لقصور المقدور عن تلقي ذلك واستيعابه، فلا بد من وجود جهة تعلق به، وجهة التعلق رحمانية، فمن جهة رحانيته يريد الخلق فيخلقه ويعينه لا من جهة علمه وحكمته وعزته مثلاً، وإنما من جهة الرحمة، ثم بعد هذه الجهة الرحمانية في الإرادة تأتي الجهة الرحيمية في العطاء فيتم الإمداد، فالجهة الرحيمية هي جهة الفعل، والرحمانية هي جهة الصفة الذاتية، والله هو الاسم الجامع لكل صفات الخير الإلهي، فقانون التدرج في الوجود يستدعي أن تكون البسملة بهذه الأسماء الثلاثة حتى تتحقق الإعانة والاستعانة.

الأسماء الجامعة لكل الأسماء

الثالثة: أن هذه الأسماء الثلاثة جامعة لخصائص الأسماء الإلهية الأخرى، فقد مرّ أن أسمائه سبحانه لا تعد ولا تحصى، ولدى ملاحظة النسبة بينها نجد أنها جميعاً منطقية في هذه الثلاثة؛ لذا جعل الابتداء بها؛ لأن ذكرها والابتداء والاستعانة بها من الابتداء والاستعانة بجميع الأسماء، ولا يقال لفظ الجلالة (الله) يكفي لأنه الاسم الجامع لجميع صفات الجمال والجلال؛ لأن دلالة الاسم المبارك عامة، والتأثير يستدعي وجود جهة تشخص وتحدد وفق الرحمة كما بيناه.

فالله سبحانه مبدأ الفيض الإلهي في الخلق والإيجاد، واسم الرحمن مبدأ تعلق الإرادة بهما، واسم الرحيم مبدأ الفعل وإفاضة النعم المادية بالرزق والمعنوية بالهداية، وبذلك تكتمل سلسلة الفيض الإلهي نزولاً وتتم الاستعانة.

المبحث الرابع: في تعاليم الآية المباركة



وهي قسمان:

أحدهما: يتعلق بالأمور العامة.

والثاني: بالأحكام الفقهية.

أولاً: التعاليم العامة

وهي عديدة:

التعليم الأول: فوائد الابتداء بالبسملة

افتتح الباري عزَّ وجلَّ أعظم كتبه باسمه تبارك وتعالى ليكون مفتتحاً للكتب ولكل سورة من سوره إلّا ما خرج؛ ليؤدب العباد بهذا الأدب في عموم أمورهم، فإنَّ أعمال الإنسان وأفكاره ومشاريعه وإنجازاته فضلاً عن أولاده وذريته وحتى بعض الصناعات كالأدوية والمركبات والأغذية تحتاج إلى تسمية، وهذا من مقتضيات الحكمة؛ لأن التسمية تفيد فوائد عديدة:

الأولى: تبلور العمل وتختصر دلالته بالاسم، ولذا نلاحظ أن الشركات تختار لنفسها اسماً تضعه على ما تنتجه؛ لأنه يختصر التعريف.

الثانية: التمييز بالأثر، فإن للاسم التأثير على النفوس والخواطر، كما أنه يميز الناس في أفكارهم ومواقفهم، فمن باب المثال حينما تقول (علي) وتقول (معاوية) كم يظهر من تأثير على النفس لكل واحد من الاسمين،

فالذي سمى ولده علياً والآخر الذي سَمَّاه معاوية يكشف عن التفاوت بينهما في الأفكار والمواقف، فإن الاسم يكشف عن جوهر الفكر والطريق الذي يمضي عليه صاحبه.

الثالثة: التبرك والتمن بالأسماء الجميلة أو التشرف بها.

العبادة بالأسماء الشريفة

الرابعة: التذكير والتذكر بالدلائل التي يشتملها الاسم، فإن الكثير من أسماء الشركات والصناعات والمؤسسات خلد اسمها بسبب خلود اسم من تسمت به، انظر مثلاً الرجل الذي سمى بنته فدكاً مثلاً لماذا وبماذا يذكّره هذا الاسم؟ إنه يكشف عن معتقده وموقفه، ويلخص لديه جانباً كبيراً من التأريخ والظلم الذي وقع على سيدة الوجود ﷺ، فما دام هذا الاسم في بيته فإنه يذكر فاطمة ﷺ ومظلوميتها، وذكر فاطمة ﷺ عبادة توجب الخير والسلامة على أهل البيت، فهذا من مواطن الذكر الدائم والعبادة المستمرة، فإن العبادة لا تنحصر بالصلاة والصيام، بل ذكر محمد وآل محمد ﷺ والظلم الواقع عليهم والبراءة من أعدائهم من أعلى مراتب الذكر، فبالتسمية يمكن أن يجعل الإنسان كل وقته عبادة وذكرًا وعلوًا في الدرجات؛ لذا ورد في الأحاديث أن البيت الذي فيه بنت اسمها فاطمة لا يفتقر أبداً^(١)، فإنّها تظلم البيت وأهله من الشر، وقد أوصى الإمام الصادق ﷺ أحد الآباء الذي سمى ابنته فاطمة فقال: ﴿فلا تسبها ولا

(١) الكافي: ج ٦، ص ١٩، ح ٨؛ التهذيب: ج ٧، ص ٤٣٨؛ ح ١٧٤٨.

تلعنّها ولا تضربها^(١) إشارة إلى مصيبة فاطمة عليها السلام ومظلوميتها؛ لأن الاسم يذكر بالمعاني المنطوية تحته.

ملاكات وضع الأسماء

ومن هنا جرت الطريقة لدى العقلاء على اختيار الأسماء طبق ثلاثة ملاكات:
الأول: القضايا المهمة، فمثلاً البعض يسمي شركته بالغدير أو بدر أو خبير تذكراً أو تذكيراً بواقعة الغدير المباركة وبدر وخبير.

الثاني: المبادئ والقيم العالية التي يمثلها الاسم، نظير تسمية البعض بحاتم تذكراً وإشادة بمبدأ الكرم الذي حمله من عُرف به وهو حاتم الطائي.

الثالث: جمال الاسم وما يوحي به من دلائل، مثل محمد وعلي وفاطمة، فإن كل واحد منها يرمز إلى المسمى الأول أو الأفضل والذي به تميّز بخصال الكمال والجلال، ويتيمن من يضع هذا الاسم على ولده أو مشروعه تيمناً وتأسياً واقتداءً، وقد أراد القرآن أن يعلم الناس هذه الحقيقة في قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾^(٢) وقد تضمنت الآية إخباراً وإنشاءً.

الأول: الإخبار. إن الناس لا يغفلون عن ذكر آبائهم، والسيرة شاهدة على أن المراد بالأب المفهوم العام الذي يشمل الزعماء والقادة والعظماء

(١) الكافي: ج ٦، ص ٤٩، ح ٦؛ الوسائل: ج ٢١، الباب ٨٧ من أبواب أحكام الأولاد، ص ٤٨٢، ح ٢٧٦٤٧.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٠٠.

الذين يحبونهم فيقيمون ويتشرفون بهم، ويضعون أسماءهم على أولادهم وأعمالهم ومشاريعهم.

والثاني: الإنشاء. أي أمرهم بأن يذكروا الله سبحانه كما يذكرون آباءهم أو أشد؛ لأنهم إن كانوا يحبون آباءهم لأنهم أهل نعمة عليهم أو لأنهم أصولهم التي يتمنون إليها فإن الله سبحانه أولى بذلك؛ لأنه المنعم الحقيقي للآباء، ولأنه أصل وجود الجميع، فإن كان من يستحق الذكر واليمن والتشرف به فهو الله سبحانه الذي ابتداءً بالنعم قبل استحقاقها، وبرحمته أفاض الخيرات والبركات على الخلق.

مزايا التسمية بالأسماء المقدسة

والتسمية بأسمائه سبحانه أو ما يرتبط به من قضايا أو مبادئ وقيم أو أشخاص كالأنبياء والأولياء يحظى بمزايا كثيرة.

أولها: الخلود، فكل ما في الوجود زائل وفان إلا ما ارتبط بالله سبحانه، إلا أن الأنبياء بقوا في الوجود الإنساني بالرغم من مرور آلاف السنوات على بعضهم، وكذلك الأولياء والأوصياء، ومهما حاول الظلمة والطواغيت أن يمحوا وجودهم من الأرض ويزيلوا أسماءهم فإنهم بقوا في القلوب والنفوس يهدون البشرية إلى مصالحها، والفراغة الذين قتلوا الأنبياء لا تعرف أسماءهم إلا القليل النادر من باب التاريخ.

أما الأنبياء والأئمة فيشاد بذكرهم في كل آتات الزمان، وقد وظف بنو أمية ثمانين ألف منبر لسبب أمير المؤمنين عليه السلام ولعنه وقتل من يذكره

ويتولاه^(١)، واستمروا على هذا الحال أكثر من نصف قرن، فزال بنو أمية وأسماء أولادهم، وبقي علي عليه السلام مفخرة إنسانية كبرى، ومعلماً ومرشداً يتعلم منه الخلق ويهتدون، وكذلك أبناؤه عليه السلام.

وهكذا الكتب والعلماء والصحف وغيرها مرّت في التاريخ البشري بما لا يمكن عدّه أو أحصاؤه إلا أن القرآن باق، ومهما حاول الأعداء تحريفه أو التقليل من قيمته أو تأثيره فإنهم يرحلون ويبقى القرآن في علو وارتفاع، وهذا هو الدرس المهم الذي يجب أن يتعلمه الناس ولا ينسوه، وهو أن التسميات يجب أن ترتبط بالله تعالى وما يعود إليه؛ لأنّ ذلك من أسباب البقاء والخلود، وغيره يزول ويفنى.

خواص الأسماء وآثارها

ثانيها: الإيحاء الإيجابي على المسمى؛ لأنّ أسماء الله سبحانه توحى بالقدرة والعزم والثقة وحسن الظن بالنجاح، وهي تطابق مشاعر النفوس وأحاسيس القلوب فتتأثر بها وبالتسمية بها والاستماع لها، وتتخذ أوراذاً وأذكّاراً للمعالجات الروحية والبدنية، ولكل اسم خواص وآثار، مثل يا ودود لإيجاد المحبة، ويا مؤمن لإزالة القلق من النفوس، ويا رزاق لإفاضة الرزق، ويا شافي يا معافي للمعالجة من الأمراض وهكذا، فالابتداء بها من مقومات النجاح في كل عمل.

(١) عدة الأكياس في شرح معاني الأساس: ص ٢٨٤.

بركة الأسماء الإلهية

ثالثها: النمو والزيادة؛ لأنَّ لأسماء الله وما يرتبط به يُمن وبركة تنعكس على المسمى بها، ومن هنا ورد في الأخبار أن العبد إذا أراد أن يقرأ أو يعمل عملاً فليقل ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ فإنه يبارك فيه ^(١).

وعن الإمام الباقر عليه السلام أن الابتداء بالتسمية لا تختص بالأعمال العظيمة، بل كل أمر عظيم أو صغير إذا افتتح بالبسملة ليبارك فيه ^(٢)، والروايتان إخبار عن الواقع، وزادت الثانية بلام التأكيد لإفادة حتمية الوقوع، وهو ما تقتضيه الحكمة والبرهان من جهتين:

الأولى: جهة غيبية؛ لأنَّ الباري عزَّ وجلَّ وعد عباده باستجابة دعاء من دعاه ولجأ إليه واستعانه، والابتداء باسمه سبحانه هو استعانة ودعاء، فلا بد وأن يضمن العبد الإجابة؛ لأنَّ الله سبحانه لا يخلف وعده.

الثانية: جهة السنة الطبيعية؛ لأنَّ الأشياء كلها تعرف الله وتحبه وتطيعه وتسبحه، فلا يمكن أن تتخلف أو لا تستجيب إلى ذكر اسم الله سبحانه، ولذا ورد في الدعاء: ﴿يا من تحل به عقد المكاره... ذلَّت لقدرتك الصعاب، وتسببت بلطفك الأسباب، وجرى بقدرتك القضاء، ومضت على إرادتك

(١) تفسير الإمام العسكري عليه السلام: ص ٢٥، ح ٧؛ البرهان: ج ١، ص ١٠٦؛ البحار: ج ٨٩، ص ٢٤٢، ح ٤٨.

(٢) تفسير الإمام العسكري عليه السلام: ص ٢٨، ح ٩؛ تفسير الصافي: ج ١، ص ٦٢؛ الوسائل: ج ٧، الباب ١٧ من أبواب استحباب الابتداء بالبسملة، ص ١٧٠، ح ٩٠٣٠.

الأشياء، فهي بمشيئتك دون قولك مؤتمرة، وبإرادتك دون نهيك منزجرة^(١). وهو دعاء عظيم علّمه الإمام الهادي عليه السلام اليسع بن حمزة القمي، وقال: إنه دعاء آل محمد عليه السلام عند إشراف البلاء وظهور الأعداء، وعند تخوف الفقر وضيق الصدر^(٢). نعم يجب أن تتوفر الشروط حتى يحصل الإنسان على ذلك.

شرطان لتأثير الدعاء

وتتلخص الشروط في أمرين:

الأول: تطابق المصلحة الشخصية والنوعية في الإجابة؛ لأن في بعض الأحيان يكون الطلب في مصلحة الداعي لكنه في ضرر الغير فلا يستجيب الباري عز وجل له، كالرجل الذي يطلب الرزق الوفير والباري يعلم أن توفر رزقه يسوقه إلى الظلم والفساد فلا يعطيه؛ لأنه إضرار بنفسه، أو يسوق أولاده وذريته للظلم والفساد؛ لأنه يلبي لهم طلباتهم دون وازع وحدود، وهذا من موجبات الفساد فلا يستجيب له؛ لأنه إضرار بغيره، وهذه مسألة هامة جداً يعالج بها إشكال غالباً ما يثار، لماذا ندعو ولا يستجاب بينما الغير يدعو ويستجاب له، فإن المستشكل يغفل عن هذا الشرط الذي تقتضيه الحكمة، ويتصور أن الإجابة ناظرة إليه فقط، لكن الحكيم ينظر إلى المصلحة العامة أيضاً.

(١) إقبال الأعمال: ج ١، ص ٢٥٢؛ البحار: ج ٩٥، ص ١٩.

(٢) مهج الدعوات: ج ١، ص ٢٧١؛ البحار: ج ٥٠، ص ٢٢٤، ح ١٢؛ البحار: ج ٩٢، ص ٢٢٩، ح ٢٧.

تطابق المصلحة الشخصية والنوعية

ولو أردنا أن نقرب ذلك بمثال من العرف نضربه بالوالد والولد، فإن الولد إذا طلب من الوالد الثري أن يعطيه مالا لشراء سيارة أو دراجة، والوالد تارة يعلم بصلاح ولده وأنه يستثمر السيارة فيما ينفع فمقتضى الحكمة أن يوفر له هذه الحاجة إذا لم يكن هناك مانع، وتارة يعلم بأن الولد عجول متسرع، فلو امتلك السيارة شغلته عن دراسته، فإن من غير الحكمة أن يوفر له السيارة؛ لأن تحصيله الدراسي أهم، وعدمه ضرر بالغ به، وتارة يعلم بأن السيارة قد تؤدي به إلى وقوع حوادث خطيرة فيضر عموم الأسرة والناس فلا ينبغي أن يوفر له ذلك، والله أحكم الحاكمين يعلم أن إجابة الدعاء خاضعة لميزان الحكمة، فأول شرط في إجابة الدعاء هو تطابق المصلحة الشخصية والنوعية في الإجابة.

قال النبي ﷺ: ﴿افزعوا إلى الله في حوائجكم، والجزؤوا إليه في ملهاتكم، وتضرعوا إليه وادعوه فإن الدعاء مخ العباد، وما من مؤمن يدعو الله إلا استجاب له، فإما أن يعجله له في الدنيا أو يؤجل له في الآخرة، وإما أن يكفر عنه من ذنوبه بقدر ما دعا ما لم يدع بمأثم^(١) والفزع اللجوء والاستغاثة في الأمر المخيف طلباً للخلاص^(٢)، والملمات الشدائد، والمأثم

(١) عدة الداعي: ص ٣٤؛ البحار: ج ٩٠، ص ٣٠٢، ح ٣٩؛ الوسائل: ج ٧، الباب ٢ من أبواب استحباب الإكثار من الدعاء، ص ٢٧، ح ٨٦١٥؛ مستدرک الوسائل: ج ٥، ص ١٧٤، ح ٥٦٠٢.

(٢) المعجم الوسيط: ج ٢، ص ٦٨٧، (فزع).

موضع الإثم والمعصية.

التوسل بدعاء القلب

الثاني: أن يحقق العبد في نفسه حقيقة الدعاء، فلا يكفي في الدعاء والاستغاثة لقلقة اللسان، بل لا بد وأن يكون الدعاء عن شعور عميق بالحاجة والفقر، وأن لا ملجأ للعبد إلا الله سبحانه فيتوسله حتى يعطيه وإلا لا يعطيه، ليس لأن الدعاء لا يستجاب، بل لأن الدعاء لم يتحقق موضوعاً، وهذه أيضاً من القضايا المهمة التي يغفل عنها الناس، فيتوهمون بأنهم يدعون ولا يستجاب لهم، وفي الحقيقة هم يتلفظون بالدعاء ولا يدعون، والله عز وجل وعد بإجابة الدعاء وهم لم يأتوا بحقيقة الدعاء.

والروايات التي نصت على أن التسمية في بادئ كل عمل توجب البركة فيه ناظرة إلى التسمية بمعناها الحقيقي، أي أن يذكر العبد اسم الله من جهة رحمته، ويستعينه بقلبه وعمق شعوره لا أن يتلفظ الكلام ويغفل عن معناه، ولذا يكون أبتر ومقطوعاً، فقول النبي ﷺ: ﴿كل أمر ذي بال لم يذكر اسم الله فيه فهو أبتر﴾^(١) يشمل ما لا يذكر عليه اسم الله، أو ذكر باللفظ مع السهو عن المعنى؛ لأن الدوام والبركة على ذكر الله، والذكر ليس لفظياً بل قلبياً وعقلياً، فبتر عملهم ليس من باب أنهم ذكروا ولم يستجب لهم، بل من باب أنهم لم يذكروا.

(١) تفسير الإمام العسكري عليه السلام: ص ٢٥، ح ٧؛ البرهان: ج ١، ص ١٠٥، ح ٢٦٦؛ البحار: ج ٧٣، ص ٣٠٥، ح ١؛ ج ٨٩، ص ٢٤٢؛ تفسير الآلوسي: ج ١، ص ٤١.

لماذا يدعون ولا يستجاب لهم؟

وقد سئل النبي ﷺ: ما لنا ندعو الله فلا يستجيب دعاءنا، وقال تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾^(١) فأجاب ﷺ وقال: ﴿إن قلوبكم ماتت بعشرة أشياء:

أولها: أنكم عرفتم الله فلم تؤدوا طاعته.

والثاني: أنكم قرأتم القرآن فلم تعملوا به.

والثالث: أدعيتم محبة لرسوله وأبغضتم أولاده.

والرابع: ادعيتم عداوة الشيطان ووافقتموه.

والخامس: ادعيتم محبة الجنة فلم تعملوا لها.

والسادس: ادعيتم مخافة النار ورميتم أبدانكم فيها.

والسابع: اشتغلتم بعيوب الناس عن عيوب أنفسكم.

والثامن: ادعيتم بغض الدنيا وجمعتموها.

والتاسع: أقررتم بالموت فلا تستعدوا له.

والعاشر: دفتتم موتاكم فلم تعتبروا بهم، فلهذا لا يستجاب دعاؤكم﴾^(٢).

(١) سورة غافر: الآية ٦٠.

(٢) الكنى والألقاب: ج ١، ص ٣٩٤؛ روضات الجنّات: ج ١، ص ٤١٩ - ١٥٠؛

وفيات الأعيان: ج ١، ص ٤٤٢.

وبمثل هذا المضمون ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام ^(١).

ويتلخص مضمونها في انقطاع القلب وسهوه وغفلته، والدعاء بلهو القلب ليس بدعاء، بل لقلقة لسان؛ لذا ورد عن النبي صلى الله عليه وآله: ﴿أَنْ اللَّهَ لَا يَسْتَجِيبُ الدَّعَاءَ مِنْ قَلْبٍ لَاهٍ﴾ ^(٢). نعم ربما يجد بعض من يذكرون الله في بادئ أعمالهم بالذكر اللساني ويجدون البركة، وهذا حاصل للكثير من العباد لكن هذا من باب التفضل لا الاستحقاق، فإذا استجاب الباري لأهل الذكر اللساني فتلك نعمة تفضلية عليهم، وعادته سبحانه الإحسان إلى القاصرين والمقصرين والمسيئين؛ لأن استحقاقهم عدم الإجابة بخلاف من يذكره بذكر القلب والعقل واللسان فإنه يستحق الإجابة، ويقبح عدم الاستجابة له؛ لذا لا يُردّ دعاء الأنبياء والأولياء والعباد والصالحين؛ لأن تسميتهم ودعاءهم مستوفٍ لشرطي الإجابة، ويعزز ذلك ما رواه الصدوق قدس عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: ﴿مَنْ حَزَنَهُ أَمْرٌ تَعَاطَاهُ فَقَالَ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ وَهُوَ مُخْلِصٌ لِلَّهِ وَيَقْبَلُ بَقْلَهُ إِلَيْهِ لَمْ يَنْفَكْ مِنْ إِحْدَى اثْنَتَيْنِ. إِمَّا بَلُوغَ حَاجَتِهِ فِي الدُّنْيَا وَإِمَّا يَعِدُّ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَيَدَّخِرُ لَدَيْهِ، وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ^(٣). نعم المؤمن الذي يلتفت إلى هذه الحقيقة ولا يعمل بها

(١) البحار: ج ٩٠، ص ٣٧٦، ح ١٧؛ مستدرك الوسائل: ج ٥، ص ٢٦٨، ح ٥٨٤١؛ جامع أحاديث الشيعة: ج ١٥، ص ٢٩٧، ح ٩٧٣.

(٢) مصباح الشريعة: ج ١، ص ١٣٣؛ البحار: ج ٩٠، ص ٣٢٣، ح ٣٦؛ مستدرك الوسائل: ج ٥، ص ٢٧٢، ح ٥٨٤٧.

(٣) التوحيد: ص ٢٣٢، ح ٥؛ البرهان: ج ١، ص ١٠٤؛ البحار: ج ٨٩، ص ٢٣٣، ح ١٤.

فيتغاضى عن التسمية في أعماله فإنه في الغالب يصاب بالفشل من جهة السبب الطبيعي؛ لأنّ الأشياء تستجيب لذكر الله ولا تستجيب لغيره، وجهة السبب الغيبي لأنّ الله سبحانه يؤدب عبده بتقصيره، وإليه يشير قول الإمام الصادق عليه السلام: ﴿ولربما ترك بعض شيعتنا في افتتاح أمره ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ فيمتحنه الله بمكروه لينبهه على شكر الله تعالى، والثناء عليه، ويمحو عنه وصمة تقصيره عند تركه قول ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾^(١).

دلائل الحديث الشريف

وفيه إشارات إلى أمور:

الأول: أن هذا الجزاء لا يصيب كل أحد، بل من كان له شأن عند ربه، ومن عمدتها حسن العقيدة؛ لذا قال عليه السلام ﴿لربما﴾ من باب الاحتمال الذي تقتضيه الحكمة، وإنه يصيب ﴿بعض شيعتنا﴾ ومن الإضافة التشريفية لهم بصيغة ضمير الجمع ﴿شيعتنا﴾ يفيد أنّه للخواص من الشيعة وليس للعموم، وفيه إشارة إلى أن المؤمن الموالي شعاره البسملة في كل أموره، ولأنّ هذا نهج عام للموالين، قال: ﴿ولربما ترك﴾ من باب الاستثناء.

الثاني: أن الامتحان يراد به الابتلاء والمكروه، وهو قد يكون فضل العمل الذي ابتدأه بلا تسمية، أو يتعرض في أثناء العمل إلى ما يكرهه؛ لأنّ بعض المؤمنين عقوبتهم فورية يفعل بهم الباري ذلك للتأديب والتطهير؛

(١) التوحيد: ص ٢٣١، ح ٥؛ تفسير الإمام العسكري عليه السلام: ص ٢٢، ح ٧؛ البرهان:

ج ١، ص ١٠٣، ح ٢٦٣؛ البحار: ج ٨٩، ص ٢٣٢، ح ١٤.

لأنه فعل ما هو معيب؛ لذا سماها الإمام وصمة؛ لأنه مضى على خلاف نهج الإيمان والتشيع.

الثالث: أن الغاية من ذلك ليس الانتقام أو التشفي معاذ الله، وتعالى عن ذلك علواً كبيراً، وإنما لأجل تذكير العبد وتنبيهه لكي يرتقي أكثر ويكتمل، فهو من اللطف المقرب لا المعذب.

التعليم الثاني: الإنسان السماوي والأرضي

يعلمنا الباري بالبسملة الشريفة أن نطلق ونتعامل في أقوالنا وأعمالنا بمحورين هما الله والرحمة، وبذلك يتخلق الإنسان بأخلاق الله تعالى، وبهذا النهج يتميز الإنسان السماوي عن الأرضي.

وتوضيح ذلك: أن ما يقوم به الإنسان من أعمال له ثلاثة أركان هي: المنطلق والهدف والوسيلة الموصلة للهدف، وكلها ترتبط بالعمل، فمثلاً من يقيم مؤسسة لرعاية الأيتام له منطلق وهو تقديم الخدمة للأيتام، وهدف وهو إسعادهم ومعالجة مشاكلهم والتقرب إلى الله تعالى بذلك، ووسيلة وهو تقديم المساعدة المالية مثلاً، أو تعليمهم في المدارس ونحو ذلك، وهذه الثلاثة هي التي تقوم عمل المؤسسة وتعطيها مبرر الوجود، وإلا لما كانت موجودة، ولكن في الأعمال الإنسانية تجتمع الأهداف والمنطلقات والوسائل ويكون التباين بينها مفهوماً، وفي المثال المذكور فإن إسعاد الأيتام ومعالجة مشاكلهم يتحدد بتقديم الخدمة لهم، كما تجتمع هي الأخرى بالوسيلة فيكون تقديم المساعدة المالية مثلاً هي المنطلق والهدف والوسيلة، والتفكيك بينها في الواقع الخارجي متعذر وإن كان من حيث

المفهوم يقال للأول منطلق، وللثاني هدف، وللثالث وسيلة.

خصائص الإنسان الأرضي

ولو أردنا أن ننظر إلى الإنسان الأرضي أي الذي يتعامل بمعايير أهل الأرض نجد أن كل ما يفعله الإنسان الأرضي يدور على محور واحد هو (الأنا) وهذا الأنا يتمظهر في ثلاثة مظاهر هي حب النفس والمال والولد، وأعمال الإنسان تدور حول هذه الثلاثة على سبيل الانفراد أو الاجتماع، ولا يختلف في هذا الكبير والصغير والرئيس والمرؤوس والرجل والمرأة والغني والفقير حتى من يملك السلطة ويدبر أمور الدولة أو الوزارة، أو يدير عجلة الاقتصاد والسوق، أو يعلم الأولاد في المدرسة، وهكذا العامل والبناء والمزارع والموظف. كل أفراد المجتمع بحسب معايير الأرض يعملون لهذه الثلاثة، وفي الحقيقية يعملون لأنفسهم؛ لأن مصالح المال والولد تعود إلى النفس أيضاً، فالإنسان هو المحور في الأرض، ونفسه هي محوره، وهذا معنى الأنانية وحب الذات وحب الدنيا وغير ذلك من مفردات وردت في النصوص وفي غيرها، وهذه الأنانية هي التي تحكم الأرض وأهلها، وهي أساس المشاكل والصراعات، كما أنها أساس الإنجازات والانتصارات، وهي مدار التقدم والتطور، فلولاها لانقرضت حياة البشر منذ العهود الأولى، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾^(١) أي أن النفس هي محور الوجود الإنساني ولكن برحمة الله ولطفه أنه ﴿فَالْتَمَّهَا فُجُورَهَا

(١) سورة الشمس: الآية ٧.

وَتَقْوَاهَا^(١) فلم يلزمها بشيء وإنما خيرها بين الفجور والتقوى، وكلاهما يعودان إلى النفس أيضاً، فالتقي تقواه لنفسه، والفاجر ينطلق من نفسه ولنفسه؛ لأنه يتوهم أن لذته وسعاده بفجوره، والباري عز وجل خاطبه من ذات المنطلق فقال له: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾^(٢) فالنفس هي منطلق الفلاح والخيبة، فالذي يزكي نفسه هو المستفيد، والذي يدسها في الرذائل يتوهم أنه مستفيد ولكنه في الواقع متضرر، لذلك قال: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ والخيبة تطلق على الفشل في تحقيق المراد. يقال: خاب أمله وخاب سعيه؛ لأنه لم ينل ما طلب، ويتحقق بنحوين:

١. أن لا يصل إلى المطلوب.

٢. أن يصل إلى عكس المطلوب، كالذي يركض وراء السراب بتوهم أنه ماء ليروي عطشه فيجده جفافاً، ويزداد هلكة، ويقابله الفلاح وهو الفوز والظفر بما يريد، فإن ابن الدنيا يطلب اللذة ويريد الشهوة، فيركض وراءها في الدنيا لتحصيلها لكنه لا يحصل عليها في الدنيا، ولا يحصل عليها في الآخرة، فأمله منها يخيب.

خيبة أهل الدنيا

والتجربة شاهد على أن أهل الدنيا لم يصف لهم عيش، وربما يلحظهم البعض من جهة واحدة فيجدهم أصحاب مال أو سلطة، أو يتصور أنهم

(١) سورة الشمس: الآية ٨.

(٢) سورة الشمس: الآيتان ٩ و ١٠.

منعمون لكنه إذا عاش حياتهم من الداخل عرف كم يعانون من أمراض ومشاكل وكآبة وتعذيب ضمير.

وهذا ما يعززه رواية ابن أبي يعفور قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: ﴿من تعلّق قلبه بالدنيا تعلق بثلاث خصال: همٌّ لا يفنى وأمل لا يدرك ورجاء لا ينال﴾^(١) والهمّ الذي لا يفنى سببه القلب؛ لأنّ القلوب بذكر الله تطمئن، والدنيا ذكر الشيطان، والشيطان طبعه القلق والخوف والهم والغم، والفرق بين الأمل والرجاء في أمرين:

١. أن الأمل بطول العمر والبقاء في الدنيا، فكل من يجمع للدنيا على ماذا يستند في فكرته على البقاء؟ وأما الرجاء فهو طلب حوائج الدنيا.
 ٢. أن الأمل يقال للأمور بعيدة الحصول، والرجاء هو قريب الوصول^(٢).
- هذا هو جوهر الفكر الباطني لأفعال أهل الأرض وما يقومون به من أعمال في مختلف المجالات والأصعدة، وكلهم يعملون لأجل نفوسهم.

مزايا الإنسان السماوي

أما الإنسان السماوي فمنطلقه وهدفه ووسيلته تختلف تماماً عن ذلك، وهنا تظهر أهمية الأنبياء والأديان والشرائع السماوية؛ لأنّها جاءت في منطلقاتها وأهدافها ووسائلها لتخاطب الإنسان وتغيّر عنده المفاهيم الأرضية الدانية، وتجعل المحورية في الوجود والعقيدة والعمل لله سبحانه المتصف بالرحمة

(١) الكافي: ج ٢، ص ٣٢٠، ح ١٧؛ الخصال: ص ٨٨، ح ٢٢؛ البحار: ج ٧٠، ص ٩١، ح ٦٦.

(٢) ينابيع الحكمة: ج ٢، ص ٣٤٨، بيان.

الرحمانية والرحيمية، فإن بهما أوجد الله تعالى الوجود، وأفاض عليه النعم المادية والمعنوية، فالإنسان السماوي يتجرد من نفسه وذاتيته، ويجعل الله منطلقه وهدفه وحدوده وأحكامه وسبيله، ولذا وصفه الباري بأنه خليفته.

القيمة الحقيقية للمال والولد

ومن هنا نجد أن شرائع الله تدعو الإنسان إلى التجرد من الأنانية فيجاهد نفسه ويضحى بها لأجل الله، والمال الذي هو القيمة الثانية عند أهل الأرض يجعله وسيلة لمواساة الفقراء والمحتاجين والإنفاق في سبيل الخير، فالمال في نفسه ليس بذي قيمة إلا بمقدار ما يضحى به الإنسان؛ لأن المال يختلف عن باقي الأشياء لا تكون له قيمة إلا إذا صُرف وأنفق، وما دام مكدساً مجموعاً لا قيمة له ولا نفع، وإثماً ينفع صاحبه إذا صرفه، والولد الذي هو القيمة الثالثة جعله الباري وسيلة للتقرب إلى الله والتضحية في سبيله؛ لذا جعل آداباً وأحكاماً وسناً لإنجاب الولد الصالح، والزواج في نفسه جعله عبادة حتى يكون الزواج والإنجاب يدوران حول هذا المبدأ العظيم، فالنهج السماوي يصير الإنسان مؤثراً بينما الأرض يصيره مستأثراً.

منطلقات الإنسان السماوي

فالنظرة التي ينطلق منها الإنسان السماوي تدور حول الخالق الرحيم، وشعاره في مختلف تعاملاته لدى أكله وشربه ونومه وعبادته وإنجاز أعماله ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ وهو الأسلوب الذي يتعامل به مع الآخرين، ويظهر ذلك في محبته للآخرين واحترامهم وخدمتهم، ويبدأ بالإحسان ويبادر إليه ليتطابق مع سنن الله سبحانه، أن يبدأ بالإحسان بالنعم قبل

الاستحقاق ترحمًا منه وحبًا.

وهذا هو نهج النبي المصطفى ﷺ ونهج أوصيائه الطاهرين عليه السلام؛ لذا ورد في النصوص أنه رحمة مهداة^(١)، وأن الأئمة عليهم السلام رحمة الله الواسعة^(٢)، وهكذا يجب أن يكون أنصارهم وأتباعهم، وبه ينالون خير الدنيا والآخرة.

مصير الإنسان الأرضي

وأما الأرضيون فآمالهم تخيب فيما يريدون، ويعزز ذلك ما ورد عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ﴿مر عيسى بن مريم عليه السلام على قرية قد مات أهلها وطيرها ودوابها، فقال: أما إثم لم يموتوا إلا بسُخْطة، ولو ماتوا متفرقين لتدافنوا، فقال الحواريون: يا روح الله وكلمته! ادعُ الله أن يحييهم لنا فيخبرونا ما كانت أعمالهم فنجتنبها، فدعا عيسى عليه السلام ربه فنودي من الجو أن نادهم، فقام عيسى عليه السلام بالليل على شرف من الأرض فقال: يا أهل هذه القرية! فأجاب منهم مجيب: لبيك يا روح الله وكلمته، فقال: ويحكم ما كانت أعمالكم؟ قال: عبادة الطاغوت وحب الدنيا مع خوف قليل وأمل بعيد وغفلة في هو ولعب، فقال: كيف كان حكمكم للدنيا؟ قال: كحب الصبي لأمه. إذا أقبلت علينا فرحنا وسُررنا، وإذا أدبرت عنا بكينا وحزننا. قال: كيف كانت عبادتكم للطاغوت؟ قال: الطاعة لأهل المعاصي. قال: كيف كان عاقبة أمركم؟ قال: بتنا ليلة في عافية وأصبحنا في الهاوية. فقال:

(١) كشف الغمة: ج ١، ص ٣٢؛ البحار: ج ١٦، ص ١١٥، ح ٤٤.

(٢) انظر تفسير ملاحم المحكمات: ص ٥٧؛ مراحيب لبيد: ج ١، ص ٥١٣.

وما الهاوية؟ فقال: سجّين. قال: وما سجّين؟ قال: جبال من جمر توقد علينا إلى يوم القيامة. قال: فما قلتم وما قيل لكم؟ قال: قلنا ردّنا إلى الدنيا فنزهد فيها. قيل لنا: كذبتهم. قال: ويحك كيف لم يكلمني غيرك من بينهم؟ قال: يا روح الله! إنهم ملجمون بلجام من نار بأيدي ملائكة غلاظ شداد وإنّي كنت فيهم ولم أكن منهم، فلما نزل العذاب عمي معهم، فأنا معلق بشجرة على شفير جهنم لا أدري أكبكب فيها أم أنجو منها، فالتفت عيسى عليه السلام إلى الحواريين فقال: يا أولياء الله! أكل الخبز اليابس بالملح الجريش والنوم على المزابيل خير كثير مع عافية الدنيا والآخرة^(١).

دلائل الحديث

ولعل المراد بجهنم نار البرزخ كما تشهد له القرائن الداخلية، وفيها دلالة على وجوب اعتزال أهل المعاصي ولو بالنصيحة لهم ونهيهم عن المنكر، وأن الذي لا يعتزلهم يصاب بجرائهم، وتضمنت الإشارة إلى أمرين:
الأول: الإخبار عن أوضاع ذلك العالم؛ ليتعظ الناس ويتعلموا، وهو من الألفاظ المقرّبة.

الثاني: أن الإنسان حينما يفارق الدنيا يعلم أن الزهد فيها هو الدواء الذي يصيّر الإنسان سماوياً، ولا يراد بالزهد أن لا يملك الإنسان شيئاً، بل أن يجعل الله محور حبه وبغضه، وأن نفسه وماله وولده يجعلها في سبيله.

(١) الكافي: ج ٢، ص ٣١٨ - ٣١٩، ح ١١؛ مشكاة الأنوار: ج ١، ص ٢٦٣؛ البحار: ج ٧٠، ص ١٠، ح ٣؛ جامع أحاديث الشيعة: ج ١٤، ص ١٣، ح ١٨٩٣.

التعليم الثالث: الله تعالى نور الوجود والقلوب

أَنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ هو أظهر شيء في الوجود، وكل الأشياء ظهرت به، ومن أوصافه النور، وهو ظاهر بنفسه ومظهر لغيره، ومحال أن يكون الغير مظهرًا له؛ لاستلزامه الدور، ولذا ورد في الأدعية الشريفة: ﴿يا من دلَّ على ذاته بذاته﴾^(١).

وفي المناجاة الرضائية: ﴿بك عرفتك وأنت دللتني عليك ودعوتني إليك، ولولا أنت لم أدر ما أنت﴾^(٢).

وفي دعاء الإمام الحسين عليه السلام في يوم عرفة ورد التعجب من هذه الفكرة التي قد تخطر في أذهان أهل الحكمة والكلام والملاحدة وأمثالهم الذين يجدون أنفسهم أظهر من خالقهم، يقول عليه السلام: ﴿كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك، أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك؟ متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك؟ ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك؟ عميت عين لا تراك عليها رقيباً، وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبك نصيباً﴾^(٣).

فالله سبحانه هو الظاهر بنفسه والأشياء كلها تظهر به ومنه تستمد، ورغم ذلك عرّف نفسه لعباده بالرحمة، وأمرهم أن ينادوه ويبتدئوا أمورهم

(١) التوحيد: ص ٣٥، الهامش (٦)؛ الأمالي (للمفيد): ص ٢٥٤، الهامش (٤)، البحار: ج ٨٤، ص ٣٣٩، ح ١٩.

(٢) إقبال الأعمال: ج ١، ص ١٥٧؛ البحار: ج ٩٥، ص ٨٢، ح ٢.

(٣) البحار: ج ٩٥، ص ٢٢٥ - ٢٢٦؛ مستدرک سفينة البحار: ج ١٠، ص ٣٦٠.

باسمه الجليل ورحمته الرحمانية والرحيمية؛ لأن رحمته بخلقه تكشف عن كمالاته سبحانه، وتكشف عن صفات جماله وجلاله.

الهويات بالكمالات لا بالأنساب والأحساب

وبهذا التعريف يعلم البشر أن يجعلوا صفاتهم معرفّات لهم لا أنسابهم ولا أحسابهم ولا شهاداتهم الدراسية ولا ثرواتهم ولا مناصبهم، بل صفاتهم النفسانية محبتهم ورحمتهم وصدقهم ووفائهم، هذه هي الهوية الحقيقية للإنسان. أما الأوصاف الأخرى فهي عرضية لا تكشف عن كمالاتهم، ولذا قال أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿إنما الشرف بالعقل والأدب لا بالمال والحسب﴾^(١). وقال عليه السلام: ﴿يا مؤمن! إن هذا العلم والأدب ثمن نفسك فاجتهد في تعلمها، فما يزيد من علمك وأدبك يزيد من ثمنك وقدرك﴾^(٢)، والحرص في الأول يفيد أن المال والحسب ليسا بشرف حقيقي للإنسان، ولا معرفّات لإنسانيته، بل قد يخرجانه منها، ومن المفهوم المخالف في الحديث الثاني يتضح أن من لا يتعلم ولا يتأدب يقل قدره وثمرته، وأرقى العلم والأدب أن يتعامل الإنسان بالرحمة، وهذا ما يسميه العالم اليوم بالتعامل الإنساني، ويجعلونه معيار التحضر والرقى الفكري والنفسي، وفي مقابل ذلك العنف والقسوة والعناد والخصام، فإنها تنفي الإنسانية، وتخرج الإنسان عن منهج الله سبحانه وأخلاقه، وهذا الأمر لا يختص بالتعامل الشخصي، بل يشمل الدول والمجتمعات، فإن بعض

(١) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ص ٢٤٨، ح ٥١٠٩.

(٢) مشكاة الأنوار: ج ١، ص ١٣٥، ص ٢٣٩؛ البحار: ج ١، ص ١٨٠، ح ٦٤.

الدول والمجتمعات لها اسم وعلم ودولة ولكنها لا تتعامل بالرحمة، فالاستبداد يحكمها، وسياستها العنف والقسوة بالناس والحروب الداخلية والخارجية، ومثلها تكون دائماً في فوضى وخراب، ومصيرها الزوال، ووجه العالم اليوم في أكثر من مجال هو هذا الوجه، فالصوت العالي فيه هو صوت الحرب بأنواعها وأصنافها، والقوة والسطوة والقتل والدمار هو المستحكم في الأجواء، ولذا هو مهدد بالزوال والجوع والفقر والأمراض الخطيرة، ولو اتخذ العالم أسلوب الرحمة وجعل ما يُعرّف الدول والمجتمعات مناهج العلم والمحبة الإنسانية والرحمة في التعامل والمبادئ والمنطلقات لسادت السعادة ربوع الأرض، وانتشر العدل، وهذا ما سيحصل في زمان حجة الزمان صلوات الله عليه؛ لذا حينما يظهر تُنزل السماء بركاتها، وتظهر الأرض كنوزها، وينعم العالم بالأمن والسلام، ويسود الغنى، ويتنفي الفقر والمرض؛ لأن دولته لا تُعرّفها الأنساب والأحساب والأموال والصناعات والتجارات، بل الرحمة والمحبة والعدل^(١).

ويتلخص من هذا التعليم الذي يرشد إليه الباري عز وجلّ البشر أمران:
الأول: أن يجعلوا الرقي النفسي والأخلاقي هو هويتهم وشخصيتهم لا أحسابهم وأنسابهم، ولا أموالهم ومناصبهم.
الثاني: أن يتخذوا الرحمة منطلقاً ووسيلة في تعاملاتهم الشخصية والاجتماعية ويستعينوا بها ليعيشوا بأمن وسعادة.

(١) انظر الإرشاد: ج ٢، ص ٣٨٤؛ كشف الغمة: ج ٣، ص ٢٦٤؛ البحار: ج ٥٢، ص ٣٣٨، ح ٨٣؛ إعلام الوري بأعلام الهدى: ج ٢، ص ٢٩٠.

ثانياً: التعاليم الفقهية

ونلخصها في تعليمين:

التعليم الأول: البسملة والقرآن

لا خلاف في أنَّ البسملة آية من القرآن؛ لأنها وردت في سورة النمل باتفاق الكلمة، وإنَّما الخلاف في أنَّها آية في سورة الحمد وجلَّ سور القرآن التي افتتحت بالبسملة أيضاً أم لا؟ وتظهر الثمرة في وجوب الإتيان بها في قراءة الصلاة، وكذا في الختمة الاستتجارية أو النذرية، ووجوب عقد القلب على ذلك؛ لأنها من مقتضيات الإيمان، وحرمة قراءتها في سور العزائم لذوي الأعذار، ووجوب تعيينها في قراءة السور في الصلاة، ولو عدل من سورة إلى أخرى يجب تكرار قراءة البسملة بقصد السورة الجديدة، والمسلمون في ذلك على أقوال عديدة تجتمع في قولين:

قول الإمامية في البسملة

القول الأول: للإمامية طُرّاً وجمع كبير من العامة^(١) أنها جزء في كل سورة إلا سورة براءة، بل هي أعظم آية في كتاب الله العزيز وهو الحق، خلافاً لكثير من العامة، وقد مرَّ البحث في تسمية السورة بفاتحة الكتاب، وأنها

(١) التهذيب: ج ٢، ص ٢٨٩، ح ١١٥٧؛ الوسائل: ج ٦، الباب ٦ من أبواب أن البسملة آية من الفاتحة، ص ٥٧، ح ٧٣٣٧؛ انظر تفسير الرازي: ج ١، ص ١٧٢، (الإشارة الثانية والعشرون)؛ التحرير والتنوير: ج ١، ص ١٣٦ وما بعدها؛ تفسير المراغي: ج ١، ص ٢٦.

السبع المثاني وأن البسملة جزء منها، وقد اتفقت كلمة المسلمين على أن السبع المثاني هي سورة الحمد، ولا تكتمل آياتها السبع إلا بالبسملة، كما مرّ البحث في أن القرآن توقيفي في كتابته وقراءته وجمعه وبيانه، وأنه نزل على رسول الله ﷺ بالبسملة، وكان في عهد رسول الله ﷺ، والبسملة في مفتتح كل سورة إلا براءة، وقد أتى بذلك أمير المؤمنين عليه السلام في القرآن الذي جاء به إلى القوم مع شرح معانيه ومضامينه بعد رحيل رسول الله ﷺ فردوه^(١)، ويدل على ذلك ثلاثة أدلة أخرى:

الدليل الأول: طائفة متضافرة من الأخبار الواردة بطرق الفريقين:

منها: صحيح محمد بن مسلم قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن السبع المثاني والقرآن العظيم، أهى الفاتحة؟ قال: «نعم» قلت: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ من السبع؟ قال: «نعم هي أفضلهن»^(٢).

ومنها: ما عن الإمام العسكري عليه السلام عن آبائه عليهم السلام عن أمير المؤمنين صلوات الله عليه أنه قال في حديث: ﴿﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾﴾ آية من فاتحة الكتاب، وهي سبع آيات تمامها: ﴿﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾﴾^(٣).

ومنها: ما رواه الصدوق قدس في عيون الأخبار عن الإمام الرضا عليه السلام

(١) الكافي: ج ٢، ص ٦٣٣، ح ٢٣.

(٢) التهذيب: ج ٢، ص ٢٨٩، ح ١١٥٧؛ الوسائل: ج ٦، الباب ٦ من أبواب أن البسملة آية من الفاتحة، ص ٥٧، ح ٧٣٣٧؛ البرهان: ج ٣، ص ٣٨٥، ح ٥٩٢٨.

(٣) تفسير الإمام العسكري عليه السلام: ص ٢٩، ح ١٠؛ الأمالي (للصدوق): ص ٢٤١؛ البحار: ج ٨٩، ص ٢٢٧، ح ٥.

قال: قيل لأمر المؤمنين عليه السلام أخبرنا عن ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ أهى من فاتحة الكتاب؟ قال: فقال: ﴿نعم فإن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يقرأها ويعدها آية منها، ويقول: فاتحة الكتاب هي السبع المثاني^(١) .

ومنها: ما ورد بطرق العامة عن أم سلمة أن النبي صلى الله عليه وآله كان يقرأ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إلى أن قالت: وعدّ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ آية^(٢) ، وقريب منها وردت عن أمير المؤمنين عليه السلام ^(٣) .

ومنها: ما عن ابن عباس قال: السبع المثاني فاتحة الكتاب. قيل فأين السابعة؟ قال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾^(٤) .

ومنها: ما عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ﴿إذا قرأتهم الحمد فاقروا ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ فإنها أم القرآن، وأم الكتاب، والسبع المثاني ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ إحداهما^(٥) ، وفي نقل آخر ﴿إحدى آياتها﴾^(٦) .

إلى غير ذلك من الروايات المفيدة للعلم بكونها جزء الحمد.

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج ٢، ص ٢٧٠، ح ٥٩؛ تفسير الإمام العسكري عليه السلام:

ص ٥٩، ح ٣٠؛ البحار: ج ٨٩، ص ٢٢٧، ح ٣؛ ج ٨٢، ص ٦٠، ح ٤٧.

(٢) سنن الدارقطني: ج ١، ص ٣٠٦، ح ١١٦٢؛ الإتيقان في علوم القرآن: ج ١، ص

٢٦٨؛ تفسير الرازي: ج ١، ص ١٩٦؛ تفسير روح البيان: ج ١، ص ٤٠.

(٣) سنن الدارقطني: ج ١، ص ٣١١، ح ١١٨١؛ السنن الكبرى: ج ٢، ص ٤٥.

(٤) السنن الكبرى: ج ٢، ص ٤٥.

(٥) انظر سنن الدارقطني: ج ١، ص ٣١٠، ح ١١٧٧؛ السنن الكبرى: ج ٢، ص ٤٥.

(٦) انظر نفحات الرحمن: ج ١، ص ٧٦.

البسملة جزء في كل سورة

وأما جزئيتها لباقي السور فدلّت عليها روايات متضافرة أيضاً:

منها: رواية معاوية بن عمار قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إذا قمت للصلاة أقرأ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ في فاتحة القرآن؟ قال: ﴿نعم﴾ قلت: فإذا قرأت فاتحة القرآن أقرأ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ مع السورة؟ قال: ﴿نعم﴾^(١).

وواضح أنّ سؤال الراوي ناشئ من وجود قول آخر هو المتسبّد في الأجواء - بقوة السلطة - ينفي البسملة من السور، ولولاه لما كان وجه للسؤال كما سيأتي.

ومنها: ما ورد بطرق العامة عن ابن عباس قال: كان النبي صلّى الله عليه وآله لا يعرف فصل السورة حتى تنزل عليه ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ وزاد البراز: فإذا أنزلت عرف أنّ السورة قد ختمت واستقبلت أو ابتدئت سورة أخرى^(٢).

وعن ابن عباس قال: كان المسلمون لا يعلمون انقضاء السورة حتى تنزل ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ فإذا أنزلت علموا أنّ السورة قد انقضت^(٣).

وعنه أيضاً أنّ النبي صلّى الله عليه وآله كان إذا جاءه جبرئيل فقرأ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ

(١) الكافي: ج ٣، ص ٣١٢، ح ١؛ الاستبصار: ج ١، ص ٣١١، ح ١١٥٥؛ التهذيب: ج ٢، ص ٦٩، ح ٢٥١؛ الوسائل: ج ٦، الباب ١١ من أبواب أن البسملة آية من الفاتحة، ص ٥٧، ح ٧٣٤٠.

(٢) الإتيان في علوم القرآن: ج ١، ص ٢٦٧؛ مستدرک الحاكم: ج ١، ص ٢٣١.

(٣) مستدرک الحاكم: ج ١، ص ٢٣٢؛ الإتيان في علوم القرآن: ج ١، ص ٢٦٧.

الرَّحِيمِ ﴿علم أنها سورة^(١) .

ومنها: ما عن ابن عمر أنّ رسول الله ﷺ قال: ﴿كان إذا جاءني جبرئيل بالوحي أول ما يلقي عليّ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾﴾^(٢) وعنه أيضاً قال: ﴿نزلت ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ في كل سورة﴾^(٣) وقريب منها ورد عن أنس^(٤) .

لها معنى في كل سورة

ومجموعها يفيد أنّ البسملة نزلت مع كل سورة، ولازمه تعدد معانيها، وأنّ في كل نزول لها معنى يغاير ما سبقه، فيعزز ما ذكرناه غير مرة أنّ بعض آيات القرآن تعدّد نزولها بحسب مقتضيات، وأنّ البسملة لها معانٍ كثيرة تتناسب مع السور.

ويتحصل من مجموع الروايات المعتبرة سنداً والصريحة دلالة والواردة بطرق الفريقين أنّ البسملة آية في مفتتح كل سورة ما عدا سورة براءة.

الإجماع على الجزئية

الدليل الثاني: الإجماع القولي والعملي.

أمّا الأوّل فإجماع الإمامية فيه ظاهر لا ريب فيه، وأمّا إجماع العامة فقد

(١) مستدرک الحاكم: ج ١، ص ٢٣١؛ الإتيان في علوم القرآن: ج ١، ص ٢٦٧.

(٢) سنن الدارقطني: ج ١، ص ٣٠٥، ح ١١٥٤؛ الإتيان في علوم القرآن: ج ١، ص ٢٧٠؛ فتح القدير: ج ٦، ص ٥٣.

(٣) الإتيان في علوم القرآن: ج ١، ص ٢٧٠.

(٤) الإتيان في علوم القرآن: ج ١، ص ٢٧٠؛ أسباب النزول (للواحدي): ج ١، ص ١٨؛ تفسير الرازي: ج ٣٢، ص ٣٠٧.

ادّعاه الشافعي ومن وافقه وقرروه بقيام الإجماع على أن ما بين الدفتين كلام الله سبحانه ومنه البسملة^(١) ، مع الأمر بتجريد القرآن من كل ما ليس منه، ومن ثمّ لم يكتبوا (آمين) في آخر الفاتحة^(٢) .

وأما الثاني فلقيام سيرة المسلمين في جميع العصور على قراءة البسملة في مطالع السور لدى تلاوة القرآن وعدم التخلي عنها، ومثله لا يكون إلا إذا ثبت لديهم قراءة النبي ﷺ والصحابة لها، ولو لم تكن جزءاً منها لما وقع التمسك والإصرار عليها، وتعزّزه ثلاثة شواهد:

الشاهد الأول: ثبوت البسملة في مصاحف الصحابة ومن بعدهم بخط المصحف مع منعهم أن يكتب في المصحف ما ليس منه كقول (آمين) وغير ذلك، فلو لم تكن قرآناً لما استجازوا إثباتها بخطه من غير تمييز؛ لأن ذلك يحمل الناس على اعتقاد أنها قرآن فيكونون مغررين بالمسلمين حاملين لهم على اعتقاد ما ليس بقرآن قرآناً، وهذا ما لا يجوز عليهم^(٣) .

الشاهد الثاني: ما ورد عن أهل البيت عليه السلام من الذم لقوم حذفوا البسملة لدى القراءة، ولقوم آخرين منعوا الجهر بها، وهم أعلم الناس بالقرآن بإجماع المسلمين، فعن الإمام الباقر عليه السلام: «سرقوا أكرم آية من كتاب الله ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾^(٤) والسرقه من الكتاب تعني هي جزؤه وحذفوها منه» .

(١) التحرير والتنوير: ج ١، ص ١٤٢ .

(٢) تفسير المراغي: ج ١، ص ٢٦ .

(٣) نفحات الرحمن: ج ١، ص ٧٨ .

(٤) تفسير العياشي: ج ١، ص ١٩، ح ٤؛ البحار: ج ٨٩، ص ٢٣٦، ح ٢٨؛ تفسير ←

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: ﴿ما لهم؟ قاتلهم الله عمدوا إلى أعظم آية في كتاب الله فزعموا أنّها بدعة إذا أظهروها وهي ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾^(١). إلى غير ذلك من الروايات الكثيرة الدالة على أنّها جزء السورة فحذفها القوم لدواعٍ ساشير إلى بعضها.

الشاهد الثالث: ما روي أنّ معاوية صلّى بالناس في أيام حكمته فلم يقرأ البسملة فصاح جمع من المهاجرين والأنصار بعد الصلاة أسرقت أم نسيت؟^(٢) ووصفهم له بالسرقة لا يستقيم إلّا إذا كانوا يرون وجوب قراءتها وحرمة حذفها.

حكم العقل بالجزئية

الدليل الثالث: حكم العقل، فقد تضافرت الأخبار في وصفها بأنّها مشتملة على الاسم الأعظم أو قريبة منه، وأنّها أكرم وأعظم آية، وأنّها من مختصات النبي صلّى الله عليه وآله، لم يشاركه فيه إلّا سليمان عليه السلام^(٣)، وأنّ السبع المثاني التي تعادل القرآن العظيم بنص القرآن لا تكتمل سبعتها إلّا بالبسملة، ومثلها

→

نور الثقلين: ج ١، ص ٦، ح ١٢.

(١) تفسير العياشي: ج ١، ص ٢١ - ٢٢، ح ١٦؛ البحار: ج ٨٢، ص ٢١؛ التفسير الصافي: ج ١، ص ٨٢.

(٢) سنن البيهقي: ج ٢، ص ٤٩؛ مستدرک الحاکم: ج ١، ص ٢٣٣؛ تفسير الأمل: ج ١، ص ٣١.

(٣) الإتقان في علوم القرآن: ج ١، ص ٢٦٨؛ روح المعاني: ج ١، ص ٤٢؛ الدر المنثور: ج ١، ص ٢٠.

٣٤٨ مايقوله القرآن في سورة الحمد

يجب أن تكون جزءاً من السورة وإلاّ وجب تكذيب القرآن والسنة، أو القول بوجود ما هو أعظم من القرآن نزولاً، والتالي باطل فالمقدم مثله.

فيتحصل: أن القول الحق هو أنّ البسملة جزء من سورة الحمد، وكل سورة ما عدا سورة براءة.

قول العامة في البسملة

القول الثاني: لكثير من العامة، وقد اضطربت آراؤهم فيها، فعن مالك والأوزاعي وفقهاء المدينة والشام والبصرة أنّها ليست جزء الحمد وباقي السور. نعم هي جزء آية في سورة النمل، فنفيهم ليس لقرآنيّتها وإنّما في تكرر قرآنيّتها^(١)، ولازم ذلك أن تكون البسملة في أوائل السور من فعل الكتاب الذين كتبوا المصحف^(٢).

وذهب الشافعي في أحد قوليّه وأحمد وفقهاء مكة والكوفة غير أبي حنيفة إلى أنّها آية في أول الفاتحة خاصة^(٣)، وجماعة ذهبوا إلى أنّها آية مفردة من القرآن أنزلت لبيان رؤوس السور والفصل بينها، ونسب إلى عبد الله بن مسعود القول بأنّها ليست من القرآن أصلاً، وهو رأي بعض الحنفية كما حكى^(٤).

ويكفي لبطلان هذه الأقوال تعارضها وتنافيها؛ لذا نكتفي بأدلة النافين

(١) بداية المجتهد ونهاية المقتصد (لابن رشد): ج ١، ص ١٠٢؛ التحرير والتنوير: ج ١، ص ١٣٦.

(٢) التحرير والتنوير: ج ١، ص ١٣٦.

(٣) تفسير المراغي: ج ١، ص ٢٧؛ التحرير والتنوير: ج ١، ص ١٣٦ - ١٣٧.

(٤) تفسير المراغي: ج ١، ص ٢٧.

فنقول: استدلل النافون لكون البسملة آية من الحمد بوجوه ضعيفة:

دليل عدم الجزئية

الوجه الأول: أن التسمية لو كانت من القرآن لكان طريق إثباتها إما التواتر أو الأحاد والأول باطل؛ لأنه لو ثبت بالتواتر كونها من القرآن لحصل العلم الضروري بذلك، ولا تمتنع وقوع الخلاف فيه بين الأمة، والثاني أيضاً باطل؛ لأن خبر الواحد لا يفيد إلا الظن، فلو جعلناه طريقاً إلى إثبات القرآن لخرج القرآن عن كونه حجة يقينية، ولصار ذلك ظنياً^(١).

وفيه:

بطلان الدليل

أولاً: أن التسمية ثابتة بالقرآن قبل التواتر، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾^(٢) وقد اتفق المسلمون بما فيهم النافون على أن السبع المثاني هي الحمد وهي سبع آيات مع البسملة، كما لا خلاف في نزولها مع مبتدأ كل سورة عبر الوحي، وهذا يقتضي أن تكون منها لا خارجة عنها.

وثانياً: أن التواتر ثابت عن النبي وأهل البيت صلوات الله عليهم والصحابة كما مرت عليك في بعض رواياته، ويعضده الإجماع العملي،

(١) التحرير والتنوير: ج ١، ص ١٣٩.

(٢) سورة الحجر: الآية ٨٧.

واختلاف الأمة فيها لا ينهض لإبطاله؛ لأنه واقع بين التابعين وتابعي التابعين، فالنافون متأخرون عن المثبتين، وحيث إن الطريق نقلي لا يؤخذ بالتأخر إذا خالف المتقدم؛ لأنّ نفيه اجتهادي حدسي، والمثبت طريقه حسي، ويعززه أنّ بعض النافين أقرّوا بأنّ جمعاً من الصحابة جمعوا القرآن كله في حياة رسول الله ﷺ منهم زيد بن ثابت ومعاذ بن جبل وأبو زيد وأبيّ بن كعب وأبو الدرداء وعبد الله بن عمر وعبادة بن الصامت وأبو أيوب وسعد بن عبيد ومجمع بن جارية وأبو موسى الأشعري، وحفظ كثير من الصحابة أكثر القرآن^(١)، ومعلوم أنّهم جمعوا القرآن مع البسملة في مفتتح كل سورة ما عدا سورة براءة، وذلك يكفي لإفادة العلم بكونها جزء السور فيبطل الاستدلال.

وثالثاً: أن قوله بأن خبر الواحد ظني فلا يثبت به القرآن لاستلزامه خروج القرآن عن الحجة اليقينية منقوض بأمرين:

الأول: اجتهادات القراء فإنها أسوأ من خبر الواحد فكيف أجازوها وقالوا باعتبارها.

والثاني: استدلالهم بالنفي ببعض أخبار الآحاد المناقش في سندها ودلالاتها، فلو امتنع إثبات شيء في القرآن بخبر الواحد امتنع نفي شيء عنه بخبر الواحد، فالاستدلال في شقيه باطل؛ ولا يقال يكفي للنافي أصالة عدم الثبوت.

والجواب: أن الأصل أصيل حيث لا دليل، وقد ثبت بالقرآن والتواتر أنّها

(١) التحرير والتنوير: ج ١، ص ٩٢، المقدمة الثامنة.

جزء كل سورة، فلا موضوع للأصل هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنّ الثابت بأيدي المسلمين أنّ البسملة المذكورة في مفتتح كل سورة، والأصل العقلاني يقتضي أنّها متلقاة من النبي ﷺ؛ لأنّ القرآن قد جمع في عهده ولم يثبت وجود قرآن خالٍ من البسملة، فالمدعي لإخراجها منه يفتقر إلى دليل.

الروايات النافية لجزئية البسملة

الوجه الثاني: بعض الروايات ومجموعها ست:

منها: ما رواه أبو هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال: ﴿قال الله تعالى: قسمت الصلاة نصفين بيني وبين عبدي، فنصفها لي ونصفها لعبدي، ولعبدي ما سأل. يقول العبد: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فأقول حمدي عبدي...﴾ والمراد بالصلاة القراءة في الصلاة، ووجه الدليل منه أنّه لم يذكر ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾^(١).

مناقشة رواية أبي هريرة

وفيهما أنّها معارضة بما رواه أبو هريرة من أمر النبي ﷺ بقراءة البسملة لدى قراءة الحمد كما تقدم نصها، وبذات الرواية الواردة بطرقنا عن النبي ﷺ فيها: ﴿إذا قال العبد ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ قال الله جل جلاله: بدأ عبدي باسمي، وحقّ عليّ أن أتم له أموره، وأبارك له في أحواله، فإذا قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال الله جل جلاله حمدي عبدي...﴾^(٢).

(١) التحرير والتنوير: ج ١، ص ١٤٠؛ الموطأ: ج ١، ص ٨٤.

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج ١، ص ٢٦٩، ح ٥٩؛ سنن أبي داود: ج ١، ص ١٨٩، ح ٨٢١.

وحل التعارض يتم بنحوين:

الأول: أن نعرض عن الرواية النافية لمخالفتها للقرآن والسنة القطعية والإجماع التي تتفق جميعاً على أن البسملة جزء السورة، ونعمل بالثانية على ما تقتضيه قواعد الترجيح.

الثاني: حمل الرواية النافية على الإشارة إلى بعض السورة لا جميعها، وذكرت الحمد للتعريف بالسورة المقصودة؛ لأن البسملة مشتركة في جميع السور، وعلى فرض المكافأة فإنّ هناك قدراً مسلماً بين الروایتين وقدراً مختلفاً فيه وهو البسملة، فإنّ الرواية النافية لم تذكرها بخلاف الرواية المثبتة، فيدور الأمر بين احتمال وقوع النقيصة في الرواية النافية أو الزيادة في الرواية المثبتة، والقاعدة تقتضي التمسك بالرواية المتضمنة للزيادة وحمل ما تحمل النقيصة عليها؛ لأنّ وقوع النقيصة في النقل عمداً أو سهواً كثير بخلاف احتمال الزيادة، والنتيجة أنّ العمل بالرواية النافية ممتنع، وتبقى الرواية المتضمنة للبسملة بلا مانع.

ومنها: حديث أبي بن كعب في الموطأ والصحيحين أنّ رسول الله ﷺ قال له: ﴿ألا أعلمك سورة ما أنزل في التوراة ولا في الإنجيل... مثلها قبل أن تخرج من المسجد؟﴾ قال: بلى، فلما قارب الخروج قال له: ﴿كيف تقرأ إذا افتتحت الصلاة؟﴾ قال: أبي: فقرأت: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ حتى أتيت على آخرها، قالوا: فهذا دليل على أنّه لم يقرأ منها البسملة^(١).

(١) التحرير والتنوير: ج ١، ص ١٣٨؛ وانظر الموطأ: ج ١، ص ٨٣؛ تفسير الطبري: ←

وفيه:

أولاً: أنه - وعلى فرض تمامية الاستدلال - معارض بالقرآن والسنة المتواترة وسيرة النبي وأهل البيت عليهم السلام والصحابة على القراءة، واعتبارها آية من السور.

القصور الذاتي في الرواية

وثانياً: أن الرواية في نفسها لا تصلح للاستدلال لسببين:

السبب الأول: أنها ليست في مقام بيان أن البسملة من السورة أم لا؛ لأن النبي صلى الله عليه وآله سأل أياً عن كيفية القراءة لا (عن) أصل القراءة؛ إذ قال له: ﴿كيف تقرأ؟﴾ ولم يقل ﴿ماذا تقرأ؟﴾ وواضح أنه يقرأ له من ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ لأن قراءة البسملة معروفة لدى الجميع، فالرواية أجنبية عن موضوع الاستدلال.

السبب الثاني: على فرض أن سؤاله كان عن أصل القراءة فقرأ أبي من ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ للإشارة إلى أنه يقرأ فاتحة الكتاب؛ لأن الحمد اسم علم للسورة، ولأن الصلاة لا تكون إلا بها، وفي مثلها لا يحتاج إلى ذكر البسملة.

فالحق أن الرواية قاصرة عن إثبات المدعى.

ومنها: ما ورد في أكثر من رواية في مسلم وسنن أبي داود والترمذي

→

والنسائي أَنَّ النبي ﷺ وبعض الصحابة كانوا يفتتحون الصلاة بالحمد لله رب العالمين ولا يذكرون البسملة^(١)، ويرد عليه ما أُورد على الرواية الأولى والثانية.

فيتحصل: أَنَّ الروايات التي تمسك بها النافون للبسملة عن السور إما قاصرة سنداً أو دلالة عن إثبات النفي.

وجوه استحسانية للنفي

الوجه الثالث: بعض الجهات الاستحسانية:

منها: أَنَّ البسملة لو كانت آية لوجب تكرار ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ في سورة الحمد بلا فاصلة طويلة، وهو قبيح في البلاغة.

وهو منقوض بمثل قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾^(٢) فإنها لا تتكرر بلا فاصلة طويلة، وقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾^(٣) ونحوها، ومحلول بما تقدم من أَنَّ ليس كل تكرار قبيح، وبعض التكرار ما يستملحه الذوق وتقتضيه البلاغة، هذا أولاً.

وثانياً: لا تكرار فيما ذكر، وسيأتي في التفسير ما يبيِّن وجود الفرق

(١) صحيح البخاري: ج ١، ص ٢٥٩، ح ٧١٠؛ صحيح مسلم: ج ٢، ص ١٢، ح ٣٩٩؛ سنن الترمذي: ج ٢، ص ١٥، ح ٢٤٦؛ سنن النسائي: ج ٢، ص ١٣٥؛ سنن أبي داود: ج ١، ص ٣٥٢، الهامش؛ التحرير والتنوير: ج ١، ص ١٣٨ - ١٣٩.

(٢) سورة الرحمن: الآية ١٣ فما بعدها من الآيات.

(٣) سورة الفجر: الآية ٢٠.

بين الموردين.

وثالثاً: أنّ الاستدلال المذكور لا اعتبار له؛ لأنه اجتهاد مقابل النصوص القطعية، ومخالف للإجماع.

ومنها: أنّ البسملة لو كانت جزء السور لزم أن تكون فواتح السور كلها متماثلة وهو قبيح في البلاغة، فإنّ أهل البلاغة يعدّون من علائم البلاغة التأنق في فاتحة الكلام وختامه، والأدباء وأهل الشعر والفن يعتنون في فواتح منشآتهم، ويعيرون من يكرر في كلامه أو يعيد مفتحه لعدم براعة الاستهلال. وجوابه يعرف مما تقدم، كما ذكرنا أنّ تكرار البسملة لفظي لا معنوي، فالإشكال مرفوع من أصله.

والحاصل: أنّ وجوه النفي قاصرة عن إثبات النفي، فتبقى أدلة الإثبات بلا مانع.

البسملة وترقيم الآيات

ويبقى هنا سؤالان:

السؤال الأول: أن ما ذكرتم يتنافى مع واقع ترقيم الآيات في المصاحف الموجودة في أيدي المسلمين، فإنّه يبدأ من الآية التالية للبسملة، ولو كانت البسملة منها لوجب أن يكون الترقيم منها.

وفيه جوابان:

الجواب الأول: ذكر عن بعض مفسري العامة كالفخر الرازي وهو أنّ الترقيم في الحمد سباعي لا سداسي، وهذا يعني أنّ البسملة جزء منها، وأمّا

في باقي السور لا ترقيم؛ لأنها جزء من الآية التي تليها وليست آية مستقلة^(١)، وهو ضعيف؛ لأن المستفاد من النصوص أن البسملة وحدها آية في جميع السور وليست جزءاً من آية.

لزوم الترقيم بالبسملة

الجواب الثاني: أن القاعدة تقتضي ابتداء ترقيم السور من البسملة، وهكذا كان الترقيم في المصحف النازل على رسول الله ﷺ، والمصحف الذي جمعه النبي على يد أمير المؤمنين عليه السلام على ما أفادته الأدلة، إلا أن المصحف المتداول في الأيدي مكتوب على قول العامة لاسيما قول أهل المدينة ومالك وأبي حنيفة الذين أنكروا أن تكون البسملة آية، والمسلمون المخالفون لهذا القول سكتوا عنهم لمصالح تقتضيها الحكمة لعل منها لكيلا يقع الاختلاف في مصاحف المسلمين، والحال أن المصحف الشريف هو الجامع الوحيد الذي بات يجمع المسلمين على كلمة سواء، أو لأن القائلين بأنها آية لا صوت لهم مسموع، ولولا ذلك لوجب ترقيم المصحف بترقيم يطابق الأدلة القاضية بأن البسملة جزء من كل سورة عدا سورة براءة، فيزداد في كل سورة رقم باحتساب البسملة.

حذفوا البسملة لمخالفة علي والعتره عليه السلام

السؤال الثاني: إذا كانت الأدلة تامة على كون البسملة جزءاً من السور فلماذا أنكروا الجماعة؟

(١) انظر تفسير الرازي: ج ١، ص ١٧٥؛ تفسير الأمثل: ج ١، ص ٢٩.

والجواب لا يخلو من ثلاثة احتمالات:

الأول: لأنهم اعتمدوا أدلة غير ناهضة؛ لأنها مخالفة للقرآن والسنة والإجماع والعقل، وهذا يستدعي منهم الرجوع إلى الحق وعدم التعصب لموقف غير صحيح علمياً ودينياً.

الثاني: لوجود دواعٍ دينية اعتقادية للإنكار، فإن الأدلة العقلية والنقلية متضافرة على أن البسملة جزء من كل سورة، وهي متضمنة للاسم الأعظم، وقريب منها كقرب سواد العين من بياضها^(١)، والاسم الأعظم هم محمد وآل محمد ﷺ ولعل ما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿أنا النقطة تحت الباء﴾ يعزز هذه الحقيقة^(٢)، كما أن كلمة المسلمين متفقة على السبع المثاني التي خص بها الباري عز وجل الرسول الخاتم وأنها سورة الحمد، وأن محمداً وآل محمد ﷺ هم السبع المثاني في مقابل القرآن الذي يعززه حديث الثقلين، وأنها ثقل أكبر وأصغر، وأنها لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض^(٣)، فيتضح من هذا أن للبسملة ارتباطاً كبيراً بمحمد وآل محمد ﷺ، والقوم من باب الموقف الاعتقادي رأوا أن الإقرار بالبسملة يلزم الإقرار بهذه الحقيقة الإلهية ومداليلها، وأن ولايتهم ثابتة في القرآن فأنكروا الأصل لإنكار الفرع.

(١) مهج الدعوات: ص ٢١٧؛ البحار: ج ٩٠، ص ٢٢٣، ح ١.

(٢) انظر ينابيع المودة: ج ١، ص ٦٨؛ بيان السعادة: ج ١، ص ٢٩.

(٣) البحار: ج ٢٣، ص ١٥٢، ح ١١٢؛ أعيان الشيعة: ج ١، ص ٣٦٥.

الدواعي السياسية لحذف

الثالث: وجود دواعٍ سياسية لحذف البسملة، وهي قيام النهج الحاكم في المسلمين على مخالفة نهج علي عليه السلام وشيعته، فإن القول بجزئيتها للسور هو قول أمير المؤمنين عليه السلام وشيعته، فأنكروها خلافاً منهم عليهم، وهذه سيرة متبعة لهم منذ الأيام الأولى، وهذا النهج يشمل الاحتمالين الأولين، وعليه شواهد كثيرة:

منها: ما ورد عن الأئمة الأطهار عليهم السلام من أن النهج العام كان قائماً على مخالفة أمير المؤمنين عليه السلام بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، ومضت عليه دولة بني أمية ودولة بني العباس، وفي الوقت الذي يُقرّون له بأنه أعلم الأمة وأنه باب مدينة العلم فكانوا في الشدائد والوقائع التي لا يعلمون لها حكماً يسألون أمير المؤمنين عليه السلام عنه، فإذا أفتاهم جعلوا له ضدّاً من عندهم ليلبسوا على الناس ولا تعمل الأمة بقوله عليه السلام، ولذا وردت روايات عديدة في مخالفة النهج العام؛ لأن الرشد في خلافه^(١).

ويعززه ما اتفقت عليه الكلمة من ردهم للقرآن الذي جاءهم به، وقالوا فيما عندنا الكفاية^(٢)، كما منعوا رسول الله صلى الله عليه وآله من أن يكتب لهم كتاباً لن يضلوا بعده أبداً^(٣)؛ لأنهم كانوا على علم بأنه سيوصيهم بالرجوع إلى

(١) انظر علل الشرائع: ج ٢، ص ٥٣١، ح ١؛ الوسائل: ج ٢٧، الباب ٩ من أبواب صفات القاضي، ص ١١٥ - ١١٦، ح ٣٣٣٥٦، وح ٣٣٣٥٧؛ الاثنا عشرية: ص ١٩٩.

(٢) الكافي: ج ٢، ص ٦٣٣، ح ٢٣.

(٣) الفوائد الطوسية: ٢٦٨.

علي عليه السلام من بعده، والشواهد في هذا كثيرة جداً.

ومنها: حذف حيٍّ على خير العمل من الأذان ^(١).

ومنها: حذف (العلي) من التصديق على قراءة القرآن مع أن النقل والعقل يتفقان على أن بعد قراءة القرآن يقال (صدق الله العلي العظيم) ^(٢).

ومنها: الفتاوى الكثيرة التي أفتى بها بعض الصحابة وأقرّوا بأنهم أفتوها اجتهداً منهم مخالفة لرسول الله صلى الله عليه وآله، وقد جمع الكثير منها العلامة شرف الدين قدس سرّه في كتابه النص والاجتهاد، والعلامة الأميني قدس سرّه في الغدير. أذكر منها مثالين:

أحدهما: متعة الحج والنساء، فقد أقرّ عمر بأنهما كانتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله ولكنه نهى عنهما وعاقب عليهما ^(٣)، وفي رواية أخرى أقرّ بثلاثة كن على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله ولكنه نهى عنهنّ وحرّمهن وعاقب عليهنّ: متعة الحج ومتعة النساء وحيٍّ على خير العمل ^(٤)، وقد أنكر عليه ذلك جمع من الصحابة ولكن لم يأبه به حتى مضت هذه السيرة وصارت هي النهج العام بين المسلمين، وتحريم المتعتين برره عمر باجتهاد شخصي واستحسان مقابل حكم الله ورسوله، وأمّا حيٍّ على خير العمل فمخالفة منه لعلي عليه السلام لأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله تحدّث في موارد عديدة بأنّ خير العمل هو علي عليه السلام ^(٥).

(١) انظر النص والاجتهاد: ص ١٩٩.

(٢) إشارة إلى آية الكرسي من سورة البقرة: الآية ٢٥٥.

(٣) الموطأ: ج ١، ص ١٧١، ح ٨٠٦.

(٤) انظر النص والاجتهاد: ص ١٩٩.

(٥) انظر التوحيد: ص ٢٤١؛ علل الشرائع: ج ٢، ص ٣١٨؛ المناقب: ج ٣، ص ٢٢٦.

حزب الكذابة الأموي

ثانيهما: ما ذكره ابن أبي الحديد أنّ معاوية حمل قوماً من الصحابة وقوماً من التابعين على رواية أخبار قبيحة في علي عليه السلام تقتضي الطعن فيه والبراء منه، وجعل لهم على ذلك جعلاً يرغب في مثله، فاختلقوا له ما أرضاه، وذكر أسماء جماعة منهم^(١)، وهذا كان بعد شهادة الإمام، فما بالك بأيام حياته، بل في حياة النبي ﷺ كان البعض يكذب على النبي حتى تواتر عنه بطرق الفريقين: ﴿لقد كثرت علي الكذابة وستكثر، ألا فمن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار﴾^(٢).

فبأي شيء كانوا يكذبون على النبي ﷺ؟ أكثر ما كانوا يكذبون فيه هو توصياته في علي عليه السلام وإظهار مقاماته، ويطعنون فيه وفي العترة الطاهرة عليه السلام، وقد تواتر في التاريخ أنّ أساليب من وظفهم معاوية كانت تقوم على ثلاثة اتجاهات:

الأول: اختلاق الأحاديث الكاذبة عليه.

والثاني: تحريف متون الأحاديث الصحيحة فيه وفي آرائه وفتاويه بالزيادة والنقيصة.

والثالث: محو الأحاديث الواردة بشأنه أو إنكارها ورميها بالضعف وشواهد ذلك كثيرة^(٣)، وهذا نهج اتبعوه للتشويش على أفكار الأمة لكيلا

(١) شرح نهج البلاغة: ج ٤، ص ٦٣؛ البحار: ج ٢٠، ص ٤٠١.

(٢) تكملة الرجال: ج ١، ص ٩، و ص ٨٢.

(٣) انظر النص والاجتهاد: ص ٣٦٨ فما بعدها.

تأخذ منه عليه السلام وتتبعه في دينها.

فتاوى الهوى

ومنها: فتاوى فقهاءهم القائمة على مخالفة فتاوى علي عليه السلام وشيعته وهي كثيرة جداً:

إخفاء البسملة

أحدها: ما جاء عن أبي هريرة الشافعي قال: إنَّ الجهر بالتسمية إذا صار في موضع شعاراً للشيعة فالمستحب هو الإسرار بها مخالفة لهم ^(١) ، وهو صريح في أن الفتوى لم تأت من نص قرآني أو نبوي، بل معاندة ومخالفة للشيعة، وهذا ما يؤكد قول الرازي في تفسيره قال: إن أمير المؤمنين علياً عليه السلام كان يبالغ في الجهر بالتسمية في الصلاة، فلما وصلت الدولة إلى بني أمية بالغوا في المنع من الجهر سعيًا في إبطال آثار علي عليه السلام ^(٢) وقريب منه ^(٣) أورد عن الدارقطني .

إخفاء التلبية

ثانيها: ما أخرجه الحاكم بسند صحيح عن سعيد بن جبير قال: كنا مع ابن عباس بعرفة فقال لي: يا سعيد! ما لي لا أسمع الناس يلبّون؟ فقلت: يخافون من معاوية. قال: فخرج ابن عباس من فسطاطه فقال: لبيك اللهم

(١) فتح العزيز: ج ٥، ص ٢٣٣ - ٢٣٤.

(٢) تفسير الرازي: ج ١، ص ٢٠٦؛ وانظر مكاتيب الرسول صلى الله عليه وآله: ج ١، ص ٦٤.

(٣) انظر روح المعاني: ج ١، ص ٦٣.

لبيك، فإنهم قد تركوا السنّة من بغض علي عليه السلام^(١) .

مخالفات أبي حنيفة

ثالثها: ما ورد عن أبي حنيفة أنّه كان يقول: قال علي وقلت أي على خلافه^(٢) ، وأجاز وضع الحديث على وفق مذهبه، وقال: لو أدركني رسول الله صلّى الله عليه وآله لأخذ الكثير من أقوالي^(٣) ، وكان يقول أيضاً: لقد خالفت جعفر بن محمد في جميع أقواله وفتاواه ولم يبق إلا حالة السجود، فما أدري أنّه يغمض عينيه أو يفتحهما حتى أذهب إلى خلافه وأفتي الناس بنقيض فعله^(٤) ، إلى غير ذلك من شواهد تدل على أنّ النهج العام قائم على مخالفة علي عليه السلام وشيعته ولم يثبت هذا بطرقنا بل بإقرار العلماء والأمراء منهم، وأن ذلك كله لأجل السلطة والحكم، وهذا يؤكد ما تواتر في النصوص أن الدين لا يؤخذ إلا من النبي وعترته عليهم السلام والعلماء الربانيين لا الساسة وأتباعهم.

إقرار عبد العزيز ومعاوية ومروان

فقد روى البلاذري في أنسابه عن عمر بن عبد العزيز قال: نشأت على بغض علي بن أبي طالب لا أعرف غيره، وكان أبي يخطب فإذا ذكر علياً نال منه فلجلج، فقلت: يا أبة إنك تمضي في خطبتك فإذا أتيت على ذكر علي

(١) مستدرك الحاكم: ج ١، ص ٤٦٤ - ٤٦٥؛ السنن الكبرى: ج ٢، ص ٤١٩، ح ٣٩٩٣.

(٢) الكافي: ج ١، ص ٥٦، ح ٩؛ الوسائل: ج ٢٧، الباب ٦ من أبواب عدم جواز القضاء والحكم، ص ٣٨، ح ٣٣١٥٣.

(٣) البحار: ج ٧٥، ص ٣٢٢، الهامش (١)؛ تاريخ بغداد: ج ١٣، ص ٣٩٠، ح ١٩.

(٤) الكشكول (للبحراني): ج ٣، ص ٤٦؛ الوسائل إلى الرسائل: ج ٦، ص ٢٣٩.

عرفتُ منك تقصيراً، فقال: أفطنت لذلك؟ قلت: نعم، فقال: يا بني! إنَّ الذين من حولنا لو نعلمهم من حال علي ما نعلم تفرّقوا عنّا^(١)، وقريب من هذا رواه ابن أبي الحديد في شرح النهج^(٢).

ولما بلغ معاوية خبر شهادة أمير المؤمنين عليه السلام قال: ذهب العلم والفقه بموت ابن أبي طالب، فقال له أخوه عتبة: لا يسمع هذا منك أهل الشام^(٣)، ولماذا لا يريد أن يسمع ذلك أهل الشام؟ يجيب مروان على ذلك في رواية البلاذري بسنده عن الإمام زين العابدين عليه السلام قال: قال لي مروان بن الحكم: ما كان في القوم أدفع عن صاحبنا - أي عثمان - من صاحبكم - أي علي عليه السلام - فقال السجادة عليه السلام: ﴿فَلِمَ تَسْبُونَهُ عَلَى الْمَنَابِرِ؟﴾ فقال مروان: إنه لا يستقيم لنا الأمر إلا بذلك^(٤).

ويتضح من هذه الشواهد وغيرها الكثير بأنَّ القوم كان لهم نهج في إقصاء علي عليه السلام ليس عن الخلافة فقط، بل عن المرجعية الدينية والعلمية عناداً وخلافاً لرسول الله صلى الله عليه وآله الذي نصبه خليفة وإماماً ومرجعاً للناس في الفتيا والأحكام وسائر الأمور العامة.

ومن آثار هذا النهج إنكار البسملة وأنها آية في كل سورة؛ لأنَّ هذا هو نهج علي عليه السلام وشيعته، ويرمز إلى آل محمد عليهم السلام.

(١) أنساب الأشراف: ج ٨، ص ١٩٥.

(٢) شرح نهج البلاغة: ج ٤، ص ٥٩.

(٣) الاستيعاب: ج ٢، ص ٤٦٣.

(٤) أنساب الأشراف: ج ٢، ص ٤٠٦.

التعليم الثاني: استحباب الابتداء والجهر بالبسملة

لا خلاف في استحباب قراءة البسملة في ابتداء كل قول وعمل حتى على القول بأنها ليست جزءاً من كل سورة، فعن الإمام الباقر عليه السلام: ﴿إذا توضأ أحدكم أو أكل أو شرب أو لبس ثوباً أو كل شيء يصنع ينبغي أن يسمي عليه، فإن هو لم يفعل كان الشيطان فيه شريكاً^(١) .

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: ﴿ستر ما بين أعين الجن وعورات بني آدم إذا نزعوا ثيابهم أن يقولوا ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾^(٢) .

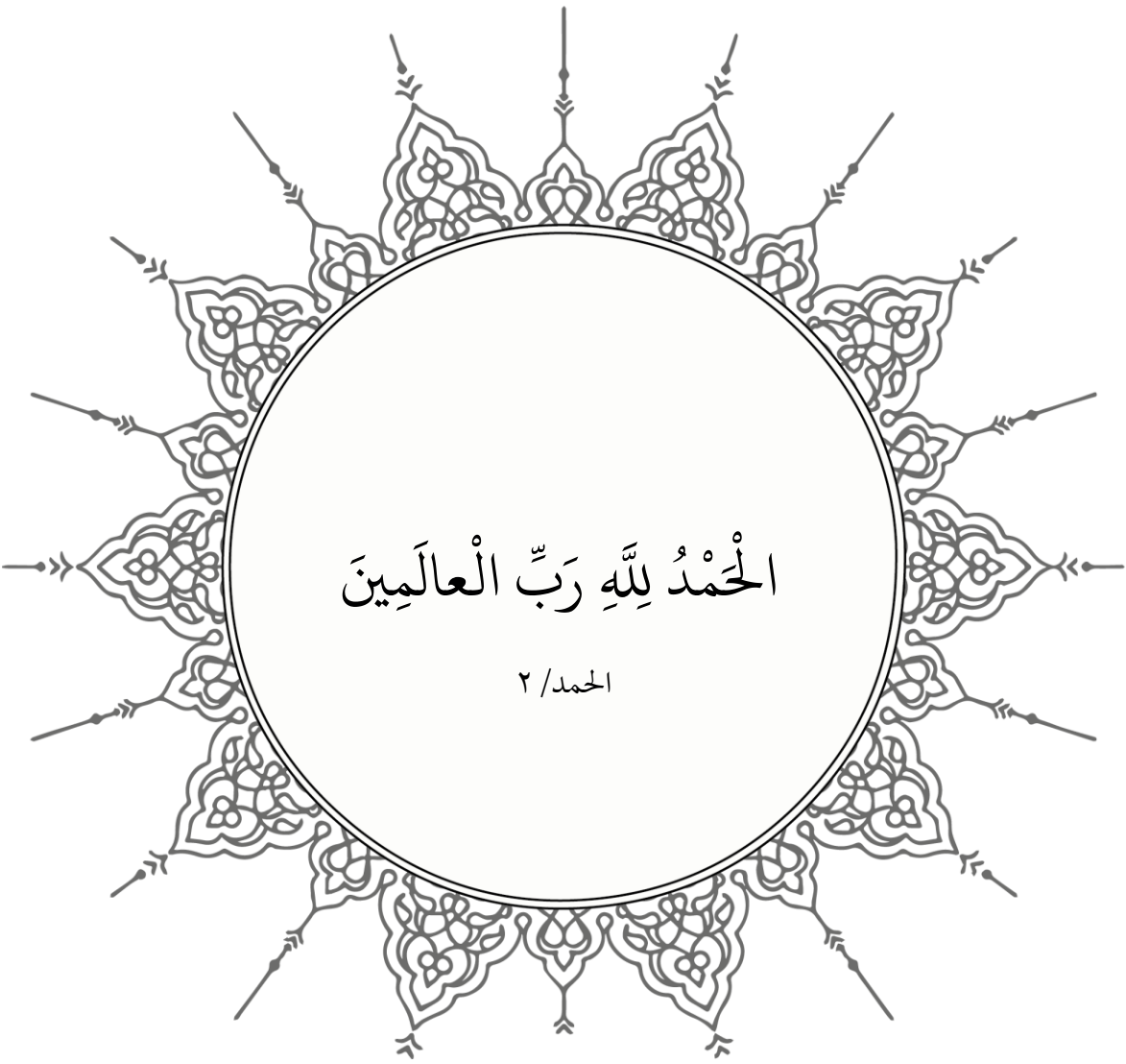
ويستحب الجهر بها في جميع الأوقات والحالات، وهي من علامات المؤمن، كما ورد في الخبر عن الإمام العسكري عليه السلام؛ لأنها إظهار بذكر الله سبحانه فتطرد الشياطين، وتفتح أبواب الطاعة، فقد روى القطب الراوندي في كتاب (الدعوات) أنّ النبي صلى الله عليه وآله قال: ﴿أغلقوا أبواب المعصية بالاستعاذة، وافتحوا أبواب الطاعة بالتسمية^(٣) ، وهي موجبة للفلاح وبلوغ الغايات، فعن النبي صلى الله عليه وآله: ﴿لا يرد دعاء أوله ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾^(٤) .

(١) البحار: ج ٧٧، ص ٣٢٨، ح ١٦؛ مستدرک الوسائل: ج ١، ص ٣٢٠، ح ٧١٩.

(٢) تفسير الرازي: ج ١، ص ١٧١؛ الكبريت الأحمر: ج ١، ص ٦٧.

(٣) الدعوات: ص ٥٢.

(٤) المصدر نفسه.



الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

الحمد / ٢

وهي جملة خبرية في مقام الإنشاء. غايتها تعليم العباد وجوب الحمد، ومن يستحق الحمد وعلته، وكيفية الحمد، ومفاد الآية أيها الناس قولوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يقولها النبي والإمام عليهما وآلهما السلام، ويقولها عموم الناس، وقال أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿نحمده على آلائه كما نحمده على بلائه﴾^(١)؛ لأنّ الاثنين من مقتضيات رحمة الله بعباده.

فالآية المباركة تؤدب العباد بأدب العبودية الأول والأهم وهو الحمد، وما كانوا يعلمونه لولا أن يعلمهم الله سبحانه به، ولولاه لتخبّطوا في كلماتهم وشرّقوا وغرّبوا ولم يبلغوا ما يليه به سبحانه، فهي آية من أعظم آيات القرآن وأبلغها تعليماً ودلالة، والبحث فيها يقع في مباحث:

(١) نهج البلاغة: ج ١، ص ٢٢٣، الخطبة ١١٤.

المبحث الأول: في دلالة السياق



وقد أفردنا له بحثاً لأهمية دلائله وسعتها، فقد قرئ ﴿الْحَمْدُ﴾ بالضم إجماعاً، وهناك قراءة بالفتح وأخرى بالكسر^(١)، وقرئ ﴿رَبِّ﴾ بالكسر إجماعاً ورويت قراءة بنصب الباء، وفي مجمع البيان حمله على بيان جواز القراءة بالفتح^(٢)، وكلاهما خلاف التحقيق؛ لما عرفت من أن القراءة توقيفية وهي الواردة في المصحف الشريف عن أمير المؤمنين عليه السلام، وورودها بعد البسملة في أول سور الكتاب العزيز يشير إلى دلائل:

دلائل افتتاح الكتاب بالحمد

الأولى: أن البسملة أشارت إلى أن الباري عز وجل متصف بالرحمة الرحمانية والرحيمية، فجعل التكوين والتشريع يقومان بالرحمة، وهذه نعمة عظيمة تستحق الحمد والشكر، فماذا لو كان الباري يتعامل مع الأشياء بالغضب؟ وماذا لو تعامل معهم بالعدل؟ فإنَّ العقل يقضي بأنَّ العالم في نفسه لا يستحق الوجود حدوثاً ولا بقاء، فلو تعامل الباري عز وجل معه بمقتضى العدل لم يخلقه، ولو تعامل معه بالغضب لأباده ولم يبقه: ﴿وَرُبُّكَ الْعَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ﴾^(٣) فلاَّته عفو

(١) التبيان: ج ١، ص ١٠١.

(٢) مجمع البيان: ج ١، ص ٥٥.

(٣) سورة الكهف: الآية ٥٨.

غفور ذو رحمة لا يعجل لهم العقوبات، ولا يؤاخذهم بما يفعلون، مع أن كل فعل قبيح ومعصية تستحق الهلاك، فمن أعظم نعم الله تعالى على الخلق التي تستحق الحمد الدائم والشكر المستمر هو أنه جعل الرحمة مبدأ التعامل مع الخلق، وهذا المبدأ حيث قرره في البسملة استوجب أن يلفت العباد إلى الحمد والشكر بعده، ولذا قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ بعد قوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ للإشارة إلى أن الحمد للذات الجامعة لجميع صفات الكمال والجلال التي بعدت عن النواقص، وتنزهت عن الرذائل، فلم تفض على الخلق إلا الخير.

الثانية: أن البسملة تتضمن مدح الباري والثناء عليه بأعز صفاته الألوهية وهي الرحمة، وهو مدح إجمالي فاستدعى بيان تفصيل المجلد وأنه مدح يستحق الشكر المطلق العام؛ لأن رحمته لا تختص ببعض الخلق دون بعض، وليست محدودة بزمان دون زمان، أو مكان دون مكان؛ لأن الخلق كله عياله، وهو بالنسبة إليه متساوي النسبة، فالحيوان والنبات والجماد بجميع أصنافه والإنسان بجميع عشائره وقبائله وجذوره وألوانه وأشكاله تربي وتغذى ونما وبقي برحمة الله، وهذه صفة عامة تستحق الحمد الواسع بوصف الربوبية، فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فهو حمد يطابق الرحمة، وحيث إن الرحمة عامة وشاملة ربّي بها جميع الخلق فكان الحمد عليها مطابقاً، فضرورة التطابق بين المبدأ والمنتهى والمنشأ والغاية تقتضي ورود آية الحمد بعد البسملة.

الافتتاح بالحمد العام

ويعززه أن أربع سور أخرى فتحت بالحمد لكنها وردت بلسان الحمد الخاص، وسورة الفاتحة وحدها التي ورد فيها الحمد عاماً لجميع جهات الربوبية.

ففي سورة الأنعام قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾^(١) فجبهة الحمد هي الخلق والإيجاد، وفي سورة الكهف قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾^(٢) فالحمد على إنزال الكتاب، وفي سورة سبأ قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾^(٣) فالحمد على جهة ملكيته لما في الكون، وفي سورة فاطر قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٤) فهو ناظر إلى جهة الفطر وهو شق الشيء وإعداده وظهور خصائصه، فهو من مراحل الخلق^(٥)، فالحمد في ثلاثة على التكوين وفي واحدة على التشريع وهي إنزال الكتاب.

أما التكوين فهي الخلق والفطر والملكية وبينها ترتب طولي، لأنَّ الخلق في اللغة التقدير، ويستعمل في إبداع الشيء من غير أصل ولا احتذاء، فقوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي أبدعهما^(٦) لذلك يستحق الحمد عليها؛ لأنها صفة تختص به سبحانه، والفطر إظهار الحادث بإخراجه من العدم إلى الوجود، كأنَّه شقَّ عنه فظهر؛ لأنَّ أصل الفطر الشق طويلاً، وقوله: فطر الله الخلق أي أظهرهم بإيجاده إيَّاهم^(٧).

(١) سورة الأنعام: الآية ١.

(٢) سورة الكهف: الآية ١.

(٣) سورة سبأ: الآية ١.

(٤) سورة فاطر: الآية ١.

(٥) مفردات الراغب: ص ٦٤٠، (فطر)؛ المعجم الوسيط: ج ٢، ص ٦٩٤، (فطر).

(٦) مفردات الراغب: ص ٢٩٦، (خلق).

(٧) معجم الفروق اللغوية: ص ٤٠٧، (١٦٣٠).

ومعنى الآية ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(١) أي مظهرها من العدم إلى الوجود، ومعطيها سماتها ومشخصاتها، وهي مرحلة متأخرة عن الخلق والتقدير؛ لذلك يستحق الحمد كذلك.

وحيث إنّ كل خالق وموجد يملك ما أوجده قال في الآية الثالثة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾^(٢) ووجه الحمد في ملكيته رحمته التي وسعت كل الأشياء. بها أوجدها، وبها أظهر خصائصها، وأدام عليها الوجود، ولو تصور العبد أنّ الذي يملك ما في السماوات والأرض غير الله سبحانه ماذا كان يحدث في العالم من ظلم وجور؛ ونلاحظ أنّ بعض الدول تملك القوة فاستمكت مصير البشر، وعشت به، ونشرت فيه الظلم والفساد، فكيف لو كانت تملكهم؟ فملك الله سبحانه للخلق هو نعمة عظيمة تستحق الحمد، والملفت أنّه في هذه الآية المباركة قال: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ وليس له السماوات والأرض، بينما في الآيتين السابقتين قال خلق السماوات والأرض وفاطرهما وذلك لسبيين:

الأول: لأنّ في الآيتين أشار إلى خلق السموات والأرض، والخالق مالك فلا داعي لتكرار ذلك.

الثاني: لأنّ ما في السموات والأرض بعضه من أفعال البشر، كالزراعة والصناعة والطائرات والأقمار الصناعية وغير ذلك مما هو من فعل البشر، فإنّ الباري عزّ وجلّ يعلمنا بهذا البيان بأن ما يفعله البشر هو أيضاً لله

(١) سورة فاطر: الآية ١.

(٢) سورة سبأ: الآية ١.

سبحانه؛ لأنه السبب الحقيقي لكل فعل وقول وصناعة وإنتاج، والقاعدة تقضي بأن مالك الأصل مالك الفرع، فالإنسان مملوك لله سبحانه وكل نهاء يفعله الإنسان يعود إلى أصله، وهو من مقتضيات ربوبية الباري لخلقه، وحتى ما ينتجه الإنسان ويستحق عليه المدح والشكر فإنه يتوجه إلى الله بالحمد والشكر؛ لأنه سبب إنجازه، فالحمد كله لله، وهذا هو الذي أشارت إليه سورة الحمد، فإن الحمد فيها ليس حمداً خاصاً للخلق أو للفطر أو لإنزال الكتاب، بل هو حمد عام للتربية والربوبية في كل شيء، فالتكوين والتشريع من نعم الله وكلها تستحق الحمد.

الوجوب الفطري والعقلي

الثالثة: لتعلمنا أن الابتداء بالحمد بعد التسمية يوصل الإنسان إلى حقيقتين واجبتين:

أولاهما: بحثه الدؤوب عن خالق الوجود ومكوّنه ومحبيه ورازقه، فإن كل سليم الفطرة يدأب في البحث عن ذلك؛ لأن في معرفته لذة وفي عدم معرفته ألماً.

ثانيهما: حكم العقل بوجوب معرفة الخالق المنعم لأجل شكره على ما أنعم حسب قاعدة وجوب شكر المنعم، وهذا التسلسل المنطقي بين الوجوب الفطري والعقلي يستدعي التسلسل بين البسملة والحمد في مفتتح كتاب الله تعالى؛ لأن البسملة تعرفه بالخالق، والحمد يعرفه بطريق شكره وهو الحمد لله، ولأن الحمد قولي وفعلي، فالقولي أن يقول الحمد لله والفعلي أن يقر بربوبيته للعوالم طراً، والمخالف لذلك يكون قد خالف فطرته

وعقله، وهذا ما توضحه الدلالة التالية.

بالبسمة والحمد تدوم النعم

الرابعة: تعليم الخلق الحمد والشكر لكل نعمة، فالباري عزّ وجلّ واهب النعم ومبدؤها، فهو مبدأ كل نعمة وموهبة وكمال في العالم. يبدأ كلامه بالبسمة والتحميد، وهما أعظم قيمتين بسببهما تحدث النعم وتدوم، فبالله وجودها وبالحمد دوامها، وهذا نهج يرفع من مستوى الإنسان عقلاً وقلباً وسلوكاً، ويميز الكمّلين من الناس عن غيرهم، فالكمّلون لا ينكرون الحقوق، ولا يتكبرون على الحقائق، ولا يغفلون عن الواجبات، وكل إنسان بفطرته وبديهة عقله يدرك أن وجوده حدوثاً وبقاء ليس منه، بل من الله تعالى، ويدرك بأن شكر من وهبه الوجود وأدام عليه النعم واجب، والخضوع والطاعة له واجب، ومخالفته أو إنكار نعمه خروج عن الإنسانية، ولذا ورد في دعاء الإمام زين العابدين عليه السلام: ﴿والحمد لله الذي لو حبس عن عباده معرفة حمده على ما أبلاهم من مننه المتتابعة وأسبغ عليهم من نعمه المتظافرة لتصرّفوا في مننه فلم يحمده، وتوسعوا في رزقه فلم يشكروه، ولو كانوا كذلك لخرجوا من حدود الإنسانية إلى حد البهيمية، فكانوا كما وصف في محكم كتابه: ﴿إِنَّ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾^(١)﴾^(٢) والنعم المتضافرة المتتابعة التي كل نعمة تسند نعمة أخرى.

(١) سورة الفرقان: الآية ٤٤.

(٢) الصحيفة السجادية الكاملة: ص ٢٣ - ٢٤.

الافتتاح باسم الله لا باسم الشعب

وبهذا يتضح الفرق الكبير بين النهج الرباني وغيره من المناهج، فإنَّ نهج الله أن يبدأ المتكلم والمتحدث ومن يقوم بالعمل بالبسملة والحمدلة؛ لأن كل شيء منه، ولولاه لم يقدر متكلم على بيان حرف أو تحريك ساكن. أما النهج الآخر يبدأ بـ (باسم الشعب) أو (باسم الحاكم الفلاني) أو (باسم البلد) أو بأي اسم آخر غيره، وهذا خروج عن الواقع وعن الكمال الإنساني، ولو ارتقى العالم أكثر واقترب من الإنسانية سيجعل مبدأ أموره باسم الله وحده وشكره لا غير.

ومعلوم أن الذي يجعل اسم الله وحده وشكره مفتتحه انعكس ذلك على نهجه وأسلوبه والنتائج التي يطلبها، فإنَّ الابتداء باسم الشعب كلام خالٍ من المحتوى، ولا معنى له، فماذا يعني باسم الشعب؟

ما معنى باسم الشعب؟

والجواب لا يخلو من احتمالات:

الأول: أنه يتحرك ويفعل ويقضي بما يمثله من آراء الشعب، فيكون حكمه حكم الشعب كما عرف في فن السياسة، وهذا غير صحيح؛ لأنَّه لا يمثل كل الشعب. هذا على فرض تولّيه بالاختيار، كما أنَّه لا يمثل رأي الشعب بالضرورة وإنَّما هو يمثل رأيه وما ينطق به هو رأيه لا رأي الشعب، والشعب لم يُبد رأيه في القضايا، وإنَّما أعطاه فرصة تولي المنصب. أما ما يحكم ويبيدي به من رأي فليس هو رأي الشعب.

إشكال جوهري على الديمقراطية

وهذا إشكال أساس يرد على الفكر الديمقراطي والسياسة الديمقراطية التي يدّعيها العالم، بخلاف الابتداء باسم الله سبحانه فإنه دعاء ينطلق من العبد إلى الرب فيستعين برحمته وتوفيقه؛ لذا يشكره بعد ذلك بالحمد له؛ لأنّ من يستعين بالله يعينه بلا ريب، ولولا إعانتة لم يستطع على الكلام أو العمل، فدلّل الإعانة هو وقوع الكلام وصدور العمل.

الثاني: أن الحكم الذي يصدره يكتسب قوته وشرعيته وقدرته التكوينية من الشعب، وهو الآخر غير صحيح؛ لأنّ الشعب هو فقير في نفسه إلى من يعطيه القوة والقدرة وهو الله سبحانه، فالأولى الاستعانة به.

شرعية الحكم من الله تعالى

الثالث: أن الحكم الذي يصدره يكتسب شرعيته من الشعب، وهو الآخر باطل؛ لأنّ الشعب لا يملك الشرعية، بل الشرعية لله والشرعية له: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾^(١) و: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾^(٢) وهو الذي جعل الخلافة في الأرض وعيّن الخلفاء والأئمة عليهم السلام وأنزل الكتاب، وبيّن القوانين والأحكام، وأمر بالأخذ بها، وحذّر من الحكم بغير ما أنزل الله؛ لأنّه من الفسق والظلم والكفر.

(١) سورة الأنعام: الآية ٥٧.

(٢) سورة يوسف: الآية ٤٠.

إشكال جوهري ثان على الديمقراطية

إن قلت: لكنّ الشعب يملك سلطة على نفسه، وهذه السلطة يفوضها إلى الحاكم ونحوه ليحكمه، فإذا حكم الحاكم بشيء كان نافذاً على الشعب باعتبار ما فوّضه الشعب من سلطة.

قلت: هذا القول لا يقوم على أساس صحيح؛ لأنّ الشعب بما هو مفهوم كلي ليس له وجود في الخارج، والموجود في الخارج هو مجموعة أفراد الناس، وكل فرد من الناس له سلطة على نفسه وماله وبإمكانه أن يفوضها إلى الغير، ولكن ليس بإمكانه تفويضها على غيره، والحاكم في الانتخاب يكتسب سلطته من الذين انتخبوه وهو تفويض منهم له، وهناك فئتان أخريان لم تفوضه عن نفسها، وهم المخالفون له والذين كانوا في الحياد ولم يؤيدوه ولم يعارضوه، فبأي وجه شرعي أو قانوني يتحكم بهما ويؤخذ برأي قسم من الناس ويفرض على غيرهم؟ هذا إشكال آخر يرد على الفكر الديمقراطي والشرعية الانتخابية لا يمكن حله ضمن الموازين الديمقراطية؛ لأنّ الديمقراطية بهذا المعنى ستكون استبداد الأكثرية بالأقلية، ولو كانت الأكثرية بنسبة واحد بالمائة، وهو تناقض ونقض للغرض، بخلاف النهج الإلهي فإنّه يقوم على أساس الواقعية الحقيقية، فإنّ الحق والملك والسلطة كلها ثابتة لمن أوجد الوجود بألوانه وأشكاله بما فيه الأرض والشعب والحكام التي هي مكونات الدول، وأبقاه وأفاض عليه نعمه وربّاه، فالابتداء به في كل قول وعمل والثناء عليه هو مقتضى الحق، وهو منشأ الشرعية والسيادة في الدولة والشعب، ويجب أن يكون الحاكم

بتعيينه المباشر كالنبي والإمام، أو التابع وهم الفقهاء العدول ومن يكتسب شرعيته منهم.

تطابق الحمد والبسملة في الأثر

الخامسة: تطابق الأثر، فإن الروايات الواردة نصت على أن كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بسم الله الرحمن الرحيم فهو أبتر، ورد ذلك عن أمير المؤمنين عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله وقد تقدم نص الرواية^(١)، ومقارب لهذا النص ورد عن النبي صلى الله عليه وآله: ﴿كل أمر ذي بال لم يبدأ فيه بالحمد لله فهو أقطع﴾^(٢) وقد نسب ذات الأثر إلى عدم الابتداء بالحمد.

الجمع بين الأقطع والأبتر

ويمكن أن يجمع بينهما بأنحاء:

الأول: أن يحمل الحمد على البسملة؛ لما عرفت من أن البسملة تتضمن الحمد والشكر لله سبحانه وذكره بأعز صفاته، وحتى يستقيم هذا الجمع يجب أن نحمل الأقطع والأبتر على الترادف؛ لأن وحدة المؤثر تستدعي وحدة الأثر، ولكن حيث إن الترادف باطل عند جماعة والأصل يقتضي حمل الألفاظ على المعاني الحقيقية لا المجازية فلا يجوز حمل الأقطع على الأبتر بلا قرينة.

(١) تفسير الإمام العسكري عليه السلام: ص ٢٥، ح ٧.

(٢) تفسير الفرقان: ج ١، ص ٩٥؛ كنز العمال: ج ١، ص ٥٥٨، ح ٢٥٠٩؛ وانظر مسند أحمد: ج ٢، ص ٣٥٩؛ سنن ابن ماجه: ج ١، ص ٦١٠؛ مفردات الراغب: ص ١٠٧، (بتر)، الهامش ١.

الثاني: أن الأقطع ورد بطريق عامي عن أبي هريرة، ولسانه التردد، ففي مسند أحمد وسنن ابن ماجه قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿كل كلام أو أمر ذي بال لا يفتح بذكر الله عز وجل فهو أتر، أو قال أقطع﴾^(١) وبناء على وثاقته فإن التردد يمنع من الحمل على (أقطع)؛ لأن مفردة الأتر متفق عليها، وقد وردت بطرق الفريقين بلسان الجزم فيكون قرينة على اشتباه الراوي وتردده في النقل، ولعله نقل الحديث بالمعنى بتصور أن الأتر والأقطع واحد، وحيث يكون المعنى أن العمل الذي لا يبتدئ ببسم الله الرحمن الرحيم لا يستمر لأنه أتر، وقد فسر الأتر بالذي ينقطع من الخير أثره^(٢)، فيقارب معنى الأقطع.

التكامل بين البسمة والحمد

الثالث: أن نحمل الحديثين على المغايرة في الموضوع والأثر والتكاملية في المعنى وهو الحق؛ بداهة أن الحمد غير البسمة لفظاً ومعنى ومصادقاً، والأتر والأقطع يشتركان في معنى الفصل والإبانة ويختلفان من نواح: الأولى: أن الأتر قطع الشيء عن الدوام والاستمرار؛ لذا يقال لمن لا عقب له بأنه أتر.

الثانية: أن الأقطع قد يقال للشيء بلحاظ فصله وإبانتة في نفسه، أو باعتبار انعدام أثره؛ لذا يقال تقاطع السيفان؛ لأن كلاهما منع من تأثير الآخر في

(١) انظر مسند أحمد: ج ٢، ص ٣٥٩؛ سنن ابن ماجه: ج ١، ص ٦١٠؛ مفردات الراغب: ص ١٠٧، (بتر)، الهامش ١.

(٢) معجم مقاييس اللغة: ص ٩٥، (بتر)؛ مفردات الراغب: ص ١٠٧، (بتر).

القتل، وتقاطع الرأيان تعارضا فلا يترتب أثره في الامتناع، ولا يقال متباتراً.
الثالثة: أن الأبر يقال للقاطع في الماديات. أمّا الأقطع يطلق على الباتر في
الماديات والمعنويات؛ لذا يقال رأي قاطع ولا يقال له باتر، ومنه قوله تعالى:
﴿ مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ ﴾^(١).

ويتحصل: أن الأقطع أعم من الأبر، ومعنى الحديث الأول أن العمل
الأبر ينتهي فلا يمتد، وأثره أن العمل لا يبقى فينقطع بسبب انتفاء مقتضيه
أو وجود الموانع منه، ويعززه المثل المشهور (ما كان لله ينمو وما كان
للسيطان يخبو) وكل ما ليس لله هو للشيطان؛ لأنّه يشارك بني آدم في
أموالهم وأولادهم، كما نص عليه القرآن^(٢)، ومعنى الثاني أن العمل الأقطع
ينتهي بنحوين:

أحدهما: أن ينبر فلا يستمر.

وثانيهما: إن ينقطع أثره وإن استمر العمل.

وعليه يكون المعنى الثاني مكملًا للمعنى الأول لا معارضا له، فيدل على
أن الحمد مكمل للابتداء بالبسملة، فالعمل الذي يبتدأ فيه بسم الله الرحمن
الرحيم يستمر في الوجود، والذي يبتدأ فيه بالحمد بعدها بأن يقول العامل
﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ فإنه يستمر مع ظهور
آثاره وخيراته، وبهذا يتضح وحدة السياق في الآيتين.

(١) سورة النمل: الآية ٣٢.

(٢) إشارة قوله تعالى: ﴿ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ... ﴾ سورة الإسراء: الآية ٦٤.

المبحث الثاني: في مفردات الآية المباركة



تضمنت الآية أربع مفردات نببحثها على التوالي:

دلائل الحمد وآثاره

المفردة الأولى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾

اللام للجنس وهو الأصل فيها، ولام الجنس تتضمن معنيين:

أحدهما: أَنَّ الأمر معروف لدى القائل والسامع.

وثانيهما: أَنَّ المعنى شامل لجميع مصاديقه وأفراده، فحينما يقول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ بنحو مطلق ولا يعرفه فقد كشف عن أَنَّ الحمد معروف ومعروف وجه استحقاقه، وأَنَّهُ شامل لجميع الموارد، وهذه المعرفة ارتكازية قلبية، وفي اللغة يجب تعريفه لتمييزه عن غيره.

معنى الحمد والثناء

فالحمد الثناء الصادق باللسان على الجميل الاختياري سواء تعلق بالفضائل كالعلم، أو بالفواضل كالبر، فهو مدح لصفات الذات والفعل باللسان خاصة. قال تعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾^(١) وأهل الجنة ﴿وَأَخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٢)

(١) سورة النمل: الآية ٥٩.

(٢) سورة يونس: الآية ١٠.

فالحمد يقع باللسان، وقد قيدناه بالصادق؛ لأنّ الشئ قد يكون كاذباً
فينسب الفضل إلى من لا يستحقه وهو تزلف ونفاق، وقد يكون على سبيل
التهكّم والاستهزاء ويقابله الذم^(١) وقيدناه بالاختياري؛ لإخراج الكمال
الذي يصل إلى الإنسان بغير اختيار، كالورثة أو الأمر كالشخص الذي
يُحمّس ماله ويزكيه ويوصله إلى الفقير فإنّه لا يحمد عليه؛ لأنّه يؤدي ما
وجب وإن مدح عليه، ويخرج الشئ على الأشياء الجميلة بتكوينها الأصلي،
كصفاء اللؤلؤة وحلاوة العسل وحسن القمر، فإنّه لا يحمد كل منها على ما
له من جمال وإنّما يمدح؛ لأنّ ما له من جمال غير اختياري، وقد ذكرنا
اللسان مع أنّ الشئ يغني عن ذكره؛ لأنّه لا يكون إلّا باللسان للإشارة إلى
الخلاف الذي سيأتي.

لماذا لا يستحق الحمد إلّا هو؟

ولا يستحق الحمد إلّا هو تبارك وتعالى لسببين:

الأول: لأنّه الوحيد المتميز بصفات الجمال الذاتية والفعلية من جميع
الجهات، وكل ما سواه فإنّه قد يتصف بصفة ويفقد صفات، والمعصوم
متصف بكل صفات الكمال الإلهي لكن بما أعطاه الله وربّاه وكمّله.

الثاني: لأنّ كل كمال وفضيلة وبر وإحسان يعود إليه، فما يتصف به البشر
من صفات جمال وكمال فإنّها تعود إليه تبارك وتعالى. تفيد ذلك الإضافة إلى
لفظ الجلالة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ لأنّ كل مخلوق له؛ لذا حصر الحمد به تبارك

(١) انظر معجم الفروق اللغوية: ص ٢٠١ - ٢٠٣، (٧٩٧)؛ مفردات الراغب: ص ٢٥٦، (حمد).

وتعالى في آيات عديدة، كقوله تعالى: ﴿لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ﴾^(١) و: ﴿الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾^(٢).

لا يليق الحمد إلا له

فالحمد في لفظه ومعناه ومضمونه لا يليق إلا به تبارك وتعالى، ولذا لم يعهد في الاستعمالات العرفية ذكر الحمد بفضائل الناس وفواضلهم، فلا يقال (الحمد لفلان على علمه) أو (جوده وعطائه) وإنما يثنى عليهم بالمدح والشكر والثناء دون الحمد.

وإذا أطلق الحمد على المحسنين فذلك من باب اللفظ العام الذي أُريد به الخاص، وهو الثناء والمدح، فيدل على أن الحمد في المرتكزات العرفية فضلاً عن القاعدة العقلية خاصة بالله تبارك وتعالى فلا يشاركه فيه أحد، وهذا شاهد آخر على التطابق بين البسملة وهذه الآية؛ لأنَّ الابتداء لا يجوز إلا باسمه، والحمد لا يجوز إلا له.

ما معنى (الله)؟

المفردة الثانية: ﴿الله﴾

ذكروا (للام) معانٍ أصحها^(٣) للاختصاص والاستحقاق، وإليها تعود (لام) الملك ومنه قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٤) ولا يصح

(١) سورة التغابن: الآية ١.

(٢) سورة القصص: الآية ٧٠.

(٣) تفسير الرازي: ج ١، ص ١٩١، الفائدة الثالثة.

(٤) سورة آل عمران: الآية ١٨٩.

أن تحمل على الملك فيها لاستلزامه تحصيل الحاصل؛ لأن (ملك) يدل على التملك، فلو حملت اللام على الملك لزم ثبوت الشيء لنفسه، والصواب أن تحمل على الاختصاص أو الاستحقاق فتفيد أن ملك السموات والأرض مختص به تبارك وتعالى ولا يستحقه إلا هو، على أن حمل (اللام) على الملك لا يستقيم في جملة من الموارد كقوله تعالى: ﴿لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾^(١)، إذ لا معنى لملكهم ذلك، والصحيح هو استحقاقهم لللعن وسوء الدار، ومثله يقال في قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾^(٢)، وبذلك تنتفي الحاجة إلى المجاز بحمل اللام بمعنى (على) كما قاله بعض^(٣) ليكون المعنى عليهم (اللعنة) فإن المجاز خلاف الأصل.

والحاصل: أن اللام بمعنى الاختصاص والاستحقاق، وتقديم الحمد يفيد الحصر كما قرر في الأصول والبلاغة.

معنى لفظ الجلالة

و (الله) لفظ الجلالة الجامع لكل صفات الجمال والجلال، وتقدم البحث فيه في البسملة، ومعنى الجملة أن الحمد لا يستحقه ولا يختص إلا بالله تبارك وتعالى؛ لأنه الوحيد الجامع لكل خصال الخير في ذاته وفعله، وهو ما يعبر عنه بالحمد في مقام التوحيد، أو التوحيد الحمدي^(٤)، وهو الوحيد الذي

(١) سورة الرعد: الآية ٢٥.

(٢) سورة المطففين: الآية ١.

(٣) مفردات الراغب: ص ٧٥٥، (اللام)؛ تفسير تسنيم: ج ١، ص ٣٨٥.

(٤) مجمع البيان: ص ٢٧٢.

يحسن أن يحمد صفات جماله وجلاله، فالحمد في حقيقته لا يليق إلا به سبحانه؛ لأن الحمد الكامل متوقف على المعرفة الكاملة بكمال وجلال المحمود، ولا يوجد من هو أعرف منه بنفسه؛ لذا ورد الحمد بلسانه سبحانه فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وأما غيره فيحمدونه على قدر معرفتهم، ويتوجب على العبد في جميع الأحوال أن يحمده على ما هو عليه ولكن حمده يكون على قدر معرفته؛ لذا لخص الأئمة عليهم السلام طريق الحمد بالبيان الإجمالي؛ لتعذر التفصيلي، وفي الأخبار ما يعزز هذه الحقيقة، ففي الخصال بإسناده إلى علي بن الحسين عليه السلام قال: «ومن قال ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ فقد أدّى شكر كل نعمة لله تعالى»^(١).

وفي رواية صفوان الجمال عن الإمام الصادق عليه السلام قال: قال لي: «ما أنعم الله على عبد بنعمة صغرت أو كبرت فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إلا أدّى شكرها»^(٢).

وعن حماد بن عثمان قال: خرج أبو عبد الله عليه السلام من المسجد وقد ضاعت دابته، فقال: «لئن ردها الله علي لأشكرن الله حق شكره» قال: فما لبث أن أتى بها، فقال: «الحمد لله» فقال قائل له: جعلت فداك أأنت قلت: لأشكرن الله حق شكره؟ فقال أبو عبد الله عليه السلام: «ألم تسمعني قلت (الحمد لله)»^(٣).

وقد أشارت إلى الحمد بالشكر؛ لأن أداء حق الشكر بحسب الطاقة البشرية ممكن أما الحمد فلا يمكن؛ لذا عرفت الحمد بالشكر.

(١) الخصال: ج ١، ص ٢٩٩، ح ٧٢.

(٢) الكافي: ج ٢، ص ٩٦، ح ١٤.

(٣) الكافي: ج ٢، ص ٩٧، ح ١٨.

٣٨٦ مايقوله القرآن في سورة الحمد

وفي ذلك إشارة إلى تفاضل الأذكار والأعمال، فإنَّ بعض الأذكار قليلة في شكلها، عظيمة وشاملة في مضمونها، فعلى العبد أن يختار الأفضل والأشمل في أعماله.

بقيت حقائق:

معنى حمد الباري لنفسه

الحقيقة الأولى: أن الحمد له حيثان:

الأولى: حمد الباري عزَّ وجلَّ لنفسه.

والثانية: حمد العبد لربه، وقد عرفت معنى الثاني. أما حمد الباري عزَّ وجلَّ لنفسه فله أكثر من توجيه:

الأول: أنه مقتضى وصفه بالحميد؛ لأنه حميد في ذاته وصفاته وأفعاله؛ لعدم النقص في ذاته وصفاته وعدم القبح والخلل في أفعاله، فهو تعالى واجد لكل كمال في ذاته وصفاته وأفعاله، فواجديته لكل كمال وجلال هو حمده، وقد سمي الباري عزَّ وجلَّ نفسه بالحميد في آيات عديدة.

منها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾^(١)، فغناه كماله من كل وجه وجهة وحمده؛ لأنه غني في ذاته، رحيم في صفاته، كريم في أفعاله؛ لذا استحق عليها الحمد^(٢).

(١) سورة فاطر: الآية ١٥.

(٢) انظر تفسير الرازي: ج ١٣، ص ١٩٩؛ تفسير كنز الدقائق: ج ١، ص ٥٥٤؛ نفحات الرحمن: ج ٥، ص ٢٣٨ - ٢٣٩؛ تقريب القرآن إلى الأذهان: ج ٤، ص ٤١٢.

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾^(١) فهو ولي يستحق الحمد؛ لأن ولايته على البشر حقيقية، وبها يرحمهم ويفيض عليهم خيره وبركته.

وفي الأخبار الشريفة ما يعزز ذلك، ففي تفسير القمي عن أبيه مسنداً عن فضل بن عياض عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن الورع فقال: ﴿الذي يتورّع عن محارم الله، ويتجنب الشبهات، وإذا لم يتق الشبهات وقع في الحرام وهو لا يعرفه، وإذا رأى المنكر ولم ينكره وهو يقدر عليه فقد أحب أن يعصى الله اختياراً، ومن أحب أن يعصى الله فقد بارز الله بالعداوة، ومن أحب لقاء الظالمين فقد أحب أن يعصى الله. إن الله تبارك وتعالى حمد نفسه على هلاك الظالمين. قال: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٢) ^(٣).

وقد تضمنت دلائل عديدة، ومنها أنه سبحانه حمد نفسه بأنه يقتص من الظالمين، ويقطع دابرهم، أي لا يبقى لهم وجوداً ولا أثراً، وهذه نعمة عظيمة تستحق الحمد، والأدعية الماثورة عن آل محمد عليه السلام مشحونة بهذه الحقيقة، ومنها الدعاء المعروف بالحرز اليماني الوارد عن أمير المؤمنين عليه السلام، قال: ﴿اللهم لك الحمد مثل ما حمدت به نفسك وحمدك به الحامدون﴾^(٤)

(١) سورة الشورى: الآية ٢٨.

(٢) سورة الأنعام: الآية ٤٥.

(٣) تفسير القمي: ج ١، ص ٢٠٠.

(٤) مهج الدعوات: ص ١٠٨.

وبذلك يظهر ضعف قول بعض المفسرين بحصر الحمد بحمد العبد، وحملوا الآية ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على تقدير الأمر بالقول أي قولوا (الحمد لله) ^(١) ففضلاً عن مخالفته للنصوص، فإنه مخالف لأصلين:

الأول: أصل حمل الكلام على ظهوره ما لم يمنع منه مانع عقلي أو شرعي.
والثاني: أصل حمل الكلام على معناه الحقيقي لا المجازي.

مزايا الحمد لله

الحقيقة الثانية: أن الحمد لله تعالى يتميز بمزايا:

الأولى: أنه منحصر به فلا يليق إلا به تبارك وتعالى.

الثانية: أن حمد الذات لا يحسن إلا منه، فإن كل من حمد نفسه ذمها إلا حمد الله تبارك وتعالى لنفسه؛ لأنه بالاستحقاق؛ لأن كل جمال وجلال ثابت له بآتم وجه وأكمل حال.

الثالثة: أن كل حمد ينسب إلى غيره عائد إليه، ولذا نسب الحمد في الآية إلى اسمه المبارك الدال على جمعية صفاته الجمالية والجلالية (الله) فإنه تبارك وتعالى أوجد الخلق وكل كمال يعود إلى هذا الوجود وحتى ما يفعله الإنسان ويتصف به من صفات كمالية فإنها إما صادرة منه تبارك وتعالى تكويناً أو عائدة إليه تشريعاً، وهذا ما أشار إليه بقوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لأن ربوبية كل شيء تعود إليه ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ^(٢) وقد

(١) التبيان: ج ١، ص ١٠٣.

(٢) سورة غافر: الآية ٦٢.

خلق الأشياء على أحسن حال ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾^(١).

أنه المحسن بلا استحقاق

ومن كمال حسنه وجماله أنه المحسن الوحيد الذي ابتدأ بالنعم قبل استحقاقها، ولا يطلب من ورائها نفعاً لنفسه تعالى عن ذلك علواً كبيراً؛ لأنه الغني المطلق، وإنما يفيض نعمه وإحسانه لنفع خلقه، بخلاف غيره فإن إحسانه وتفضله لا يخلو من دواعٍ ومصالح نفسية إما دنيوية أو أخروية مادية أو معنوية، ولذا قال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ﴾^(٢) لأن كل إحسان يقوم به الإنسان يعود إليه نفعه، ولذلك لا يليق الحمد حقيقة إلا له تبارك وتعالى.

الحمد الجامع للمحامد

وبقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ جمع جميع المحامد اللائقة به، وهو ما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام قال: ﴿فقد أبي بغلة فقال: لئن ردها الله علي لأحمدته بمحامد يرضاها، فما لبث أن أتي بها بسرجهما ولجامها، فلما استوى عليها وضم إليه ثيابه رفع رأسه إلى السماء فقال: الحمد لله ولم يزد، ثم قال: ما تركت ولا أبقيت شيئاً جعلت جميع أنواع المحامد لله عز وجل، فما من حمد إلا وهو داخل فيما قلت﴾^(٣).

(١) سورة السجدة: الآية ٧.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٧.

(٣) كشف الغمة: ج ٢، ص ٣٢٩؛ البرهان: ج ١، ص ١١٠، ح ٢.

أقسام الحمد

الحقيقة الثالثة: ذكر البعض أن أهل المعرفة قسموا الحمد أقساماً ثلاثة هي الحمد القولي والفعلّي والأحوالي، وتقدم معنى الأول، ويتجلى حمد الباري لنفسه على لسان أنبيائه وأوليائه عليه السلام، وأمّا الثاني فهو عبارة عن إظهار كمالاته الجمالية والجلالية من الغيب إلى الشهادة، ومن الباطن إلى الظاهر، ومن علمه الربوبي إلى عالم الأعيان الخارجية التي هي مظاهر أسمائه، وقال بأنّ هذا النحو من الحمد أقوى دلالة من الحمد القولي؛ لأنّ الحمد القولي يستند إلى الدلالة الوضعية وقد يتخلّف عنها المدلول، ودلالة الحمد الفعلّي حقيقة لا يتخلّف عنها مدلولها.

فمعنى حمد الله بالحمد الفعلّي إيجاده كل موجود من الموجودات، وكل موجود يكشف عن صفات كماله ونعوت جلاله، ولم يتضح معنى الحمد الأحوالي في حمد الباري عزّ وجلّ لنفسه، وربما يقرر من جهة اتصاف الذات بصفات الجمال والجلال.

حمد الشاء والأقوال

كما قسّموا حمد العباد لله تعالى ثلاثة أقسام:

القولي وهو الشاء الذي يظهره بأقوالهم، والفعلّي ويراد به الاتيان بالأعمال البدنية من العبادات والخيرات ابتغاء لوجه الله تعالى، فإنّ كل عضو من أعضاء الإنسان له شكر وله حمد، وأمّا الحالي فهو اتصاف الروح والقلب بالكمالات العلمية والعملية والتخلق بالأخلاق الإلهية^(١)، وضعفه ظاهر من وجهين:

(١) انظر رياض السالكين: ج ١، ص ٢٠١؛ مجد البيان: ص ٢٨٠؛ مقتنيات الدرر:

الأول: أنه مخالف للظهور واللغة، فهو معنى اصطلاحى خاص لا يمكن حمل الدلالة القرآنية عليه؛ لأنّ القرآن بيان للناس، ويكلم الناس على قدر عقولهم وبألسنتهم لا بالاصطلاحات الخاصة.

فتفسير الآية بهذا المعنى لا يخلو من شبهة التفسير بالرأى.

الثاني: أن التقسيم المذكور يوجب وحدة صفات الكمال في المفهوم والمعنى، فلا يبقى فرق بين الخلق والصنع والظهور والنور والحمد، فإنها كلها إظهار لكمالات الخالق وجلاله، ومثله يقال في الحمد الفعلى في البشر؛ إذ لا يبقى فرق بين الطاعة والعبادة والحمد.

وأما الحمد الأحوالى فهو أجنبى عن الحمد؛ لأنّ الحمد الثناء وهو يقتضى الذكر والبيان وهو يغاير اتصاف القلب والروح بالكمالات، فالغايرة بين الثناء والاتصاف جلية.

فالحق الذى يقتضيه التحقيق وورد في اللغة والنصوص الشريفة أنّ الحمد يختص بالثناء القولى بذكر الفضائل والفواضل على ما قررناه.

مفهوم الرب والنظام الربوي

المفردة الثالثة: ﴿رَبِّ﴾

وهو الاسم الجامع لكل صفات الفعل الإلهي في مقابل (الحي) الجامع لكل صفات الذات، و(الله) الاسم الجامع لكل صفات الذات والفعل.

أركان النظام الربوي

والمتبادر من لفظ الرب التربية والعناية بالمربوب تكويناً وتشريعاً حالاً فحالاً حتى يكتمل، وهو الغالب في موارد الاستعمال، ويقوم على أربعة

أركان: رب ومربوب ووسيلة ومنهج للتربية، والله سبحانه هو الرب المطلق في الوجود، والخلق هم المربوبون وأعلاهم رتبة الإنسان، والأنبياء والأولياء عليهم السلام ثم العلماء هم وسيلة التربية، وأعلاهم رتبة هم محمد وآل محمد عليهم السلام، ومنهم تتفرع الوسائل، ومنهج التربية في التكوين السنن الالهية، وفي التشريع القرآن والسنة الشريفة

هذا هو النظام الإلهي للتربية يتميز بالرحمة والعصمة والعدل والحكمة؛ لذا لا يوجد تفاوت في نظام الخلق، ولا يوجد ظلم في شريعته ومنهجه، وبهذا الاعتبار يقال للأنبياء والأولياء عليهم السلام والعلماء الانقياء الربانيين - أي الكاملين - في العلم والعمل؛ لأنهم يربون العلم والتقوى ويقومون بها، ويربّون الناس عليهما، ويدبرون شؤونهم ويصلحونها، وفي الحديث: ﴿لا علم إلا من عالم ربّاني﴾^(١).

أي يأخذ عن الله ويربي الناس على معرفة الله وطاعته.

التحقيق في معنى الرب

وقد اختلف المفسرون تبعاً لأهل اللغة في معنى الرب على أقوال عديدة، فبعضهم عرّفه بالمالك^(٢)، وبعضهم بالسيّد^(٣)، وبعضهم بالصاحب وبالمصلح^(٤)،

(١) مجمع البحرين: ج ٢، ص ٦٥، (رب)؛ طرائف المقال: ج ٢، ص ١٧٥، الرقم ١٩٩.

(٢) الكشف: ج ١، ص ١٠.

(٣) المنار: ج ١، ص ٥٠.

(٤) التبيان: ج ١، ص ٣١.

كما عرّف بالمَدْبَرِ والقيّم والمنعم^(١)، وكلها ليست بصحيحة لسببين:

الأول: لأنها من التعريف بالأخص أو بالمصدق، ولا شك في أن لفظ الرب يغاير هذه التعاريف لفظاً ومعنى، فتفسيره بها يستلزم القول بالترادف وهو ممتنع في لغة العرب، لا سيما في أسماء الله الحسنى، واللغة والعرف شاهدان على أن المالك غير الرب، وهما غير الصاحب، وأن لكل واحد منهما معنى مستقلاً في نفسه بشهادة عدم صحة الحمل وصحة السلب.

الثاني: ما ورد في النصوص الكثيرة من الاختلاف بينها، وأن كل واحد منها حينما يستعمل في مورد له معنى يغاير المعنى الذي يفيد الآخر، كما في قوله تعالى ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾^(٢).

فإنه لو كان بمعنى المالك لزم التكرار وهو لغو، والعرف يفهم من مثلها أن الربوبية للخلق غير المالكية لهم، وفي الاستعمالات العرفية يقال: (ربُّ الأسرة) أي مربّيها وليس مالكا لها، كما يقال: (المعلم ربُّ التلاميذ) أي مربّيهم، فالنسبة بين الربِّ والمالك هي العموم من وجه، وكذلك بين السيّد والصاحب وباقي الأسماء.

كما اختلفوا في أن الربَّ مأخوذ من ربّه أي ساسه ونمّاه وغذّاه أم من ربّه بمعنى ملكه^(٣)، والأول هو الأصح والأوفق بموارد استعماله.

(١) النهاية: ج ٢، ص ١٩٧؛ لسان العرب: ج ٥، ص ٩٥، (رب)؛ الصحاح: ج ١، ص ١٣٠.

(٢) سورة الزمر: الآية ٦.

(٣) التحرير والتنوير: ج ١، ص ١٦٤.

دلائل لفظ الرب

وقال ابن فارس: إنَّ (ربّ) يدل على أصول ثلاثة:

الأول: إصلاح الشيء والقيام عليه، وبهذا يكون الربّ المالك والخالق والصاحب والمصلح للشيء.

الثاني: لزوم الشيء والإقامة عليه.

والثالث: ضمُّ الشيء للشيء، ثم قال: إنّها جميعاً تعود إلى أصل واحد هو الأول^(١).

والحق أنّ هذه الأصول الثلاثة مظاهر الربوبية ولوازمها وليس معناها.

ولا يقال الربّ بنحو مطلق إلّا لله عزّ وجلّ؛ لأنّ الربوبية بمعناها الحقيقي الشامل في التكوين والتشريع لا تكون إلّا منه عزّ وجلّ، ولا يطلق الربّ على غيره إلّا بنحو الإضافة في بعض أنحاء التربية، كما عرفت في (ربّ الأسرة) و: (ربّ التلاميذ) بل لا يطلق الربّ على غيره إلّا بشيء من التسامح، بل في مجمع البحرين لا يجوز استعماله بالآلف واللام للمخلوق^(٢)، ولذا قال تعالى: ﴿أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا﴾^(٣) أي سيّده، وقوله: ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾^(٤) إشارة إلى ما كان متعارفاً عندهم من إطلاق اسم الربّ على الحاكم؛ لأنّه يسود الرعية ويربّيهم، لكن سيادته وتربيته محدودة ناقصة، وهي ملازمة للظلم والحرمان، ومنه قوله تعالى: ﴿أَأَرْبَابٌ

(١) معجم مقاييس اللغة: ص ٣٧٨، (ربّ).

(٢) مجمع البحرين: ج ٢، ص ٦٤، (رب).

(٣) سورة يوسف: الآية ٤١.

(٤) سورة يوسف: الآية ٤٢.

مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ^(١) .

وكونهم متعددين ومتفرقين شاهد على قصورهم ونقصانهم ومغلوبيتهم، فلا يعقل أن تكون لهم ربوبية للخلق؛ لأنَّ الفاقد للشيء لا يعطيه؛ لذا قال في الآية التي تليها: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾^(٢) فالربوبية لا تكون إلا لله الواحد القاهر الغالب؛ لأنَّه الوحيد الغني المفيض الذي لا يفتقر إلى غيره. نعم ربما يطلق اسم الرب ويراد به الخالق عزَّ وجلَّ المعبود من جهة علوه لا جهة ربوبيته وتربيته لخلقه تسامحاً، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾^(٣) وقد ورد في الحديث: ﴿أما والله ما دعوهم إلى عبادة أنفسهم ولو دعوهم ما أجابوهم، ولكن أحلّوا لهم حراماً وحرّموا عليهم حلالاً فعبدوهم من حيث لا يشعرون﴾، وفي قول إبراهيم عليه السلام: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي﴾^(٤) لإرشادهم إلى الأفول، وأن الذي يظهر في الليل ويخفى في النهار لا يصلح أن يكون إلهاً معبوداً.

خصائص اسم الرب

وبذلك يتضح أن لاسم الرب خصائص ومميزات:

الخصوصية الأولى: أنه مجمع جميع أسماء أفعال الله؛ لأنّها جميعاً متفرعة

(١) سورة يوسف: الآية ٣٩.

(٢) سورة يوسف: الآية ٤٠.

(٣) سورة التوبة: الآية ٣١.

(٤) سورة الأنعام: الآية ٧٦.

منه حدوثاً أو راجعة إليه بقاء، فرحمة الخالق بخلقه التي بها أوجد العالم وخلقه ودبره ورزقه ولطف به وأبقاه كلها تعود إلى ربوبيته؛ لأنّ بهذه الأسماء يوجد الخلق وينمّيهم ويبقيهم ويسبغ عليهم نعمه الظاهرة والباطنة، فالخلق يفعل من جهة كونه خالقاً، والرزق يوصله من جهة كونه رازقاً ورزاقاً، والإحياء من جهة كونه محيياً، وهكذا سائر ما يصل إلى الخلق من الخيرات والبركات الإلهية، فإنّها جميعاً تنضوي تحت عنوان واحد هو الربوبية، وجامعها اسم الرب.

الربوبية الجامعة

ومنه يتضح معنى أنّ اسم الرب الجامع لكل أسماء الفعل، كما يتضح سبب تعقبه للحمد، فإنّ حمد المخلوق لخالقه يكون على فواضله وهي ربوبيته، فلا يخرج عن بركة ربوبيته شيء من الخلق. نعم تتفاوت الربوبية بحسب درجات الاستحقاق والاستعداد؛ لأنّ الربوبية قسمان:

الأول: الربوبية الاستحقاقية، وبها يوجد الباري الأشياء، ويوصل إليهم ما يحتاجونه من خير ورزق يقوم وجودهم، وهي تفاض على جميع الخلائق بالتساوي، فإنّ الباري عزّ وجلّ يعطي لكل من يستحق النعمة نعمته لأنّ رحمته وسعت كل شيء^(١)، وورد في الأخبار أنّ رحمته في الدنيا عامة لا يستثنى منها أحد، لكنها في الآخرة خاصة بالمؤمنين^(٢).

(١) إشارة إلى سورة الأعراف: الآية ١٥٦.

(٢) تفسير روح البيان: ج ٩، ص ٤٥٧.

الثاني: الربوبية الاستعدادية، وهي عناية كمالية في الأشياء، ولا تنال إلا بالاستعداد والقابلية التي يوجدها الخلق في أنفسهم لاستحقاقها، فإن ربوبية الأنبياء ﷺ تتميز عن ربوبية سائر الخلق، كما أن ربوبية الأنبياء أنفسهم تتفاوت بحسب درجاتهم ومقاماتهم، فربوبيته تعالى لرسول الله ﷺ أكمل الربوبيات، ولذا قال: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾^(١) لأن مقام نزول الوحي والبعثة هو مقام عظيم فيه تمثيل للخالق في الخلق، فنسبه إليه بنسبة التخصيص والتشريف بقول: ﴿ربك﴾ ثم وصف الرب ﴿بالأكرم﴾ بصيغة التفضيل؛ لبيان أن هذا هو الأعظم كرماً وكرامة، ثم من بعده تأتي ربوبية أهل بيته الأطهار ثم الأنبياء ﷺ.

وربوبيته سبحانه لكل فرد من الناس تختلف. كل على قدر همته وعمله وتهذيبه وإصلاحه لنفسه تأتيه العناية الإلهية والتوفيقات، وبهذا يتضح معنى الاصطفاء وأنه أمر اختياري لا جبري، كما أن لأهل ملكوته ربوبيات خاصة على حسب مراتبهم، فهو سبحانه ربّ لعرشه ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾^(٢) وربّ لعزته ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ﴾^(٣) لأنه يربّي عرشه بآيات الجمال والجلال، ويربّي عزته من النواقص، وهو (رب الملائكة والروح)^(٤) ولأهل الآخرة ربوبية خاصة في الجنة؛ لذلك يقول: ﴿سَلَامٌ

(١) سورة العلق: الآية ٣.

(٢) سورة النمل: الآية ٢٦؛ سورة المؤمنون: الآية ٨٦.

(٣) سورة الصافات: الآية ١٨٠.

(٤) البحار: ج ٨٤، ص ١٨٤، ح ٦.

قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ ﴿١﴾ .

ومن هنا فإن أدعية العباد على اختلاف مراتبهم تبدأ باسم الرب؛ لأنّ استماع نداء العبد وإجابته وإيصاله إلى مطلوبه هي ربوبية خاصة، وربما لم يرد في القرآن الكريم دعاء من عباده إلّا مبدوءاً باسم الرب ^(٢) في موارد الاستعطاف أو موارد التشكّي، ومنه ما ورد عن لسان المؤمنين ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ ^(٣) .

وعن لسان رسول الله ﷺ ﴿يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ ^(٤) وعن لسان ابراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ دُرِّيِّ بَوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ ^(٥) ففي الأول قال: رب بصيغة المفرد، ولما صار السؤال للجمع قال: ربنا ليشير إلى أنّ الربوبية عامة وشاملة لهم، وعن لسان نوح عليه السلام قال: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ ^(٦) .

وعن لسان يوسف عليه السلام قال ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ ^(٧)

(١) سورة يس: الآية ٥٨.

(٢) مواهب الرحمن: ج ١، ص ٢٧.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٠١.

(٤) سورة الفرقان: الآية ٣٠.

(٥) سورة ابراهيم: الآية ٣٧.

(٦) سورة نوح: الآية ٥.

(٧) سورة يوسف: الآية ١٠١.

فالملك الذي وصل ليوسف والعلم الذي ناله كله بعناية وربوبية خاصة. إلى غير ذلك من الآيات.

وفي ذلك إشارة للداعين أن يبدؤوا أدعيتهم بهذا الاسم المبارك؛ لما فيه من آثار في الاستجابة.

ربوبية الأبدان والأرواح

الخصوصية الثانية: أن ربوبيته للخلق شاملة للأبدان والأرواح والظاهر والباطن، فبعنانيته توجد الأبدان وتحيا وتبقى، ولولاه لما نمت، وبعنانيته تحيا الأرواح وتتغذى وتنمو في قيمها ومعارفها، ولولاه لما اهتدت ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾^(١) وهكذا كل شيء في الوجود له ظاهر وباطن يوجد وينمو ويدوم بعنانيته، فكل شيء في الوجود في ظاهره وباطنه مفتقر إليه محتاج إلى رحمته في حدوثة وبقائه، وفي فعله وآثاره؛ لأنَّ القيوم على كل شيء في جميع شؤونه ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾^(٢) فكل شيء له ظاهر وله باطن وهو ربّ الاثنين، ولذا وصفت نعمه بالظاهرة والباطنة، وبحججه التي تربّي الخلق ظاهرة وباطنة، والظاهرة هم الرسل والأنبياء والأئمة عليهم السلام ثم العلماء التابعون لهم، والباطنة هي العقول، ولهذا تختلف ربوبيته عن ربوبية غيره، فإنّ المربّين إمّا يربّون الأبدان أو يربّون الأرواح كالمعلم والأخلاقي، وغاية ما يقدر عليه هو تربية الظاهر وفي نطاق محدود، إلّا الله سبحانه فإنّه يربّي ظاهر الشيء وباطنه من كل جهة، فليس في أسمائه

(١) سورة الأعراف: الآية ٤٣.

(٢) سورة الحديد: الآية ٣.

المقدسة في الفعل والتأثير أعمّ نفعاً وأكمل عناية ولطفاً من اسم الرب أشار إلى ذلك الباري عز وجل في آيات عديدة:

منها: قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغْنِيَ اللَّهُ أَبْنِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾^(١) ويربي أجسامهم وظاهرهم بل بواطنهم؛ إذ قال سبحانه: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي يَدِيهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾^(٢) والسبحان صيغة تعجب وتنزيه معاً.

أمّا التعجب فلعموم قدرته وعنايته ولطفه الشامل لكل صغيرة وكبيرة وظاهر وباطن، وأمّا التنزيه فلاّنه الوحيد الذي يعطي ويربي وينمي بلا مقابل، وإذا أعطى يعطي كاملاً لا ناقصاً، ولطفاً ومحبة لا مصلحة.

ولم يقل (بيده ملك كل شيء) إمّا لأنه من تحصيل الحاصل، فإنّ من يملك ملكوت الشيء يملك ملكه بالأولوية القطعية؛ لأنّ الملكوت يطلق على حقائق عالم الغيب في مقابل الملك الذي يتعلق بأعيان عالم الشهادة^(٣)، ولأنّ عالم الشهادة بالنسبة إلى عالم الغيب كالقطرة من البحر. يسمى الأول ملكاً والثاني ملكوتاً لما تقرر أنّ زيادة المباني تدل على زيادة المعاني^(٤)، أو لأنّ الملكوت مختص بملك الله تعالى للأشياء كما قاله بعض أهل اللغة^(٥)، ولا يقال لما يملكه الإنسان ملكوت، وملك الله للشيء يشمل ظاهره وباطنه.

(١) سورة الأنعام: الآية ١٦٤.

(٢) سورة يس: الآية ٨٣.

(٣) المعجم الوسيط: ج ٢، ص ٨٨٦، (ملك).

(٤) معجم الفروق اللغوية: ص ٥١١، (٢٠٦٣).

(٥) مفردات الراغب: ص ٧٧٥، (ملك).

الربوبية الحقيقية

الخصوصية الثالثة: أنَّ ربوبيته للخليقة ربوبية حقيقية واقعية وأصلية، بخلاف ربوبية غيره فإنَّها تابعة، ولذا اتفقت الكلمة على أنَّ كلمة الربِّ لا تصدق على غيره إلا بضرب من التسامح لسببين:

الأول: لأنَّ مالكية سواه اعتبارية بخلاف مالكيته فإنَّها حقيقية ناشئة من إيجاده للأشياء وقيامها به حدوثاً وبقاءً.

الثاني: لأنَّ تربيته من سواه مهما بلغت في التدبير والإصلاح فإنَّها مستمدة من قدرته ورحمته وتربيته، بل الله سبحانه هو الذي سخر الوسائط والأسباب لتربي وتعمل، ولولا ذلك لعجز كل من سواه عن فعل شيء أو إعطاء شيء لنفسه فضلاً عن غيره ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾^(١).

وبذلك يتضح أنَّ ربوبيته ليست كربوبية الملائك لأملاكهم؛ لأنها ربوبية نسبة واعتبار، ولا كربوبية الآباء للأبناء؛ لأنَّها ربوبية انتماء، ولا كربوبية النفس لأعضاء البدن؛ لأنَّها ربوبية فعل، ولا كربوبية الراعي للزراعة؛ لأنَّها ربوبية تدبير، وإنَّما هي ربوبية تقويم ووجود وحفظ وإدامة وتنمية وهداية إلى الكمالات الذاتية والعرضية.

أنحاء الربوبية البشرية

الخصوصية الرابعة: أنَّ أعظم ربوبيته تعالى تكون لبني البشر، وهي أربعة أنحاء:

(١) سورة الأنعام: الآية ١٦٤.

الأول: ربوبية بدنية تتم بإيجادهم وتنمية أبدانهم حتى تبلغ حد كمالها المادي في القدرة والتأثير.

الثاني: ربوبية روحية تنمي قواهم النفسية والعقلية وملكاتهم المعنوية.

الثالث: ربوبية منهجية بهدایتهم إلى نظمهم ونظامهم التشريعي الذي ينور عقولهم بالعلوم الحقّة، ويصفي قلوبهم بالمعرفة، ويزكي أعمالهم بالطاعات، وبها يكتمل الأفراد.

والرابع: ربوبية اجتماعية، وبها يهديهم إلى محبة الآباء للأبناء والأرحام للأرحام والأصحاب للأصحاب والجار للجار، وبها يتكامل المجتمع ويتكافل. بقيت هنا حقيقتان لا بدّ من الالتفات إليهما:

الألوهية وأنحاء الربوبية

الحقيقة الأولى: يستفاد من الأخبار الشريفة أنّ الربوبية هي علة الإيجاد وهي غايته، فبالربوبية أوجد الخالقُ العالم، وبها أفاض عليه خيره وأبقاه، ولأجل الربوبية أوجده، وبهذا تتطابق صفة الربوبية بالألوهية؛ لأنّ كلّاً منها علة الإيجاد وغايته.

وبيان ذلك: يمكن تقسيم الربوبية على أقسام عديدة، والقسم المستفاد من الروايات يشتمل على أنحاء عديدة عمدتها خمسة توصل العبد الى حقيقة التوحيد.

الأول: ربوبية الخلق والإيجاد

ففي الاحتجاج عن مولانا أمير المؤمنين عليه السلام قال: ﴿جعل الخلق دليلاً عليه فكشف به عن ربوبيته. هو الواحد الفرد في أزليّته، لا شريك له في

إلهيته، ولا ندّ له في ربوبيته^(١).

وهو يرسم طريق لطالبي الحقيقة أن ينطلقوا من الخلق والإيجاد لمعرفة الخالق، فإنّ الخلق لولا الربوبية لم يحصل؛ لذا قال: يكشف الخلق عن ربوبيته، ويكشف عن وحدانيته منذ الأزل؛ لأنّه خالق كل شيء ولا خالق له، ومن كان خالقاً كان إلهاً؛ لأنّ العبودية لا تجوز إلّا للخالق، ولا يضاده أحد في تربيته وربوبيته لمخلوقه، ولا قيمة تستحق الربوبية من مال وسلطة غير ما يعطيه.

وفي التوحيد عن وهب بن وهب القرشي قال: سمعت الصادق عليه السلام يقول: «قدم وفد من أهل فلسطين على الباقر عليه السلام فسألوه عن مسائل فأجابهم... فقال: إنّ الله سبحانه أظهر ربوبيته في ابداع الخلق وتركيب أرواحهم اللطيفة في أجسامهم الكثيفة^(٢) وفي ذلك إلفات لعلماء الفيزياء والطب وغيرهم إلى حقيقة الربوبية، فإنه سبحانه أوجد الأرواح وأحيّاها، وأوجد الأبدان وركّب الخلق من أرواح وأبدان، وهذه كلها مما يعجز العلم عنه، ولو صنعوا قالباً بدنياً لإنسان أو حيوان لو اجتمعت كل قدرات العالم على نفخ الروح فيه تعجز عنه، ولو كان الكائن حياً لو اجتمعت قوى العالم على إخراج روحه منه من دون قتله وإزهاق روحه فإنها تعجز.

(١) الاحتجاج: ج ١، ص ٢٩٨؛ البحار: ج ٤، ص ٢٥٣، ح ٦.

(٢) التوحيد: ص ٩٢، ح ٦؛ البحار: ج ٣، ص ٢٢٤ - ٢٢٥، ح ١٥.

حقيقة الاستنساخ

وإن قلت: لكن تمكّن العلم من الاستنساخ.

فالجواب: أنّ الاستنساخ ليس وفيك انطوى العالم الأكبر^(١)

الثاني: ربوبية النظم

فقد روى الصدوق بسنده عن محمد بن زيد قال: جئت إلى الرضاء عليه السلام أسأله عن التوحيد فأملى عليّ: ﴿الحمد لله فاطر الأشياء إنشاء، ومبتدعها ابتداء بقدرته وحكمته لا من شيء فيبطل الاختراع، ولا لعلة فلا يصح الابتداء. خلق ما شاء كيف شاء متوحدًا بذلك لإظهار حكمته وحقيقة ربوبيته^(٢)﴾.

حقيقة الإنشاء وغايته

وقد أشار إلى أمرين:

الأول: كيفية الإنشاء ومنشئه، والإنشاء هو إحداث الشيء وتربيته^(٣) حالاً بعد حال من غير احتذاء على مثال^(٤)، وهو أخصّ من الإيجاد؛ لأن الإيجاد إعطاء الشيء وجوده بعد أن كان معدوماً، أمّا الإنشاء تربيته وتنميته بعد الإيجاد.

(١) تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق: ص ٢٥٩، الهامش؛ شمس المعارف الكبرى: ص ٥٩١.

(٢) الكافي: ج ١، ص ٢٥٦، ح ٣؛ علل الشرائع: ج ١، ص ٩ ح ٣؛ البحار: ج ٥٤، ح ١٦١، ص ٩٥.

(٣) مفردات الراغب: ص ٨٠٧، (نشأ).

(٤) معجم الفروق اللغوية: ص ٨٠، (٣١٦).

الثاني: غاية الانشاء.

وفي الأول ذكر أنّ الأشياء خلقها إنشاءً بالابتداع بواسطة قدرته وحكمته، فالقدرة تشير إلى أصل الإنشاء والحكمة إلى نظمه وإتقانه.

معنى (لا من شيء)

ومنشأ الإنشاء هو الابتداع أي (لا من شيء) وهذا تعبير لا يصدر إلّا من معصوم محيط بالمعنى واللفظ ولولاه لم يخطر للأذهان العادية تعبير دقيق يؤدي حقيقة المعنى، فإنّ البشر العادي يعرف (الشيء) و (اللا شيء) وكلاهما لا يحققان المعنى، أمّا (لا من شيء) لا يعرفه إلّا معصوم وهو الأدق؛ لأنّه لو أنشأها من شيء سابق عليها كما يصنع النجار السرير من الخشب السابق في وجود على وجود السرير بطل الاختراع، إذ استعان بالغير على انشائه كما أنشأها بإرادته ومشيئته ولم يستعن بواسطة أو سبب، فلو استعان بذلك لم يصح الابتداع، وهذه هي صفة فعل الباري عزّ وجلّ الذي يتميّز عن أفعال غيره، فإنّ فعله اختراعي إبداعي لا يتوقف على شيء سابق عليه سوى الإرادة والقدرة. أمّا غيره فإنّ فعل شيئاً فهو يستعين بما أنشأه الله في مواده وصورته وفي فعله وتأثيره.

فرق الصنع الإلهي عن البشري

والعلوم التقنية كل ما تصنعه وتفعله فهو لا يخرج من حدود مملكته سبحانه، فإنّ التقنيين يصنعون الأشياء من مواد أولية أوجدها الله تعالى، والأشكال والصور والفاعلية يعملونها من الموجودات، لذلك السيارات

٤٠٦ مايقوله القرآن في سورة الحمد

والطائرات وغيرها يصنعونها على هيئة الطيور والحيتان وأمثال ذلك، فالعلم ليس اختراعاً بل اكتشافاً وتركيباً؛ لأنه يستثمر ما أوجده الباري في الوجود ويركبونه أو يوظفونه.

فالعلوم الحديثة ليست اختراعات بالمعنى الدقيق للكلمة، ولا إبداعات، بل اكتشاف وتوظيف وتسخير.

بين الاختراع والابتداع

والفرق بين الاختراع والابتداع أن الاختراع يطلق على معان وما يناسبه هنا هو الشق. يقال خَرَعَ الجلد والثوب أي شقّه واقتطع منه قطعة، واخترع الشيء اقتطعه واختزله^(١).

أما الابتداع فهو إيجاد الأشياء على غير مثال سابق^(٢)، فالاختراع في الخلق والإيجاد مرحلة سابقة على الابتداع؛ لأنه يعيّن التقدير الذي يخلق منه الشيء، والابتداع تصويره وإيجاده ابتداء لا على مثال سابق، فتعريف بعض أهل اللغة الاختراع بالإنشاء والابتداع لا يصح إلا بما ذكرنا.

فالحق أن الاختراع والابتداع من قبيل الفقير والمسكين إذا افترقا اجتماعاً وإذا اجتمعا افترقا، وحيث اجتمعا معاً في الحديث الرضوي الشريف يحمل الاختراع على أصل التقدير والشق، والابتداع على تصويره وإيجاده على

(١) معجم مقاييس اللغة: ج ٢، ص ١٧٠ - ١٧١، (خرع)؛ لسان العرب: ج ٨، ص ٦٩، (خرع)؛ المعجم الوسيط: ج ١، ص ٢٢٨، (خرع).

(٢) معجم الفروق اللغوية: ص ٩٤، (٣٧٤).

مثاله الخاص به لا على مثال سابق.

وبذلك يتضح أنَّ الباري عزَّ وجلَّ أوجد الأشياء اختراعاً أي لا من شيء سابق، وإبداعاً أي لا على مثال سابق عليها، وهو ما يعبر عنه أهل الحكمة بالإيجاد البسيط مقابل المركب، فهو متوحد بهذا الخلق والإيجاد ليس له شبيه أو ندَّ أو مشارك، ولأنَّ قدرته ومشئته مطلقة فأنَّ ربوبيته مطلقة كذلك.

وفي الثاني ذكر أنَّ الغاية من خلق الخلق وإبداعه هو إظهار حكمته وحقيقة ربوبيته، فإنَّ الحكمة تعرف من نظم المخلوق وانتظامه في سنن ونواميس تظهر فيها غاية كماله وحسن آثاره لا يتعارض ولا يتناقض ولا يتضاد، وكلُّ كَمَلٍ الآخر وتناغم معه.

وبهذا النظم والتكامل تظهر حقيقة الربوبية؛ لأنَّ إيجاد الخلق ونظامه وإدامته على هذا الحال دليل على وحدة الرب ودوام الربوبية.

ويتحصل من ذلك: وحدة الاستعانة بالبسملة ووحدة الحمد ووحدة الربوبية ووحدة الألوهية وهذه خصوصية تتفرد بها ربوبية الخالق لخلقه.

ربوبيته العلمية لأوليائه

الثالث: ربوبية العلم

أي أنَّ إفاضة العلوم وتفتيق العقول وتنوير الأفهام يكون منه تبارك وتعالى، فلا علم ولا فهم ولا فقه إلَّا بفيض منه، والذكاء والعبقريّة منه، والتذكير والإلهام والالفات إلى الحقائق منه، وإليه يشير قول الإمام زين

العابدين ﷺ في دعائه في التحميد: ﴿وفتح لنا من أبواب العلم﴾^(١) ويراد بالأبواب المدخل إلى كل شيء، ومنه باب البيت أي مدخله^(٢)، وفي الحديث المتضافر بطرق الفريقين: ﴿أنا مدينة العلم وعلي بابها﴾^(٣) وقد نقل عليه إجماع الأمة^(٤)، وعنه ﷺ: ﴿علمني رسول الله ألف باب من العلم يفتح لي من كل باب ألف باب﴾^(٥) أي مدخل علوم النبي ﷺ أمير المؤمنين ﷺ، ولا يمكن لأحد أن يدرك مضامين علوم النبي ﷺ إلا بواسطة الولاية لأمير المؤمنين ﷺ والأخذ عنه، وأما الصحابة فلا يمكن أن يكونوا كذلك؛ لقصورهم عن بلوغ غوره، ولاختلافهم وتناقضهم في الآراء والمواقف الكاشف عن قصورهم.

ويطلق الباب في العلوم على الصنف والقسم. يقولون الكتاب له كذا باب أي فصول وأقسام، وقولهم: (أبواب مصنفة) أي أصناف مصنفة^(٦)، وعلى التقديرين فإن الفقرة الشريفة تدل على أن للباري عز وجل ربوبية علمية بأوليائه، وأعلاها ربوبيته لمحمد وآل محمد ﷺ. بها يفتح لهم أبواب العلم أي أصنافه وخزائنه؛ لذا لا يفوقهم في العلم أحد من الخلق،

(١) الصحيفة السجادية: ص ٣٠.

(٢) المعجم الوسيط: ج ١، ص ٧٥، (باب).

(٣) المستدرک: ج ٣، ص ١٢٦ و ص ١٢٧؛ تاريخ بغداد: ج ١١، ص ٤٩ - ٥١.

(٤) مجمع البحرين: ج ٢، ص ١١، (بوب).

(٥) الاختصاص: ج ١، ص ٢٨٣؛ إعلام الوری: ج ٢، ص ٣٤٩؛ كشف الغمة

(للإربلي): ج ٢، ص ١٠٩٧.

(٦) مجمع البحرين: ج ٢، ص ١١، (بوب).

وأطلعهم على غيبه وأسراره، فيعلمون ما كان وما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة كما تضافر في الأدلة النقلية^(١)، ودلت عليه البراهين العقلية. وكل علم وفن وأدب وصناعة يتوصل إليها البشر فإنها بربوبيته تعالى لأسباب ثلاثة:

أولها: لأنه خلق العالم والمتعلم وقابلية التعلم، والأوصاف تنسب إلى أصولها.

ثانيها: لأنه يلهم العالم ويفتح له الأسرار إذا طلبها، فما على العالم والمتعلم سوى الإعداد وسلوك الأسباب، إلا أن النتائج بيد الله تعالى؛ لذا نلاحظ أن جماعة كبيرة يشتركون في دراسة العلم إلا أنهم يتفاوتون في النتائج، ولا يكونون على رتبة واحدة حتى وإن سلكوا جميعاً ذات الأسباب، وبذلوا جهدهم في التعلم؛ لأن العلم بعضه سعي إلى التعلم وبعضه توفيق وإفاضة من الله سبحانه.

ثالثها: لأنه يعطي الذاكرة والحافظة والقدرة على البيان، فلولا أن يمد الإنسان بذلك لتعذر العلم والتعليم بكثرة النسيان والسهو والغفلة؛ لقصوره الذاتي وغلبة الشيطان عليه، لكنه سبحانه خلق الإنسان علّمه البيان^(٢).

(١) انظر كتاب سليم بن قيس الهلالي: ج ٢، ص ٩١٥؛ تفسير العياشي: ج ٢، ص ٣٠٢؛ الكافي؛ ج ١، ص ٦٥٠، ح ٦٨١.

(٢) إشارة إلى سورة الرحمن: الآيتان ٣ و ٤.

تربية الظاهر والباطن

الرابع: ربوبية التربية والتهذيب

أي أنّ كل تربية للأبدان وتهذيب للعقول والقلوب والأرواح تعود إليه سبحانه، فإنّه سبحانه يرَبّي الأبدان ويصلحها بالنعم المادية والأغذية الصالحة، ويرَبّي النفوس بالحلّال والحرام وسائر الحدود والأحكام، ويرَبّي العقول بالإلهامات والفتن، ويرَبّي بواطن القلوب بأنوار المعارف الحقّة، ويرَبّي الأرواح بالقيم والفضائل والملكات الفاضلة، فالتربية والتهذيب في التحلية والتخلية والتزكية والتجلية كلها تعود إليه: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾^(١).

فهو تبارك وتعالى أوجد الأصل وفروعه، وكل شيء يعود إليه في خلقه وفي هدايته إلى مصالحه وإلى آثاره ومنافعه، ومن لطفه أنّه يرَبّي كل إنسان وكأنّ ليس له عبد سواه، فيسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، ويعطيه كل ما يطلبه ويطمح إليه بلا منّ منه ولا دين ولا منع بينما يخالفه الإنسان، وإذا قام في طاعته فلا يقوم إلّا وقد قصّر فيها، وفي غالب الأحيان يعبدّه وله ربّ غيره، فيطيع نفسه الأمّارة وشيطانه اللعين.

مَنْ وهب الذكاء؟

ولو فكّر أهل العلوم والعقول مَنْ الذي وهبهم العقل والذكاء والفتنة؟ وكيف تحصل المعلومة وتخطر الأفكار في أذهانهم وتبقى محفوظة لديهم ثم

(١) سورة طه: الآية ٥٠.

تنمو وتتفرع منها أفكار أخرى ومعلومات جديدة؟ ومن الذي يضيء حقائق الأشياء في القلوب فتتشد لها القلوب وتدعن لها وتستقر عليها؟ ومن الذي يوقد الحس بالقيم وتقديسها والانجذاب إلى التحلي بها؟ أين الإنسان من كل هذا؟ هل هذه تحصل لديه باختياره أم بجذبات وألطف إلهية؟ فلو كانت بإرادته لتساوى الكثير من الناس فيها لكنهم متفاوتون.

لو التفت بنو البشر إلى هذه الحقيقة لأدركوا أنّ الله سبحانه حاضر معهم في كل لحظة وآن، وأنه يفيض عليهم نعمه، وغمرهم بلطفه ورحمته كل حين، وأن لا أحد يستحق حمدهم إلا هو تبارك وتعالى.

الخامس: ربوبية المقام والرتبة

وهذا من مختصات سادة الخلق محمد وآل محمد ﷺ وشيعتهم؛ لذا كانوا أكثر العباد حمداً وشكراً، ودخل الحمد في صلواتهم وأذكارهم، فقد ورد عن رسول الله ﷺ قال: ﴿لما بعث الله عز وجل موسى بن عمران عليه السلام واصطفاه نجياً وفلق له البحر ونجى بني إسرائيل وأعطاه التوراة والألواح ورأى مكانه من ربه عز وجل فقال: يا رب! لقد أكرمتني بكرامة لم تكرم بها أحداً قبلي، فقال الله جل جلاله: يا موسى! أما علمت أنّ محمداً أفضل عندي من جميع ملائكتي وجميع خلقي قال موسى يا رب! فإن كان محمد ﷺ أكرم عندك من جميع خلقتك فهل في آل الأنبياء أكرم من آلي؟ قال الله جل جلاله: يا موسى! أما علمت أنّ فضل آل محمد على جميع آل النبيين كفضل محمد على جميع المرسلين؟ فقال موسى: يا رب! فإن كان آل محمد كذلك فهل في أمم الأنبياء أفضل عندك من أمتي ظللت عليهم الغمام وأنزلت عليهم المن والسلوى

وفلقت لهم البحر؟ فقال الله جلّ جلاله: يا موسى ! أما علمت أنّ فضل أمة محمد على جميع الأمم كفضله على جميع خلقي؟ فقال موسى عليه السلام: يا رب ! ليتني كنت أراهم، فأوحى الله عزّ وجلّ إليه يا موسى ! إنّك لن تراهم، وليس هذا أوان ظهورهم، ولكن سوف تراهم في الجنان جنات عدن والفردوس بحضرة محمد ﷺ في نعيمها يتقلبون، وفي خيراتها يتحبسون - أي يتوسطون الجنان لا في أطرافها؛ لأنّ الوسط خير من الطرف، وهو كناية عن سعة الكرامة لهم -، أفتحب أن أسمعك كلامهم؟ قال: نعم يا إلهي ! قال الله جلّ جلاله: قم بين يدي واشدد مئزرك قيام العبد الذليل بين يدي الملك الجليل، ففعل ذلك موسى عليه السلام فنادى ربنا عزّ وجلّ ! يا أمة محمد ! فأجابوه كلهم وهم في أصلاب آبائهم وأرحام أمهاتهم لبيك اللهم لبيك لبيك، لا شريك لك لبيك، إنّ الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك لبيك. قال: فجعل الله عزّ وجلّ تلك الإجابة شعار الحج، ثم نادى ربنا عزّ وجلّ: يا أمة محمد ! إنّ قضائي عليكم أن رحمتي سبقت غضبي، وعفوي قبل عقابي، فقد استجبت لكم من قبل أن تدعوني، وأعطيتكم من قبل أن تسألوني، من لقيني منكم بشهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله صادق في أقواله محق في أفعاله، وأنّ عليّ بن أبي طالب أخوه ووصيه من بعده ووليه، وتلتزم طاعته كما يلتزم طاعة محمد، وأن أوليائه المصطفين الطاهرين المطهرين المنبئين بعجائب آيات الله، ودلائل حجج الله من بعدهما أولياؤه أدخلته جنتي وإن كانت ذنوبه مثل زبد البحر. قال عليه السلام: ﴿فلما بعث الله عزّ وجلّ نبينا محمداً ﷺ قال: يا محمد ! وما كنت بجانب الطور إذ نادينا أمتك بهذه الكرامة، ثم قال الله عزّ وجلّ لمحمد ﷺ قل: ﴿الحمد لله ربّ العالمين﴾ على ما

اختصني به من هذه الفضيلة، وقال لأمته وقولوا: أنتم ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ على ما اختصنا به من هذه الفضائل^(١).

فضلهم وفضل شيعتهم

وفي رواية أخرى وردت عن سلسلة المعصومين عليه السلام يستفاد منها أن آية الحمد خاصة بهم وشيعتهم، فقد ورد أن رجلاً أتى أمير المؤمنين عليه السلام فقال له: أخبرني عن قول الله عز وجل: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ ما تفسيره؟ فقال: الحمد لله هو أن الله عرّف عباده بعض نعمه جملاً؛ إذ لا يقدرّون على معرفة جميعها بالتفصيل؛ لأنها أكثر من أن تحصى أو تعرف، فقال لهم: قولوا: الحمد لله على ما أنعم به علينا، وذكرنا به من خير في كتب الأولين من قبل أن نكون، ففي هذا إيجاب على محمد وآل محمد عليهم السلام لما فضلهم به، وعلى شيعتهم أن يشكروه بما فضلهم به على غيرهم^(٢).

الربوبية والجبر

وإن قيل: إن ما ذكرتم من أصناف الربوبية من الجبر ويلغي ما يبذله العلماء والمتعلمون من جهود.

فالجواب: كلا، إن هذا هو نظام الربوبية الحاكم في الوجود كما بيّناه؛ لأنّه

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج ١، ص ٢٨٤، ح ٣٠؛ علل الشرائع: ج ٢، ص ٤١٧، ح ٣؛ تفسير كنز الدقائق: ج ١، ص ٤٧-٤٩؛ البحار: ج ١٣، ص ٣٤٠-٣٤٢، ح ١٨.

(٢) انظر تفسير الامام العسكري عليه السلام: ج ١، ص ٣٠-٣١؛ تأويل الآيات: ج ١، ص ٢٥؛ البحار: ج ٨٩، ص ٢٤٦.

سبحانه جعل لكل شيء باباً وسبباً، فمن أخذ بالأسباب وصل إلى النتائج، وفعل الباري في ذلك هو إعطاء المقتضيات والمقومات وإزالة الموانع، فإن العلم كالرزق لا ينزله الله عز وجل إلى البشر بلا سعي وعمل منه، ولكن كمال الرزق بتوفيقات ربانية فيه، ومنشأ ذلك هو القابلية والاستعداد النفسي والأخلاقي، فكلما كان الإنسان أكثر اعتماداً وتوكلاً وتوسلاً نال من الفيوضات الإلهية الخير الكثير، وإذا تخلّى عن ذلك ضمن أصل رزقه دون كماله، وهكذا العلم والتعلم.

ويتحصل: أن الربوبية الإلهية كالروح السارية في جميع الوجود بشتى أصنافه وألوانه، ولولاها لانمحق العالم وزال؛ لذا قال تعالى في الآية: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ بنسبة الربوبية إلى العالمين بلسان العموم الاستغراقي.

ربوبية الله وربوبية البشر

الحقيقة الثانية: أن الربوبية هي مدار النزاع والحروب الفكرية والسياسية الواقعة في تاريخ البشر، ولها محوران:

أحدهما يدعو إلى الربوبية الإلهية، والآخر إلى الربوبية البشرية، ففي التاريخ القديم واجه الأنبياء تحديات كبيرة أشار القرآن إلى بعضها وهي ثلاثة:

الأول: تحدي السلاطين والحكام الذين كانوا يتوجسون من دعوات الانبياء خيفة، ويتصورون بأنها تزيل سلطانهم، وكانوا يوظفون رعيلاً من العلماء والشعراء والوجهاء وأصحاب الفنون لإفشالهم، كما فعل فرعون بالسحرة وعلماء بني إسرائيل.

الثاني: العادات والتقاليد التي تربوا عليها وتكونت بها أفكارهم

ومعتقداتهم فكان تعصّب الناس لها يدعوهم لتكذيب الأنبياء ورفض دعواتهم التي كانت العقول تستحسنها وتدعّن لصوابها، ولكن النفوس تأبأها، وكانوا يحملون هذا الصراع الداخلي في نفوسهم بقولهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾^(١).

الثالث: حب المال والدنيا والانخداع بزخارفها، وكان لذلك رموز وزعماء ذكر القرآن بعضهم مثل قارون الذي كان له من الخزائن ما تنوء بمفاتيحه أولو القوة^(٢)، والوليد بن المغيرة الذي جمع مالا وعدده يحسب أنّ ماله أخلده^(٣)، أي يعطيه الوجاهة في الدنيا فيبقى أثره فيها، أو يبقيه خالداً فلا يموت في الدنيا، وإنّ مات أخلده في الآخرة، فكان يميز لنفسه أن يفعل ما يشاء بغرور المال، ويغتاب النبي ﷺ من ورائه، ويطعن عليه في وجهه^(٤)، ومثله أُمّية بن خلف والأخنس بن شريق^(٥)، وهو من التعريف بالمصدق، فيشمل كل من يركن إلى قوة المال فيحارب الدين والقيم المعنوية.

أموال الوليد بن المغيرة

وقد ورد أنّ الوليد كان يملك ما بين مكة إلى الطائف من الإبل المجتمعة والخليل المسومة والنعم المرحلة والمستغلات التي لا تنقطع غلتها،

(١) سورة الزخرف: الآية ٢٢.

(٢) إشارة إلى سورة القصص: الآية ٧٦.

(٣) انظر سورة الهمزة: الآيتان ٢ و ٣.

(٤) مجمع البيان: ج ١، ص ٤٣٩، تفسير الآية المزبورة؛ نفحات الرحمن: ج ٦، ص ٥٧٣.

(٥) نفحات الرحمن: ج ٦، ص ٥٧٣.

والجواري والعبيد والعين الكثيرة^(١)، فأنساه نفسه وربّه، وغفل عن أنّ ما لديه هو من الله لا اختباره واختبار العباد به؛ لذا وصف الباري ماله بالمددود. قال سبحانه: ﴿وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا﴾^(٢).

وعن ابن عباس أنّ غلة أمواله كانت ممتدة على الأيام لا تنقطع، وكان له بستان بالطائف لا ينقطع خيره في شتاء ولا صيف، وكان له أولاد عشرة لا يغيبون عنه؛ لغناهم عن ركوب السفر والتجارة^(٣)، وقيل إنّ ماله المددود أي الذي لا يعد ولا يحصى، ولذا كان الوليد يصف نفسه بالوحيد ابن الوحيد؛ لادعائه بأنّه لا نظير له ولأبيه^(٤).

ومعلوم أنّ لهذه العوامل الثلاثة أي السلاطين والعادات والمال وحب الدنيا ربوبية، فيتصورون بأنّ هذه هي التي تعطيهم القوة والوجاهة والانجازات، ولكن في واقع الحال هم يخدمونها ويصيرون لها عبيداً، فيبدلون لأجل تحصيلها وتنميتها والمحافظة عليها كلّ ما لديهم من قدرات واهتمامات فينسبون آخرتهم لأجلها؛ لذلك تقسو قلوبهم وتحولهم إلى وجودات تأكل وتشرب وتلتذ بمتع الدنيا لكن دون إحساس ومشاعر ومحبة وتعاطف، ولما كان الأنبياء عليهم السلام يدعونهم إلى اليقظة من هذه الغفلة ويعودون إلى رشدهم

(١) المصدر السابق.

(٢) سورة المدثر: الآية ١٢.

(٣) مجمع البيان: ج ١٠، ص ١٧٩.

(٤) نفحات الرحمن: ج ٦، ص ٣٦٦ - ٣٦٧؛ تفسير الرازي: ج ٣٠، ص ١٩٨؛

تفسير روح البيان: ج ١٠، ص ٢٢٨.

ويدركون أنَّ السلطة والمال وحب الآباء والأجداد ليس هدفاً بحد ذاته كانوا يعادونهم، فأكثر العداوات التي كانوا يسببونها للأنبياء لا تعود إلى الجحود بالخالق عزَّ وجلَّ، ولا تعود إلى وحدانيته، وإنما تعود إلى ربوبيته وعبادته؛ لذا شهد القرآن للكثير منهم أنَّهم إذا يُسألون مَنْ خلق السماوات والأرض يقولون الله^(١)، وإذا سئلوا لماذا تعبدون الأصنام وهي لا تضر ولا تنفع يقولون لتقربنا إلى الله زلفى^(٢)، لكنهم كانوا يكذبون أنبياءه لتصورهم أنَّهم ينتزعون منهم ما عندهم من أرباب يخضعون لها ويطيعونها.

ولذا حاورهم القرآن وأبطل هذه المزاعم عبر برهانين عقليين يذعن لهما كل عاقل.

الربوبية والخلق

الأول: أنَّ الربوبية تعود إلى الخلق والإيجاد، فكل ما ليس بخالق ولا موجد لا يليق بمقام الربوبية، والسلاطين والأموال والآباء والأجداد هي وسائل لا تخلق ولا توجد فكيف تعبدونها من دون الله عزَّ وجلَّ؟

الربوبية والإحياء

الثاني: أنَّ الربوبية تلازم القدرة على الإحياء والإماتة والتصرّف في عالم التكوين، وذلك لا يملكه إلا الله تبارك وتعالى، وكل ما سواه عاجز عنه، فكيف يستحق الربوبية؟

(١) إشارة إلى سورة الزمر: الآية ٣٨.

(٢) إشارة إلى سورة الزمر: الآية ٣.

إذاً لا يمكن أن يكون توحيد عبادي أو عقيدي دون توحيد ربوبي؛ لذا وصفهم القرآن بالكفر والشرك وإن كانوا يعتقدون بوجود الخالق وبوحدته. وهذا ما قد يستفاد من كلام الإمام الرضا عليه السلام: ﴿رب العالمين توحيد له وتحميد وإقرار بأنّه هو الخالق المالك لا غيره﴾^(١) وعن الإمام الصادق عليه السلام: ﴿رب العالمين خلق المخلوقين﴾^(٢).

فالملازمة بين الخلق والربوبية عقلية دائمة حدوثاً وبقاءً، ومن مصاديق الربوبية ايصال الرزق إلى خلقه ويعجز كل من سواه عن ذلك، وهو ما أشار إليه أمير المؤمنين عليه السلام في الرواية التي رواها الصدوق قدس عن الرضا عليه السلام بسنده عن آبائه الطاهرين في معنى: (رب العالمين) قال: ﴿مالكهم وخالقهم وسائق أرزاقهم إليهم من حيث يعلمون ومن حيث لا يعلمون، فالرزق مقسوم وهو يأتي ابن آدم على أي سيرة سارها من الدنيا. ليس تقوى متق بزائدة، ولا فجور فاجر بناقصة وبينه وبينه ستر وهو طالبه، فلو أنّ أحدكم يفرّ من رزقه لطلبه رزقه كما يطلبه الموت﴾^(٣) وتضمنت دلائل عظيمة وفلسفة عميقة.

(١) الفقيه: ج ١، ص ٣١٠، ح ٩٢٦؛ جامع أحاديث الشيعة: ج ٥، ص ٦٣، ح ٢٣٨٥؛ تفسير نور الثقلين: ج ١، ص ١٥؛ تفسير تسنيم: ج ١، ص ٤١٩.
 (٢) تفسير القمي: ج ١، ص ٢٨؛ تفسير نور الثقلين: ج ١، ص ١٥.
 (٣) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج ١، ص ٢٥٥، ح ٣٠.

خصائص الرزق الإلهي

الأولى: أن الإيجاد والخلق في الدنيا يعود إلى إحسان الخالق ورحمته وليس باستحقاق.

الثانية: أن الأرزاق مكفولة للخلق يسوقها إليهم خالقهم سواء عرفوه أو لم يعرفوه وأطاعوه أو عصوه.

الثالثة: أن الرزق مقسوم للعباد بالربوبية الإلهية فلا تزيده تقوى العبد ولا ينقصه فجوره؛ لأن الدنيا قائمة على نظام الأسباب والمسببات، فكل من يعمل يصل وإن كان فاجراً، وكل من لا يعمل لا يصل وإن كان عبداً صالحاً.

والمقصود بالرزق ما يقوم به وجود العبد وحياته، فإن إيصاله إلى العبد يعود إلى فعل الرب تبارك وتعالى، فإن مقتضى وصف عامة الربوبية أن تكون عنايته بخلقه عامة، ورحمته تسع كل شيء، ولذا لو أضعاف العبد طريق رزقه فإن رزقه يطلبه؛ لأنه حقه على ربه، والله عز وجل لا يضيع حقوق عباده.

أثر الإيمان في الرزق

إن قلت: إذا ما فائدة الإيمان والطاعة والتقوى.

والجواب: أن فائدة ذلك تظهر في موردين:

أحدهما: البركة في الرزق.

وثانيهما: الهناء في الرزق. هذا في الدنيا فضلاً عن الآخرة، فإن غير المتقي محروم منهما، ورزقه وبال عليه، بخلاف المؤمن فإن رزقه مبارك وهنيء وإن كان قليلاً، على أنه لو أخذ بأسباب الرزق لفاق غيره في الكسب وزيادة

المال، وفي عين الحال يكون له ذخراً في الآخرة.
وبذلك يتضح أنّ الذين يعبدون غير الله كم ذهبوا بعيداً عن الواقع، وأنّ الذين يهتمون لأرزاقهم ويتكالبون على الدنيا لأجل الرزق كم وقعوا في عناء ما هو مكفول لهم، وهذا هو التضييع الحقيقي للعمر؛ إذ يصرف الإنسان عمره فيما تكفل ربه تبارك وتعالى به.
هذه ربوبية القدماء الذين عاصروا الأنبياء.

الربوبية المعاصرة للمال والسلطة

وأما في هذه الأزمنة فالربوبيات التي يتبعها البشر ذاتها ولكن بمفاهيم وأساليب جديدة، فالاتجاهات التي تحكم العالم اليوم لا تخلو من ثلاثة:
الأول: الاتجاه السياسي الذي تقوم عليها الدول والمؤسسات التابعة.
الثاني: الاتجاه الاقتصادي الذي تتحكم به شركات اقتصادية كبرى.
الثالث: الاتجاه الفكري والثقافي وتتحكم به جماعات ومراكز دراسات ووسائل إعلام ضخمة تؤسس وتعمل لتحريفه لغسل أدمغة المجتمع البشري، وهذه موجات الإلحاد والدعوة إلى الشذوذ الجنسي والانحلال الأسري، والفرق الضالة هي مظاهر لهذه الحرب، وجميع هذه الاتجاهات تعود إلى مصلحتين هما أساس كل ما يقع في العالم من أحداث ووقائع في البعد العام هما السياسة والمال، وقد تميّز العالم الحديث عن القديم بشدة عبوديته للمادة وتقديمها على سائر القيم حتى يضحوا بالإنسان وسعادته وكماله وأمنه وسلامته لأجل المال والسياسة، حتى باتوا يهددون البشر

بالأمراض والأوبئة الفتاكة لتقليل عدد البشرية لمصالح الأغنياء، أو لأجل إخضاع بعض المجتمعات لسياساتهم، وقد ذكر بعض العلماء أن المستعمرين كثيراً ما يرسلون الأدوية غير النافعة إلى البلد المستعمر وهي أكثر من احتياجه، والبلد مجبور أن يصرف تلك الأدوية بما يضر بصحة الأهالي، وأحياناً لا يرسلون الدواء الكافي أو المحتاج إليه لحصار اقتصادي أو ضغط سياسي، وأحياناً ينشرون الأمراض في أهل البلد لإضعافهم أو بيع أدويتهم، فقد نشروا في بلدة أمراضاً جنسية كما نشروا مرض الإيدز وغيره^(١).

فهو منهج يقف على النقيض من منهج الأنبياء ﷺ والقيم السماوية التي تجعل الإنسان محور الوجود، وإليه تنتهي كل المنافع والمصالح.

السياسة الخبيثة للغرب

بتفشي فيروس كورونا في عام ٢٠٢٠ وانتشاره في العالم الغربي والشرقي تولدت نظريتان كشفت عن مساوئ الثقافة التي بُني عليها النظام الغربي والسياسة التي يعمل عليها في الخفاء منذ أكثر من قرن، واليوم ظهرت للعلن.

النظرية الأولى: للدول الشرقية التي ظهرت في الصين، وتقوم على احترام جميع الناس والسعي لعلاجهم جميعاً بالتساوي، وسعت لمحاصرة الوباء بالحجر المنزلي، واتخاذ أساليب للوقاية، وأوصت بالتعاليم الدينية وفتاوى العلماء بتحفيز أهل الخير لمساعدة الفقراء وإيصال ما يقوتهم في فترة الحظر، كما لاحظناه في العراق وغيره من دولنا المسلمة، ومعلوم أن هذه

(١) الأمراض والأعراض (للسيد الشيرازي): ص ١٣٠.

فيها كلفة مالية كبيرة لكنها سعت لضمان سلامة الإنسان مهما كان عنصره وجنسه وعمره ومستواه.

النظرية الثانية: هي النظرية الغربية - في الجملة طبعاً - فإن المسؤولين الغربيين ظهرت منهم كلمات ومواقف تعبر عن العبودية المطلقة للمادة دون اعتبار لقيمة الإنسان، وأظهرت أنّ كل مدعياتها في ذلك زائفة في هذا الاختبار، فهذه الدول قامت بدراسة تكلفة الإنقاذ من الوباء وتكلفة البقاء عليه، فوجدت أنّ تكلفة البقاء أقل من العلاج فغضت النظر عن منعه، وقالت فليعم الوباء، وتحدث بعض المسؤولين عن معالجة الوباء بنظرية (مناعة القطيع) وتعني بالمختصر:

فلينتشر الوباء لينج من إصابته من هو أقوى، وهذا ما صرح به نصاً أو مضموناً رئيس الوزراء البريطاني جونسون، وتبعت هذه النظرية هولندا والسويد والمانيا، وبعض الدول كفرنسا وإيطاليا ذهبوا إلى اختيار من يستحق العلاج، ومعنى ذلك أنّ كل من يكلف الدولة كثيراً ولا تنتفع منه الدولة فليذهب ضحية الوباء، وطبيعي هذا يشمل ثلاثة أصناف من الناس هم كبار السن وأصحاب الأمراض والذين لا يملكون أعمالاً منتجة، وجاء في بعض المقالات أنّ في هولندا حصل فرح كبير عند شريحة واسعة من الشباب والأطفال بأنّ كورونا سيخلصهم من كبار السن لتغدو فرصتهم بالحصول على منزل أسرع.

يقول: أحدهم سألت إحداهنّ وقلت: لكن هؤلاء الذين يتمنون موتهم هم الذين بنوا هذا البلد الرائع. قالت: نعم شكراً أدّوا المهمة وعليهم أنّ

يُصرفوا... وصار بعض الإعلاميين والباحثين يصرحون بأن كورونا فرصة ذهبية لأوروبا لتجديد شبابها والتخلص من أحمال ثقيلة على المجتمع والدولة، وهذه عبارة تكشف مدى الانحطاط الأخلاقي الذي يعيشه العالم الغربي بمسؤوليه ومجتمعاته إلا ما خرج، وهي فردانية قاتلة وأنانية تغرق بها البلاد التي تدعي ما تدعي من قيم إنسانية، وكوّنت منظمات تطالب فيها الشعوب بالتحضر ونحو ذلك.

والحقيقة أنّها بلاد لا تعرف في ثقافتها وجوهر أفكارها إنسانية، هذه هي مجسدة في أساليبهم وسياساتهم مع الدول الضعيفة، ولكن لما وصلهم البلاء أظهره للعلن، فهي لا تعرف للإنسان قيمة إلا كعامل لدر المال وجمعه، حقاً يجب أن نشكر الله سبحانه، فإنّ لكورونا أثراً سلبية وإيجابية ومنها أنّه أظهر حقيقة أفكار الدول وسياساتها وثقافة المجتمعات ليلتفت بعض شبابنا والمثقفين المسحورين بالحضارة الغربية والبارعين في اتباعهم أنّهم يتبعون الوحشية لا الإنسانية، والجحود لا الإيمان، والأنانية لا المحبة.

ربوبية المال والسلطة

إنّ مشكلة العالم الكبرى ليست في الأوبئة والحروب والأزمات الاقتصادية؛ لأنها مظاهر لفكر حاكم ومتسيّد على العالم، وهو ربوبية المال والسياسة ربوبية لا تعرف مبادئ إنسانية ولا قيم مساوية.

فالخرب اليوم هي حرب ربوبية، فإنّ الأنبياء والأديان ومن يمتد إليهما من أولياء وعلماء ومصلحين يدعون إلى ربوبية الله عزّ وجلّ، وأمّا سياسات غالب الدول والمؤسسات الدولية والمنظمات التابعة والأجهزة التعليمية

والإعلامية والثقافية وغيرها تدعو إلى ربوبية المادة بمظهرها المادي والسياسي وربما البعض يستغرب هذا الكلام لكن هذه هي الحقيقة، ووضع العناوين المغرية المليحة لبعض المؤسسات لا يغيّر من واقعها شيئاً.

فالعالم اليوم يعيش تحت ربوبية المادة والسياسة؛ لذا صارت القيم والمبادئ الإنسانية ضحايا، ولا بد للعالم أن ينهار يوماً لو استمر على هذا النهج ولا يعود إلى ربوبية الخالق؛ لأنّه يعيش في زيف وكذب ودجل، وهذه لا تحمل مقومات البقاء، وإذا لا يعود فإنّ الباري عزّ وجلّ وبمقتضى ربوبيته خلّقه سعيده إلى ذلك بولّيه الأعظم حجة الزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف يُظهر ويُظهر دينه على الدين كله، وينشر في أرجاء الأرض عدله وقسطه.

وهذا أمر يعرفه أصحاب القرار والسلطة الخفية في العالم، ولذا يخططون ويعملون لمحاربته والكثير من الضغط السياسي والفكري الذي يواجهه المؤمنون، والفتن التي يسببها الأعداء في بلاد اتباع أهل البيت (عليه السلام) جزء منه راجع إلى هذه الحقيقة، وهي عقيدة الإمامة الإلهية وانتظار الفرج الذي يزيل الظلم وينشر العدل في الأرض.

كيف يحاربون الدين؟

ومن أساليبهم تأسيس الجماعات الإرهابية التي باسم الدين مارست العنف والوحشية المقيّنة المخالفة للإسلام، لكي تنفّر المجتمعات منه، ويستغلون بذلك جهل الناس بالإسلام، والغاية من ذلك هو الحفاظ على سلطتهم؛ لأنّهم يتوهمون بأنّ انتشار الإسلام الصحيح في الأرض لا يبقى

لهم حكماً ولا مجداً، ومن أساليبهم التي يُعدّون لها الشريحة التي توضع في جسم الإنسان وتتحكم به وتراقب كل تصرفاته مَنْ يعمل هذا؟ والجواب: فئة قليلة ممن تجبرّوا ويسعون لاحتلال العالم، وباتت تتحكم بالحكومات والدول والشعوب، ولعل في الروايات إشارات اليهم كالمسيح الدجال، فالعالم اليوم محكوم بفئة قليلة، هم يقرؤون القرآن ويعلمون مضامينه، ويعلمون أنه حق، كما يقرؤون ما ورد من أحاديث عن النبي ﷺ والعترّة الطاهرة عليه في شأنه كما وردت عن أنبيائهم، فالقضية لديهم معلومة، ولذا يستعدون لها. يشهد له قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾^(١) والزبور كتاب داود وسليمان وأتباعه اليهود، والذكر كل الكتب السماوية التي نزلت قبله كما ورد في الأخبار^(٢)، ويفيده منطوق الآية^(٣)، والعباد الصالحون هم محمد وآل محمد عليه وشيعتهم، والكثير من علمائهم ومفكرهم صرحوا بهذه الحقيقة، واطلعوا على الأحاديث الواردة عن الله والنبي والأئمة عليه.

ومنها: حديث المعراج الذي حدّث به الباري نبيه المصطفى ﷺ عن أئمة الخلق، وعن إمام آخر الزمان، وأنه يُطهّر الأرض من الجبابة إلى يوم القيامة، فبعد أن ذكر للنبي أسماء الأئمة عليه من الإمام أمير المؤمنين عليه إلى المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف قال له: ﴿يا محمد! هؤلاء أولياني

(١) سورة الأنبياء: الآية ١٠٥.

(٢) انظر مجمع البيان: ج ٧، ص ١١٩.

(٣) تفسير العياشي: ج ٢، ص ٢١٩، ح ٧٣.

وأحبائي وأصفيائي وحججي على بريتي، وهم أوصياؤك وخلفاؤك وخير خلقي بعدك، وعزتي وجلالي لأظهرنَّ بهم ديني، ولأعلننَّ بهم كلمتي، ولأطهرنَّ الأرض بآخرهم من أعدائي، ولأملكنَّ مشارق الأرض ومغاربها، ولأسخرنَّ له الرياح، ولأذلنَّ له الرقاب الصعاب، ولأرقينَّه في الأسباب، ولأنصرنَّه بجندي، ولأمدنَّه بملائكتي حتى يعلن دعوتي، ويجمع الخلق على توحيدي، ثم لأديمنَّ ملكه، ولأداولنَّ الأيام بين أوليائي إلى يوم القيامة والحمد لله رب العالمين^(١).

لماذا يخالفون المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف؟

ولا يقول قائل كيف يتم ذلك والغرب والشرق ملكوا القوة والسلطة والمال؟ والجواب: أن ذلك بأمر الله، والله سبحانه قادر على كل شيء، ومثل هذه الحقائق لا تخفى على مثلهم، وهم يعلمون؛ لذا يعملون ليل نهار لتقويض هذا المشروع الإلهي؛ لأنه يبطل ربوبيتهم، ويهدم أركانهم وسلطانهم، ولو كانوا يراعون العقل والمنطق والدين، ولو كانوا صادقين فيما يدَّعون من قيم العدالة لأذعنوا لهذه الحقيقة، وآمنوا بها، واستجابوا لها؛ لأنها تعطي للجميع حقوقه، وتجعل العدل سيِّداً في الأرض، لكن خوفهم على ربوبيتهم وعبوديتهم للمال والسلطة يمنعهم، فيعملون بكل ما أوتوا لمحاربة ذلك لكنهم غافلون عن أن إرادة الله لا تقهر، وأنه سبحانه وعد في كتابه بأنه لينصر أوليائه، ويظهر دينه على الدين كله ولو كره الكافرون.

(١) كمال الدين: ص ٢٤٤، ح ٤؛ البحار: ج ٥٣، ص ٣١٢، ح ٥.

ربوبية العوالم

المفردة الرابعة: ﴿العالمين﴾

العالمين جمع محلى باللام يفيد العموم الاستغراقي واحده عالم بفتح اللام، وتتميز هذه المفردة بثلاث مزايا لطيفة:

مزايا لفظ العالمين

الأولى: أن جمع هذه المفردة وواحداه يفيدان الجمع، فإنّ واحد العالمين عالم بفتح اللام وهو جمع أيضاً لا مفرد له، نظير لفظ القوم والجيش.

الثانية: قلة النظير في اللغة، فقد قيل لم يجمع على صيغة (فاعل) بفتح العين إلا مفردتان هي (عالم) و (ياسم)، والأولى جمعها عالمين والثانية ياسمين، وهو الزهر المعروف، وقيل لا يوجد غير الأولى^(١) أمّا ياسمين فهو اسم علم موضوع على الزهر، وهذا يدل على تفرد الآية في لفظها ومعناها.

الثالثة: أن صيغتها تختص بالدلالة على الآلة غالباً مثل (خاتم) و (قالب) والعالم آلة للعلم بالصانع والمصنوع^(٢).

اشتقاق العالمين

وقد اختلف اللغويون في اشتقاقه على قولين:

أحدهما: أنّه مشتق من العلم والثاني من العلامة، وعلى أساسه اختلفت

(١) القاموس المحيط: ج ٤، ص ٢١٦، (علم)؛ تاج العروس: ج ٨، ص ٤٠٧، سطر ١١ - ١٢.

(٢) انظر مجمع البيان: ج ١، ص ٥٥ - ٥٦.

الآراء في معنى الآية، والحق أن لا تنافي بين القولين سوى أن اللحاظ يختلف، إذ لا شك في أن العالم يعني الوجود، وسمي بذلك باعتبار أن كل موجود له جنس يميزه عن غيره، فيكون له علامة مثل الإنسان والحيوان والنبات، فيقال لما يتميز به الإنسان عالم الإنسان، ولما يتميز به الحيوان عالم الحيوان، وهكذا النبات، وباعتبار أن هذا التمييز سبب للعلم به، ثم العلم بوجود خالقه ومكوّنه بحسب البرهان الإتي يقال له عالم، فهو اسم يقع على ما يُعلم، ومعلوم أن كل مخلوق هو علامة على نفسه وعلى خالقه، وهو سبب العلم بهما.

الأقوال في العالمين

كما اختلف المفسرون في المراد بالعالمين في الآية على أقوال:

القول الأول: البشر، واستدل له بوجه ثلاثة:

الأول: بعض الآيات كقوله تعالى في قوم لوط ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾^(١) فقد أطلق لفظ العالمين على الناس، وتعززها القرينة الداخلية والخارجية، لأن الآية في مقام الحمد لله لكونه رب العالمين، وفي سورة الناس خصص الربوبية بالناس فقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾^(٢) والجمع بينهما يقتضي تفسير العالمين بالناس.

الثاني: ما روي عن الصادق عليه السلام بأنه فسّر العالمين بالناس، وجعل كل

(١) سورة الشعراء: الآية ١٦٥.

(٢) سورة الناس: الآية ١.

إنسان منهم عالماً^(١)، ويعززه ما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام:

﴿وتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر﴾^(٢)

وإذا كان الإنسان هو العالم الأكبر اجتمعت فيه العوالم كلها؛ لأنّ الأكبر يشتمل على الأصغر.

ويتحصل: أنّ العالمين وإن كان في معناه اللغوي عاماً إلاّ أنّه في المتفاهم العرفي ينصرف إلى البشر خاصة.

الثالث: حكم العقل؛ لأنّ الإنسان هو المكلف الأكبر والمقصود بالخطابات القرآنية والأحكام الإلهية، وإليه بعث الله عزّ وجلّ الرسل، وأنزل الكتب ليربيه ويعلمه ويكمله ويهديه إلى أفضل مصالحه، والآية في مقام إظهار الحمد على الربوبية لبني البشر.

ووجه تسمية الإنسان بالعالم هو أنّه يعلم نفسه وأنّه دليل على ربه، وهو أكمل من عرف ربه، وإليه يشير الحديث الشريف: (من عرف نفسه فقد عرف ربه)^(٣).

عوالم الجن والإنس

القول الثاني: الإنس والجن، أي أصناف البشر وأصناف الجن، فإنّ لكل صنف منهم عالماً، والجمع و (عالمون) واستدل له بوجوه:

(١) مفردات الراغب: ص ٥٨٢، (علم).
(٢) الأنوار النعمانية: ج ٣، ص ٥٢.
(٣) عوالي اللآلئ: ج ٤، ص ١٠٢، ح ١٤٩؛ البحار: ج ٥٨، ص ٩١؛ الفوائد الطوسية: ج ١، ص ٧٩.

٤٣٠ مايقوله القرآن في سورة الحمد

الأول: الآيات الشريفة التي خاطبت الإنس والجن ووصفتها بالعالمين، كقوله تعالى: ﴿لَيَكُونَنَّ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾^(١) وهو نذير الإنس والجن، وقوله تعالى في وصف القرآن: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾^(٢).

الثاني: حكم العقل؛ لأنَّ المكلفين من الخلق هم الأنس والجن، وهما المأموران بالحمد لله عزَّ وجلَّ على ربوبيته.

والثالث: القرينة الداخلية، فإنَّ الآية التي تليها وصفت الباري بأنَّه مالك يوم الدين وهو يوم القيامة الذي يحاسب به المكلفون، وليس إلاَّ الإنس والجن.

عوالم العقلاء

القول الثالث: جماعة العقلاء من الخلق وهم الإنس والجن والملوك والشياطين، وعن ابن عباس اختصاصه بالثلاثة دون الشياطين^(٣)، واستدلوا بوجهين:

الأول: أنَّ صيغة الجمع في العالمين هي لجمع العقلاء.

والثاني: الاستعمال العرفي؛ لأنَّهم يقولون: جاءني عالم من الناس، ولا يقولون جاءني عالم من البقر^(٤)، ويعززه صحة السلب.

(١) سورة الفرقان: الآية ١.

(٢) سورة الأنعام: الآية ٩٠.

(٣) الدر المنثور: ج ١، ص ٣٤؛ وانظر مفردات الراغب: ص ٥٨٢، (علم).

(٤) مجمع البيان: ج ١، ص ٥٦؛ مفاهيم البيان: ج ١، ص ١١٤؛ تفسير القرطبي: ج ١، ص ١٣٩.

عوالم الخلائق الحيّة

القول الرابع: إنّ كل ما يقبل التربية والنمو من الخلائق، فيشمل الحيوان والنبات فضلاً عن الإنسان، واستدلوا له بأنّ لفظ العالم عادة لا يطلق إلّا على الكائنات الحيّة، فيقولون عالم الإنسان وعالم الحيوان وعالم النبات ولا يقولون عالم الجهاد أو عالم الهواء؛ لأنّ العالم مشتق من العلم وهو لا يكون إلّا في الأحياء وإنّ تفاوتت فيه على قدر استعداداتها، ولأنّ هذه العوالم هي التي يظهر فيها أثر التربية والتعليم والتغذية والنمو والتوالد، فالرحمة الإلهية في الأحياء ربوبية، وفي غيرها خلق وتسخير^(١).

عوالم الموجودات

القول الخامس: جميع الموجودات بشتى صنوفها؛ لأنّه مشتق من العلامة بمعنى الدلالة، فكل مخلوق هو علامة وآية كاشفة عن خالقه، وعليه فكل ممكن يصح أن يعبر عنه بأنّه عالم من عوالمه تبارك وتعالى، ولكن عادة لا يطلق على الفرد بالعالم وإنّما على المجموعة المشتركة في النوع، ولذا يعبر عن الطبيعة بعالم الطبيعة، ويراد بها ما يشمل الكائنات الحيّة والجمادة، ويقال عالم التكوين وعالم التشريع وعالم المال وعالم اللغة ونحو ذلك.

وفي جميعها يظهر أثر التربية فيها في الوجود والبقاء والنماء، ولذا قال

(١) تفسير المراغي: ج ١، ص ٣٠، (بتصرف وإضافة)؛ مجمع البيان: ج ١، ص ٥٦.

٤٣٢ مايقوله القرآن في سورة الحمد

سبحانه: ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾^(١) فالتربية الإلهية لا تختص بالعاقل والحي. نعم تربية غيره لا تصلح إلّا للعاقل الحي لقصوره عن غيره كالإنسان والحيوان. أمّا تربية الخالق فلا تحد ولا تحد بشيء^(٢).

عوالم أهل الزمان

القول السادس: كل صنف من أصناف الخلق يجتمعون في الزمان، فيكون العالمون اسم علم موضوع لأهل كل زمان باعتبار أنّه علامة لهم على علومهم وأفكارهم، فإنّ لكل جيل علومه ومفاهيمه ودلالته.

عوالم العلماء

القول السابع: الفضلاء في كل زمان، لأنّ كل واحد منهم مجمع علوم وأفكار جيله في الجملة، ويدل عليه قوله تعالى عن لسان قوم لوط: ﴿أَوْ لَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾^(٣) وقد أطلق القرآن لفظ الأمة على إبراهيم عليه السلام باعتبار أنّه كان مجمع ما لديها من علوم وأفكار قبل الصحيح منها وحارب الفاسد، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾^(٤)،^(٥).

(١) سورة الأنعام: الآية ١٦٤.

(٢) مواهب الرحمن: ج ١، ص ٢٨.

(٣) سورة الحجر: الآية ٧٠.

(٤) سورة النحل: الآية ١٢٠.

(٥) مفردات الراغب: ص ٥٨٢، (علم)؛ تفسير القرطبي: ج ١، ص ١٣٩؛ المنار: ج ١، ص ٥١.

عوالم المخلوقات أجمع

القول الثامن: جميع الخلق على اختلاف أصنافهم وأنواعهم من الأرضيات والسماويات والملكيات والملوكيات أي كل ما سوى الله، واستدلوا له بوجهين:

الأول: جملة من الآيات التي أُطلق فيها لفظ العالمين على كل المخلوقات. منها: قوله تعالى في فرعون وموسى عليه السلام: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾^(١) بناء على أن المراد بها بيان مخلوقه وليست اسم علم للمخلوق.

الثاني: الاستعمال العرفي، فإنهم يطلقون لفظ العالمين على جميع المخلوقات.

القول الجامع للأقوال

والحق هو هذا القول، وهو اختيار أكثر اصحابنا^(٢).

أولاً: لأن كل الأقوال المذكورة والوجوه التي استدلوا بها هي مثبتات ولا تنافي بينها، وقد أشار كل قول إلى جهة من جهات المعنى، والقاعدة تقتضي الجمع بينها كما قرره علماء الأصول من الأخذ بالمشبات، ولعل كل قول نظر إلى أظهر مصاديق العالمين أو أكثرها حضوراً، والاستعمال قد يكون بالمعنى الخاص وقد يكون بالعام، وإلا لكانت جميعها منقوضة

(١) سورة الشعراء: الآيتان ٢٣ و ٢٤.

(٢) انظر تفسير كنز الدقائق: ج ١، ص ٧٨؛ مقتنيات الدرر: ج ١، ص ١٦؛ مناهج البيان: ج ١، ص ١١٤.

ومحلولة، فكل قول ينقض الآخر، ودليله يبطل دليل الآخر.

أدلة القول بكل العوالم

وثانياً: لتامة أدلة هذا القول وهي عديدة:

الدليل الأول: الظهور، فإنّ الظاهر من قوله تعالى: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ جميع الخلق، ويعضده الجمع المحلّى باللام الذي يفيد العموم الاستغراقي، ودعوى انصرافه إلى البشر ضعيفة، وعلى فرض وجوده فهو بدوي لا ينفي ما عداه.

وتعززه شواهد عديدة:

الأول: الاستعمال العرفي، فإنّ العرف يطلق العالم والعالمين على كل ما سوى الله مجموعاً أو جماعات وأصنافاً، فيقول عالم الإنس وعالم الجن وعالم الحيوان وعالم الأفلاك وعالم التكوين وعالم التشريع وعالم الغرب وعالم الشرق والعالم الثالث وهكذا، وهو من الإطلاق الحقيقي لا المجازي بشهادة صحة الحمل وعدم صحة السلب.

الثاني: حكم العقل بأنّ سورة الحمد ناظرة إلى ربوبية الخالق لجميع خلقه، كما وأنها وبمقتضى وجودها ونمائها وبقائها تتقوم بربوبية الخالق.

الثالث: ما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام في وصف الإنسان بالعالم

الأكبر كما في الشعر المتقدم^(١)، كما ذكر الحكماء أنّ النفس الإنسانية إذا كُمِلَتْ صارت عالماً عقلياً مضاهياً للعالم الحسي^(٢).

(١) انظر الأنوار النعمانية، ج ٣، ص ٥٢.

(٢) مجد البيان: ص ٢٨٦.

ولو صدق اسم العالم على الإنسان صدق على غيره بوحدة الملاك أو الأولوية؛ لاتفاق الكلمة على أن الإنسان صنف واحد في ضمن أصناف الكون الكثيرة.

الرابع: إطلاق الحمد في الآية فإنه يكون على كل نعمة، وكل ما سواه من نعمه وخيره.

الدليل الثاني: الروايات الشريفة، فقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام في بيان معنى العالمين أنه قال عليه السلام: ﴿هم الجماعات من كل مخلوق من الجمادات والحيوانات، فأما الحيوانات فهو يقلبها في قدرته، ويغذوها من رزقه، ويحوطها بكنفه، ويدبر كلاً منها بمصلحته، وأما الجمادات فهو يمسكها بقدرته، ويمسك المتصل منها أن يتهافت، ويمسك المتهافت منها أن يتلاصق، ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، ويمسك الأرض أن تنخسف إلا بأمره. إنه بعباده لرؤوف رحيم^(١).

والتهافت التساقط و (من) في قوله: ﴿من كل مخلوق﴾ جنسية، ولم يذكر الإنسان والجن والملائكة وغيرها لوضوحه.

وعن أبي جعفر عليه السلام: ﴿لعلك ترى أن الله إنما خلق هذا العالم الواحد، وترى أن الله لم يخلق بشراً غيركم، بلى والله لقد خلق ألف ألف عالم، وألف ألف آدم. أنت في آخر تلك العوالم وأولئك الآدميين^(٢) والعطف في قوله: ﴿خلق هذا العالم﴾ و: ﴿أن الله لم يخلق غيركم﴾ تقتضي المغايرة، والأول

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج ١، ص ٢٥٥، ح ٣٠؛ تفسير الامام العسكري عليه السلام: ص ٣٠؛ البحار: ج ٨٩، ص ٢٤٦.

(٢) التوحيد: ص ٢٧٧، ح ٢؛ الخصال: ص ٦٥٢، ح ٥٤.

يشمل كل ما في الوجود الإمكانى، كما أنّ الألف عالم يراد به عموم الخلق الموجود في زمان كل آدم من سماوات وأرضين وما بينهما، ويعززه قول الإمام الصادق عليه السلام في معنى رب العالمين قال: ﴿خلق المخلوقين﴾^(١).

وعن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله قال جبرئيل عليه السلام لرسول الله صلى الله عليه وآله في معنى الحمد لله رب العالمين: يا محمد! له الخلق كله. السماوات كلّهنّ ومن فيهنّ، والأرضون كلّهنّ ومن فيهنّ وما بينهما مما يُعلم وما لا يُعلم^(٢).

كل مخلوق حي

الدليل الثالث: البرهان، فقد تقرّر غير مرة أنّ جميع الخلق حي يرزق، وينمو ويشعر ويعبد ربّه ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾^(٣) فحاجته إلى الربوبية حاجة ذاتية يستحيل انفكاكه عنها، ويعززه قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾^(٤) وبضميمة أنّ الرحمة تلازم الربوبية تثبت أنّ الربوبية تسع كل شيء، وهو كل ما سوى الله عزّ وجلّ.

خلاصة الأدلة

ويتحصل من مجموع ما تقدم: أنّ الباري عزّ وجلّ يتولى كل ما سواه برحمته وبربوبيته حدوثاً وبقاء ونماء، ويوصل إليه ما يقتضيه صلاحه من

(١) تفسير القمي: ج ١، ص ٢٨؛ البحار: ج ٨٩، ص ٢٢٩، ح ٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم: ج ١، ص ٢٧، ح ١٤.

(٣) سورة الإسراء: الآية ٤٤.

(٤) سورة الأعراف: الآية ١٥٦.

النعم الظاهرة والباطنة، فهو مصدر الوجود، وهو مقومه ومديمه ومصلحه؛ لذا لا يستحق الحمد المطلق بشتى صنوفه وأنحائه إلا هو تبارك وتعالى، وتتفرع عن ذلك حقائق:

لماذا (بالعالمين) دون (العالم)؟

الحقيقة الأولى: أن الآية عبّرت عن مجموع الخلق بالعالمين ولم تعبّر عنه بالعالم مع أن الاثنين يفيدان الجمع فقالت: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ و (لم تقل رب العالم) ولعل السبب في ذلك يعود لأمرين:

الأول: لأنّ العالم جامع مفهومي ينظر إلى الجميع بنظرة واحدة بغض النظر عن الخصائص والامتيازات، ويأخذ الجامع المشترك بينها في التعبير، نظير التعبير بالأمة عن المشتركين في مبدأ واحد أو معتقد أو منهج، والمراد ما يجمع الناس المتفرقين في كلّ شيء إلا في المعتقد أو المنهج متفقون، وكذلك حينما يعبر عن الناس بالمجتمع والقوم بالرغم من وجود الاختلاف بين آحاد المجتمع وأفراد القوم، إلا أنّ التعبير لا ينظر إلى الاختلاف بل إلى الجامع المشترك. بخلاف العالمين فإنّه ناظر إلى تمايز العوالم واختلافها بالحقائق والخصائص والآثار، فعالم الإنسان غير عالم الجان، وهو غير عالم الحيوان وهكذا، وحيث إنّ الآية في مقام بيان عموم الربوبية وشمولها لكل تفاصيل الوجود ودقائق الوجود اقتضى التعبير بصيغة الجمع المحلّى باللام الذي يفيد الاستغراق، وهذا ما يتطابق في المعنى والغرض مع لفظ الجلالة الدال على جمعية الصفات الإلهية ولفظ الحمد والربوبية.

عقائد القدماء

الثاني: لأنّ الآية في مقام إبطال جملة من الاعتقادات التي كانت سائدة عند الناس في ذاك الزمان ودعوتهم إلى التوحيد؛ إذ كانوا يعتقدون بتعدد الآلهة وأنّ لكل ظاهرة كونية إلهاً، فللخير إله وللشر إله وللرزق إله وللنصر إله وللحرب إله وهكذا.

وقد ورد أنّ اليونانيين كان لهم اثنا عشر إلهاً كل واحد منها ربّ لصفة من صفات البشر، كالخير والشر والحزن والنصر.

و اعتقد الكلدانيون بوجود إله للماء وإله للقمر وآخر للشمس ورابع للزهرة إلى غير ذلك، وجعلوا للجميع إلهاً أكبر أسموه (مردوخ).

آلاف الآلهة

وذهب الروم إلى أكثر من ذلك وبالغوا في كثرتها، فقسموا الآلهة إلى مجموعتين: إله الأسرة وإله الحكومة، وكان الناس يوالون إله الأسرة لا إله الحكومة لمخالفتهم لها.

وذكر البعض أنّ الروم اتخذوا لهم ثلاثين ألف إله حتى قال أحدهم: بلغت اهتنا أكثر من عدد الأفراد في الأزقة والشوارع؛ لأنّهم جعلوا لكل شيء إلهاً، فإله للزراعة وإله للمطبخ وإله لمخازن الطعام وإله للبيت وإله للنار وإله للفاكهة وإله للحصاد وإله لشجرة العنب وإله للغابة وإله للحريق وإله لبوابة روما إلى غير ذلك^(١).

(١) انظر تفسير الامثل: ج ١، ص ٤١، (بتصرف).

واليهود والنصارى اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله كما ذكر القرآن ذلك^(١).

وهذا كله دليل على قضيتين:

إحدهما: مستوى التردي الفكري وفقدان النضج العقلي في تلك الاقوام.

الآلهة المعاصرة

ثانيهما: أن الابتعاد عن نهج الأنبياء يقود البشر إلى الخرافات في الاعتقاد والأوهام، وفي هذه الأزمنة بعض الأمم شابهت الأمم السابقة حيث اتخذت المال والسياسة والفساد أرباباً وآلهة يعبدونها من دون الله، ولا يستغرب ذلك، فإنّ الدلائل شاهدة على ذلك، فماذا يعني شنّ الحروب والتدمير؟ ولماذا تتحارب الدول والجماعات على ماذا؟ أليس على المال والسلطة؟ ولماذا يتلاعب بالأسواق ويباح الفساد حتى الشذوذ يشرع ويُعدّ مباحاً وتعمل عليه دول وجماعات، مع أنّه يخرج الإنسان من الإنسانية، حتى الحيوان لا يعمل بالشذوذ فكيف يفعل الإنسان؟

وحينما تقام منظّمات وتجار ليسرقوا البنات والأولاد لأجل التجارة بالشذوذ ماذا يعني؟ ولما يكون الربا هو مدار التعاملات ماذا يعني؟

ربوبية الفساد

إنّ كل مظاهر الحياة العامة اليوم تدل العبودية لغير الله واتخاذ اللهو واللعب والمال والسلطة أرباباً من دون الله، وهذه مظاهر تخلّف لا تحضّر،

(١) انظر سورة التوبة: الآية ٣١.

وهنا قد يسأل البعض أن وباء كورونا حينما أصاب الناس انتفض العالم ودخل الانذار الأقصى لمواجهة، وحجروا الناس وجمّدوا الحركة وأوقفوا الأعمال لماذا؟ لأنّه مرض معد وربما يقتل المصاب، ولكن احتمال القتل فيه ضعيف حسب ما قدره بعض أهل الاختصاص ٢٪، وهذا جيد أن يحترم العالم حياة الناس، ويسعى للحفاظ عليها، ولكنّ الملفت أن هناك ما هو أخطر من كورونا ولا يهتم له العالم، بل قد تساهم بعض الدول في نشره. ترى ما هو الأخطر الكورونا أم الظلم والفساد الأخلاقي والفكري؟ فإنّ هذا مرض أخطر باتفاق عقلاء العالم وعلمائه؛ لأنّه مرض يتعلق بالروح، وأمراض الروح أخطر من أمراض البدن، وهو مرض معد يؤثر على الأخلاق والأفكار، وربما يقتل صاحبه، واحتمال القتل فيه أكبر؛ لأنّه يقتل الأرواح؛ فلماذا لا ينتفض العالم ويقف على أسبابه ويبحثها؟ بل هناك من يساهم في تقنينه وحمايته وترويجه، لا جواب لهذا السؤال سوى جواب واحد وهو المصلحة وربوبية المادة والفساد، فإنّ الانتفاض لأجل كورونا وراءه مصالح مادية، وترويج الفساد كذلك، وهذا معنى ربوبية الفساد، فإنّ في العالم من يربّي الفساد وينمّيه ويغذّيه لأجل التسلّط والتجيير المالي والسياسي؛ لذلك يحذر أهل المعرفة من الدمار والخراب الذي سيحل بالعالم إذا لا يتوقف عن هذه الفضائح.

التحذير من الدمار القادم

ففي رواية سدير قال: سأل رجل أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾^(١) فقال: هؤلاء قوم كانت

لهم قرى متصلة ينظر بعضهم إلى بعض وأنهار جارية، وأموال ظاهرة، فكفروا نعم الله، وغيروا ما بأنفسهم من عافية الله، فغير الله ما بهم من نعمة و: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾^(١) فأرسل الله عليهم سيل العرم، فغرق قراهم، وخراب ديارهم، وذهب بأموالهم، وأبدلهم مكان جناتهم: ﴿جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾^(٢) ثم قال: ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾^(٣)،^(٤).

وسيل العرم الذي لا يمكن الوقوف أمامه أو الخلاص من آثاره، والخمط الحامض أو المر من كل شيء، والأثل شجر طويل عظيم جيد الخشب يقال إن منبر رسول الله صلى الله عليه وآله كان منه^(٥) فبدلاً من الجنة الوافرة ذات الأزهار والثمار أبدلهم بجنتين ثمرهما مرّ وأشجارهما ليس فيهما إلا الخشب، والسدر القليل هو النبق ولكنه على نوعين:

أحدهما: يؤكل ونافع ويتنفع بورقه لغسل اليد والبدن.

وثانيهما: ثمرة عفصة لا تؤكل أصلاً وهو البري الذي يقال له الضالّ، والمراد الثاني^(٦)، فكان شجرهم خير شجر كله نفع فصيّره الله بشرّ شجر

(١) سورة الرعد: الآية ١١.

(٢) سورة سبأ: الآية ١٦.

(٣) سورة سبأ: الآية ١٧.

(٤) الكافي: ج ٢، ص ٢٧٤، ح ٢٣؛ الوسائل: ج ١٥، الباب ٤٤ من أبواب جهاد النفس وما يناسبه، ص ٣١٤، ح ٢٠٦١٧.

(٥) مجمع البحرين: ج ٥، ص ٣٠٣، (أثل).

(٦) نفحات الرحمن: ج ٥، ص ٢١٥.

بسبب ظلمهم وتغيّر أخلاقهم وأفكارهم، فهم كانوا في ربوبية الله اللطيفة، ولما غيّرُوا أدخلهم في ربوبيته التطهيرية، فسلب منهم النعم، ثم أعطى قاعدة عامة أنّ كل كفور يجازى بكفره، وهذا ما يستدعي من العالم أجمع أن يقف وقفة تأمل، ويعود إلى ربّه، ويترك عبادة الشهوات والشياطين، فإن لم يعودوا سيؤول جمعهم إلى خراب، ونعمهم إلى زوال، ولو عاد العالم إلى الله سبحانه والتجأ إلى ربوبيته نجا واستقر مادياً ومعنوياً.

فعن رسول الله ﷺ عن جبرئيل عليه السلام قال: ﴿قال الله عز وجل: أهل ذكري في نعمتي، وأهل شكري في زيادتي، وأهل طاعتي في كرامتي، وأهل معصيتي لم أقنطهم من رحمتي، فإن مرضوا فأنا طيبهم، وإن تابوا فانا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فبالمصائب والبلايا أطهرهم﴾^(١).

ربوبية الآلام والمصائب

ويستفاد منها أنّ العبد يتنعم بربوبية الله سبحانه حتى في المصائب والآلام؛ لأنها تنميّه وتطهره؛ لذا لا بد وأن يحمد الله في جميع الأحوال. هذا كله لعباد الله، أمّا الذين يعبدون شياطينهم فيصابون في الدنيا وفي الآخرة بالهلاك.

والآية المباركة أشارت إلى وحدانية الخالق ووحدانية الرب، ومنها إلى وحدانية الإله، فإنّ الوجود برمته باختلاف ظواهره ومظاهره يعود إلى ربّ واحد هو الله سبحانه. هو الذي يوجد ويدبّر شؤونه ويسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، ولا يوجد لهذا الوجود ربّ إلا هو تبارك وتعالى، وكل ما

(١) جامع الأخبار: ص ٣٤٩-٣٥٠، ح ٩٦٧؛ وانظر عدة الداعي: ص ٤٢١، ح ٦٣٩.

سواه فهو فقير ومربوب، ولذا استحق الحمد على جميع الخلائق، وهو ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾^(١).

تجدد العوالم

الحقيقة الثانية: أنّ العوالم التي خلقها الله عزّ وجلّ وربّاهما مما تحار فيها العقول، ومهما أوغل الإنسان الفكر وأجرى الأبحاث والدراسات لأجل معرفتها والاطلاع على أسرارها فإنّه يبقى تائهاً فيها، وما يجمله عنها أكثر مما يعلمه، ولا زالت العوالم في تجدد؛ إذ يقول سبحانه: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٢)، فعالم الإنسان في بدنه وروحه ودواخله النفسية كم أجريت عليه من أبحاث ودراسات وأقيمت جامعات كبرى ومعاهد ومراكز تبحث عن أسرارهِ وخفائهِ ومن قبل ألوف العلماء والمتخصصين، ولا زالوا لم يصلوا إلى كل ما يريدون، ولا زالت الحوادث والوقائع تستجد، وتظهر قضايا جديدة للعلم لم يكن يعرف عنها شيئاً.

وأقرب العوالم إلى الإنسان وأكثرها نفعاً التراب؛ لأنه منشؤه وهو مصدر حياته وطعامه ولباسه وشرابه وسكنه، وهو مرجعه بعد رحلته من الدنيا، ولا زالت الدراسات بالنسبة إليه قاصرة، وما أن يتوصلوا إلى نتائج إلا وبعد مدة تظهر دراسات أخرى تفنّد أو تكمل الدراسات السابقة، وهذا كله في عالَمين هما أقرب ما يكون إلى الإنسان، فما بالك بالعوالم الأخفى والأبعد مثل

(١) سورة الإسراء: الآية ٤٤.

(٢) سورة النحل: الآية ٨.

عالم الجن والملائكة والفلك والنبات والحيوان وامثالها؟ فليس للإنسان إلا الاعتراف بالعجز والقصور أمام عظمة الخالق وربوبيته.

العوالم الطولية والعرضية

الحقيقة الثالثة: ورد في الروايات التعبير بالعوالم على جملة من الحقائق، فقد ورد أن أول ما خلق الله في عالم الروحانيين العقل، وأول ما خلق في عالم الماديات الماء، وأول ما خلق الله في عالم الأعراض الحروف^(١)، وورد كذلك في عالم الأشباح وعالم الأرواح وعالم الذر، وهذه كلها قبل عالم الدنيا، وفي الآيات المباركة إشارات لهذه المعاني.

وهذه العوالم بعضها عرضية مثل عالم العقل وعالم الماء وعالم الحروف، وبعضها طولية كالأشباح والأرواح والذر.

وفي الدنيا كذلك يمكن تقسيم العوالم على قسمين:

الأول: العوالم العرضية، ويراد بها العوالم التي لا ترتبط ببعضها بعلاقة تربية تكاملية منتظمة نظير عوالم الطبيعة وبما تحمله من خصائص وآثار.

والثاني: العوالم الطولية، وهي العوالم التي ترتبط بينها بعلاقة انتظامية تكاملية نظير نطفة الإنسان، فإنّها تبدأ أولاً من عالم التراب، ثم عالم الأصلاب، ثم تدخل عالم الرحم، ومنه تأتي إلى عالم الدنيا، ثم تأخذ سيرها التكاملية من الطفولة إلى الصباوة إلى المراهقة والشباب وهكذا، وكل مرحلة

(١) انظر مواهب الرحمن: ج ١، ص ٢٨.

يمر بها الإنسان هي عالم من العوالم وله ربوبية إلهية خاصة في تكوينه البدني والروحي والعقلي والاجتماعي، وبعد أن ينهي عوالم حياته يدخل عالم الموت، ثم عالم البرزخ، ثم عالم الآخرة، وهكذا عالم الجنة وعالم النار، وقبل الدنيا تقلّب الإنسان في عوالم عديدة ذكرناها، وفي كل هذه العوالم يتقلّب الإنسان بين يد الربوبية الإلهية، وهذا شاهد على التوحيد الربوبي في الأشياء، ولو تأمل فيه الإنسان لتلمّس آثاره: لأنه جلي ظاهر لكل ذي لب، ولا يخفى إلا على الغافلين أو المعاندين؛ إذ يمر على الإنسان بالإرادة الإلهية والتقدير الربوبي، وليس للإنسان فيه قدرة أو اختيار، فالإنسان لا يملك من أمره إلا فعله فإنّه مختار فيه، وأمّا تكوينه البدني والروحي فلا، وإنّما يربّيه الباري في كل لحظة وأن.

المبحث الثالث: لطائف الآية المباركة



وهي عديدة:

اللطيفة الأولى: هل (الحمد لله) إخبار أم إنشاء؟

قوله تعالى: ﴿الحمد لله﴾ جملة اسمية تفيد ثبوت الحمد له على نحو الحقيقة وانحصاره به على الدوام والاستمرار، وقد اختلف المفسرون في أنها جملة إنشائية أم إخبارية على أقوال، والثمرة تظهر في أنها على الأولى تفيد وجوب الحمد وإظهاره على العباد، ولا يكفي فيها مجرد المعرفة أو الإقرار القلبي، وعلى الثانية تفيد كفاية الإقرار بذلك.

بطلان قول العامة

القول الأول: إنها إخبارية. نسب إلى معظم العامة، واستدلوا له بوجهين:
الأول: دعوى الظهور لكونها ظاهرة في بيان أنه سبحانه مستحق الحمد.
الثاني: استحسان عقلي^(١) خلاصته امتناع حملها على الإنشاء، وحيث إن الجملة لا تخلو من أحدهما فتعيّن أن تكون إخبارية، فهما من قبيل الضدين اللذين لا ثالث لهما إذا انتفى أحدهما ثبت الآخر، ووجه امتناع الإنشاء هو انتفاء الاتصاف بالصفات الجميلة قبل حمد الحامد؛ لأنّ الإنشاء إيجاد

(١) روح المعاني: ج ١، ص ٧٨؛ التحرير والتنوير: ج ١، ص ١٠٧ - ١٠٨.

للمعنى بواسطة اللفظ، وقبله لم يكن المعنى موجوداً، وحيث إنّ هذا لا يليق بصفات الباري ثبت بطلانه، والاستدلال باطل بوجهيه؛ لأنّ الظهور بدوي ولا ينفي ما عداه كما سترى، والوجه العقلي على فرض التسليم به فإنّه قبل الإنشاء يتنفي وصف الواصف لا أصل الاتصاف؛ لأن الحمد عبارة عن الثناء الصادق على الجميل من الفضائل والفواضل كما قدمناه في بحث المفردات، والثناء لا يصدق إلّا إذا سبقه الاتصاف، فمعنى إنشاء الحمد هو إظهار العبد ذلك بلسانه، فقبله لم يكن إظهار، وإلّا لنقض في مثل: (الشكر) و: (التسبيح) و: (التكبير) حيث تعلق الأمر بها، فالحق أنّ حصر الجملة بالإخبار لا يستند إلى وجه وجيه.

أدلة الإنشائية

القول الثاني: إنها إنشائية محضة. ذهب إليه بعض الخاصة والعامة^(١)، واستدلوا له بوجوه عمدتها وجهان:

الوجه الأول: أنّ التحميد يتحقق بالإنشاء لا بالإخبار، والله هو المتكلم به في الآية، فقد أنشأ الحمد لنفسه، أي نفسه، فالله سبحانه أول من أوجد الحمد وحمد به نفسه؛ لأنه حميد في ذاته وصفاته وأفعاله؛ إذ لا نقص ولا خلل ولا شين في ذاته وصفاته، ولعدم الفتور واللغو والقبح في أفعاله فهو عز وجل حميد بذاته لذاته أزلاً وأبداً، وحميد في أفعاله^(٢).

(١) انظر مناهج البيان: ج ١، ص ١٠٤؛ التحرير والتنوير: ج ١، ص ١٠٧.

(٢) مناهج البيان: ج ١، ص ١٠٥؛ علم اليقين (للفيض الكاشاني): ج ١، ص ١٣٦.

وقد ورد هذا المعنى كثيراً في الآيات والروايات. أمّا الآيات فهي عديدة:
منها: قوله تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ
وَهُوَ الْوَكِيُّ الْحَمِيدُ﴾^(١).

وفي الدعاء الوارد عن أمير المؤمنين عليه السلام المعروف بالحرز اليماني قال:
﴿اللهم لك الحمد مثل ما حمدت به نفسك وحمدك به الحامدون﴾^(٢) فالحمد
حدوثاً منه، وحمد الحامدين متفرّع عنه.

وعن أبي عبد الله عليه السلام: ﴿إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حَمْدُ نَفْسِهِ عَلَى هَلَاكِ
الظَّالِمِينَ فَقَالَ: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
الْعَالَمِينَ﴾^(٣)﴾^(٤).

الوجه الثاني: صدق اسم الحامد على كل من يثني على الله بالثناء الحسن،
ولو كانت إخبارية لما صدق الاسم عليه، وهو واضح البطلان^(٥)؛ بداهة أنّ
المخبر مجرد حاك، والحاكي لا يتصف بالمحكي، ولذا لا يقال لمذيع الخبر عن
الجريمة أنّه مجرم، وكذا من يخبر عن العلم والعدالة ونحوهما، وأمّا دعوى
القول الأول فغير سديدة؛ لأنّ الصيغة وإن كانت خبرية إلا أنّ العرب نقلتها

(١) سورة الشورى: الآية ٢٨.

(٢) مهج الدعوات: ص ١٠٨؛ البحار: ج ٩٢، ص ٢٦٣.

(٣) سورة الأنعام: الآية ٤٥.

(٤) الكافي: ج ٥، ص ١٠٨، ح ١١؛ تفسير القمي: ج ١، ص ٢٠١؛ البحار: ج ٩٧،
ص ٧٣، ح ٧.

(٥) روح المعاني: ج ١، ص ٧٨.

من الإخبار إلى إنشاء الثناء نظير صيغ العقود فإنّها وإن كانت بلسان الماضي الذي يتضمن معنى الإخبار إلّا أنّ العرف جرّدها من معنى الماضي؛ لإفادة إنشاء العقد والتعبير عن وقوعه الحتمي الجزمي في وقت الإنشاء.

غايات النصوص الشرعية

القول الثالث: أنها جامعة للاثنتين معاً فهي جملة خبرية يراد بها الإنشاء أيضاً، وهذا الاستعمال كثير الوقوع في الآيات والروايات، بل هو ما تقتضيه القاعدة كما قررناه في علم الأصول؛ لأنّ النصوص الشرعية تتضمن ثلاث غايات ممتزجة ببعضها، هي التعليم والتكليف والتهذيب، فبالإخبار يحصل التعليم، وبالإ إنشاء يحصل التكليف والتهذيب، فربما ترد الآية - مثلاً - ولسانها الإخبار ولكنها تتضمن الإنشاء أيضاً.

كما في قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾^(١) فإنّها تخبر عن واقع الدين، وأنّ الباري عزّ وجلّ لم يجعل فيه أحكاماً حرجية، ولكنها في عين الحال تدل على أنّ كل حكم حرجي يواجهه الإنسان في حياته فإنه مرفوع عنه. ومثله في قوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾^(٢) فإنّها تخبر عن واقع المؤمنين وأنّهم يتصفون بالوفاء بتعهداتهم مع الله سبحانه بمثل النذر، ومع الناس بوعودهم وعهودهم لوحدة الملاك مع النذر، وفي عين الحال تتضمن الدلالة على إيجاب الوفاء بالنذر.

(١) سورة الحج: الآية ٧٨.

(٢) سورة الإنسان: الآية ٧.

وفي الروايات الشريفة ما يأتي بهذا المفاد أيضاً كقوله ﷺ: ﴿الدين المعاملة﴾^(١) و: ﴿لا ضرر ولا ضرار في الإسلام﴾^(٢) فإنهما إخباران ولكن يتضمنان إيجاب التعامل الحسن مع الناس وعدم جواز الإضرار بهم، وفي المقابل فإن كل قضية إنشائية تتضمن الإخبار عن أمرين: أحدهما: الإرادة الإلهية في المأمور به.

وثانيهما: وجود مصلحة أو مفسدة تقف وراء هذا الإنشاء ولأجلها صدر، كما في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾^(٣).
فإنها جملة إنشائية تفيد وجوب الحج على الناس، وفي عين الحال تخبر عن إرادة الله تبارك وتعالى ومحبه لذلك، وأن فيه مصلحة تعود على الناس أنفسهم؛ لأنه غني حكيم، والغني لا يحتاج إلى عبده، والحكيم لا يأمر بشيء بلا غاية ومصلحة.

ومثله يقال في قول النبي ﷺ: ﴿صلوا كما رأيتموني أصلي﴾^(٤) فإنه يفيد وجوب الصلاة لمكان صيغة الأمر، وفي عين الحال يخبر عن كيفية الصلاة في أجزائها وشرائطها. وحتى القصص القرآنية التي يحكي بها الباري أحوال الأمم السابقة والأنبياء الذين بعثهم هدايتهم والأساليب التي اتبعوها في إصلاحهم والتحديات التي واجهوها تتضمن إخباراً وإنشاء، وهذه قضية

(١) شرح رسالة الحقوق: ص ٥٨٦ آداب النفس: ص ٧٩.

(٢) معاني الأخبار: ص ٢٨١، وانظر الفقيه: ج ٣، ص ٧٦، ح ٣٣٦٨.

(٣) سورة آل عمران: الآية ٩٧.

(٤) عوالي اللآلئ: ج ١، ص ١٩٨، ح ٨؛ ج ٣، ص ٨٥، ح ٧٦؛ البحار: ج ٨٢، ص ٢٧٩.

عامة تنطبق في مختلف الموارد، ولو تأمل أهل البحث فيما حكاه القرآن من القصص لوجدوها منطبقة في مختلف الموارد.

وعليه فإنّ التفكيك بين الإخبار والإنشاء في الآيات الشريفة خلاف القاعدة، فلا يصار إليه إلّا بدليل، وما دام لم يقم دليل تام عليه تحمل على الأصل العام، بل وفي سورة الحمد قام الدليل على أنّها تتضمن الاثنين معاً؛ لما تقدم في الحديث القدسي أنّ الباري عزّ وجلّ جعلها نصفين نصف له ونصف لعبده^(١)، وفي الأول يعلم العبد من يستحق الحمد وسبب هذا الاستحقاق كما فصلناه في تعاليم السورة، وفي الثاني يُعلم العبد كيف يخاطب ربّه، وماذا يطلب منه في عبادته ودعائه، والتعليم يفيد أثرين مترتين طولياً هما: المعرفة والعمل بها، فإذا عرف العبد استحقاق ربّه للحمد حكم عقله بوجوب إظهار ذلك وشكره.

دليل الإخبار والإنشاء

ويعزز ذلك حكم العقل؛ لأنّ حمل الآية على الإخبار المحض من تحصيل الحاصل؛ اذ لا فائدة من إخبار العبد عن ثبوت الحمد لله عزّ وجلّ في قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لأنّ الحمد ثابت له أزلاً وأبداً، وحملها على الإنشاء المحض يتنافى مع حمد الباري عزّ وجلّ لنفسه ولا مخلص من الإشكال إلّا بحملها على الجمع بين الأمرين، فقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إثبات للحقيقة وتعليم العباد كيف يحمّدونه، والبحث في هذا مفصّل نوكله إلى

(١) البيان في تفسير القرآن: ص ٤٨٩.

محله من البحث الأصولي.

اللطيفة الثانية: خصوصية ورود الحمد بالجملة الإسمية

أن الآية بصيغة الجملة الإسمية ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فلماذا لم ترد بصيغة الجملة الفعلية (أحمد الله رب العالمين؟) والجواب لوجوه عديدة تقتضيها الحكمة:

الأول: لأن الحمد بالجملة الفعلية يكون على قدر الحامد. أمّا بالجملة الأسمية على قدر المحمود، فيقول العبد: (أحمد الله) أي بقدر فهمه ودركه وفعله يحمده، كما أنه يدور مدار وجود الحامد، وهذا قصور في قصور لا يليق بشأن الباري عز وجل، بخلاف قول: ﴿الحمد لله﴾ فإنه يفيد ثبوت الحمد بتمامه وكماله له عز وجل وبما يليق بشأنه، وهو ثابت له في الأزل والأبد، ولا يتوقف على وجود الحامد؛ لذلك ورد في الأدعية والأذكار: ﴿وأحمده فوق حمد الحامدين﴾^(١) فإذا لم يقل (فوق) لزم عدم الحمد؛ لأن التقصير في الحمد بمنزلة عدم الحمد، وهذه قضية يدركها أهل المعرفة، فلا أحد من العباد يقدر أن يفي بحمد الله تعالى، بل الأمر بالحمد (احمدوا الله) يستلزم التكليف بغير المقدور؛ لأن كل حمد يفتقر إلى حمد فلا يمكنه أداء الحمد بحسب حقه في المرة والمرات، ولو أتى به بالتكرار فإنه لو حمد في كل لحظة وآن لا يأتي بحقه؛ لأن كل حمد هو نعمة من الله أقدره عليها وأوجد في نفسه الداعي إليها، بخلاف الجملة الإسمية فإنها تفيد ثبوت الحمد لله

(١) الصحيفة السجادية: ص ٥٨٨؛ البلد الأمين: ص ١٠٠.

٤٥٤ مايقوله القرآن في سورة الحمد

عَزَّ وَجَلَّ، وأنَّ كمال الحمد حقه سواء التفت إلى ذلك الخلق أم لا، وسواء قدروا على فعله أم لا.

الثاني: أنَّ قوله: (أحمد الله) لا يدل بالضرورة على أنَّه مستحق للحمد؛ إذ ربما يكون بادرة من العبد، كالكریم الذي يكرم الآخرين ولا ينظر إلى استحقاقهم وعدمه، بخلاف ﴿الحمد لله﴾ فإنها تفيد أنَّه الوحيد الذي يستحق الحمد بنحو مطلق.

الثالث: أنَّ قوله (أحمد الله) إخبار عن النفس وليس دائماً يكون صادقاً؛ لأنَّ الحمد من الأفعال القلبية القصدية ويتحقق بإظهار الثناء على الفضائل والفواضل بقصد التعظيم والتبجيل، فصدق الحمد في فعل العبد وقوله متوقف على معرفته بالمحمود والتفاتة إلى نعمه وقصده، وهذا في كثير من الأحيان غير متحقق، فقد يقول العبد: (أحمد الله) وهو غير ملتفت، أو قلبه ساه، فيكون مجرد لقلقة لسان، كما قد يقولها وهو غير ملتفت إلى قصد التعظيم والتبجيل فيكون حمده كاذباً، بخلاف ﴿الحمد لله﴾ فإنه حينما يقولها يخبر عن الواقع، وفي الواقع الباري عزَّ وجلَّ الوحيد الذي يستحق الحمد بجميع مراتبه وجهاته، فإن قالها العبد ملتفتاً أو ساهياً أو غافلاً أو نائماً هي صادقة عليه تبارك وتعالى.

الربوبية الشاملة

الرابع: أنَّ قوله: (أحمد الله) مقيد بقيدتين:

أحدهما: توقفه على حياة العبد الدنيوية.

وثانيهما: توقفه على الإظهار بالقول واللسان، وكلاهما يتنافيان مع ما

يليق بشأنه عز وجل من الحمد، فإنه يستحق الحمد في الدنيا وفي الآخرة ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ﴾^(١) ولو استعرضنا وجودنا منذ نشأته وتكوينه وفي سائر شؤون الحياة لعلمنا أن كل حركة وسكنة وكل خلية من خلايا بدننا تقتضي الحمد لله سبحانه سواء علمنا بذلك أو لم نعلم، وذكرنا ذلك أو لم نذكره، فأى شيء في وجودنا لا يقتضي الحمد عندما ننام، فإن النوم يقتضي الحمد ونحن نائمون لا نحس ولا نشعر لكن نعمه تترى علينا، فيقبض أرواحنا ثم يعيدها إلينا حين الاستيقاظ، فمن قبض الأرواح وأخلدنا إلى الراحة؟ ومن لذنا بنعمة النوم؟ ومن أنسانا كل هموم الدنيا ومشاغلهما؟ ومن أخرج الجهد والإرهاق من الأبدان ولما نستيقظ نشعر براحة وأنس؟ يقول عز وجل: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(٢).

فالموت والنوم واحد في الكيفية، وكلاهما قبض للأرواح ولكن يفرقان في أن النوم فيه إعادة للروح والموت لا، ولو تفكر أهل الفكر بأن الإنسان ليس بيده أن ينام ولا بيده أن يستيقظ، فلو أخذه الأرق يعمل المستحيل حتى ينام بنفسه لكنه لا ينام، ولو نام لا يستطيع الاستيقاظ، فلا نوم الإنسان باختياره ولا يقظته، والنوم نعمة من أعظم النعم التي لولاها

(١) سورة القصص: الآية ٧٠.

(٢) سورة الزمر: الآية ٤٢.

لمات الإنسان بعد ولادته بفترة وجيزة جداً، فهو يستحق الحمد، وبعد اليقظة من النوم يجد الإنسان كل أعضائه تعمل يتحرك ويمشي وينطق وتعود له ذاكرته، فكل ما كان حافظاً له من علوم ومعارف وأفكار تعود إليه، هل هو الذي أعادها؟ وإذا خرج إلى عمله يتحرك ويعمل ويكسب الرزق آمناً مطمئناً فهل هو اكتسب الرزق أم هناك من أرسل إليه رزقه؟ وإذا عاد إلى داره يجد أهله وأولاده سالمين متهيئين مسخرين لخدمة بعضهم البعض من سخر هذا؟

فكل شيء في وجود الإنسان وفي حياته وفي حاضره ومستقبله وكل ما يتعلق به يقتضي الحمد، فالعبد في كل تفاصيل وجوده يتنقل في ربوبية الله عز وجلّ له؛ لذا عطف الآية الربوبية على الحمد فقالت ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ فالربوبية التفصيلية تستحق الحمد المطلق.

وهذا المعنى العميق الواسع تقصر الجملة الفعلية عن إظهاره (أحمد الله) ولا يصح إلا بصيغة الجملة الاسمية الحمد لله رب العالمين.

اللطيفة الثالثة: مزايا مفردة الحمد

أن الآية وردت بلفظ الحمد، وهناك جملة من المفردات المقاربة لها في الدلالة، مثل المدح والثناء والشكر لم ترد في الآية، فلماذا لم ترد بلفظ الشكر مثلاً بأن يقول (المدح لله رب العالمين) أو يقول (الشكر لله) أو (الثناء لله) والجواب عن ذلك يتوقف على معرفة معنى كل واحدة من هذه المفردات، وبيان الغرض الدلالي بينها، وسر ورودها في الآية دون غيرها، فنقول:

أولاً: المدح والحمد.

نسب إلى المشهور القول بتساويهما في المعنى فهما مترادفان^(١)، والحق أنّ المدح أعم من الحمد، فإنّ المدح الثناء على الصفات الحسنة. يقال مدحه مدحاً أي أحسن الثناء عليه لصفاته الحسنة^(٢) وفي المجمع: مدحته: أثنت عليه بما فيه من الصفات الجميلة^(٣)، فذكر الصفات الجميلة للأزهار والجواهر مدح وليس بحمد، وجمال الرجل وحسن قوامه مدح له ولا وجه لحمده على هذه الصفة، بينما الحمد لا يكون إلا بالثناء على الصفات الجميلة الاختيارية سواء كانت من الفضائل كالعلم، أو الفواضل كالبر؛ لذا يختص بالحي، فالمدح أعم مطلقاً من الحمد؛ لأنّ كل حمد هو مدح وليس كل مدح حمداً.

وذكر البعض وجهاً آخر للعموم هو أنّ الحمد يستعمل فقط في الثناء بالحق، أمّا المدح فيستعمل في الثناء بالباطل، فالذي ينسب للسلطان المناقب مدحه ولم يحمده، وقد ورد في الحديث: ﴿أُحْثُوا فِي وَجْهِهِ الْمَدَاحِينَ التَّرَابُ﴾^(٤) والجزاء المذكور مترتب على الثناء بالباطل، وقد سباهم بالمدّاحين لا الحامدين، وهو منقوض بمثل قوله تعالى: ﴿وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾^(٥).

(١) انظر الكشف: ج ١، ص ٨؛ معجم الفروق اللغوية: ص ٢٠٣، (٧٧).

(٢) معجم مقاييس اللغة: ج ٥، ص ٣٠٨؛ المعجم الوسيط: ج ٢، ص ٨٥٧، (مدحه).

(٣) مجمع البحرين: ج ٢، ص ٤١١، (مدح)؛ وانظر معجم الفروق اللغوية: ص ٢٠٣، (٧٩٨).

(٤) الفقيه: ج ٤، ص ١١، ح ٤٩٦٨؛ البحار: ج ٧٠، ص ٢٩٤، ح ١.

(٥) سورة آل عمران: الآية ١٨٨.

والمراد به المدح ولكن عبّر عنه بلفظ الحمد، ولم ترد مفردة المدح في القرآن، كما لم يستعمل الحمد بنحو مطلق في القرآن إلا الله عزّ وجلّ، فلفظ الحمد مثل لفظ (الجلال) و (الله) و (الرحمن) مختص به تعالى، فإذا أُطلق على غيره أُريد به المدح، ولذا ورد الحمد في الآية دون المدح.

ثانياً: الثناء والحمد.

وهما متغايران مفهوماً؛ لأنّ الثناء هو المدح المتكرر مأخوذ من قولك ثنيت الخيط أي جعلته طاقين، وثنيته إذا أضفت له خيطاً آخر، وتقدّم في بيان السبع المثاني أنّها سميت بذلك لأنّها تتكرر ^(١)، وبه يقع الحمد إذا تكرر، فالثناء ليس الحمد بل إظهار الحمد فلا يناسب غرض الآية.

ثالثاً: الشكر والحمد.

عُرّف الشكر بعرفان النعمة وإظهارها والثناء على المنعم بها ^(٢).

مراتب الشكر

ويقع بأربع مراتب:

الأولى: شكر العقل ويتم بتصوّر النعمة والعلم بمنعمها، فإنّ العلم يوجب الثناء.

وبهذا علمنا الباري عزّ وجلّ، فقد ورد في الكافي عن الصادق عليه السلام قال:

(١) انظر معجم الفروق اللغوية: ج ١، ص ٥٨٩؛ معجم مقاييس اللغة: ج ١، ص

٣٩٢، (ثني)؛ المعجم الوسيط: ج ١، ص ١٠١ - ١٠٢، (ثنى).

(٢) المعجم الوسيط: ج ١، ص ٤٩٠، (شكر).

﴿فِيمَا أَوْحَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا مُوسَى ! اشْكُرْنِي حَقَّ شُكْرِي، فَقَالَ: يَا رَبِّ وَكَيْفَ أَشْكُرُكَ حَقَّ شُكْرِكَ وَلَيْسَ مِنْ شُكْرٍ أَشْكُرُكَ بِهِ إِلَّا وَأَنْتَ أَنْعَمْتَ بِهِ عَلَيَّ؟ قَالَ يَا مُوسَى ! الْآنَ شُكْرْتَنِي حِينَ عَلِمْتَ أَنَّ ذَلِكَ مِنِّي﴾^(١) وهنا تظهر أهمية العلم والمعرفة في الطاعة والذكر، ولماذا تتفضل عبادة العالم على الجاهل ويعظم أجرها.

الثانية: شكر القلب بالاعتقاد بذلك، ومحبة المنعم على أنعامه، فلا يستعملها في الظلم والفساد.

الثالثة: شكر اللسان، وهو إظهار الثناء على المنعم.

ما معنى شكر العمل؟

الرابعة: شكر العمل بإظهار الثناء على الجوارح باستعمالها مقابل كل نعمة بما يليق بها، فشكر اللسان الذكر الحسن، وشكر العين الغض عن المحارم، وشكر اليد باستعمالها بالحلال، وشكر الأذن بالكف عن استماع المحرمات وهكذا، وهو قول أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿شُكْرُ كُلِّ نِعْمَةٍ الْوَرَعُ عَمَّا حَرَّمَ اللَّهُ﴾^(٢) وقال تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾^(٣) وقال: اعملوا شكراً ولم يقل اشكروا؛ لينبه على أنَّ الشكر يتحقق بمراتبه الأربعة؛ لأنَّ لفظة

(١) الكافي: ج ٢، ص ٩٨، ح ٢٧؛ البحار: ج ٦٨، ص ٣٦، ح ٢٢.

(٢) معاني الأخبار: ج ١، ص ٢٥١، ح ٢؛ الخصال: ج ١، ص ١٤، ح ٥٠؛ البحار:

ج ٦٨، ص ٤٢، ح ٣٩.

(٣) سورة سبأ: الآية ١٣.

الشكر تنصرف أولاً إلى الثناء باللسان، وأما عمل الشكر فيشمل الأربعة؛ لأن كل عمل يبدأ من العلم، ثم الإرادة القلبية، ثم الظهور على الجوارح، وهذا قليل الوجود في العباد؛ لذا قال سبحانه: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾^(١) فإنه سبحانه يصف الشاكرين بعباده وأكثرهم شاكرون، ولكن الشكورين أي الذين يبالغون بالشكر فهم قليلون؛ لأنهم لا يكتفون بشكر اللسان بل شكر القلب والعمل.

ولذا لم يثنِ الباري على أوليائه بالشكر، ويشهد لهم به إلا القليل مثل إبراهيم عليه السلام قال إنه: ﴿شَاكِراً لِنِعْمِهِ﴾^(٢) ونوح عليه السلام إذ قال: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾^(٣).

لماذا لم يصف آل محمد بالشاكرين؟

ولعله لم يصف آل محمد عليه السلام بالشكر لسببين:

الأول: لأنهم المشكورون في الآيتين، فإن كل نعمة وخير يصل إلى أنبياء الله ورسله عن طريقهم؛ لأنهم واسطة الخير الإلهي لهم، بل ومقام النبوة الذي يصله الانبياء يتوقف على الإقرار بفضلهم وولايتهم؛ ولأنهم علموا خير عباده من أنبياء وملائكة الشكر والحمد والتسبيح والتهليل في عوالم

(١) سورة سبأ: الآية ١٣.

(٢) سورة النحل: الآية ١٢١.

(٣) سورة الإسراء: الآية ٣.

النور والأرواح كما ورد في الأخبار^(١)، وللمعلم حق الشكر على المتعلم، ولأنَّ الباري عزَّ وجلَّ شكرهم ومن آثار شكره لهم أنَّه طهرهم من الأرجاس، وجعلهم مستودع علمه وقدرته، ومظهر نوره بين عباده، وقد وصف الباري عزَّ وجلَّ نفسه بأنَّه حلِيم شكور، وأنَّه غفور شكور، والشكر يكون على قدر الاستحقاق، ولا ينطبق شكر الباري عزَّ وجلَّ لأحد من عباده بصيغة المبالغة في أعلى مصاديقه إلا عليهم.

الثاني: لأنَّ عملهم لربِّهم تبارك وتعالى فاق مفهوم الشكر، وأظهروا عجزهم عن أداء حق الشكر؛ لأنَّ الشكر يتوقف على تصوُّر النعمة والعلم بمنعمها والثناء عليه بما يليق أو يقابل النعمة، وآل محمد ﷺ ما قدموا عملاً بغرض شكر النعمة، بل بغرض الحب والإخلاص التام لله تعالى، وحكى عنهم القرآن هذه الحقيقة بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا﴾^(٢).

ومن موارد الشكر أن يدعو الفقير والمسكين لهم، لكنهم حتى هذا ما أرادوه؛ لأنَّهم قدَّموه لوجه الله وليس مقابل نعمة الله، وهذا فرق دقيق يدركه أهل البصيرة والنفوس الكبيرة، وعلمهم برِّهم أعجزهم عن أداء الشكر، فشكرهم فاق كل شكر؛ لذلك لا يمكن أن يوصف بلسان أو يظهر

(١) عيون أخبار الرضا ﷺ: ج ١، ص ٢٦٣، ح ٢٢؛ كمال الدين: ج ١، ص ٢٥٥،

ح ٤؛ البحار: ج ٢٥، ص ٢٤، ح ٤٢.

(٢) سورة الإنسان: الآية ٩.

بيان، وهذا ما بيّنه الإمام زين العابدين عليه السلام في أدعيته، ففي مناجاة الشاكرين يقول عليه السلام: ﴿إلهي أذهلني عن إقامة شكرك تتابع طولك، وأعجزني عن إحصاء ثنائك فيض فضلك، وشغلني عن ذكر محامدك ترادف عوائدك، وأعياني عن نشر عوارفك توالي أياديك، وهذا مقام من اعترف بسبوغ النعماء وقابلها بالتقصير وشهد على نفسه بالإهمال والتضييع... إلهي تصاغر عند تعاضم آلائك شكري، وتضاءل في جنب إكرامك إياي ثنائي ونشري... فالأؤك جمّة ضعف لساني عن إحصائها، ونعمائوك كثيرة قصر فهمي عن إدراكها فضلاً عن استقصائها، فكيف لي بتحصيل الشكر وشكري إياك يفتقر إلى شكر؟ فكلما قلت لك الحمد وجب عليّ لذلك أن أقول لك الحمد﴾^(١).

وقريب منه ورد عن الإمام الصادق عليه السلام^(٢).

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿من شكر الله تعالى وجب عليه شكر ثانٍ؛ إذ وفقه لشكره وهو شكر الشكر﴾^(٣).

بين الشكر والحمد

وبذلك يتضح أنّ الشكر والحمد يشتركان من جهة ويفترقان من جهة. أمّا جهة الاشتراك فكلاهما يكونان على الفضائل والفواضل الاختيارية، فالشكر لا يكون إلّا مقابل النعمة الواصلة بالاختيار؛ لذا لا تشكر الشمس

(١) الصحيفة السجادية: ص ٨٧؛ البحار: ج ٩١، ص ١٤٦.

(٢) انظر مصباح الشريعة: ج ١، ص ٢٤.

(٣) غرر الحكم: ص ٦٦٢، ح ١٤٦٣؛ عيون الحكم والمواعظ: ص ٤٦٦، الهامش ٢.

على دفئها ونورها، ولا يشكر الماء على رفع العطش؛ لأنها نِعَمٌ واصله لا عن اختيار، والحمد كذلك كما فصلناه.

أما جهة الافتراق فإنَّ الشكر أخص من الحمد مفهوماً؛ لأنَّه يكون مقابل النعمة الواصلة، فلولا وصولها لا معنى للشكر، بخلاف الحمد فإنَّه مقابل الفضائل والفواصل الواصلة إلى الحامد أو إلى غيره، أو باعتبار كمال الذات وجلالها.

فإنَّ الكامل يستحق الثناء وإن لم تصل منه نعمة إلى الغير؛ لذا يصحَّ الحمد ابتداءً ولا يصحَّ الشكر إلَّا متأخراً عن النعمة؛ وقد ورد في الدعاء: ﴿اللهم إنِّي افتتح الثناء بحمديك﴾^(١) لا بشكرك وهو أعمُّ منه فعلاً؛ لأنَّ الحمد يختص بالثناء القولي كما بيَّناه، بينما الشكر يقع بالقول وبالعمل بمراتبه المتقدمة.

هذا كله من حيث التمييز بين المفردتين، ولكن في مقام العمل فإنَّ الحمد يشمل الشكر في قصود المتكلمين، وفي أكثر الاستعمالات الشرعية إذا استعمل الحمد يراد به ما يشتمل على الشكر، ويؤيده رواية صفوان الجمال عن الصادق عليه السلام: قال: قال لي: ﴿ما أنعم الله على عبد بنعمة صغرت أو كبرت فقال: الحمد لله إلَّا أدَّى شكرها﴾^(٢).

وحيث إنَّ الآية المباركة في مقام تعليم العباد مخاطبة الباري والإقرار له

(١) إقبال الأعمال: ج ١، ص ١٣٨؛ المصباح (للكفعمي): ص ٥٧٨؛ البحار: ج ٢٤، ص ١٦٦، ح ١٤.

(٢) الكافي: ج ٢، ص ٩٦، ح ١٤؛ البحار: ج ٦٨، ص ٣٢، ح ٩؛ الوافي: ج ٤، ص ٣٥٠.

بالربوبية والإقرار على أنفسهم بالعبودية تعيّن ذكر الحمد دون الشكر؛ لأنّ الشكر يختص بالنعم الواصلة للعبد. أمّا الحمد فيشمل جميع النعم الواصلة لجميع الخلق.

ووجدان كل عبد يشهد بأنّه موجود وأنّه حيّ مدرك قادر على النطق والفعل، ووصلته حجج الله سبحانه، وأوقفته للعبادة، فإنّ نعمه التكوينية والتشريعية وصلته وبلغته، وهذه كلها تستحق الحمد كما تستحق الشكر، فإنّ من حق العبد المستغرق في نعم الله أن يقصد أداء حقها، فالشكر مندرج في قصده ولكن الحمد أجمع من الشكر؛ لأنّه كاشف عن كمال الذات الإلهية وكمال صفاته وفعله، فالحمد أنسب من الشكر؛ لأنّ مدلوله يشمل الشكر، بخلاف الشكر فإنّ مدلوله يقصر عن الحمد؛ ولذا قال الإمام الصادق عليه السلام: ﴿شكر النعمة اجتناب المحارم، وتمام الشكر قول الرجل: الحمد لله رب العالمين﴾^(١).

ومنه يتضح سرّ نسبة الحمد إلى اسمه العالي (الله) دون المنعم، مع أنّ الحمد والشكر يكونان للمنعم، فإنّ الحمد يكون على الفضائل والفواضل ولا يقتصر على وجود المنعم، فالأنسب بالحمد لفظ الجلالة في معية سائر الأسماء والصفات.

اللطيفة الرابعة: كل شيء يسبح بحمده

نسبت الآية المباركة الحمد لله تبارك وتعالى باعتبار ربوبيته للعالمين، ولازم ذلك أن تكون جميع الموجودات في أي عالم كانت هي حاملة لله

(١) الكافي: ج ٢، ص ٩٥، ح ١٠؛ البحار: ج ٦٨، ص ٤٠، ح ٢٨؛ الوافي: ج ٤، ص ٣٤٨.

سبحانه ومسبحة له، وهو ما نصّ عليه قوله تعالى: ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾^(١) و (الشيء) أوسع مفردة في اللغة في دلالتها لا يستثنى منها مخلوق وموجود حتى الباري عز وجل هو (شيء) ولكن لا كالأشياء، وليس كمثله شيء^(٢).

والآية صريحة بأن كل ما سوى الله عز وجل متوجه إليه خاضع له مقرّ بربوبيته والعبودية له فيسبح بحمده، وفي ذلك دلالة على أن كل الموجودات حية عاقلة عالمة وقادرة ومختارة وناطقّة على اختلاف في مستويات الحياة والعقل والعلم والقدرة والنطق، وعدم فقه البشر وفهمه لكيفية نطقها وتسبيحها وتحميدها لا ينفي وجودها، ولكن في الآخرة سيظهر نطق جميع المخلوقات، ويكون نطقها مفهوماً لأهل المحشر، ولما تشهد جلود أهل النار عليهم يعترض عليها أهلها، ويذمون شهادتها، فتقول: ﴿أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾^(٣) وبذلك تظهر حقائق عديدة:

تسبيح المخلوقات

الأولى: أن كل الموجودات تعبد الله عز وجل وهي تعرف كيف تعبد وتسبح وتحمّد، ولعل كل صنف منها يدرك كيفية تسبيح وتحميد الصنف الآخر إلا البشر فإنه لا يفقه كيف تسبح المخلوقات الأخرى، فهو وإن كان

(١) سورة الإسراء: الآية ٤٤.

(٢) إشارة إلى سورة الشورى: الآية ١١.

(٣) سورة فصلت: الآية ٢١.

أعظم المسبحين الحامدين لكنّه قاصر من جهة إحاطته بالأشياء الأخرى، والملفت أن الآية قالت ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾ ولم تقل لا تعلمون؛ لأننا نعلم بتسبيح الأشياء وتحميدها، وهو ما قامت عليه الأدلة النقلية والبراهين العقلية لكننا لا نفقه ذلك، والفقه فهم الكلام بتصور معانيه وهو أخصّ من العلم.

ومنه قوله تعالى: ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾^(١) ولهذا لا يصح إطلاق الفقه على الباري عزّ وجلّ؛ لأنّه لا يوصف بالتأمّل والتصور، ولا يتحدد علمه بحد أو جهة، وسمّي العلم بالأحكام الشرعية فقهاً والعالم بها فقيهاً؛ لأنّه مبنيّ على معرفة كلام الله سبحانه وكلام رسوله وأوصيائه عليهم السلام^(٢).

والآية المباركة حيث نفت فقه تسبيح المخلوقات وتحميدها دلت على أن تكلمها وتسبيحها يقع بالكلام الذي لا يفقهه البشر.

وقد ورد في الاخبار أن أصوات العصافير تسبيحها^(٣)، والنحل يسبح الله تبارك وتعالى^(٤)، وشهدت الحصى في يد رسول الله صلى الله عليه وآله بنوته وسبّحت، وورد النهي عن ضرب البهائم وتوسيمها على وجوهها؛ لأنّها تسبّح بحمد ربّها^(٥)، وأنّ الحيوان الذي يقع في شرك الصيادين أو يقع فريسة فبسبب

(١) سورة الكهف: الآية ٩٣.

(٢) معجم الفروق اللغوية: ص ٤١٢، (١٦٥٠)

(٣) انظر بحار الأنوار: ج ٦١، ص ٢٧ - ٢٨، ح ٨، وفيه ﴿وإذا صاح العصفور يقول: أستغفر الله مما يسخط الله﴾.

(٤) البحار: ج ٩٢، ص ٣٧٢، ح ٢٣.

(٥) تفسير العياشي: ج ٢، ص ٢٩٤، ح ٨٢.

ترك التسبيح ذاك اليوم^(١)، وورد ذلك حتى في الأشجار التي تقطع^(٢).

معنى التسبيح

الثانية: أنّ حمل جمع من المفسرين وعلماء الكلام تسبيح المخلوقات على المجاز بدعوى تسبيح الحال ونحوه مخالف للأصل القاضي بحمل اللفظ على معناه الحقيقي، ولا يحمل على المجاز إلّا إذا امتنع الحمل على الحقيقة، أو قامت قرينة على المجاز، وكلاهما منتفیان في الآية؛ لأنّ التسبيح هو التنزيه^(٣)، وفي بعض كتب اللغة كلمة تنزيه^(٤)، وهو قسمان لفظي ويقع باللسان وهو المقصود في الآية بقرينة قوله: ﴿لَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾^(٥) وقوله: ﴿سَبِّحِ اللَّهَ﴾ أي قال سبحان الله، وعقلي وهو إدراك العقل تقدسه وتجرده سبحانه في ذاته وصفاته وأفعاله من كل نقص أو عيب.

ولا يقال إنّ التسبيح لا يقع إلّا عن قصد وإرادة، وأغلب الموجودات فاقدة لذلك، وهي قرينة على حمل التسبيح على الحال؛ لما عرفت من بطلان هذه الدعوى في نفسها؛ لأنّ كل شيء حيّ عالم وفاعل بقصد وإرادة تناسب مرتبته الوجودية.

ويشهد له قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي

(١) تفسير العياشي: ج ٢، ص ٢٩٤، ح ٨٣؛ البحار: ج ٦١، ص ٢٤، ح ١.

(٢) انظر تفسير العياشي: ج ٢، ص ٢٩٤، ح ٨٤.

(٣) معجم مقاييس اللغة: ج ٣، ص ١٢٥.

(٤) المعجم الوسيط: ج ١، ص ٤١٢، (سبحان).

(٥) سورة الإسراء: الآية ٤٤.

الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ﴿١﴾ وخصص الناس بالكثير؛ لوجود معاندين جاحدين فسجودهم لشياطينهم، وسجودها بصيغة المضارع دليل على قصدتها واختيارها، لكن البشر لا يفقهونها كما لا يفقهون تسبيحها.

المخلوق دليل الخالق

الثالثة: أن كل شيء في الوجود دال على وحدانية الخالق في الخلق والعبودية؛ إذ نصت الآيات على أنه آية الله عزَّ وجلَّ في الخلق والتكوين، وهو في عين الحال حامد ومسبح، فهو من حيث وجوده وما يتصف به من جمل وأثار وخصائص دال على جمال الله وجلاله؛ لأنَّ المخلوق دليل الخالق، وكماله دليل كمال الخالق، وهو بهذا الاعتبار يعبر عنه بالآية، ومن حيث كاشفيته عن فضائل الباري عزَّ وجلَّ وفواضله فهو حامد له، ومن حيث ذكر ذلك والثناء عليه وإبرازه بحسب مرتبته الوجودية فهو مسبح، وكلما ارتفعت المرتبة الوجودية للمخلوق وتجلت فيه آيات الجمال والجلال كانت دلالته على الخالق أعظم، ولذا وصف الإنسان بأنَّه من آيات الله، وكلَّما ازداد علماً وفقهاً وورعاً عظمت آيته وكبرت، ولذا ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿ليس في كتاب الله آية أعظم مني﴾^(٢).

(١) سورة الحج: الآية ١٨.

(٢) تفسير الفرات: ص ٥٣٣ - ٥٣٤؛ البحار: ح ٣٦، ٣ - ٤، ح ٨، وفيها ﴿أنا والله النبا العظيم الذي اختلف في جميع الأمم بألسنتها، والله ما لله نبا أعظم مني ولا لله آية مني﴾.

الإلحاد خروج عن الفطرة

الرابعة: أنَّ الجاحد والملحد والعاصي بتركهم التسبيح والتحميد يخالفون طبائع الاشياء وحقائقها بما فيها نفوسهم وعقولهم، فإنَّ كلَّ عضو من أعضائهم يسبِّح الله ويحمده لأنَّه شيء، إلَّا أنَّ ذاته تأبى ذلك وتتمرد، فما يقوله الملحد والعاصي والجاحد يحمل معه دلائل بطلانه، ولذا يعد بعض علماء النفس مثلها من الأمراض؛ لأنَّ الإنسان متى ما استقام وتوازنت ملكاته أفرَّ بالخالق وسبَّحه ووحدّه وتوازن مع النهج العام الحاكم على الأشياء.

اللطيفة الخامسة: الحمد والتسبيح بالحمد

ورد في الآيات نسبة التسبيح للحمد بواسطة الباء، وأنَّ ذلك لا يختصَّ ببعض المخلوقات، بل جميعها من الملكوتيات والملكيات، كما في مثل قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾^(١) فالتسبيح بالحمد، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾^(٢) فعموم الملائكة تسبِّح بحمد ربهم وحملة العرش ومن حوله، وهم أصحاب المقامات الخاصة، فهم يسبِّحون بحمد ربهم، والرعْد يسبِّح ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ﴾^(٣) وكل شيء يسبح بحمده ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾^(٤) وحتى رسول الله ﷺ وهو أشرف من خلق أمره البارئ عزَّ

(١) سورة الزمر: الآية ٧٥.

(٢) سورة غافر: الآية ٧.

(٣) سورة الرعد: الآية ١٣.

(٤) سورة الإسراء: الآية ٤٤.

وجَلَّ أَنْ يَسْبَحَ بِحَمْدِ رَبِّهِ ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾^(١) وفي مقابل ذلك ورد الحمد وحده في آيات تتعلق ببعض أنبيائه وكذلك أهل الجنة، فمثلاً في خطابه لنوح عليه السلام أمره بالحمد لا التسبيح فقال سبحانه: ﴿فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾^(٢) وحكاية عن إبراهيم عليه السلام قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾^(٣) وداود وسليمان عليهما السلام ﴿قَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾^(٤) وأهل الجنة بعد أن يدخلوها بسلام آمنين فَإِنْ ﴿آخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٥).

فما الفرق بين التسبيح والحمد؟ ولماذا في موارد يكون التسبيح بالحمد وفي أخرى لا؟

والجواب أن التسبيح هو التنزيه، فتسبيحه تبارك وتعالى تنزيهه عن كل ما لا ينبغي له في ذاته وصفاته وأفعاله^(٦)، والحمد والثناء الصادق على الجميل الاختياري على الفضائل والفواضل كما قدّمنا.

والباء في قوله: ﴿يَسْبَحُ بِحَمْدِهِ﴾ لها معان عديدة، وما يناسب المقام هو إمّا المصاحبة أي التسبيح المصاحب بالحمد، ومعناه نزّهه عمّا لا يليق به واحمده على ذلك، وأثبت له ما يليق به، والحمد مصدر بمعنى اسم المفعول،

(١) سورة النصر: الآية ٣.

(٢) سورة المؤمنون: الآية ٢٨.

(٣) سورة إبراهيم: الآية ٣٩.

(٤) سورة النمل: الآية ١٥.

(٥) سورة يونس: الآية ١٠.

(٦) انظر لسان العرب: ج ٢، ص ٤٧١، (سبح).

والمعنى سبّحه بمحموده، أي جدّد صفات كماله وجماله من النواقص وكل ما لا يليق، أو الاستعانة أي استعن بحمده على تسبيحه؛ لأنّ الحمد يكون على نعمه، ومن نعمه على العبد إعطاؤه القدرة على التسبيح وتجويزه ذلك وكل نعمة منه تستحق الحمد، فبالحمد يسبّح العبد، وربما تكون بمعنى الابتداء أي أبتدئ التسبيح بحمده أو بحمدك سبّحت^(١).

والحمد من حيث الوجود والفعل مقدم على التسبيح؛ لأنّ التسبيح تنزيه لجمال الذات وصفاتها وأفعالها، فهو متأخر عنها، لكنه في أعمال العباد قد يسبق التسبيح الحمد؛ للدلالة على أنّ فضائله وفواضله منزّهة من كل نقص وقيح.

موردان للتسبيح بالحمد

فالتسبيح بالحمد يختصّ بالعباد ويكون في موردين:

الأول: وجود توهم النقص المكاني أو الفعلي فيما ينسب إليه تعالى فيضاف إليه التسبيح؛ لبيان تنزهه كما في قوله: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾^(٢) لإمكان توهم أنّه في مكان؛ لأنّ عرشه له مكان وله محيط تحفّ به الملائكة فلا بد من التسبيح؛ لبيان أنّ العرش ينسب إليه وليس هو موضعه، وكذلك قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ﴾^(٣) لأنّه في موقع النصر على الأعداء، فربما يتوهم بأنّه محتاج إلى

(١) لسان العرب: ج ٣، ص ١٥٦ (حمد).

(٢) سورة الزمر: الآية ٧٤.

(٣) سورة النصر: الآية ٣.

النصر أو إلى الناصر وهكذا سائر الآيات التي تعلق التسبيح فيها بالحمد يستفاد منها أنها في موضع توهم النقص.

الثاني: موقف العبادة للإشارة إلى قصور العابد عن أداء حقه تبارك وتعالى وتنزيه الباري عن حاجته إلى عبادة عبده أو ذكره، ومنه قوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾^(١) وأما الحمد فيكون في موردين أيضاً:

الأول: في موارد شكر النعمة.

الثاني: في موارد ارتضاء الباري حمد العبد وقبوله به لطفاً وتفضلاً، وهو ما أشارت إليه الآيات الواردة بشأن أوليائه؛ إذ وردت بلسان الحمد دون التسبيح، فقوله تعالى في نوح عليه السلام: ﴿فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا﴾^(٢) في موضع شكر نعمته، والأمر بالحمد يفيد قبوله منه، وكذلك ما ورد في إبراهيم وداود وسليمان وأهل الجنة عليه السلام.

ومعلوم أن القاعدة العقلية والأدلة النقلية متضافرة على قصور العباد عن أداء حقه سبحانه؛ لأن كل ما يذكره العباد من أوصاف ومن محامد لا يبلغ مدحته القائلون؛ لذا قال سيد المرسلين ﷺ: ﴿لَا أَحْصِي ثَنَاءَ عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ﴾^(٣) وهذا هو فصل الخطاب في بلوغ حق الحمد

(١) سورة الأنبياء: الآية ٨٧.

(٢) سورة المؤمنون: الآية ٢٨.

(٣) عوالي اللآلئ: ج ٤، ص ١١٤، ح ١٧٦؛ المحجة البيضاء: ج ٢، ص ٢٦٠؛ البرهان: ج ٤، ص ١١٣.

أن يوكل الأمر إلى ربّه عزّ وجلّ؛ لأنّ كل وصف يقوله العبد يتنزه الباري منه؛ لتوقفه على حدود وهو منزّه من الحدود.
وهي عديدة:

التنزه من الحدود

الأول: حد العلم والإحاطة، فإنّ الحمد بما يستحق يتوقف على الإحاطة به وبنعمه وهو محال؛ لاستحالة إحاطة المحدود باللامحدود. قال تعالى:
﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾^(١).

الثاني: حد الفهم والتصوّر، فإنّ كل قول أو فعل يقوم به العبد يتوقف على تصوّره وهو محدود بالذهن وبالفهم، فالحمد الذي يتصوره العبد محدود بحدود فهمه وذهنه.

الثالث: حد اللفظ والبيان، فإنّ الألفاظ البشرية قوالب للمعاني المتصورة لا يمكن أن ينفك عنها البشر، فإذا أُريد التعبير عن الحقائق اللا محدودة بالكلمات والألفاظ ضاقت معانيها بها وصارت محدودة، فالعباد لا يقومون بأداء حق الباري عزّ وجلّ في حمده وشكره وسائر فضائله وفواضله، نعم قد يتفاوتون بحسب سعة علمهم بالله وبصيرة قلوبهم ومعرفتهم به، فإنّ حمد الأنبياء وشكرهم يفوق حمد سائر الناس وشكرهم، وحمد رسول الله وآله الأطهار عليهم السلام يفوق حمد سائر الأنبياء والرسل، بل إنّ حمد الانبياء و الملائكة فضلاً عن سائر المسبّحين بالقياس إلى تسبيحهم

(١) سورة طه: الآية ١١٠.

وحمدهم كالعدم؛ لأنّ الحمد والتسبيح يكتسب مقامه من مقام المسبّح والحمد وسعة إحاطته، وهم عليه السلام فاقوا الجميع بذلك، بل هم الذين سنّوا للخلق شريعة التسبيح، وهذا أحد أسرار إمامتهم لكل ما سوى الله، وقد ورد عن الصادق عليه السلام في معنى قوله تعالى: ﴿وَأِنَّا لَتَحْنُ الصَّافُونَ * وَإِنَّا لَتَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾^(١) «كنا أنواراً صفوفاً حول العرش نسبح فسبح أهل السماء بتسبيحنا إلى أن هبطنا إلى الأرض فسبحنا فسبح أهل الأرض بتسبيحنا» ثم تلا الآية المباركة^(٢).

لكنه في عين الحال لا يبلغ ما يستحقه الباري عزّ وجلّ كما أشرنا إليه غير مرة، وتضافر في الأدعية والمناجاة، لذلك لا بدّ من التنزيه والتسبيح لدى الحمد والشكر لكن الباري عزّ وجلّ لطفاً منه ورحمة قبل من عباده حمدهم وتسبيحهم، فقال عزّ وجلّ: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٣).

اللطيفة السادسة: الابتداء والاستعانة بالله تعالى

تكرر لفظ الجلالة (الله) في الآيتين الأوليين من سورة الحمد، فالابتداء والاستعانة باسم الله والحمد لله أيضاً، وإذا تكرر الاسم في آيتين لا يعقل أن يراد به معنى واحد؛ لمنافاته لحكمة الحكيم وبلاغة القرآن، فيجب أن يكون له في كل مرة معنى يغاير المعنى الآخر.

(١) سورة الصافات: الآيتان ١٦٥ و ١٦٦.

(٢) تفسير القمي: ج ٢، ص ٢٢٧؛ البحار: ج ٢٤، ص ٨٧، ح ٢؛ البرهان: ج ٤، ص ٦٣٤.

(٣) سورة الصافات: الآيات ١٨٠ - ١٨١ - ١٨٢.

والنكته الفارقة أنَّ البسملة تتم بالباء، والحمد يتم باللام، ومعنى ذلك أنَّ الابتداء والاستعانة في البسملة يكون باسم الله تعالى، فالاسم واسطة الارتباط بين الخالق والمخلوق، بينما الحمد يكون لله وليس لاسمه؛ لأنَّ من يستحق الحمد هو تبارك وتعالى لا اسمه؛ لأنَّ اسمه منه أيضاً وقائم به، ومجمع صفات الجمال والجلال هو تبارك وتعالى لا اسمه، ولذا لا يليق الحمد إلَّا له عزَّ وجلَّ، ولا يصحَّ إطلاق الحمد على غيره حتَّى على اسمه وعلى ما يتجلى فيه اسمه، وهم محمد وآل محمد ﷺ؛ إذ لا يصحَّ القول الحمد للنبي أو الإمام؛ لأنَّه من مختصات ذاته تبارك وتعالى، وإذا ورد في النصوص الحمد لغير الله فيراد به الشكر والثناء، فهو من إطلاق لفظ العام وإرادة الخاص، وبذلك تثبت حقيقتان:

الفعل الإلهي توسيطي

الأولى: أنَّ الفعل الإلهي يقع بالتوسيط لا بالمباشرة، ونسب الاسم إلى الله دون غيره من أسائه؛ لأنَّ فعله شامل، ويصدر عن كل صفات الجمال والجلال، أي كاملاً في العطاء، خالياً من النواقص.

علاقة الصعود والنزول

الثانية: أنَّ الحمد والشكر والعبودية تكون لله وليس للوسائط، وبهذا يكتمل التوحيد العملي والتوحيد العبادي، ومن مجموع الآيتين يتضح أنَّ العلاقة بين الخالق والمخلوق دورية تقوم على قوسين أحدهما نزولي والآخر صعودي، فالخير أولاً ينزل من الخالق باسمه، فيه تتم الاستعانة والاستمداد والإفاضة، ولذا جاءت بعده صفتا الرحمة ﴿الرحمن الرحيم﴾،

ثم الحمد يصعد من العبد إليه بالشكر والثناء والإقرار بالعبودية بقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وفي ذلك إرشاد إلى أن الدعاء والتقرب إلى الله لا يحتاج إلى واسطة؛ لأن الله سبحانه فتح بابه لجميع عباده يتصلون به مباشرة، بينما فيضه وخيره يصل إليهم بالوسائط والأسباب.

إن قال قائل: لكن الأدلة تفيد اتخاذ الوسطة له في الدعاء والاستغفار والتوبة كما في قضية أولاد يعقوب عليهم السلام حينما جاؤوا إلى يعقوب وطلبوا منه أن يستغفر لهم ^(١)، وقوله تعالى: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ ^(٢) والنصوص المتواترة التي تدل على لزوم اتخاذ آل محمد وسيلة إلى الله في الدعاء والتقرب ^(٣).

وسيلة آل محمد عليهم السلام

والجواب: ذلك كله تام في نفسه ولكن العبد يتخذهم الوسطة بأحد ثلاثة دواع.

الأول: الشفاعة، أي أن العبد يسأل الله سبحانه ويتخذ أولياء الله شفعاء إليه ليقبل منه ويستجيب دعاءه.

الثاني: أن يطلب من أولياء الله تعالى أن يدعوا له ليضمن الاستجابة؛ لأن الله لا يرد لأوليائه دعوة، ولذا ورد استحباب تقديم الصلاة على محمد وآل محمد عليهم السلام قبل دعائه لسببين:

(١) التبيان: ج ٦، ص ١٩٥؛ موسوعة تفاسير المعتزلة: ج ٣، ص ٣٣٠، الرقم ٤٠.

(٢) سورة المائدة: الآية ٣٥.

(٣) انظر المناقب: ج ٣، ص ٧٥؛ مكيال المكارم: ج ١، ص ٣٢٦.

أحدهما: أَنَّ الصلاة عليهم تدخل السرور على قلوبهم فيجازونه بالمثل؛ لأنَّ جزاء الإحسان الإحسان، فيدخلون السرور على قلبه.

ثانيهما: لأنَّ الصلاة عليهم دعاء لهم، وإذا استجاب الله الصلاة لهم يستجيب للعبد مطلوبه؛ لأنَّ الكريم المَنَّان لا ينصّف في الإجابة فيقبل البعض دون البعض.

الثالث: أَنَّهُ يسأل منهم أن يقضوا حاجته باعتبارهم خلفاء الله والممثلين لإرادته، وقد منحهم الله سلطة العطاء والمنع، فلا يسألهم العبد بما هم مجردون عن الله ويفعلون ويعطون ويمنعون بإرادتهم المستقلة عنه تبارك وتعالى، فإنَّ ذلك باطل عقلاً وحرام شرعاً، وهو من مصاديق الشرك، وإنّما يسألهم ويطلب منهم بما أنهم يمثلون إرادة الله ومشيئته، وهذا نظام عام تجري عليه سائر الأمور التديرية في الحياة العامة، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(١) فلا عطاء ولا منع ولا إرادة ولا قدرة إلّا من الله سبحانه، ولكن الله سبحانه اتخذ من عباده خلفاء تتجلى فيهم إرادته وقدرته، ومنح لهم سلطة العطاء والمنع، فإذا توسّل بهم المؤمن يكون قد توسّل بالله بواسطتهم، وإذا أعطوه ما يريد لأنَّ إرادة الله تبارك وتعالى أرادت ذلك، فالعبودية والتقرب كله الله عزّ وجلّ كما أنّ العطاء كله من الله ولكن عبر الوسائط والأَسباب.

اللطيفة السابعة: مراتب الحقائق المعنوية

الحقائق المعنوية لها ثلاث مراتب هي المفهوم والمنطوق والمصداق، وأهل المعقول يدرجون ذلك في مراتب الوجود فيقولون رتبة الوجود الذهني واللفظي والخارجي.

فحينما يقول العبد: ﴿الحمد لله﴾ فَإِنَّ للحمد مفهوماً هو جامعته للفضائل والفواضل كما بيّناه في تعريفه، وله منطوقاً هو ذكره باللسان، ولكن ليس كل ما يقوله الإنسان ويفهمه يدركه ويعرف حقيقته ما لم يتشخّص في الخارج، فَإِنَّ رؤية مصداق المعنى ومشاهدته تكشف حقيقته، وهذه قضية عامة في الأسماء والصفات الإلهية بها يتجلّى بعض السر في جعل الباري عزّ وجلّ أوليائه مظاهر لأسمائه وصفاته.

فإن الإنسان قد يجد لعلم الله وقدرته وإرادته وحكمته ورحمته مفهوماً بالرجوع إلى كتب اللغة والكلام ونحوها، وقد ينطق ويذكر الله سبحانه بها ولكن لا يدركها ولا يعرفها إلا إذا تجسدت في الخارج في أشخاص يمثلونها ويطبقونها.

رسول الله ﷺ وذكر الله

ومن هنا وصف الباري عزّ وجلّ رسوله بالذكر مع أنّ الفاظ الذكر كالتسبيح والتهليل والحمد يقولها الجميع، لكن ذكر الله الحقيقي هو وجود رسول الله ﷺ، فَإِنَّ كل من يراه يذكر الله، ومن يرى رحمته يعرف رحمة الله، ومن يرى علمه وقدرته يعرف علم الله وقدرته بما يستوعبه منهما، وكذا وصفه بالقرآن الناطق.

وهكذا الحمد فإنه في رتبة المفهوم ليس هو الحمد الحقيقي، ولا في رتبة المنطوق، بل الحمد الحقيقي هو وجود رسول الله ﷺ! لأنه مجمع الفضائل والفواضل، وقد جعله الباري عزَّ وجلَّ مظهر جماله وجلاله، وهكذا عترته ﷺ، فهم مصداق الحمد الكامل الذي يراه الناس ويتعلمون منه، وفي الأخبار الشريفة وصف بأنه العقل الكامل الذي تتجسد فيه كل الكمالات وتوزعت^(١).

الحمد الكامل رسول الله ﷺ

فقد ورد في معاني الأخبار عن أمير المؤمنين ع^{عليه السلام} أنه قال: ﴿قال رسول الله ﷺ إنَّ الله تعالى خلق العقل من نور مخزون مكنون في سابق علمه... فجعل العلم نفسه، والفهم روحه، والزهد رأسه، والحياء عينيه، والحكمة لسانه، والرافة هممه، والرحمة قلبه... ثم قال له تكلم فقال: الحمد لله الذي ليس له ضد ولا ند ولا شبه ولا كفؤ ولا عدیل ولا مثل ولا مثال. الذي كل شيء لعظمته خاضع ذليل﴾، فقال الرب تبارك وتعالى: ﴿وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً أحسن منك، ولا أطوع لي منك، ولا أرفع منك ولا أشرف منك ولا أعزَّ منك﴾^(٢). وقريب منه ورد بطرق العامة^(٣)، وللحديث دلائل كثيرة مهمة، وما يتعلق بموضوع البحث منه أمور:

(١) معاني الأخبار: ص ٣١٣، ح ١؛ الخصال: ج ٢، ص ٤٢٧، ح ٤؛ الأمالي (للطوسي): ص ٥٤٢، ح ١١٦٤.

(٢) تفسير الرازي: ج ١، ص ٢٨٤.

(٣) انظر المحاسن: ص ١٤٧، ح ٨؛ البحار: ج ١، ص ٩٧، ح ٦.

إنه العقل الكامل

الأول: أنّ العقل موجود إلهي ربّاني نوراني اجتمعت فيه كل الفضائل والكمالات، وأنّه مجسّم له نفس وروح ورأس وعينان ولسان وقلب مطابق لجسم الإنسان، فلا بدّ وأن يراد به أكمل إنسان وأعقله وهو رسول الله ﷺ كما ستعرف. وصف بالعقل من باب الاتحاد الكامل بينهما كما في قولهم: (علي عدل) يعني عدل كله، (والحسن كرم) أي هو والكرم متحدان.

الحمد أول النطق

الثاني: أنّ أوّل ما نطق به العقل هو الحمد لله عزّ وجلّ، وهو من التسانخ بين الفعل والفاعل، فإنّ مجمع الفضائل والكمالات لا ينطق إلّا بما هو مجمع الفضائل والكمالات وهو الحمد.

تفرده سبحانه بالكمالات

الثالث: أنّ سرّ استحقاق الباري للحمد هو وحدانيته وتفرده بالفضائل والكمالات، فلذا نفى عنه كل مثل في الذات أو في الفعل، وليس كمثله شيء بل كل شيء ذال لعزته وقدرته، وهناك فوارق بين الضد والند والشبيه والكفو والعديل والمثل ذكرها أهل اللغة.

وأنّ جلالة العقل وكماله اكتسب من كونه حامداً لله عزّ وجلّ نعمه.

كمالات النبي ﷺ

ويستفاد من جملة من الأخبار أنّ أول ما خلق نور النبي ﷺ، ومقتضى الجمع الدلالي بينها وبين هذه الرواية هو حمل العقل على رسول الله ﷺ؛

لأنه أكمل الخلق وأشرفه وأعلاه، وكل صفاته ومقاماته هي مقاماته ﷺ، وتجسيم العقل بأعضاء الإنسان بالنفس والروح والرأس والعينين واللسان والهمة والقلب تؤكد هذه الحقيقة، والأوصاف التي نسبتها إلى كل عضو تطابق صفات أعضاء رسول الله ﷺ في الكمال والجلال، فهو ﷺ علم كله وهو نفسه، ففي الخبر سئل أمير المؤمنين ع^{عليه السلام} عن علم النبي ﷺ فقال ع^{عليه السلام}: ﴿علم النبي ﷺ علم جميع النبيين، وعلم ما كان وعلم ما هو كائن إلى قيام الساعة﴾^(١) ولبه الفهم أي روحه، ورأسه الزهد؛ لأنه أساس العبودية والنبوة، فلا يتوجه إلى الدنيا بأي حال، وعينه لا تتطلعان إلى قبيح أو حرام، ومحرم عليه حتى مثل الإشارة بالعين التي يعبر عنها بخائنة الأعين، ومنطقه الحكمة، وهمته الرأفة بعباد الله، وقلبه رحمة مطلقة كما يشهد الباري له بأنه ﴿رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٢).

حقيقة زهد النبي ﷺ

وقوله: ﴿ورأسه الزهد﴾ لأنه أساس العبودية والنبوة، وهو عهد معهود بين الله وبين أوليائه أن يزهدوا في الدنيا ولا يبالوا بنعيمها، وهذا هو محل اختبار العباد فكان ﷺ أزهد الناس بالدنيا.

إن أنبياء الله كلهم زاهدون وأزهدهم بها رسول الله ﷺ، وكان زهده بها لا عن قلة بل عن وفرة، فإن الإنسان قد يزهد بالدنيا لأنه لا يملك فيها

(١) بصائر الدرجات: ص ١٤٧؛ البحار: ج ١٧، ص ١٤٤، ح ٣١.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ١٠٧.

شيئاً وهذا ليس بشيء، ولا يدل على زهد صاحبه؛ لأنّه لا يملك ما يزهد فيه، ولكن إذا كانت الدنيا كلها بيده ويملك فيها كل نعمة ونعيم ولا يبالي بها هنا يتجلّى الزهد، وهكذا كان رسول الله ﷺ، فإن العالم كله بسماواته وأرضه تحت يده، ويأتمر بأمره، وكوّن دولة عريضة وصل الثراء فيها مبلغاً عظيماً حتى أنّ بعض المنسوبين من الصحابة لم يستطع ورثته من تقسيم أمواله حتى كسروها بالفؤوس^(١)؛ لأنّها كانت مسكوكات ومجوهرات عظيمة، ورغم ذلك كان يبات جائعاً طويلاً.

فقد ورد أنه ﷺ أصابه الجوع فوضع صخرة على بطنه ثم قال: ﴿أَلَا رُبَّ مَكْرَمٍ لِنَفْسِهِ وَهُوَ لَهَا مَهِينٌ، أَلَا رُبَّ نَفْسٍ كَاسِيَةٍ نَاعِمَةٍ فِي الدُّنْيَا جَائِعَةٌ عَارِيَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾^(٢).

وروت إحدى نسائه أنّه كانت تأتي علينا أربعون ليلة وما يوقد في بيت رسول الله ﷺ نار ولا مصباح. قيل لها: فبم كنتم تعيشون؟ فقالت: بالأسودين التمر والماء^(٣).

وتسمية الماء بالأسود من باب التغليب، فالتمر هو الأسود لا سيما تمر المدينة، فإنّه موصوف بالسواد، والماء ألحق به اتباعاً كما يقال جاء القمران. وفي ذلك تعليم لأهل البصيرة في أنّ بلوغ المقامات لا يكون إلا بالزهد،

(١) أسد الغابة: ج ٣، ص ٣١٧.

(٢) البحار: ج ٦٧، ص ٣٢١، ح ٣٨؛ وانظر عدة الداعي: ص ١٠٩؛ سفينة البحار: ج ٣، ص ٥٣٨، ح ٤٧٨٢.

(٣) سفينة البحار: ج ٣، ص ٥٤١، ح ٧٤٩١.

ولا يراد بالزهد أن لا يملك الإنسان شيئاً أو لا يأكل الطيب ويسكن البيت الفاره كلا، وإنما أن لا يملكك شيء ويقعدك عن وظائفك الشرعية وعبوديتك لربك.

وقوله: ﴿والحياء عيناه﴾ أي أنه كثير الحياء فعيناه لا تتطلعان إلى قبيح أو حرام، ومحرم عليه حتى مثل الإشارة بالعين التي يعبر عنها بخائنة الأعين، وهذا من الذنوب التي يغفل عنها الناس، والباري عز وجل حذر منه بقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾^(١).

وقد فسر الإمام الصادق عليه السلام خائنة الأعين بنظر الرجل إلى الشيء وكأنه لا ينظر^(٢) وكذا النظر إلى ما لا يحل والإشارة السيئة بالعين، فإن ذلك كله مما يسأل عنه.

وفي نهج البلاغة: ﴿قسم أرزاقهم، وأحصى آثارهم وأعمالهم، وعدد أنفاسهم، وخائنة أعينهم، وما تخف صدورهم من الضمير﴾^(٣).

عفوہ ونزاهتہ

وقد ورد عنه في ذلك ما يبهر العقول، ويرشد الإنسان إلى عظمة أولياء الله وشدة تورّعهم في المواقف، فقد أهدر دم عبد الله بن سعد بن أبي سرح لأفعال كثيرة فعلها استحق بها القتل.

(١) سورة غافر: الآية ١٩.

(٢) معاني الأخبار: ص ١٤٧، ح ١؛ تفسير نور الثقلين: ج ٤، ص ٥١٧، ح ٣٣.

(٣) نهج البلاغة: ج ١، ص ١٥٩، الخطبة ٩٠؛ البحار: ج ٤، ص ٣١٠، ح ٣٨.

منها: ارتداده وحقه بالمشركين وكشف أسرار المسلمين لهم، وهذا يعد من الخيانة العظيمة التي يستحق فاعلها القتل.

ومنها: التقول على الله ورسوله والسعي لتحريف القرآن، وكان يكتب للنبي ﷺ فيقول مثلاً اكتب: ﴿الله حكيم عليم﴾ هو يكتب (الله غفور حلیم) وهكذا.

وقد نزلت آية في ذمه، ووصفت قلبه بأنه منشرح للكفر؛ إذ قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا﴾^(١) في مقابل إيمان عمار الذي نزل فيه قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أْكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾^(٢) وكان عاقبة أمره أنه قاتل مع معاوية في صفين إلى غير ذلك من الفضائع الدالة على سوء فعله ومصيره^(٣).

هذا الرجل أحضره عثمان لما فتح النبي مكة؛ لأنه كان أخاه من الرضاعة، فجاء به عند النبي ﷺ يطلب الأمان، وكان يلح في طلبه، وكانت مثل هذه المواقف تخرج النبي ﷺ؛ لأنه حين سكت وأطرق ليبادر أحد المؤمنين ويمثل أمر النبي ويقتله فلم يفعلوا... ولما ألح عثمان أعطاه الأمان ولما ذهب قال النبي ﷺ لأصحابه: ﴿أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا فيقتله؟﴾ فقال عباد بن بشر: يا رسول الله ! إن عيني ما زالت في عينك انتظاراً أن تومئ فاقتله، فقال ﷺ: ﴿أن الأنبياء لا يكون لهم خائنة الأعين﴾^(٤) أي حتى الإيحاء على أحد أو الإشارة إلى شيء محظور عليهم.

(١) سورة النحل: الآية ١٠٦.

(٢) سورة النحل: الآية ١٠٦.

(٣) انظر قاموس الرجال: ج ٦، ص ٣٧٧-٣٧٨.

(٤) تفسير نور الثقلين: ج ٤، ص ٥١٧، ح ٣٥.

هذه المعنوية العالية والنزاهة والكمال ليس لها مثيل في البشر خصوصاً الملوك والسلاطين، وبهذه المعنوية انتشر الإسلام وساد في الأرض، وهذا ما وصفه الحديث «لسانه الحكمة وقلبه الرحمة»^(١) فالذي يقول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ عليه أن يدرك أنَّ الحمد الحقيقي ليس في مفهومه ولا في ذكره على لسانه فقط، بل أن يعرف رسول الله ﷺ ويحبه ويطيعه ويقتدي به.

وبه يتضح وجه الجمع بين الروايات العديدة التي نصّت على أنَّ أول ما خلق الله العقل، وأنَّ أول ما خلق الله نور النبي ﷺ فإنَّ الاثنين يشيران إلى وجود رسول الله ﷺ باعتبارين.

رسول الله العقل الكامل

هذا فضلاً عن الروايات التي نصّت على أنَّ العقل الأول الذي منحه الله العقل الكامل هو رسول الله ﷺ

منها: ما روي في المحاسن عن الإمام الصادق عليه السلام قال: ﴿قال رسول الله ﷺ: خلق الله العقل فقال له: أدبر فادبر، ثم قال له: أقبل فاقبل، ثم قال: ما خلقت خلقاً أحب إليّ منك، فأعطى محمداً تسعة وستين جزءاً، ثم قسم بين العباد جزءاً واحداً»^(٢) والمراد بالأجزاء المراتب؛ لأنَّ العقل واحد بسيط فهو كناية عن كمال العقل عنده ﷺ، ويعزز ذلك أنَّ اسمه عليه السلام مشتق من الحمد،

(١) انظر معاني الأخبار: ص ٣١٣، ح ١؛ الخصال: ج ٢، ص ٤٢٧، ح ٤؛ الأمالي (للطوسي): ص ٥٤٢، ح ١١٦٤.

(٢) المحاسن: ص ١٤٧، ح ٨؛ البحار: ج ١، ص ٩٧، ح ٦.

فهو في السماء أحمد وفي الأرض محمد، وكلاهما مشتقان من الحمد^(١) سوى أنّه في السماء أكثر العباد حمداً لله عزّ وجلّ؛ لأنّ كل أهل السماء حامدون، ولا يوجد فيهم العصاة المذنبون، فلا يفوقه أحد منهم بحمده وعبادته، بل تعلّموا الحمد منه، فهو أول الخلق نطقاً بالحمد، وأكثرهم نطقاً به، وهو الذي علّم المخلوقات الحمد، فهو أول المخلوقات وأكملها، وهو المعلّم الأول للمخلوقات في المعرفة والعبودية، ولعل بهذا الاعتبار يصح أن يقرأ اسمه بصيغة اسم الفاعل أي مُحمّد، وفي الأرض مُحمّد بصيغة اسم المفعول، والتشديد فيها يفيد المبالغة والكثرة من جهتين:

رسول الله ﷺ المحمود

الأولى: لأنّ الله سبحانه اشتق اسمه من اسمه المحمود، فكل من يحمد الله يحمد رسوله صلى الله عليه وآله، وكل الأنبياء والرسل أشاروا باسمه ومدحوه لأممهم وبشّروا به، فما من ذكر وذاكر يذكر الله عزّ وجلّ إلّا وهو ذاكر لرسول الله ﷺ إمّا بالصرّاحة وإمّا بالمأل، فهذه هي رتبة التعليم.

الثانية: لأنّ أهل الأرض يذكرونه ويحمدونه بالذكر الطيب، ولا يوجد في الأرض من هو أكثر حمداً ومدحاً بين الخلائق، وفي أوقات العبادات يذكرونه في أذانهم وإقامتهم وتشهّدهم وأذكارهم، وكل من يرى المصحف أو يقرؤه أو يحفظه يذكره إمّا بالحضور الذكري أو الحضور الذهني، فهو محمّد لأنّه محمود عند الكل.

(١) انظر موسوعة الإمام السيد عبد الحسين شرف الدين: ج ٥، ص ٢٣٦؛ تفسير الرازي: ج ١، ص ٢٨٤.

وَذَكَرَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَلْفَ اسْمٍ، وَلِلنَّبِيِّ ﷺ أَلْفَ اسْمٍ، وَمِنْ أَحْسَنِهَا مُحَمَّدٌ ﷺ وَمَحْمُودٌ وَأَحْمَدٌ، وَالْمُحَمَّدُ كَثِيرُ الْخِصَالِ الْمَحْمُودَةِ، لَمْ يَسَمَّ بِهِ أَحَدٌ قَبْلَ نَبِيِّنَا ﷺ. أَهْلُمُ اللَّهُ أَهْلَهُ أَنْ يُسَمَّوْهُ بِهِ وَاسْمِي بِهِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَجَمِيعَ أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ وَجَمِيعَ أُمَّمِهِمْ يَحْمَدُونَهُ وَيَصَلُّونَ عَلَيْهِ ^(١) فَضْلاً عَنْ سَائِرِ الْمَوْجُودَاتِ، وَمَا وَرَدَ فِي بَعْضِ كُتُبِ اللُّغَةِ بِوُجُودِ سَبْعَةِ سَمَوَا بِاسْمِ مُحَمَّدٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَهُوَ مِنْ بَابِ سَمَاعِهِمْ بِاسْمِهِ مِنَ الدِّيَانَاتِ السَّابِقَةِ فَتَبَرَكُوا بِهِ، وَلَمْ يَكُنْ تَأْسِيساً مِنْهُمْ ^(٢).

إِنْ قِيلَ: إِنَّ النَّصَارَى أَكْثَرَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي هَذَا الْوَقْتُ وَهَذَا يَسْتَوْجِبُ عِلْوَ ذِكْرِ الْمَسِيحِ.

فَالْجَوَابُ: كَلَّا لِأَنَّ النَّصَارَى لَا يَذْكُرُونَ الْمَسِيحَ إِلَّا فِي أَوْقَاتٍ مَحْدُودَةٍ، وَلَعَلَّهُمْ لَا يَذْكُرُونَهُ إِلَّا فِي الْكَنِيسَةِ فِي أَوْقَاتٍ مَحْدُودَةٍ عَلَى أَنَّهُ ﷺ مَذْكُورٌ لَدَى جَمِيعِ الْخَلَائِقِ وَلَيْسَ الْبَشَرُ فَقَطْ؛ لِأَنَّهُ أَسَاسُهَا الْوُجُودِي وَأَسَاسُهَا الْعِلْمِي وَالذِّكْرِي. وَمِنْ ذَلِكَ تَتَضَحَّ حَقَائِقُ:

بَيْنَ أَحْمَدَ وَمُحَمَّدٍ ﷺ

الأولى: أَنَّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بَشَرٌ بِرَسُولٍ مِنْ بَعْدِهِ اسْمُهُ (أَحْمَدُ) وَلَمْ يَقُلْ (مُحَمَّدُ) لِأَنَّ أَحْمَدَ اسْمٌ يَفِيدُ التَّفْضِيلَ، وَكَانَ هُوَ الْحَامِدُ، وَالْمُصْطَفَى أَحْمَدُ مِنْهُ

(١) مجمع البحرين: ج ٣٠، ص ٤٠، (حمد).

(٢) انظر لسان العرب: ج ٣، ص ١٥٧، (حمد).

في جميع الأزمنة، ويشمل الموجود بالوجود البدني والوجود الروحي؛ لعدم تفاوت العبادة في الأزمنة، وأمّا محمد فهو اسم مفعول، واسم المفعول لا يطلق إلا على الموجود، وحيث إنّ المصطفى ﷺ لم يكن موجوداً في زمان عيسى بالوجود البدني أسماه أحمد؛ لأنّه أكثر حمداً منه بوجوده الروحي، وبوجوده البدني المحسوس هو محمد؛ لأنّه أكثر الناس محموداً.

وفي رواية ابن قيس عن أبي جعفر عليه السلام قال: «اسم رسول الله ﷺ في صحف ابراهيم عليه السلام الماحي، وفي توراة موسى عليه السلام الحاد، وفي إنجيل عيسى عليه السلام أحمد، وفي القرآن محمد» قيل: فما تأويل الماحي؟ فقال: «الماحي صورة الأصنام، وماحي الأوثان والأزلام، وكل معبود دون الرحمن». قيل: فما تأويل الحاد؟ قال: «يحاد من حاد الله ودينه قريباً كان أو بعيداً». قيل: فما تأويل أحمد؟ قال: «حسن ثناء الله عز وجل عليه في الكتب بما حمّد من أفعاله». قيل: فما تأويل محمّد؟ قال: «إنّ الله وملائكته وجميع أنبيائه ورسله وجميع أممهم يحمّدونه ويصلّون عليه، وإنّ اسمه لمكتوب على العرش محمد رسول الله»^(١).

رسول الله ﷺ مدار التكوين والتشريع

الثانية: أنّ عالمي التكوين والتشريع يدوران على الوجود المبارك لرسول الله ﷺ، فما من وجود أو حياة أو رزق إلاّ منه، وما من علم وهداية

(١) الأُمالي (للصدوق) : ص ٧١؛ البحار: ج ١١، ص ٣٩، ح ٣٨؛ نور الثقلين: ج ٥، ص ٣١٦، ح ٢٣.

وصلاح إلا منه، ومن هنا وصفه القرآن بالرحمة للعالمين وبالشمس^(١)، وهو مما تضافر في الأدلة النقلية وقامت عليه البراهين العقلية.

الثالثة: أن رسول الله ﷺ هو المصدق الأتم للحمد؛ لأن الحمد يكون على الفضائل والفواضل الاختيارية وهي مجتمعة فيه، فقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يتضمن الحمد الذكري والحمد العيني، والأول هو الشناء، والثاني هو رسول الله ﷺ، فحينما يتلو المؤمن قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فإنه يشير إلى الحمدتين معاً.

ومعناه أن رسول الله ﷺ لله تعالى، أي خالصاً مخلصاً؛ لذا وصف بالمصطفى وبالحبيب وبعبد الله وغيرها من الأوصاف التي تدل على خلوصه لربه، وبهذا تنكشف بعض أسرار علو شأنه على جميع الخلق، فالحمد في مصداقه الحقيقي يتحقق بمعرفة النبي ومحبه واتباعه؛ لذا جعل القرآن مدار الإيمان والكفر والحمد والشكر والجحود.

والرابعة: أن كل ما يقال في رسول الله ﷺ يقال في عترته إلا ما خرج؛ لأنهم نور واحد، ومنهم تفرعت الموجودات، ومنهم عرفت الله وتعلمت الحمد والعبادة، فلهم جهة الأوليّة والألوية وعلو الرتبة في الخلق والإيجاد قبل عالم الدنيا.

(١) إشارة إلى سورة الأنبياء: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ الآية ١٠٧؛ وإشارة إلى سورة الشمس: ﴿والشمس وضحاها...﴾ الآية ١.

اللطيفة الثامنة: الحمد على نعمة الولاية

أنّ الحمد يستحقّ مقابل كل نعمة، ونعم الله عزّ وجلّ فوق حد الإحصاء، بل يستحيل إحصاؤها، والقدرة على الإحصاء في نفسها نعمة؛ لذا قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾^(١) ولكن بين النعم مراتب ودرجات، وأعلاها رتبة نعمتان: إحداهما تكوينية والأخرى تشريعية.

أمّا الأولى فهي وجود رسول الله ﷺ وعترته كما اتضح من اللطيفة السابقة، وأمّا الثانية فهي الولاية لأمر المؤمنين ﷺ والأئمة عليهم السلام، وبحسب قانوني التسانخ والتناسب فإنّ الحمد على هاتين النعمتين هو أعلى مراتب الحمد.

وفي قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^(٢) بعد تنصيب أمير المؤمنين ﷺ خليفة على خلقه يستفاد أنّ التمام أعظم من الكمال، وأنّ التمام هو علة ارتضاء الإسلام ديناً للبشر.

ما معنى كمال النعمة وتمامها؟

وتوضيح ذلك: أنّ الكمال والتمام كالفقير والمسكين إذا اجتماعا افترقا وإذا افترقا اجتماعا، وفي الآية اجتماعا فلا بدّ وأن يراد من الكمال غير التمام، وإلّا لزم تحصيل الحاصل واللغوية فلو قال: (اليوم أكملت لكم دينكم

(١) سورة إبراهيم: الآية ٣٤.

(٢) سورة المائدة: الآية ٣.

وأكملت عليكم نعمتي) كان من التكرار القبيح؛ لأنَّ إكمال الدين هو في نفسه نعمة وقد دل عليها قوله تعالى: ﴿أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ فلا معنى لقول (وأكملت عليكم نعمتي) لكن الآية قالت: ﴿أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ فتدل على أنَّ تمام النعمة غير كمال الدين، والفرق أنَّ الكمال للشيء يطلق باعتبار تمامية الأجزاء، وأمَّا التمام فباعتبار كمال النفع والأثر، فالكمال تمام في الكم والتمام كمال في کیف.

ويمكن التمثيل له من المحسوسات بالبيت الذي بينه الإنسان لنفسه، فإنَّه إذا وفرَّ جميع أجزائه ولم ينقص منه شيء من حيث البناء يقال أكمل البيت، ولكن كمال الأجزاء لا ينفي أن يكون البناء غير محكم، ومواد البناء ليست عالية الجودة، وأجواء البيت لا تبعث على السكونة والأمان والسعادة لأهله التي هي الغاية التي لأجلها بني البيت، فإذا توفرت هذه العوامل يقال تمَّ البيت، أي ظهر أنَّه مطابق للغاية التي قصدها الباني.

فالكمال ناظر إلى التكوين العضوي والتمام ناظر إلى التكوين النفسي، فالتمام هو غاية الكمال، وهكذا الأمر في كمال الدين وتمامه، ويعزز هذه الحقيقة شاهدان من ذات الآية:

الأول: أنَّ الآية نسبت إكمال الدين للخلق فقالت: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ وقد أكمله بالولاية والإمامة؛ لأنَّها قضية تتعلق بنظام الناس وقيادتهم وتدير شؤونهم، وأمَّا إتمام النعمة فنسبها لنفسه تعالى؛ إذا قال: ﴿وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ فالنعمة ليست لهم بل عليهم، وهي نعمة الله عليهم وليست نعمتهم، وإطلاق التشريف يفيد أنَّها أعظم نعمة إلهية على

الخلق، وأنها مفروضة على جميع الخلق وليس لهم اختيار فيها، وهي أتمّ نعمة عليهم فتستوجب الشكر والحمد.

ووصفها بالتمام لأنها تحقق غاية الدين وغرضه، فلولاها لم يتحقق الغرض، وهي بهذا المعنى أعظم من نعمة الخلق والإيجاد لأن غاية الإيجاد الإكمال والإسعاد، وكلاهما يتوقفان على الولاية، فلولاها بطل الغرض، فليتأمل أهل القلوب هذه الحقيقة، ولعل إليه يشير قول الصادق عليه السلام: ﴿ولايتي لأمر المؤمنين أعظم من انتسابي إليه^(١)﴾ لأن الانتساب يتعلق بالوجود. أما الولاية فتتعلق بالاعتقاد والانتفاء الروحي، ومنه يعرف أنّ أهمّ مقومات الإنسان اعتقاده الصحيح.

الولاية أعظم نعمة تشريفية

الثاني: قوله بعدها ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ وواضح أنّ ارتضاء الإسلام لا يتحقق بمجرد كمال أجزائه، بل بتحقيق غاياته وأغراضه، ولذا ينتفي الإسلام إذا انتفت الولاية وكأنّه لم يشرّع للناس.

فالإسلام المرضي عند الله هو المقترن بالولاية والتمام بها، فلولاها كان ناقصاً من حيث الكمال، ومختلاً من حيث الغرض، ومثله لا يقال له إسلام إلا بنحو من التجوّز أو القول بأنّ الأسماء موضوعة للأعم من الصحيح والفساد وهو خلاف التحقيق، إذاً الإسلام الكامل الذي تتحقق به الغايات

(١) الروضة في فضائل أمير المؤمنين (لابن شاذان): ج ١، ص ١٠٣، ح ٩٢؛ البحار: ج ٣٩، ص ٢٩٩، ح ١٠٥.

الإلهية يتم بنعمة الولاية، فهي أعظم نعمة إلهية تشريعية على الخلق، ولازمه أن يكون الولي أعظم نعمة تكوينية في الخلق، وهذا ما تعززه الروايات الشريفة المتضاربة، ففي رواية أبي يوسف البزاز قال: تلا الإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام هذه الآية: ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ﴾^(١) قال: «أتدري ما آلاء الله؟» قلت: لا. قال: «هي أعظم نعم الله على خلقه وهي ولايتنا»^(٢).

وفي رواية أبي حمزة الثمالي قال: قال أبو جعفر عليه السلام: «بني الإسلام على خمس: إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم شهر رمضان، والولاية لنا أهل البيت، فجعل في أربع منها رخصة، ولم يجعل في الولاية رخصة. من لم يكن له مال لم تكن عليه زكاة، ومن لم يكن عنده مال فليس عليه حج، ومن كان مريضاً صلى قاعداً، وأفطر شهر رمضان، والولاية صحيحاً كان أو مريضاً أو ذا مال أو لا مال له فهي لازمة»^(٣).

ومنه يتضح أن الركن الأساس الذي يشكّل جوهر الإسلام وبه يصدق العنوان هو الولاية، فلو انتفت انهدم البناء، وصح سلب الاسم عنه، بخلاف غيره فيصح توصيف الرجل بالمسلم إذا كان لا يصلي أو لا يصوم، فهو مسلم عاص فاسق، ولا يصح ذلك إذا لم تكن له ولاية، وإذا وصف بالإسلام فهو من باب التجوّز والتوسعة، كما يقال للبناء المهدوم في حيطانه

(١) سورة الأعراف: الآية ٦٩.

(٢) الكافي: ج ١، ص ٢١٧، ح ٣؛ بصائر الدرجات: ص ١٠١، ح ٣، البحار: ج ٢٤، ص ٥٩، ح ٣٤.

(٣) الخصال: ج ١، ص ٢٧٧، ح ٢١؛ البحار: ج ٦٥، ص ٣٧٦، ح ٢١.

وأركانها إنَّه بيت مجازاً، أو يقال له إسلام لكنه غير مرضي عند الله تعالى كما نصت عليه الآية، ولذا تضافر بطرق الفريقين أنَّ من مات ولا يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية، وهي ميتة كفر ونفاق ^(١).

أعظم الحمد على أعظم نعمة

والخلاصة: أن الولاية هي ركن الإسلام الذي به يتقوم جوهره واسمه، وهي أعظم نعمة إلهية على الخلق؛ لذا لا توجد نعمة تستحق أعلى درجات الحمد أعظم منها، فأعظم الحمد يكون على أعظم نعمة، ومن هنا جاء في دعاء يوم الغدير: ﴿الحمد لله الذي جعلنا من المتمسكين بولاية أمير المؤمنين عليه السلام، الحمد لله الذي أكرمنا بهذا اليوم، وجعلنا من الموفين بعهده إلينا، وميثاقه الذي واثقنا به من ولاية ولادة أمره والقوام بقسطه، الحمد لله الذي جعل كمال دينه وتمام نعمته بولاية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ^(٢).

وإطلاق الحمد على هذه النعمة العظيمة يحاكي إطلاق الحمد في قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وأعظم ربوبية الخالق خلقه هي ربوبية الولاية، فإن بالولاية يتربى العباد وتنمو عقولهم وقلوبهم وأخلاقهم ومعارفهم.

(١) انظر الكافي: ج ١، ص ١٨٤، ح ٨؛ المحاسن: ج ١، ص ٩٣، ح ٤٧؛ البحار: ج ٢٣، ص ٨٧، ح ٢٩.

(٢) التهذيب: ج ٣، ص ١٤٤، ح ٣١٧؛ إقبال الأعمال: ج ٢، ص ٢٨٣؛ البحار: ج ٩٥، ص ٣٠٣، ح ٢.

نتائج هامة

ومن ذلك تتضح عدة نتائج:

الأولى: أنَّ أعظم النعم الإلهية في عالم التكوين وجود النبي والإمام عليهما السلام.

والثانية: أنَّ أعظم النعم الإلهية في عالم التشريع هي نعمة الولاية.

الثالثة: أنَّ أعظم الذكر والعبادة هو الحمد على نعمتي وجود النبي والإمام عليهما السلام ونعمة الولاية لهما.

اللطيفة التاسعة: آثار الصلاة على محمد وآل محمد عليهم السلام

أنَّ الآية المباركة دلت على أنَّ الحمد يدور على الربوبية، والنبي والعتره الطاهرة عليهم السلام هم وسائط الربوبية تكويناً وتشريعاً وتعليماً، فإطلاق الحمد لله رب العالمين يشملهم، وقد اتضح أنَّ أعلى درجات الحمد على نعمة وجودهم، كما يتضح منه أنَّ أفضل الحمد على ربوبيتهم هو الصلاة عليهم؛ لأنَّها تتضمن الدعاء بالصلاة عليهم من الله سبحانه، بل يستفاد من الروايات أنَّها أعظم ذكر يتضمن كل معاني الحمد والتسبيح والتهليل والتكبير والاستغفار هو الصلاة على محمد وآل محمد عليهم السلام، فقد تواتر في الأخبار الشريفة أنَّها أفضل الأعمال، وإذا تضمنت الدعاء بتعجيل الفرج والبراءة من أعدائهم اكتملت فيها بركات الدعاء وآثاره العظيمة^(١).

والقائل: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فإنه يحمد الله عزَّ وجلَّ على ربوبيته لهم؛ لأنَّه أوجدهم وأدبهم وكمَّلهم وجعلهم وسائط الخلق، ويحمده على

(١) البحار: ج ٩٤، ص ٤٧؛ سفينة البحار: ج ٥، ص ١٧٠، ح ٦٧٤٣.

ربوبيتهم لعباده، فهي خلاصة العقائد والأذكار والمواقف، وهي الرابطة بين الماضي والحاضر والمستقبل.

فقد روى الصدوق عليه السلام عن الرضا عليه السلام أنه قال: ﴿من لم يقدر على ما يكفر به ذنوبه فليكثر من الصلاة على محمد وآله فإنها تهدم الذنوب هدماً﴾ وقال عليه السلام: ﴿الصلاة على محمد وآله تعدل عند الله عز وجل التسبيح والتهليل والتكبير﴾^(١).

وفي جمال الأسبوع عن أبي عبد الله عليه السلام. قال له رجل: جعلت فداك أخبرني عن قول الله تبارك وتعالى وما وصف من الملائكة: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْترُونَ﴾^(٢) ثم قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾^(٣) كيف لا يفترون - أي عن تسبيح الله - وهم يصلون على النبي صلوات الله عليه؟ فقال أبو عبد الله عليه السلام: ﴿إن الله تبارك وتعالى لما خلق محمداً صلوات الله عليه أمر الملائكة فقال: انقصوا من ذكري بمقدار الصلاة على محمد صلوات الله عليه فقال الرجل: صلى الله على محمد في الصلاة مثل قوله: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر﴾^(٤).

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج ١، ص ٢٦٥، ح ٥٢؛ البحار: ج ٩١، ص ٤٧ - ٤٨، ح ٢؛ سفينة البحار: ج ٥، ص ١٧٠، ح ٦٧٤٤.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٢٠.

(٣) سورة الأحزاب: الآية ٥٦.

(٤) جمال الأسبوع: ص ١٥٦؛ مستدرك الوسائل: ج ٥، ص ٣٣٠، ح ٦٠١٢؛ البحار: ج ٨٢، ص ٩٦، ح ٩؛ سفينة البحار: ج ٥، ص ١٦٩، ح ٦٧٣٨.

والروايات الواردة في فضل الصلاة على محمد وآله كثيرة وعظيمة.

لا تصل الصلاة الرمزية

وهنا نلفت الأنظار إلى ملاحظتين:

الأولى: قد تعارف عند البعض لدى الكتابة الاكتفاء بالصلاة على النبي وآله باختصار أو الرمز الإشاري مثل حرف (ص) أو (صلهم) أو (صلم) أو (صلسم) ونحو ذلك، وهذا مبتلى بمحذورين:

الأول: أنه تفويت للفضل العظيم الذي جعل لذكر الصلاة الكاملة، فقد ورد عن النبي ﷺ ﴿من صَلَّى عليّ في كتاب لم تزل الملائكة تستغفر له ما دام اسمي في ذلك الكتاب﴾^(١).

وفي رواية أخرى: ﴿لم تزل الملائكة تصليّ عليه ما دام الكتاب مكتوباً إلى يوم القيامة﴾^(٢) فلو ذكر اسم النبي دون ذكر الصلاة الكاملة لم ينل هذا الأثر، والوجود الكتبي يدوم بقاؤه طويلاً ولا ينمحي عادة إلا بالتلف ونحوه، ومعنى ذلك أن خيره وأثره باقٍ ومستمر في كل لحظة وآن، والعاقل الحريص على نفسه لا يفوت هذا الفضل، وما يقال في الكتابة يقال في الكلام إذا اكتفى بذكر النبي ولم يصلّ عليه وآله.

(١) منية المريد: ص ٣٤٧؛ البحار: ج ٩١، ص ٧١، ح ٦٥؛ ينابيع الحكمة: ج ٣، ص ٥٢٥،

ح ٢٠؛ القطرة: ج ١، ص ١١٧، ح ٩٣؛ سفينة البحار: ج ٥، ص ١٧٢، ح ٦٧٥٦.

(٢) جامع الأخبار: ص ١٥٧، ح ٣٧٣؛ ينابيع الحكمة: ج ٣، ص ٥٢٥، ح ٢٠. إنّها

اتخذ الله عز وجل إبراهيم خليلاً لكثرة صلاته على محمد وأهل بيته

الثاني: أنه لا يخلو من هتك للحرمة، وهو وإن لم يقصد أو لم يبلغ مرتبة الحرمة إلا أن له آثاراً وضعية طبيعية تظهر على بدنه وروحه، وآثاراً تكوينية غيبية تعود عليه.

فقد ورد في الحديث النبوي: ﴿من صلى عليّ مرة فتح الله عليه باباً من العافية﴾^(١) والعافية تشمل سلامة البدن والروح.

وعنه ﷺ: ﴿أن الصلاة عليّ وعلى أهل بيتي تذهب بالنفاق﴾ لا سيما رفع الأصوات بها^(٢) ويفهم منه أن ذكر اسم النبي كتابة أو قولاً دون الصلاة عليه لا يؤمن صاحبه من الأمراض البدنية والروحية.

الآثار الغيبية للصلاة عليهم

وأما الآثار الغيبية فهي توجد مزيد القرب وعلو الدرجات، ففي رواية عبد العظيم الحسني قال: سمعت علي بن محمد العسكري عليه السلام يقول: ﴿إنما اتخذ الله عز وجل إبراهيم خليلاً لكثرة صلاته على محمد وأهل بيته صلوات الله عليهم﴾^(٣) وتبعد مكائد شياطين الإنس غير المصلين، فعن النبي ﷺ:

(١) جامع الأخبار: ص ١٥٣، ح ٣٤٤؛ مستدرک الوسائل: ج ٥، ص ٣٣٣، ح ٦٠٢١؛ البحار: ج ٩١، ص ٦٣، ح ٥٢.

(٢) الكافي: ج ٢، ص ٤٩٢، ح ٨، و ص ٤٩٣، ح ١٣؛ البحار: ج ٩١، ص ٥٩، ح ٤١؛ الوسائل: ج ٧، الباب ٣٤ من أبواب استحباب الإكثار من الصلاة على محمد وآله، ص ١٩٣، ح ٩٠٨٩.

(٣) علل الشرائع: ج ١، ص ٣٤، ح ٣؛ الوسائل: ج ٧، الباب ٣٤ من أبواب استحباب الإكثار من الصلاة على محمد وآله، ص ١٩٤، ح ٩٠٩٥؛ البحار: ج ١٠، ص ١٩٤، ح ٩٠٩٥.

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ اِثْنَانِ: شَيْطَانُ الْجَنِّ وَيُبْعَدُ بِلا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ وَشَيْطَانُ الْإِنْسِ وَيُبْعَدُ بِالصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ وَآلِهِ﴾^(١).

وقد ذكر الشهيد قدس سره عن بعض العلماء أَنَّ أولَ من كتب (صلعم) قطعت يده^(٢) ولعل هذا جزاء الجرأة والسنة السيئة التي سنّها.

فوائد الصلاة على محمد وآله عليهم السلام

الثانية: أَنَّ الصلاة على محمد وآله تتضمن فوائد عديدة:

إحداها: أنّها من أجلى مصاديق المحبة وإظهار الولاية لهم والبراءة من أعدائهم، وهي من الواجبات العينية، ولذا ورد في الأخبار أَنَّ الذين لا يصلّون على النبي وآله فمصيرهم النار، ولعلّه من باب المقتضي وتوفر أسبابه، بل مَنْ صَلَّى على النبي ولم يصلّ على آله لم يشمّ ريح الجنة، كما ورد عن النبي صلى الله عليه وآله في روايات عديدة^(٣) وعنه عليه السلام: ﴿مَنْ قَالَ: صَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَلَمْ يَصَلِّ عَلَى آلِهِ لَمْ يَجِدْ رِيحَ الْجَنَّةِ، وَرِيحُهَا يَوْجَدُ مِنْ مَسِيرِ خَمْسَمِائَةِ عَامٍ﴾^(٤).

ثانيها: أَنَّ بها يشكر المصلّي نعمة وجودهم، فلولاهم لم يخلق الله العالم



٩١، ص ٥٤، ح ٢٣.

- (١) البحار: ج ٩٢، ص ١٣٦، ح ٤؛ مستدرك الوسائل: ج ٥، ص ٣٤٢، ح ٦٠٥٠.
- (٢) منية المريد: ص ١٥٩؛ ينابيع الحكمة: ج ٣، ص ٥٢٥، ح ٦٣٥٩.
- (٣) الكافي: ج ٢، ص ٣٥٩، ح ١٩؛ المحاسن: ج ١، ص ٩٥، ح ٥٣.
- (٤) إرشاد القلوب: ج ١، ص ٣٥٨؛ عوالي اللآلئ: ج ١، ص ٣٦٥، ح ٥٨؛ الوسائل: ج ٧، الباب ٤٢ من أبواب الذكر، ص ٢٠٣، ح ٩١١٦.

ونعمة ربوبيتهم وهدايتهم للخلق ونعمة شفاعتهم.

ثالثها: أنّ بها يتطهّر العبد من ذنوبه وأدرانته النفسية والقلبية وأدناسه الروحية والبدنية، ففي الزيارة الجامعة: ﴿وجعل صلاتنا عليكم وما خصّنا به من ولايتكم طيباً خلّقنا، وطهارة لأنفسنا، وتزكية لنا، وكفّارة لذنوبنا﴾^(١) وطيب الخلق في مقابل الخبث، وهو كناية عن الأصل الحلال^(٢)، وربما يُقرأ بضم اللام أي (طيباً خلّقنا) وهو كناية عن حسن المعاملة والسمو الأخلاقي، وهذه سمة الموالين والمتّزمين بولايتهم، وإذا لوحظ من بعض المغالين خلاف ذلك فهو ناشئ من تخليهم عن أدب الولاية، أو تأثرهم بأخلاق أعدائهم عليهم السلام، وطهارة النفوس تنزهها من الذم وكل قبيح^(٣).

والتزكية النماء والزيادة^(٤)، والملفت أنّ التزكية نسبها للأشخاص وليس لأعضائهم كالخلق والنفس، ولا لأعمالهم؛ لأنّ الموالى في زيادة من عقله وقلبه وعمله ببركة ربوبيتهم له وولايتهم، فإنّ نور الولاية يفيد عقول أهلها بمزيد العلم والمعرفة، ويفيد قلوبهم بمزيد البصيرة والرحمة والمحبة، وأعمالهم بمزيد القبول والأجر والثواب، وغيرهم محروم منها.

فإنّ الواقع والوجدان - فضلاً عن إقرار المؤرخين وأهل التحقيق -

(١) الفقيه: ج ٢، ص ٦١٣، ح ٣٢١٣؛ التهذيب: ج ٦، ص ٩٨، ح ١٧٧؛ عيون أخبار الامام الرضا عليه السلام: ج ١، ص ٣٠٧؛ البحار: ج ٩٩، ص ١٣٠، ح ٤.

(٢) معجم مقاييس اللغة: ص ٦٠٥، (طيب).

(٣) معجم مقاييس اللغة: ص ٦٠٢، (طهر).

(٤) معجم مقاييس اللغة: ص ٤٣٦، (زكى).

يشهدان بأنّ الموالين الذين يتمسكون بالولاية هم الأزكى عقلاً وقلباً وعملاً بلحاظ الوجود النوعي، كما أنّهم من حيث الخلق في الشرف العالي من الخلق في الدنيا، وفي الآخرة ينالون شرف الجنة، وهذا أحد أسباب شدة الضغط عليهم، والحسد لهم، والظلم الواقع عليهم.

هل الصلاة على آل محمد ﷺ تنفعهم؟

وهل الصلاة عليهم فيها فائدة ونفع لهم ﷺ؟ فيه قولان:

الأول: العدم. ذهب إليه جماعة بحجة أنّ الله تعالى أعطاهم أكمل المنازل وأعلاها درجة فلا نقص فيهم حتى ينتفعوا بصلاتنا، وحملوا روايات فضل الصلوات عليهم على انتفاع المصلي نفسه، وقاربوه بمثل العبادة لله عزّ وجلّ، فإنّه عزّ وجلّ لا ينتفع بعبادة العابدين وطاعتهم وإنّما هم ينتفعون بها، والنص من الزيارة الجامعة المتقدم شاهد عليه، فإنّ الصلاة عليهم تعود على أبدان المصلّين ونفوسهم وعافيتهم بالنفع، وربّما ينقض هذا بسائر العبادات والطاعات، فإنّ الثواب والأجر وعلو الدرجات المجمعول لها هل تشمل النبي وأهل بيته ﷺ أم تختص بعموم المؤمنين دونهم؟ والثاني واضح البطلان؛ لتضافر الأدلة العقلية والنقلية على أنّهم في الأحكام وما يترتب عليها كسائر الناس إلّا ما خرج بدليل، فلا يعقل أن تكون عباداتهم بلا أجر وثواب، وهما نفع بلا إشكال.

الثاني: أنّهم ينتفعون بها معنوياً لا مادياً لدليلين عقلي ونقلي. أمّا العقلي فمن جهة وجود مقتضي وانعدام المانع، وتامة الاقتضاء في الفاعل وفي القابل، فإنّ الفاصلة بين الخالق والمخلوق لا حدّ لها ولا منتهى، وخيره عزّ

وجلّ لا يقف عند حد، ومن جهة أخرى فإن فقرهم وحاجتهم إلى ربهم ليس لها حد، وبسعة علمهم وشدة انقطاعهم إلى هذه الحقيقة نالوا المقامات والدرجات كما تفيده أدعيتهم ومناجاتهم.

ومن جهة أخرى فإنّ الباري عزّ وجلّ وبمقتضى لطفه وفضله امتنّ عليهم بالكمالات التي لا حدّ لها بالقياس إلى الوجود الإنساني، وبمقتضى لطفه وفضله فتح باب الزيادة لهم، وحيث إنّ ارتقاء المراتب والدرجات يتوقف على الأسباب ومن أهمّ الأسباب الدعاء، والصلوات عليهم نوع دعاء لهم.

وقد ورد عنه ﷺ أنّه كان يلتمس من صلحاء أمته الدعاء له ويقول: ﴿إِنَّ رَبِّي وَعَدَنِي مَرْتَبَةَ الشَّفَاعَةِ وَالْوَسِيلَةِ، وَلَا تَنَالُ إِلَّا بِالْدَّعَاءِ﴾^(١) وأما النقلي فلتواتره في النصوص، فمن الآيات قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾^(٢).

وتضافر في الأخبار أنّ صلاة الباري عزّ وجلّ عليه تزكية وثناء عليه، وصلوات الملائكة مدحهم له، وصلوات الناس دعاؤهم له والتصديق والإقرار بفضله^(٣).

وفي الخصال فيما علّم أمير المؤمنين ﷺ أصحابه من الأربعمئة: ﴿صَلُّوا عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقْبَلُ دَعَاءَكُمْ عِنْدَ ذِكْرِ مُحَمَّدٍ وَدَعَاءَكُمْ لَهُ

(١) نور الأنوار: ص ٥٧؛ القطرة: ج ١، ص ١١٨.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٥٦.

(٣) انظر تفسير كنز الدقائق: ج ١٠، ص ٤٢٩.

وحفظكم إياه^(١).

فما هو أثر قبول الباري عزَّ وجلَّ دعاء المؤمنين له لو لم يكن ينتفع به؟،
وتعززه الشواهد:

شواهد انتفاعهم بالصلاة عليهم

الأول: ما رواه الكليني قُدَّسَ سِنُّهُ بسنده عن محمد بن مسعود قال: رأيت أبا عبد الله عَلَيْهِ السَّلَام انتهى إلى قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فوضع يده عليه وقال: ﴿أسأل الله الذي اجبتاك واختارك وهداك وهدى بك أن يصلي عليك﴾^(٢) ومعلوم أن ما يجري على النبي يجري على الإمام لأصالة الاشتراك، ودعاء الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَام وسؤاله أن يصلي الباري عزَّ وجلَّ عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إن كان لا ينفعه كان لغواً، وإن كان ينفعه ثبت المطلوب، ولا يقال النفع موجود للسائل؛ لوضوح أن الصادق عَلَيْهِ السَّلَام هو السائل؛ والمفروض عند أصحاب القول الأول أنه لا ينتفع الصادق بالصلاة على النبي فلا وجه لدعائه وصلاته إلا بإثبات النفع له.

والثاني: ما في دعاء الصحيفة السجادية عن الامام زين العابدين عَلَيْهِ السَّلَام في دعائه في طلب الحوائج، فقد ورد: ﴿وصلَّ على محمد وآله صلاة دائمة نامية لا انقطاع لأبدها، ولا منتهى لأمدها، واجعل ذلك عوناً لي وسبباً

(١) الخصال: ص ٦١٣، ح ١٠؛ البحار: ج ١٠، ص ٩٢، ح ١؛ مستدرک الوسائل: ج ٥، ص ٢٢٤، ح ٥٧٤٦.

(٢) الكافي: ج ٤، ص ٥٥٢، ح ٤؛ البحار: ج ٩٧، ص ١٥٥، ح ٢٦؛ الوسائل: ج ١٤، الباب ٦ من أبواب زيارة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ص ٣٤٤، ح ١٩٣٥٦.

لنجاح طلبتي إنك واسع كريم^(١) .

والصلاة النامية التي لا انقطاع لها تنمو بآثارها وفوائدها عليه، كما أن طلبه أن تكون عوناً له ﷺ وسبباً لنجاح طلبته شاهد على انتفاعه بها، وهو ممن اصطفاهم الله بجميع الكمالات والفضائل.

الثالث: ما ورد في الأخبار أن الصلاة على النبي وعترته تبلغهم وتدخل السرور على قلوبهم وهو نفع عظيم، فعن الصادق عليه السلام: «أربعة أوتوا سمع الخلائق النبي ﷺ وحوار العين والجنة والنار، فما من عبد يصلي على النبي ﷺ أو يسلم عليه إلا بلغه ذلك»^(٢) وفي بعض الروايات أنه يسر قلبه ويرضيه^(٣) .

وفي خطبة أمير المؤمنين عليه السلام بعد أن تلا الآية الشريفة قال: «اللهم صل على محمد وآل محمد، وبارك على محمد وآل محمد، وتحنن على محمد وآل محمد، وسلم على محمد وآل محمد، كأفضل ما صليت وباركت وترحمت وتحننت وسلمت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد»^(٤) . والمباركة والتحنن من موارد الانتفاع.

(١) الصحيفة السجادية: ص ٧٥؛ المصباح (للكفعمي) : ص ٤٠٢؛ تفسير نور الثقلين: ج ٤، ص ٣٠٥، ح ٢٣٦؛ تفسير كنز الدقائق: ج ١٠، ص ٤٣٥.

(٢) الخصال: ص ٢٠٢، ح ١٧؛ تفسير نور الثقلين: ج ٤، ص ٣٠١، ح ٢١٨؛ البحار: ج ٨٣، ص ٣٤، ح ٣٨.

(٣) انظر البحار: ج ٩٤، ص ٥٨، ح ٣٨.

(٤) الكافي: ج ٨، ص ١٧٥، ح ١٩٤؛ مصباح المتعبد: ص ٤٩، ح ٦٥؛ البحار: ج ٨٨، ص ٤، ح ١.

والرابع: ما ورد في ذكر التشهد في الصلاة أن يختتمه المصلي بقوله: ﴿اللهم صل على محمد وآل محمد، وتقبل شفاعته، وارفع درجته﴾^(١) وهو دعاء برفع درجته ولا يستقيم إلا إذا كانت درجته تزداد عند ربه تبارك وتعالى.

ويتحصل: أنَّ محمداً وآله عليهم السلام وإن كانوا أكمل من خلق الله وأشرف، وأعطاهم ربهم من الشرف والمنزلة ما لم يعط أحداً من العالمين، وكل ما سوى الله هم سادته وموالوه، ولا يوجد قياس بينهم وبين سائر الخلق، فإنه لا يقاس بآل محمد أحد، إلا أنه لا يوجد قياس بينهم وبين خالقهم وبارئهم ومكوّنهم أيضاً، والكمالات والغايات الإلهية لا حدّ لها ولا منتهى، وبصلة المؤمنين عليهم يزدادون درجة وقرباً أكثر من ربهم.

والنتيجة المستخلصة مما ذكر: أن الصلاة على محمد وآل محمد وضّم الدعاء بالفرج إليها واللعن والبراءة من أعدائهم هو خلاصة الحمد لله رب العالمين، وآثارها أعظم على دنيا المؤمن وآخرته؛ لأنّها تلخص مضمون الحمد وغاياته.

اللطيفة العاشرة: روح الأذكار وجوهرها

أن مفردة (الحمد) تفرّدت عن باقي الأذكار بألفاظها ومعانيها، وبأنّها الأكثر على ألسنة العابدين، فإن أكثر كلمة يرددها المصلي في صلاته هي الحمد، فهي داخلة في القراءة، وكل صلاة لا تتم إلا بفاتحة الكتاب، وفيها ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وفي ذكر الركوع (سبحان ربي العظيم وبحمده)

(١) الوسائل: ج ٦، الباب ٣ من أبواب التشهد، ص ٣٩٣، ح ٨٢٦٤.

وفي القيام منه إمّا يقول: (سمع الله لمن حمده) أو: (الحمد لله رب العالمين) إخباراً وإنشاء، وفي ذكر السجود (سبحان ربي الأعلى وبحمده) ولدى التشهد يبدأ ب (الحمد لله) ويتشهد، وفي الركعة الثالثة والرابعة من الفريضة يقرأ التسبيحات الأربعة، وفيها الحمد (سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر)، أو يقرأ سورة الحمد بدلاً عنها، وهو مخير بينهما، وبعد قراءة الحمد في صلاة الجماعة يستحب أن يقول المأمومون: (الحمد لله رب العالمين) كما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام ^(١).

فالصلاة تدور على الحمد، والصلاة عمود الدين، وهي مدار قبول الأعمال ورفضها، ولازمه أن ذلك كله يدور على الحمد، والإسلام بني على أربع كلمات محورها الحمد، فعن الإمام الصادق عليه السلام أنه سئل لم سميت الكعبة؟ قال: «لأنها مربعة» ف قيل له: ولم صارت مربعة؟ قال: «لأنها بحذاء البيت المعمور وهو مربع» ف قيل له: ولم صار البيت المعمور مربعاً؟ قال: «لأنه بحذاء العرش وهو مربع» ف قيل له: ولم صار العرش مربعاً؟ قال: «لأن الكلمات التي بني عليها الإسلام أربع وهي: (سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر)» ^(٢).

وهو من الأحاديث المحكمة التي تكشف عن الترابط بين التكوين والتشريع، وتكشف عن شيء من هندسة بناء العالم ونظامه تكويناً

(١) انظر مواهب الرحمن: ج ١، ص ٥٤.

(٢) علل الشرائع: ج ٢، ص ٣٩٨، ح ٢؛ التوحيد: ص ٣٢٤، الهامش؛ البحار: ج ٩٦، ص ٥٧، ح ٩؛ تفسير نور الثقلين: ج ١، ص ٦٨٠، ح ٤٠٠.

وتشريعاً؛ ومعناه أن أركان العرش أربعة كل ركن يقوم على كلمة؛ كما أن الإسلام الذي هو الدين الذي ارتضاه الباري للبشر يقوم على الأربعة، وحيث إن لكل بناء ونظام أساساً فإن أساس الكلمات الأربع هو الحمد بحسب ما بيناه في المباحث السابقة.

أما التسييح والتهليل والتكبير فتعود إلى الحمد؛ لأنه مجمع الفضائل والفواضل، فكل كمال وجلال يعود إليه، وإليه يشير قول الإمام الكاظم عليه السلام: ﴿واستخلصت الحمد لنفسك، وجعلت الحمد من خاصتك، ورضيت بالحمد من عبادك، وفتحت بالحمد كتابك، وختمت بالحمد قضاءك، ولم يعدل إلى غيرك، ولم يقصر الحمد دونك، فلا مدفع للحمد عنك، ولا مستقر للحمد إلا عندك، ولا ينبغي الحمد إلا لك﴾^(١).

ولعل المراد بختمت بالحمد قضاءك الإشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٢) إذ يقال ذلك بعد أن يتميز أهل الجنة وأهل النار وكل منهما يساق إلى مصيره، فيقول أهل الجنة: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَّبِعُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾^(٣) وهي الكلمة الوحيدة التي تلازم العباد ولا تفارقهم، ويأخذونها معهم في زمان الظهور المبارك فإن آخر كلام المؤمنين الموالين بعد

(١) مصباح المتجهج: ص ٤٩٢، ح ٥٧٩؛ البلد الأمين: ص ٨٤؛ البحار: ج ٨٧، ص

١٢٩ - ١٣٠، ح ١.

(٢) سورة الزمر: الآية ٧٥.

(٣) سورة الزمر: الآية ٧٤.

اجتثاث الظلم والفساد ونشر العدل والقسط في دولة ولي الزمان وإمامه هو ما ورد في دعاء النذبة الشريف: ﴿متى ترانا ونراك وقد نشرت لواء النصر؟ ترى أترانا نحف بك وأنت تؤمّ الملاء وقد ملأت الأرض عدلاً، وأذقت أعداءك هواناً وعقاباً، وأبرت العتاة وجحدة الحق، وقطعت دابر المتكبرين، واجتثت أصول الظالمين، ونحن نقول الحمد لله رب العالمين﴾^(١).

وكذلك في الآخرة فإنّ كلام أهل الدنيا ينقطع بزوالها، فإذا دخلوا في عالم الآخرة تغيّر كلامهم في أصل اللغة، فإنّ لغة أهل الجنة العربية من أي قومية كانوا في الدنيا، وتنقطع عنهم أذكارهم وأورادهم وعباداتهم التي كانوا يقومون بها في الدنيا إلّا الحمد، بل هي آخر ما يقولونه بعد ختام الحساب والجزاء، وهو ما أشار إليه رسول الله ﷺ بقوله: ﴿الحمد لله الكلمة التي يقولها أهل الجنة إذا دخلوها، وينقطع الكلام الذي يقولونه في الدنيا ما خلا الحمد لله، وذلك قوله عز وجل: ﴿وَأَخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٢)﴾^(٣).

الصلاة على محمد وآله ﷺ مبدأ الأمور وختامها

وقد عرفت أنّ أعلى الحمد هو الصلاة على محمد وآل محمد ﷺ، ومقتضى الجمع بينه وبين نصّ الآية والروايات المتقدمة يستفاد أنّ الصلاة

(١) المزار (لابن المشهدي): ص ٥٨٢؛ مصباح الزائر: ص ٤٥٢.

(٢) سورة يونس: الآية ١٠.

(٣) الأمالي (للصدوق): ص ٢٥٥، ح ٢٧٩؛ الاختصاص: ص ٣٤؛ البحار: ج ٩٠،

ص ١٦٧، ح ١.

على محمد وآله هي ركن الإسلام، وأنها آخر دعوى أهل الجنة، وهو ما يقضي به النقل والعقل من وجوه:

الأول: لأنّ الباري عزّ وجلّ وملائكته يصلّون عليهم، وأمر العباد بالصلاة عليهم دائماً وأبداً كما تفيد صيغة المضارع في قوله: ﴿يصلون على النبي﴾ ولم يرتض إيمان المؤمن ولا عبادته إلّا بالاعتقاد بهم والولاية لهم والأخذ عنهم.

الثاني: لأنّهم الوسطة التي بها أفاض الباري خيره على خلقه، وبه علّمهم وربّاهم وهداهم إلى مصالحهم، وبشفاعتهم أدخلهم الجنة، ومقتضى شكر النعمة أن يختتم أهل الجنة ذكرهم بالصلاة عليهم.

والثالث: لتضافر الأدلة على أنّ الصلاة على محمد وآله هي الذكر الجامع لسائر الأذكار بما فيها التسيّحات الأربع ومنها الحمد، وأنها أفضل الأعمال، ولا يعطى للعبد في دعائه شيء أفضل ممّا يعطاه على الصلاة على محمد وآله كما في الكافي عن الصادق عليه السلام^(١).

والرابع: أنّ قوله تعالى: ﴿وَأَخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أشار إلى أنّ قول أهل الجنة هو دعاء منهم وذكر، وقد تضافر في الأدلة أنّ كل دعاء محبوب حتى يصلّي على محمد وآله^(٢)، وهو جزء شكر الباري عزّ

(١) الكافي: ج ٢، ص ٤٩٤، ح ١٧؛ وانظر ثواب الأعمال: ص ١٥٥؛ البحار: ج ٩١، ص ٥٧، ح ٣٤.

(٢) الكافي: ج ٢، ص ٣٥٦، ح ١؛ الأملاني (للطوسي): ص ٦٦٢، ح ١٣٧٩؛ ثواب
←

وجلّ لمقاماتهم ومجاهداتهم وما قدموه لهداية خلقه.

وعن الرضا عليه السلام عن آبائه عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: ﴿قال رسول الله صلى الله عليه وآله من كان آخر كلامه الصلاة عليّ وعلى علي دخل الجنة﴾^(١).

والجمع بينها وبين الآية أنّ آخر كلام أهل الجنة وآخر دعواهم هو الصلاة على محمد وعلى علي أمير المؤمنين عليهما السلام، ويعززه النبوي الشريف: ﴿أكثرُوا الصلاة عليّ، فإنّ الصلاة عليّ نور في القبر، ونور على الصراط، ونور في الجنة﴾^(٢).

وفي الكافي عن الإمام الرضا عليه السلام. قال لرجل: ما معنى قوله تعالى: ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾^(٣) قال: كلما ذكر اسم ربّه قام فصلّي، فقال لي عليه السلام: ﴿لقد كلّف الله عزّ وجلّ هذا شططاً﴾ أي التكليف بغير المقدور؛ لأنّ العبد قد يذكر ربه في كل لحظة، وهو مأخوذ من شطّ أي أفرط في البعد، والمراد هنا التكليف البعيد عن القدرة^(٤) قال: ﴿فكيف هو؟ فقال: كلما ذكر اسم ربّه صلّي على محمد وآله﴾^(٥) وإطلاقه يشمل الدنيا والآخرة.

→

الأعمال: ص ١٥٥؛ سفينة البحار: ج ٣، ص ٥٠، ح ٣٤٤٠.

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج ١، ص ٦٩، ح ٢٧٣؛ الوسائل: ج ٧، الباب ٣٨ من أبواب الذكر، ص ١٩٩، ح ٩١٠٧.

(٢) مستدرک الوسائل: ج ٥، ص ٣٣٢، ح ٦٠١٧؛ البحار: ج ٧٩، ص ٦٤، ح ٨.

(٣) سورة الأعلى: الآية ١٥.

(٤) معجم مقاييس اللغة: ص ٤٩٦، (شط).

(٥) الكافي: ج ٢، ص ٤٩٤، ح ١٨؛ جامع أحاديث الشيعة: ج ٥، ص ١١٣، ح ٢٥٣٥.

هم أساس التكوين والتشريع

ويتحصل من كل ما تقدم: أنَّ نظام التكوين والتشريع يقوم على الحمد، وأساس الحمد الصلاة على محمد وآل محمد، ولما كان مفتتح الخلق الحمد لكمال الخالق وجلاله، ومفتتح الكتاب العزيز الحمد، وختم الدنيا الحمد، وأنَّ حمده بالصلاة على محمد وآله يُعرف أنَّ الصلاة على محمد وآل محمد هي الركن الذي يقوم عليه العالم تكويناً وتشريعاً وعلماً ومعرفه، ولذا تواتر في النصوص أنَّ وليهم ولي الله، وعدوهم عدو الله، وطاعتهم طاعة الله، ولا ينال العباد لشيء عند الله كما ينالونه بولاية محمد وآل محمد وطاعتهم^(١).

(١) انظر الأمامي (للصدوق): ص ٤١٩، ح ٥٥٧؛ التوحيد: ص ٨٢، ح ٣٧.

الفهرس

١	ما يقوله القرآن في سورة الحمد (الفاتحة).....
١١	سورة الحمد وأسرارها المعنوية.....
١٥	المبحث الأول: في فضل سورة الحمد وآثارها المعنوية.....
١٧	فاتحة القرآن وجامعته.....
١٨	معنى العرش الإلهي.....
١٩	شرف النبي ﷺ.....
٢٠	أم الكتب السماوية.....
٢١	المبحث الثاني: مزايا سورة الحمد.....
٢١	أنها قرآن ودعاء.....
٢٢	تعليم لأهل القلوب.....
٢٢	اشتراك العباد بها.....
٢٤	أنها جمعت أصول الدين.....
٢٧	أصول الدين في الفاتحة.....
٢٩	الربوبية والعبودية في السورة.....
٣٢	مزايا المصلين بقراءة السورة.....
٣٢	الفاتحة وتوحيد الربوبية والعبودية.....
٣٥	المبحث الثالث: في أسماء السورة وآثارها المعنوية.....
٣٥	الحمد الربوبي.....
٣٦	بين الحمد والشكر.....

٣٧	تطابق التكوين والتشريع
٣٨	معنى فاتحة الكتاب.....
٣٩	فتح البصر والبصيرة
٤١	معنى فتح الكتاب.....
٤٢	تفاسير أخرى ضعيفة
٤٣	الجمع بين الحمد والعلق في النزول
٤٤	من جمع القرآن؟.....
٤٤	دلائل الجمع الإلهي للقرآن.....
٤٧	الدليل العقلي على الجمع الدلالي.....
٤٧	ما فعله عمر وعثمان في القرآن
٤٨	قرآن علي عليه السلام.....
٥١	لماذا أخفى علي عليه السلام القرآن؟.....
٥٢	الحمد والقرآن وعلي عليه السلام.....
٥٢	معنى أم الكتاب.....
٥٢	معنى النبي الأُمِّي
٥٣	الحمد مفتاح الاسم الأعظم.....
٥٤	شروط تأثير السورة.....
٥٤	الحمد والإمام عليه السلام.....
٥٦	أمير المؤمنين عليه السلام قلب سورة الحمد.....
٥٩	أمير المؤمنين أم سورة الحمد.....
٦٠	أم الكتاب وفاطمة عليها السلام.....

لماذا سميت بأمر القرآن؟	٦١
علوم القرآن ثلاثة.....	٦٢
لماذا سمي القرآن؟	٦٤
السبع المثاني تكويناً وتشريعاً.....	٦٥
أثر السبعة في الخلق.....	٦٦
ما معنى المثاني؟	٦٨
التثنية العديدة.....	٧٠
سر نزول الحمد مرتين.....	٧٠
أهميتها في الصلوات.....	٧١
مثنى الكتاب وإعجازه.....	٧٢
قول المفسرين في المثاني.....	٧٤
مثاني الربوبية والعبودية.....	٧٥
تجدد فوائدها.....	٧٦
المثاني والتوراة.....	٧٦
مثاني القرآن والعترة عليه السلام	٧٧
السبع المثاني وأقسام الثناء.....	٧٨
مراتب الثناء.....	٧٩
أسماء الله توقيفية.....	٨٠
آل محمد عليه السلام مجمع الثناء.....	٨١
المثاني والأئمة السبعة عليهم السلام	٨٢
مراتب نزول القرآن.....	٨٤

- ٨٥ هم ﷺ خلاصة الحمد.
- ٨٥ المعصومون والقرآن العظيم.
- ٨٥ الأئمة ﷺ الذين دار عليهم الفلك.
- ٨٧ الأئمة ﷺ مدار الفلك.
- ٨٨ الآثار التكوينية لأسمائهم ﷺ.
- ٨٩ أثر اسم فاطمة عليها السلام.
- ٩٠ التبرك باسمها عليها السلام.
- ٩٠ الأئمة ﷺ الذين هم مدار العلم.
- ٩١ الأئمة ﷺ وفلك الأحداث السياسية.
- ٩٢ المأمون يعد لمناظرة الرضا عليه السلام.
- ٩٣ المثاني والاصطفاء الإلهي لآل محمد ﷺ.
- ٩٤ السورة الشافية.
- ٩٦ شفاء الأمراض بالسورة.
- ٩٧ أنحاء الشفاء بسورة الحمد.
- ٩٨ القدماء ماتوا بالآجال لا بالأمراض.
- ٩٩ سبب استحداث الأمراض.
- ١٠٠ الذنوب التي لا تغتفر.
- ١٠٣ كيف تتخلص من مشاكل الحياة؟.
- ١٠٤ أساس القرآن.
- ١٠٥ هي الكنز الإلهي.
- ١٠٦ علامة الغافلين.

مراقبة الضمير	١٠٧
الآباء يورثون أبناءهم خيراً وشرّاً	١٠٨
وراثه الأفعال والآثار	١٠٨
للمحاسن ثوابان وللمساوئ ثلاثة	١٠٩
أشرف كنوز العرش	١١٠
محمد وآل محمد ﷺ أشرف الكنوز	١١٠
الكافية عن الأعمال	١١١
آيات العرش الإلهي	١١٢
علو سورة الحمد	١١٢
الإمام عين الله الناظرة	١١٣
الحاجات المعنوية	١١٤
الحمد والصلاة	١١٥
أسماء أخرى للسورة	١١٦
المبحث الرابع: في فضائل السورة وآثارها	١١٧
تفاضل السور القرآنية	١١٨
في المعاني والآثار	١١٩
أفضلية الأنبياء على بعضهم	١١٩
أقسام التفضيل	١٢٠
معايير التفضيل بين الآيات والسور	١٢١
التحقيق في أسباب التفضيل	١٢٤
آثار وجود العالم	١٢٥

- أثر العالم بين الناس..... ١٢٦
- الحذر من الدعاية ضد العلماء الربانيين..... ١٢٧
- فضائل سورة الحمد..... ١٢٨
- الفضيلة الأولى: لقراءة الحمد وسماؤها..... ١٢٨
- الحمد تعوض عن الصدقة..... ١٣٠
- النبي المصطفى ﷺ والسبع المثاني..... ١٣٣
- شروط تأثير السورة..... ١٣٤
- أركان الانقياد القلبي لآل محمد ﷺ..... ١٣٥
- العطاء الإلهي على قدر المعرفة..... ١٣٦
- سر صلاة الفجر..... ١٣٧
- الفضيلة الثانية: أثرها في كسب العنايات والألطف الإلهية ١٣٨
- تعدد النزول..... ١٣٩
- الجنة والآثار الدنيوية..... ١٤٢
- قضاء الحوائج بالحمد..... ١٤٤
- الفضيلة الثالثة: أن بها محاربة إبليس..... ١٤٤
- الوقاية والعلاج..... ١٤٥
- بهم تزال العظام..... ١٤٧
- الفضيلة الرابعة: معالجة الأمراض والآفات..... ١٤٩
- شروط العلاج..... ١٤٩
- سر العلاج بها..... ١٥١
- الحجاب الشرعي..... ١٥٢

الفهرس ٥١٩

- ١٥٣.....العافية والشفاء
- ١٥٤.....الأسباب الغيبية للعلاج
- ١٥٤.....الفضيلة الخامسة: إحياء الموتى
- ١٥٦.....أنواع الإحياء
- ١٥٩.....المبحث الخامس: في لطائف السورة
- ١٥٩.....أهم مقاصد السورة
- ١٥٩.....اللطيفة الأولى: الإكمال المعنوي
- ١٥٩.....أركان الكمال الإنساني
- ١٦٠.....اللطيفة الثانية: أصول العبودية وكمالها
- ١٦١.....أصول التزكية بالله تعالى
- ١٦٢.....الاهتداء بالله تعالى
- ١٦٣.....وجوب القدوة والافتداء
- ١٦٤.....تجب البراءة من ثلاثة
- ١٦٥.....اللطيفة الثالثة: الخيرات حدوثاً وبقاءً من الله تعالى
- ١٦٦.....صفات الربوبية والعبودية
- ١٦٦.....اللطيفة الرابعة: لأهل المقامات المعنوية
- ١٦٧.....لماذا جعل المعصوم واسطة؟
- ١٦٨.....مراتب الاتصال بالخالق عز وجل
- ١٦٩.....اللطيفة الخامسة: إشارات لأهل الاستدلال والنظر
- ١٦٩.....لماذا اختص بالحمد؟
- ١٧٠.....اللطيفة السادسة: إشارات لأهل الذكر والعبادة

المبحث السادس: في تعاليم السورة.....	١٧٣
التعليم الأول: بالحمد والشكر تدوم النعم.....	١٧٣
التعليم الثاني: البركة باسم الله تعالى.....	١٧٣
التعليم الثالث: أربع قواعد للعلماء والأدباء.....	١٧٥
التعليم الرابع: أسلوب الكلام مع الله تعالى.....	١٧٧
وجوب سورة الحمد في الصلاة.....	١٧٨
بين الإثبات والنفي.....	١٨٠
المبحث السابع: الاستعاذة مفهومها ودلائلها.....	١٨١
أولاً: في معناها وغاياتها.....	١٨٢
تأثير الشيطان.....	١٨٤
مواطن نفوذ الشيطان.....	١٨٥
جهات الشيطان الأربع.....	١٨٥
منافذ الشيطان في البشر.....	١٨٦
نهج الشيطان ونهج الرحمن.....	١٨٦
غاية الأمر بالاستعاذة.....	١٨٧
قارئ القرآن كلیم الله.....	١٨٧
ثانياً: مفردات الاستعاذة.....	١٩٠
معنى العوذ.....	١٩٠
الاستعاذة بالله.....	١٩١
غاية الاستعاذة.....	١٩٢
ما معنى الشيطان؟.....	١٩٢

١٩٣.....	صفات الشيطان
١٩٥.....	حقيقة الشياطين
١٩٦.....	معنى رجيم
١٩٦.....	موارد رجم الشيطان
١٩٨.....	أخبث الشياطين
١٩٨.....	محاورة النبي ﷺ لإبليس وإقراره
٢٠٠.....	ثالثاً: لطائف الاستعاذة
٢٠٠.....	اللطيفة الأولى: الاستعاذة وطهارة القلب
٢٠١.....	ركنا الاستعاذة
٢٠٢.....	التخلية قبل التحلية
٢٠٣.....	مفاتيح القلوب النيرة
٢٠٤.....	الولوج لنور القرآن
٢٠٥.....	اللطيفة الثانية: صيغ الاستعاذة
٢٠٦.....	سر الاستعاذة بلفظ الجلالة
٢٠٧.....	اللطيفة الثالثة: العوذ واللوذ
٢٠٩.....	اللطيفة الرابعة: أقسام الاستعاذة
٢١٠.....	اللطيفة الخامسة: سر تقديم الفعل على الاسم
٢١١.....	رابعاً: تعاليم الاستعاذة
٢١١.....	التعليم الأول: طريقان للتخلص من الشيطان
٢١٣.....	سر الوسوسة والنجاة منها
٢١٥.....	العصية والنزاع سلاح الشيطان

- طريقان لطرد شيطان الغضب ٢١٦
- كيف يخترق الشيطان بني آدم؟ ٢١٧
- معالجات الغضب ٢١٨
- إلفات لأهل القلوب ٢١٨
- التعليم الثاني: كيف نساعد الشيطان على أنفسنا؟ ٢١٩
- أشكال الشيطان ٢٢٠
- خداع شياطين الإنس ٢٢١
- تشويه الفضائل وتجميل للمساوئ ٢٢٢
- هيمنة الشيطنة ٢٢٢
- إبليس يخادع الأنبياء ٢٢٣
- إبليس يكافئ نوحاً عليه السلام ٢٢٤
- ويغالط موسى عليه السلام ٢٢٤
- التبرير والمغالطة أسلوب الأبالسة ٢٢٥
- مغالطات النهج الشيطاني المعاصر ٢٢٦
- الشيطنة السياسية ٢٢٦
- مداخل الشيطان ٢٢٧
- التعليم الثالث: قاعدة النجاح ٢٢٨
- منهج الإمام المهدي عليه السلام ٢٢٩
- النجاح في العلاقات الاجتماعية ٢٣٠
- التعليم الرابع: معالجة الأمراض النفسية ٢٣٠
- الطرق الروحية للخلاص من الشيطان ٢٣٢

الفهرس ٥٢٣

- التعليم الخامس: هل المعصوم يستعين من الشيطان؟ ٢٣٣
- يستعين لتعليم الناس ٢٣٥
- التعليم السادس: فروع الاستعاذة الفقهية ٢٣٦
- البسملة روح القرآن العظيم ٢٣٩
- الآية الأولى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ٢٣٩
- المبحث الأول: في فضائل البسملة ٢٤٣
- أولاً: فضائلها الدنيوية ٢٤٣
- مفتاح الخزائن الإلهية ٢٤٣
- معنى أكرم آية ٢٤٤
- خصائص القرآن والبسملة المعنوية ٢٤٤
- التحصين من الأعداء ٢٤٥
- التحصن بها من السلاطين ٢٤٧
- ثانياً: فضائلها المعنوية ٢٤٨
- أثر البسملة على الصراط ٢٥٠
- أثر التعليم المعنوي ٢٥٢
- كرامة الجنة ٢٥٣
- عطايا لا تدركها العقول ٢٥٣
- مقام فاطمة عليها السلام ٢٥٤
- سر لأهل البصيرة ٢٥٥
- المبحث الثاني: في مفردات البسملة ودلائلها ٢٥٧
- لماذا الاستعاذة بالاسم؟ ٢٥٧

- لماذا الدعاء باسم الله تعالى؟..... ٢٥٩
- أنواع الاسم..... ٢٦٠
- علي الأكبر ورسول الله ﷺ..... ٢٦١
- الاستعانة بالله وبآل محمد ﷺ..... ٢٦١
- معنى الاسم وعبادته..... ٢٦٣
- حقيقة الإيمان..... ٢٦٥
- مراتب المعنى..... ٢٦٥
- مراتب أسماء الله تعالى..... ٢٦٦
- حقيقة الاسم الأعظم..... ٢٦٦
- التسبيح بالاسم العيني..... ٢٦٧
- آثار حروف الاسم..... ٢٦٨
- هل للحروف معنى؟..... ٢٦٨
- دلالة الحروف على الصفات..... ٢٧٠
- البسملة والاسم الأعظم..... ٢٧١
- آل محمد ﷺ والاسم الأعظم..... ٢٧٢
- حقيقة الاسم والمسمى..... ٢٧٣
- مراتب اسم الله وخصائصها..... ٢٧٣
- توقيفية الأسماء الإلهية..... ٢٧٤
- معرفة الأسماء بالطريق النقلی..... ٢٧٥
- هل الأسماء طويلة أم عرضية؟..... ٢٧٧
- تداخل الأسماء الإلهية..... ٢٧٧

٢٧٨.....	مراتب الأسماء الإلهية
٢٨٠.....	أثر الاسم الأعظم
٢٨١.....	الاسم الجامع للأسماء
٢٨٢.....	معنى أنهم الاسم الأعظم
٢٨٣.....	رحمة الخالق والمخلوق
٢٨٤.....	آل محمد ﷺ الرحمة الواسعة
٢٨٦.....	بالحب والرحمة قامت الأشياء
٢٨٧.....	الحب سبب الخلق
٢٨٧.....	مفهوم الرحمة والحب
٢٨٩.....	سر التكرار في القرآن
٢٨٩.....	أنحاء التكرار
٢٩٠.....	دفع إشكال اللغوية
٢٩٢.....	حسن التكرار وجماله
٢٩٣.....	دواعي البيان القرآني
٢٩٤.....	غايات الآيات
٢٩٥.....	أوصاف الخطاب القرآني
٢٩٦.....	لماذا تكررت البسملة في السور؟
٢٩٧.....	البسملة ونفور الكفار
٢٩٧.....	استحباب البسملة
٢٩٩.....	المبحث الثالث: في لطائف الآية المباركة
٢٩٩.....	اللطيفة الأولى: أثر الاستعانة وموانعها

- موانع الأعمال..... ٢٩٩
- سبب كثرة الطلاق..... ٣٠١
- أطلب حتى ملح طعامك..... ٣٠٢
- لطائف اسم الجلالة..... ٣٠٢
- اللطيفة الثانية: غاية التخفيف في البسملة..... ٣٠٣
- اللطيفة الثالثة: تصحيح الأساليب الخاطئة..... ٣٠٥
- كل ما في القرآن إلهي..... ٣٠٥
- اللطيفة الرابعة: أصالة الرحمة في السنن..... ٣٠٦
- خُلِقَ الناس للرحمة..... ٣٠٧
- صرامة العقاب لماذا؟..... ٣٠٧
- شعار الرحمة وغايته..... ٣٠٩
- اللطيفة الخامسة: لطف الأسماء في البسملة..... ٣١٠
- أثر الأسماء الحسنة..... ٣١١
- دلائل الأسماء في البسملة..... ٣١١
- خصائص اسم الجلالة..... ٣١٢
- عقل الموجودات وعبوديتها..... ٣١٤
- إيمان الموجودات بالنبي والإمام عليهما السلام..... ٣١٥
- العبودية والربوبية باسم الله..... ٣١٥
- قصور المخلوق..... ٣١٦
- الأسماء الجامعة لكل الأسماء..... ٣١٧
- المبحث الرابع: في تعاليم الآية المباركة..... ٣١٩

أولاً: التعاليم العامة.....	٣١٩
التعليم الأول: فوائد الابتداء بالبسملة.....	٣١٩
العبادة بالأسماء الشريفة.....	٣٢٠
ملاكات وضع الأسماء.....	٣٢١
مزايا التسمية بالأسماء المقدسة.....	٣٢٢
خواص الأسماء وآثارها.....	٣٢٣
بركة الأسماء الإلهية.....	٣٢٤
شرطان لتأثير الدعاء.....	٣٢٥
تطابق المصلحة الشخصية والنوعية.....	٣٢٦
التوسل بدعاء القلب.....	٣٢٧
لماذا يدعون ولا يستجاب لهم؟.....	٣٢٨
دلائل الحديث الشريف.....	٣٣٠
التعليم الثاني: الإنسان السماوي والأرضي.....	٣٣١
خصائص الإنسان الأرضي.....	٣٣٢
خيبة أهل الدنيا.....	٣٣٣
مزايا الإنسان السماوي.....	٣٣٤
القيمة الحقيقية للمال والولد.....	٣٣٥
منطلقات الإنسان السماوي.....	٣٣٥
مصير الإنسان الأرضي.....	٣٣٦
دلائل الحديث.....	٣٣٧
التعليم الثالث: الله تعالى نور الوجود والقلوب.....	٣٣٨

الهويات بالكلمات لا بالأنساب والأحساب.....	٣٣٩
ثانياً: التعاليم الفقهية.....	٣٤١
التعليم الأول: البسملة والقرآن.....	٣٤١
قول الإمامية في البسملة.....	٣٤١
البسملة جزء في كل سورة.....	٣٤٤
لها معنى في كل سورة.....	٣٤٥
الإجماع على الجزئية.....	٣٤٥
حكم العقل بالجزئية.....	٣٤٧
قول العامة في البسملة.....	٣٤٨
دليل عدم الجزئية.....	٣٤٩
بطلان الدليل.....	٣٤٩
الروايات النافية لجزئية البسملة.....	٣٥١
مناقشة رواية أبي هريرة.....	٣٥١
القصور الذاتي في الرواية.....	٣٥٣
وجوه استحسانية للنفي.....	٣٥٤
البسملة وترقيم الآيات.....	٣٥٥
لزوم الترقيم بالبسملة.....	٣٥٦
حذفوا البسملة لمخالفة علي والعترة عليه السلام	٣٥٦
الدواعي السياسية للحذف.....	٣٥٨
حزب الكذابة الأموي.....	٣٦٠
فتاوى الهوى.....	٣٦١

إخفاء البسملة	٣٦١
إخفاء التلبية	٣٦١
مخالفات أبي حنيفة	٣٦٢
إقرار عبد العزيز ومعاوية ومروان	٣٦٢
التعليم الثاني: استحباب الابتداء والجهر بالبسملة	٣٦٤
الحمد والعبودية	٣٦٥
الآية الثانية: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾	٣٦٥
المبحث الأول: في دلالة السياق	٣٦٩
دلائل افتتاح الكتاب بالحمد	٣٦٩
الافتتاح بالحمد العام	٣٧٠
الوجوب الفطري والعقلي	٣٧٣
بالبسملة والحمد تدوم النعم	٣٧٤
الافتتاح باسم الله لا باسم الشعب	٣٧٥
ما معنى باسم الشعب؟	٣٧٥
إشكال جوهرى على الديمقراطية	٣٧٦
شرعية الحكم من الله تعالى	٣٧٦
إشكال جوهرى ثان على الديمقراطية	٣٧٧
تطابق الحمد والبسملة في الأثر	٣٧٨
الجمع بين الأقطع والأبتر	٣٧٨
التكامل بين البسملة والحمد	٣٧٩
المبحث الثاني: في مفردات الآية المباركة	٣٨١

..... ٥٣٠ مايقوله القرآن في سورة الحمد

دلائل الحمد وآثاره..... ٣٨١

المفردة الأولى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾..... ٣٨١

معنى الحمد والثناء..... ٣٨١

لماذا لا يستحق الحمد إلا هو؟..... ٣٨٢

لا يليق الحمد إلا له..... ٣٨٣

ما معنى (الله)؟..... ٣٨٣

المفردة الثانية: ﴿الله﴾..... ٣٨٣

معنى لفظ الجلالة..... ٣٨٤

معنى حمد الباري لنفسه..... ٣٨٦

مزايا الحمد لله..... ٣٨٨

أنه المحسن بلا استحقاق..... ٣٨٩

الحمد الجامع للمحامد..... ٣٨٩

أقسام الحمد..... ٣٩٠

حمد الثناء والأقوال..... ٣٩٠

مفهوم الرب والنظام الربوي..... ٣٩١

المفردة الثالثة: ﴿رَبِّ﴾..... ٣٩١

أركان النظام الربوي..... ٣٩١

التحقيق في معنى الرب..... ٣٩٢

دلائل لفظ الرب..... ٣٩٤

خصائص اسم الرب..... ٣٩٥

الربوبية الجامعة..... ٣٩٦

- ٣٩٩..... ربوبية الأبدان والأرواح
- ٤٠١..... الربوبية الحقيقية.
- ٤٠١..... أنحاء الربوبية البشرية.
- ٤٠٢..... الألوهية وأنحاء الربوبية
- ٤٠٢..... الأول: ربوبية الخلق والإيجاد
- ٤٠٤..... حقيقة الاستنساخ.
- ٤٠٤..... الثاني: ربوبية النظم.
- ٤٠٤..... حقيقة الإنشاء وغايته
- ٤٠٥..... معنى (لا من شيء)
- ٤٠٥..... فرق الصنع الإلهي عن البشري
- ٤٠٦..... بين الاختراع والابتداع.
- ٤٠٧..... ربوبيته العلمية لأوليائه
- ٤٠٧..... الثالث: ربوبية العلم
- ٤١٠..... تربية الظاهر والباطن.
- ٤١٠..... الرابع: ربوبية التربية والتهذيب.
- ٤١٠..... مَنْ وهب الذكاء؟
- ٤١١..... الخامس: ربوبية المقام والرتبة.
- ٤١٣..... فضلهم وفضل شيعتهم
- ٤١٣..... الربوبية والجبر.
- ٤١٤..... ربوبية الله وربوبية البشر.
- ٤١٥..... أموال الوليد بن المغيرة.

٤١٧.....	الربوبية والخلق
٤١٧.....	الربوبية والإحياء
٤١٩.....	خصائص الرزق الإلهي
٤١٩.....	أثر الإيمان في الرزق
٤٢٠.....	الربوبية المعاصرة للمال والسلطة
٤٢١.....	السياسة الخبيثة للغرب
٤٢٣.....	ربوبية المال والسلطة
٤٢٤.....	كيف يحاربون الدين؟
٤٢٦.....	لماذا يخالفون المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف؟
٤٢٧.....	ربوبية العوالم
٤٢٧.....	المفردة الرابعة: ﴿العالمين﴾
٤٢٧.....	مزايا لفظ العالمين
٤٢٧.....	اشتقاق العالمين
٤٢٨.....	الأقوال في العالمين
٤٢٩.....	عوالم الجن والإنس
٤٣٠.....	عوالم العقلاء
٤٣١.....	عوالم الخلائق الحيّة
٤٣١.....	عوالم الموجودات
٤٣٢.....	عوالم أهل الزمان
٤٣٢.....	عوالم العلماء
٤٣٣.....	عوالم المخلوقات أجمع

٤٣٣.....	القول الجامع للأقوال
٤٣٤.....	أدلة القول بكل العوالم
٤٣٦.....	كل مخلوق حي
٤٣٦.....	خلاصة الأدلة
٤٣٧.....	لماذا (بالعالمين) دون (العالم)؟
٤٣٨.....	عقائد القدماء
٤٣٨.....	آلاف الآلهة
٤٣٩.....	الآلهة المعاصرة
٤٣٩.....	ربوبية الفساد
٤٤٠.....	التحذير من الدمار القادم
٤٤٢.....	ربوبية الآلام والمصائب
٤٤٣.....	تجدد العوالم
٤٤٤.....	العوالم الطولية والعرضية
٤٤٧.....	المبحث الثالث: لطائف الآية المباركة
٤٤٧.....	اللطيفة الأولى: هل (الحمد لله) إخبار أم إنشاء؟
٤٤٧.....	بطلان قول العامة
٤٤٨.....	أدلة الإنشائية
٤٥٠.....	غايات النصوص الشرعية
٤٥٢.....	دليل الإخبار والإنشاء
٤٥٣.....	اللطيفة الثانية: خصوصية ورود الحمد بالجملة الإسمية
٤٥٤.....	الربوبية الشاملة

٤٥٦.....	اللطيفة الثالثة: مزايا مفردة الحمد
٤٥٨.....	مراتب الشكر
٤٥٩.....	ما معنى شكر العمل؟
٤٦٠.....	لماذا لم يصف آل محمد بالشاكرين؟
٤٦٢.....	بين الشكر والحمد
٤٦٤.....	اللطيفة الرابعة: كل شيء يسبح بحمده
٤٦٥.....	تسبيح المخلوقات
٤٦٧.....	معنى التسبيح
٤٦٨.....	المخلوق دليل الخالق
٤٦٩.....	الإلحاد خروج عن الفطرة
٤٦٩.....	اللطيفة الخامسة: الحمد والتسبيح بالحمد
٤٧١.....	موردان للتسبيح بالحمد
٤٧٣.....	التنزه من الحدود
٤٧٤.....	اللطيفة السادسة: الابتداء والاستعانة بالله تعالى
٤٧٥.....	الفعل الإلهي توسيطي
٤٧٥.....	علاقة الصعود والنزول
٤٧٦.....	وسيلة آل محمد ﷺ
٤٧٨.....	اللطيفة السابعة: مراتب الحقائق المعنوية
٤٧٨.....	رسول الله ﷺ وذكر الله
٤٧٩.....	الحمد الكامل رسول الله ﷺ
٤٨٠.....	إنه العقل الكامل

- ٤٨٠ الحمد أول النطق
- ٤٨٠ تفرد سبحانه بالكمالات
- ٤٨٠ كمالات النبي ﷺ
- ٤٨١ حقيقة زهد النبي ﷺ
- ٤٨٣ عفوه ونزاهته
- ٤٨٥ رسول الله العقل الكامل
- ٤٨٦ رسول الله ﷺ المحمود
- ٤٨٧ بين أحمد ومحمد ﷺ
- ٤٨٨ رسول الله ﷺ مدار التكوين والتشريع
- ٤٩٠ اللطيفة الثامنة: الحمد على نعمة الولاية
- ٤٩٠ ما معنى كمال النعمة وتمامها؟
- ٤٩٢ الولاية أعظم نعمة تشريفية
- ٤٩٤ أعظم الحمد على أعظم نعمة
- ٤٩٥ نتائج هامة
- ٤٩٥ اللطيفة التاسعة: آثار الصلاة على محمد وآل محمد ﷺ
- ٤٩٧ لا تصل الصلاة الرمزية
- ٤٩٨ الآثار الغيبية للصلاة عليهم
- ٤٩٩ فوائد الصلاة على محمد وآله ﷺ
- ٥٠١ هل الصلاة على آل محمد ﷺ تنفعهم؟
- ٥٠٣ شواهد انتفاعهم بالصلاة عليهم
- ٥٠٥ اللطيفة العاشرة: روح الأذكار وجوهرها

٥٣٦ مايقوله القرآن في سورة الحمد

٥٠٨ الصلاة على محمد وآله عليه السلام مبدأ الأمور وختامها

٥١١ هم أساس التكوين والتشريع

٥١٣ الفهرس